



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

٢٠١٩

الشعر في المدينة في القرن الثاني عشر الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

إعداد الطالب

محمد بن راضي الشريف

الرقم الجامعي ١ - ٨٠٦٨ - ٤١٥

إشراف الدكتور

حبيب حنش حمدان الزهراني

٢٠١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في فترة هامة من تاريخ الأدب الوسيط ، تقع قبيل العصر الحديث ، فتتناول الشعر في المدينة في القرن الثاني عشر ؛ لتمحيصه والوقوف على نماذجه في مظاهرها ، والكشف عن مستواه الفني ، بعد إيفائه حقه من الدراسة الفنية المتعمقة ، التي تجلي هذا الشعر الذي أنتجه شعراء هذه المنطقة ذات المكانة والخصوصية الدينية والتاريخية .

تنقسم الرسالة إلى باين يتصدرهما تمهيد ، يتحدث التمهيد عن الحياة والأدب في هذه الفترة ، حيث الحديث عن الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية ، والتي تنعكس جلية في هذا الشعر، ثم يختتم التمهيد بالحديث عن رواج الشعر وأسبابه في هذه الفترة .

الباب الأول : ينقسم إلى فصول ، يختص كل فصل بغرض معين من أغراض الشعر ، وقد حرصت على أن أورد قدرأ كافياً من النماذج الشعرية لصعوبة الاطلاع عليها في مصادرها .

الباب الثاني : خصص للدراسة الفنية ، وينقسم إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : يتناول ملامح ومميزات فنية ، فيتحدث عن نقد معاصري هذا الشعر له ، وصف مؤرخي الأدب لشعر هذه الفترة بالضعف ، ثم رأي دارسي الأدب حول كيفية التعامل مع مثل هذه النصوص ، ثم الحديث بعد ذلك عن المعارضات والتشطير والتخميس والتاريخ الشعري .

الفصل الثاني : يتحدث عن الخصائص المعنوية ، حيث يشمل الحديث عن ثقافة الشاعر واستلهامه للتراث وأصالته .

الفصل الثالث : يتحدث عن الخصائص الأسلوبية واللغوية ، من حيث بناء القصيدة ، والصورة ، والمحسنات البديعية ، واللغة ومستوياتها .

وأخيراً يتحدث الفصل الرابع عن الخصائص الموسيقية لهذا الشعر .

عميد كلية اللغة العربية

د. صالح جمال بدوي

المشرف

د. جبيب حنش الزهراني

الطالب

محمد بن راضي الشريف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين،
وعلى آله الغر الميامين، وعلى صحبه الطيبين الطاهرين، وبعد:

كان السبب في اختيار هذا الموضوع وقوعه في حقبة دامية من
تاريخ الأدب الوسيط، ولما لهذه الفترة من أهمية حيث أنها ليست
ببعيدة عما تعارف عليه مؤرخو الأدب بالعصر الحديث، حيث دخول
نابليون لمصر سنة ١٢١٣هـ، وما تبعها من تغيرات على مستويات
عدة، فكرية وسياسية تأثرت بها المدينة، ذات الاتصال المباشر بمصر
على وجه الخصوص وبجميع حواضر العالم الإسلامي.

كما أن لهذا القرن أهمية أخرى في تاريخ المنطقة ففي النصف الثاني
منه انطلقت دعوة الشيخ المجدد محمد عبدالوهاب مؤازرة ومدعومة
سياسياً بابن سعود في الدرعية، وقد كانت المدينة من أهم المراكز
العلمية التي حلّ بها الشيخ المجدد وأخذ عن علمائها ورأى فيها من
التجاوزات العقديّة ما كان ضمن الحوافز التي أدت به إلى إعلان دعوته.
هناك دراسات تناولت النتاج الشعري لشعراء هذه الفترة ركزت
على الشعر في الحواضر العربية والإسلامية الكبرى مثل مصر والشام،
وأصدرت بناءً على ذلك أحكاماً أدرج تحتها النقاد والمؤرخون للأدب
كل شعر ينتمي إلى هذه الفترة، وإن كان من خارج هذه البيئات التي
تناولتها هذه الدراسات.

اخترت دراسة الشعر في المدينة في هذا القرن لتمحيصه والوقوف على نماذجه في مظانها ؛ لرغبتي في الكشف عن مستواه الفني، ولكي يتم الحكم عليه بعد إيفائه حقه من الدراسة الموضوعية المتعمقة.

الصعوبات التي اعترضتني في درس الموضوع :

أ- جلّ المصادر مخطوطاً ، مما يحتاجُ الى جهدٍ ووقتٍ كبيرين لقراءتها، خصوصاً وأنّ هذه المخطوطات لم تسلم من أخطاء النساخ وتحريفاتهم، والتأثر بعوامل الزمن.

ب- الأحكام المقررة السابقة، وجلّها تصدر أحكاماً متشابهة على هذا العصر، وأنّه عصر ضعف فكري وأدبي، دون ارتكاز هذه الأحكام على نماذج من الشعر في المدينة في هذه الفترة للاستشهاد على هذه الأحكام؛ مما يجعلها أقرب إلى التعميم، وبذلك نفقد الاطمئنان إلى مصداقيتها، وبهذا فهي مما يربك الباحث ويجعله متردداً في إصدار حكمٍ جديدٍ يتعارضُ مع هذه الأحكام السائدة.

ج- كثرة من اشتملت عليهم هذه الحقبة من شعراء معظمهم مغمورون، وعلى الرغم مما في هذا مشقّة ومكابدة لكن لذة الكشف عن الجهول تبدد كثيراً من هذه المعاناة.

وقد توقفت طويلاً أمام الخطة التي أعرض به هذا الموضوع، وبعد تأمّلٍ طويلٍ للشعر مجال الدراسة تبدت لي صعوبة جمع وإيراد كلّ

أشعار هذه الحقبة، وكان أن توصلت إلى :

أ- اختيار نماذج شعرية لكل غرضٍ من الأغراض، بحيث تكون ممثلة للشعر الذي وصلنا مما قاله الشعراء في هذا الغرض، وتجنّب النماذج الغير لائقة أخلاقياً والضعيفة فنياً.

ب- الحرص على إيّرادٍ أكبرٍ قدرٍ ممكنٍ من هذه النماذج؛ ليتمكّن القارئ من الاطلاع عليها، حيث تبنى عليها الدراسة الفنية لهذا الشعر، كما أنه يصعب على القارئ الاطلاع على كثيرٍ من هذه النماذج، لكون جلّ مصادرها ما زالت مخطوطة، ويصعب الحصول على المطبوع منها.

ج- سأعرض نماذج لما قاله الشعراء في كلّ غرضٍ من أغراض الشعر التقليدية، وبعد ذلك أتناولها بالتحليل والدراسة لرصد الملامح والمميزات الفنية لها.

قسمت الرسالة إلى تمهيد وبابين :

التمهيد : وسأتحدث فيه عن الدراسات السابقة ، ثم عن الحياة والأدب في

القرن الثاني عشر ، وسيكون الحديث أولاً عن الحياة العامة ، وسيتناول :

أ- الناحية السياسية : سنتحدث فيها بصورة موجزة عن أحوال الدولة العثمانية وسنذكر السلاطين الذين جلسوا على العرش في هذا القرن، ثم سنتحدث عن أشرف مكة الذين يتم تعيينهم من الأستانة على ولاية الحجاز والذين لم يكن لهم الحرية المطلقة في الحكم حيث

يتم تعيين متقلدي بعض الوظائف الهامة من قبل السلطنة، وستعرض للآثار التي خلفتها هذه الازدواجية السياسية، والتي كان لها الدور الكبير في اضطراب الأحوال والتنازع على السلطة في حواضر الحجاز مكة والمدينة وجدة.

ب- الناحية الاجتماعية : وستحدث فيها عن الأجناس التي يتكون منها مجتمع المدينة، حيث ينتمون إلى مختلف البلاد الإسلامية بسبب الهجرة المستمرة إلى الحرمين، إلى جانب السكان الأصليين، كما ستحدث عن المعيشة وموارد رزق سكان المدينة، والمهن التي يزاولونها، كما ستحدث عن عادات أهل المدينة وتقاليدهم ، والتي ستكون متميزة عن غيرها من الأماكن بسبب المكان والسكان.

ج- الناحية العلمية : وسنرصد فيها الحركة العلمية في المدينة في هذا القرن، حيث توافد العلماء إليها من شتى الأقطار إلى جانب نشاط حركة التعليم ممثلة في الكتاتيب والزوايا وحلقات المساجد والمجالس العامة إلى جانب وجود المكتبات التي تزخر بالكتب المؤلفة في شتى العلوم والفنون.

د- الناحية الدينية : وستحدث فيها عن المذاهب الإسلامية المنتشرة في المدينة، وسنركز على التجاوزات الشرعية والعقدية لأنها تنعكس جلية في شعر هذا القرن، مما يستوجب علينا التنويه عن هذه التجاوزات وموقف الشرع منها.

وستحدث ثانياً وأخيراً في التمهيد عن رواج الشعر في المدينة في هذا القرن حيثُ سنذكرُ الأسباب التي أدت لتعاظم الإقبال عليه.

الباب الأول: خصصته لأغراض الشعر ، وسيكون الحديث عن كل غرض في فصل مستقل :

الفصل الأول)- الشعر الديني : ويشملُ الإلهيات والمدائح النبوية ومدائح الصحابة والشعر الذي قيلَ في حبِّ المدينة والحنينِ إليها .

الفصل الثاني)- المدح : ويشملُ المدائح التي قيلت في سلاطينِ آل عثمان والتي قيلت في مدحِ أمراء مكة ومدائح الولاة وأمراء الحج ومتقليدي الوظائف وشيخ قبيلة حرب وأمير ينبع.

الفصل الثالث)- الغزل : سنتحدثُ عن القصائد الغزلية المستقلة، والغزل الذي جاء مطلعاً لقصيدة سيراً على التقليد المعروف، كما سنتحدثُ عن الغزل بالمدح ونظم الشعراء فيه تقليداً لمن سبقهم.

الفصل الرابع)- الرثاء : وسنجدُ أنّ أغلبَ هذا الشعر هوَ مما قيلَ في رثاءِ العلماء، كما أنّ هناك رثاءً للأمراء والآباءِ والأبناءِ والأقاربِ والأصدقاء.

الفصل الخامس)- المطولات الشعرية: وهي القصائد التي تصف الفتن الواقعة في المدينة في هذا القرن، وسوف نستعرضُ نماذجَ من بعضِ هذه القصائد مع الحديثِ عن مدى انطباقِ اسم الملاحم على هذا الشعر .

الفصل السادس)- الاخوانيات : وسأورد فيه الشعر الذي تبادلته

الشعراء فيما بينهم ، وكان مبعثه اخوانيا .

الفصل السابع) - سيكون هذا الفصل ختاماً لهذا الباب ، وهو مخصص للحديث عن أغراض متفرقة، لم تكن النماذج الشعرية التي وصلتنا عن كل منها من الكثرة بحيثُ تفرّد في قسمٍ خاص، ومن هذه الأغراض شعرُ الوصفِ ، حيثُ وصف مظاهر الطبيعة، والمظاهر المادية، ثم سنتحدثُ عن شعرِ الهجاءِ والسخرية، ثم الشعر الذي قيلَ في الشكوى من الغربية والحنينِ إلى المدينة، والذي كان مبعثه حب المدينة الوطن، وأخيراً سأختمُ هذا المبحث بالشعر الذي قيلَ في الفكاهة ويكونُ ذلك نهاية النماذج الشعرية التي نستعرضُها.

الباب الثاني : (الدراسة الفنية)

الفصل الأول / ملامح ومميزات فنية :

أ- حول نقد هذا الشعر : وسأعرضُ فيه الآراءَ النقدية المختلفة ، حيث هناك آراءٌ لبعض شعراء المدينة، وهناك آراءٌ لبعض مؤرخي الأدب ووصفهم أدب هذا العصر وما حوله بالضعف والتدهور، ثم نختُم هذه الآراء برأي دارسي الأدب وناقديه حول طريقة التعامل مع هذه النصوص التي قيلت في عصرٍ غير عصرنا وملتقي ليس له مثل ذوقنا.

ب- وسأتحدثُ عن معارضة شعراء هذه الفترة للشعراء السابقين، ودلالة ذلك على تأثرهم الكبير بشعرهم.

ج- سأحدثُ عن التشطيرِ والتخميسِ مع إيرادِ أبياتِ تبارى شعراءِ القرنِ في تشطيرها أو تخميسها.

د- سأحتُمُ هذا المبحثُ بالحديثِ عن ظاهرةِ التاريخِ الشعريِ وكلفِ الشعراءِ بختَمِ كثيرٍ من قصائدهم التي قالوها في مناسباتٍ معينةِ بيتٍ يحوي تاريخِ المناسبةِ بحسابِ الجملِ.

الفصل الثاني / الخصائص المعنوية :

١- ثقافة الشاعر : وسأحدثُ عن الروافدِ التي أمدّت الشاعر بالثقافة المتنوعة، وأثرت قاموسه المعنوي واللغوي.

٢- استلهام التراث : وذلك بالحديث عن أسر هذا التراث للشاعر وجعله يدور في فلكه فلا يأتي بجديد، ويكون بذلك مقلداً أكثر منه مبدعاً .

٣- الأصالة : وسيكونُ الحديثُ عنها بالحديثِ عن استفادة الشاعر من تراثهِ ، وقدرتهِ على الخلقِ والإبداعِ ليضيفَ إلى هذا التراثِ شيئاً متميزاً يجعلُ منه شاعراً له إبداعٌ أسر ومتميزٌ.

الفصل الثالث / الخصائص الأسلوبية واللغوية:

١- بناء القصيدة : سأعرضُ إلى بناءِ القصيدةِ من حيث سير الشاعر على نهجِ الأقدمين في هذا البناء، ثم سأحدثُ عن طريقةِ الشعراءِ في ختمِ قصائدهم، وسأحدثُ كذلك عن بناءِ القصيدةِ من حيث الطول والقصر، وعن علاقةِ ذلك بالغرضِ الذي قيلت فيه القصيدة.

٢- الصورة : سأحاولُ أولاً إلقاء الضوء على ماهية الصورة التي سنتحدثُ عنها في هذا الشعر، حيثُ سأوردُ آراء لبعض النقاد حول الصورة من ناحية اعتمادها على الجاز من عدمه، ومن جهة طزاجتها وتأكلها، ثم سأورد نماذج من شعر العصر لهذه الصور.

٣- المحسنات البديعية : وهي تلك المحسنات اللفظية والمعنوية التي حرص الشعراء على حشدها في شعرهم بقصد التجميل والتزيين، وسأقتصرُ على المحسنات التي أكثر منها الشعراء في هذا العصر مثل الجناس والتورية والاكتفاء.

٤- اللغة : سأحدثُ بدايةً عن الألفاظ من حيث فصيحها وعاميتها، ومن حيث استخدام الشعراء لها للدلالة على المعنى الذي وضعت له، وتعاملهم الصرفي معها، وكذلك تخييرهم لها من حيث الجزالة والركاكة، ثم سأحدثُ عن الجملة وطريقة تركيبها وابتعادها عن الأسلوب العامي من عدمه، وعن الركاكة والتكلف، وسأورد نماذج للتأثر باللهجة العامية والتأثر باللغات الأخرى.

الفصل الرابع / الخصائص الموسيقية :

سيكون الحديث عن الخصائص الموسيقية بالنظر إلى أوزان هذا الشعر وموافقتها للأوزان الخليلية وكذلك نظم الشعراء للمسمطات والموشحات، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن القافية وعن الموسيقى الداخلية التي تعتمد على المد والتكرار.

مصادر البحث الرئيسية :

١- ديوان الشاعر جعفر بن محمد البيتي^(١) :

لديّ من هذا الديوان نسخ مصورة عن ثلاث مخطوطات هي :

أ- نسخة مكتبة عارف حكمت، وتقع في ١٣٩ ورقة، يظهر أنها كتبت في حياة المؤلف، وقد كتب على الغلاف ما يثبت مقابلتها، ولم يُوضح فيها تاريخ النسخ، واقتصرت هذه النسخة على الشعر الفصيح.

ب- نسخة مكتبة آل هاشم، وتقع في ٣٢٥ صفحة، وهي بخط جعفر بن حسين هاشم، نسخها سنة ١٣١٠هـ، وقد أشار الناسخ إلى أنها نسخت من نسخة تاريخ كتابتها سنة ١١٩٧هـ، وأنه قد تمت

(١) - هو جعفر بن محمد البيتي السقاف باعلوي الحسيني، اشتهرت أسرته بالبيتي نسبة إلى قرية "بيت مسلمة" من أعمال مدينة (تريم) بحضرموت، ولد بالمدينة سنة ١١١٠هـ، واشتغل بتحصيل العلوم منذ حداثة سنه، فقرأ على والده وغيره، جمع بين السياسة والرياسة والعلم والأدب والشعر، فكان وثيق الصلة بأشراف مكة، وتولى لهم مناصب في المدينة وينبع، وله معرفة بالتاريخ والأنساب والدين كما برع في علم الطب، من آثاره ديوان شعره وله عدّة نسخ، وكتاب (مواسم الأدب وآثار العجم والعرب) في الأدب والتاريخ، توفي بالمدينة سنة ١١٨٢هـ. تحفة المحبين ص ١٢٣، عجائب الآثار ٣٧٣/١، نشر النور والزهر ص ١٥٣، سلك الدرر ٩/٢، حلية البشر ٤٥٤/١، نزهة المجلس ٣٣٣/٢، تحفة الدهر ١٥، الأعلام ١٢٩/٢.

مقابلتها، وفي هذه النسخة زيادة على نسخة مكتبة عارف حكمت، يظهر أنها زيدت بعد وفاة الشاعر حيث ينعت بالمرحوم، وهذه الزيادة عبارة عن قصائد ومقطوعات من الشعر الفصيح والعامي وعليها هوامش وتعليقات من الناسخ.

ج- نسخة مكتبة آل الصافي، وناسخها محمد بن عمر الفقيه سنة ١٣١٥هـ، وتقع في ١٧١ ورقة، وهي مطابقة لنسخة آل هاشم، وأشير إلى أنه تم مقابلتها.

٢- كتاب (تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر) لعمر بن عبدالسلام الداغستاني^(١) (المتوفى بعد ١٢٠٢هـ) ولدي نسخة مصورة من نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة (كمبردج)، وهي نسخة كتبت لخليل المرادي على يد جامع الكتاب عمر

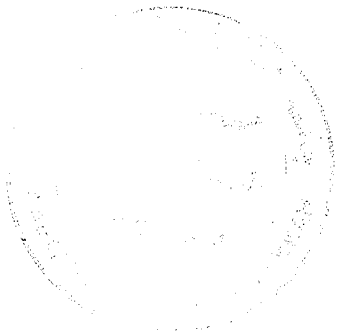
(١) - هو عمر بن عبدالسلام بن محمد أمين الداغستاني المدني، ولد في المدينة وعاش بها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وتوفي بعد ١٢٠٢هـ، كان والده عالماً من أعلام المدينة عالماً ومالاً، جلس للتدريس بالمسجد النبوي وله مؤلفات في علوم شتى، له كتاب (اللالي الثمين في أعيان شعراء المدينة) أحدث بعض التغييرات عليه ثم قدمه لأحد الوزراء العثمانيين تحت اسمه (تحفة الدهر). تحفة المحبين ص ٢٣٠، مجلة المنهل صفر ١٣٨٩هـ ص ٢٥١، وربيع الثاني ١٣٨٩ ص ٥٢٧، حلية البشر ١١١٥/٢، الأعلام ٥٠/٥.

الداغستاني وذلك سنة ١٢٠٢هـ، وتقع في مائة ورقة، وتحتوي تراجم أكثر من خمسين شاعراً مع إيراد مختارات لشعرهم.

٣- كتاب (نفثة مصدر بين يدي صدر الصدور) لحسن بن عبدالكريم البرزنجي (المتوفي سنة ١١٣٨هـ) ولدي نسخة مصورة من نسخة مخطوطة في مكتبة عارف حكمت، ويقع الكتاب في ٨٥ صفحة، ويذكر المؤلف أنه قدّمه لأبي نائلة عبدالله الوزير بيته فيه همه، ويصف الكربة التي أصابته بعد فتنة العهد الواقعة في المدينة سنة ١١٣٤هـ، والتي أعقبها الحكم عليه وعلى والده بالإعدام مما جعله يفر إلى مصر بينما أعدم والده في جدّة، والكتاب عبارة عن رسالة للوزير المذكور يشتكي فيها الشاعر من الغربة والحنين إلى المدينة ومن الظلم الذي لحقه، ويهدف من رسالته إلى شفاعة الوزير لدى السلطنة لرفع هذا الحكم عنه. وقد ضمّن الشاعر رسالته هذه أشعاراً له ولغيره بما يناسب المقام.

٤- كتاب (نوافح الزهور فيما جرى به القلم من منظوم ومنتثور) لأحمد بن عبدالرحمن الجامي (المتوفي بعد سنة ١٢٠٠هـ) ولدي نسخة مصورة من نسخة مخطوطة في مكتبة عارف حكمت، وقد ضمّن المؤلف ثلث كتابه الأخير مختارات من شعر المدنيين جملها من شعره.

٥- كتاب (الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الحبيبة) لجعفرهاشم، وهو بخط مؤلفه سنة ١٣٠٦هـ، ولدي نسخة مصورة من نسخة مخطوطة في مكتبة آل هاشم، ويقع الكتاب في ٨٤ صفحة، وهو كما



يذكر مؤلفه مأخوذ من مسودة كتاب لعبدالرحمن الأنصاري، ويتحدث فيه المؤلف عن الفتن الواقعة في المدينة في القرن الثاني عشر، مع إيراد بعض القصائد التي نظمها الشعراء في وصف هذه الفتن والحوادث.

٦- كتاب (الفلك المشحون) المنسوب ليحيى هاشم، لديّ نسخة مصورة عن نسخة مخطوطة في مكتبة عارف حكمت، تاريخ نسخها ١٢٣٩هـ، تقع في ٤٠٩ ورقات وتتضمن أشعاراً جُلّها لجعفر البيتي ويحيى هاشم.

٧- (مساجلات شعرية) جمع جعفر حسين هاشم، وهي عبارة عن قصائد ليحيى هاشم وحسين هاشم وجعفر البيتي.

٨- كتاب (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز) لعبد الغني النابلسي^(١) (المتوفى سنة ١١٤٣هـ) وهي الرحلة التي قام بها المؤلف سنة ١١٠٥هـ، وانتهى من تدوينها سنة ١١١٠هـ وقدر أورد النابلسي في رحلته أشعاراً لبعض الشعراء المدنيين.

(١) - هو عبدالغني بن إسماعيل بن عبدالغني النابلسي الدمشقي، ولد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ، شاعر وعالم بالدين والأدب، رحل إلى بغداد ومصر والحجاز، وتنقل في فلسطين ولبنان، له مؤلفات كثيرة، وقد ذكر المحي في النفحة أن بعضهم أحصى له ثلاثة وعشرين ومائتي مصنف، توفي في دمشق سنة ١١٤٣هـ. نفحة الريحانة ١٣٧/٢، سلك الدرر ٣٠/٣، الأعلام ٣٢/٤.

التمهيد

المدينة هي هذه الحاضرة الإسلامية، ذات الفضل العظيم، والتاريخ المشرق في جميع المجالات، التي من ضمنها ذلك الجانب الأدبي، الذي كان لشعرائها فيه الحظ الأوفر، قبل الإسلام وبعده، ففي الشعر الجاهلي نجد نصيب الحواضر في الجزيرة يقلّ كثيراً عن نصيب شعراء القبائل المتنقلة، إلا المدينة فإن هذا الحكم لا ينسحب عليها حيث أن شعراءها كان لهم وجود فاعل ومميز، أمثال حسان بن ثابت وابن رواحة وابن الأسلت وقيس بن الخطيم، وفي القرن الثاني عشر الهجري ميدان دراستنا نجد المدينة مازالت على علاقتها الحميمة مع الشعر والأدب، فهناك عدد من الشعراء لا يقلون إنتاجاً وتميزاً عن غيرهم من شعراء الأقطار الإسلامية الأخرى.

وقد كان هناك دراسات سابقة لها علاقة ببعض جوانب موضوع دراستنا وهو (الشعر في المدينة في القرن الثاني عشر الهجري) ، أرى أنه من الواجب الإشارة إليها ، وهي :

١- كتاب (الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين ١١٥٠هـ-

١٣٥٠هـ) للدكتور عبدالله الحامد. وقد قسّم الباحث الجزيرة العربية في دراسته إلى بيئات هي نجد والحجاز والأحساء والقطيف وتهامة وعسير، غطّى البحث النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وكانت المدينة ضمن بيئة الحجاز التي تناولتها الدراسة.

كان لتوسع البحث مكانياً وزمناً أثر على التعمق في دراسة الشعر الخاص بهذه الفترة، إضافةً إلى عدم اطلاع الباحث -حسب المراجع التي ذكرها- على بعض الكتب التي تعد مصدراً للشعر في المدينة في هذه الفترة.

وقد تناول الباحث في دراسته المضمون والأسلوب واللغة والبناء والأوزان والموسيقى، كما قارن بين البيئات المختلفة موضحاً جوانب القوة والضعف في شعر كل بيئة.

كان جل شعراء الحجاز الذين تحدث عنهم من الشعراء المدنيين، وقد ركز على شعراء آخر الفترة المدروسة وهي النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

٢- كتاب (المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ) للدكتور عاصم حمدان. تناول فيه بالتحليل والدراسة ثلاث قصائد لجعفر البيتي في وصف بعض الحوادث الواقعة في المدينة في هذا القرن، كما تحدث عن مخطوطتين تعدان مصدراً لشعر هذه الفترة، وهما تحفة الدهر

للداغستاني والأخبار الغربية لجعفر هاشم، إضافةً إلى حديثه عن بعض المهتمين بالبحث التاريخي والأدبي في المدينة عن هذه الفترة وغيرها.

٣- كتاب (الشعر الحديث في الحجاز) للأستاذ عبدالرحيم أبوبكر تحدث الباحث فيه عن الفترة التي سبقت العصر الحديث والتي من ضمنها فترة بحثنا، وكان مما يخص فترتنا حديثه عن أشهر شاعرين في القرن الثاني عشر وهما جعفر البيتي وعمر الداغستاني، حيث ترجم لهما وأورد نموذجين شعريين لكل منهما مع التعليق على كل نموذج.

٤- تحدث الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري في مجلة المنهل عن الشاعر جعفر البيتي في أربع حلقات حيث ترجم للشاعر وتحدث عن موضوعات شعره وشاعريته، ثم اختتم ذلك بإيراد نماذج من شعره.

٥- تحدث الأستاذ محمد سعيد دفتردار في مجلة المنهل أيضاً عن آل الداغستاني ومنهم الشاعر عمر بن عبدالسلام الداغستاني حيث ترجم له وذكر كتابه تحفة الدهر وأورد نماذج من شعره وعلق عليها.

كما ترجم الأستاذ محمد سعيد دفتردار في نفس المجلة للشاعر زين العابدين باعلوي جمل الليل وأورد نماذج من شعره.

٦- في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين قدم الأستاذ عبيد مدني بحثاً

بعنوان (الشعر الملحمي في المدينة في القرن الثاني عشر) وقد أورد قصائد للبيتي وقصيدة لمحمد سعيد سفر في وصف الفتن الواقعة في المدينة في هذا القرن، وذلك بعد أن تحدث عن الشعر الملحمي .

وهذا كله مع تقديري لجهد الباحثين الذين سبقوني لايلم بأطراف الموضوع ولا يجد من طموحي لاستكمالهم والوقوف على خوافيه ؛ لما فيه من تشعب وخفايا تدق على كثيرٍ من الباحثين .

وسأتحدث بداية فيما يلي عن الحياة والأدب في القرن الثاني عشر ، حيث نهدف من خلال هذا الحديث إلى معرفة الحياة والظروف العلمية والأدبية التي كانت ماثلة في الشعر الذي سندرسه في هذا البحث .

أولاً: الحياة العامة في القرن الثاني عشر

أ - الناحية السياسية :

دخل القرن الثاني عشر الهجري يوم السبت الموافق ١٥ من شهر أكتوبر عام ١٦٨٩ للميلاد، وقد مضى على انضمام الحجاز للدولة العثمانية أكثر من مائة وخمس وسبعين سنة، وذلك منذ أن أرسل شريف مكة بركات بن محمد ولده أبانمي ومعه مفاتيح الحرمين إلى السلطان سليم بن السلطان بايزيد الثاني بعد أن استولى على مصر عام ٩٢٢-١٥١٦ م، حيث ثبت الشريف على إمارتي مكة والمدينة^(١)، وصار الحجاز تابعاً للخلافة العثمانية وتحت مظلة سلطانها، فمكّانة الحجاز غير خافية على العثمانيين كما لم تخف على من قبلهم من الدول الإسلامية.

اعتلى عرش السلطنة العثمانية في هذا القرن ثمانية سلاطين أولهم السلطان سليمان خان الثاني سنة ١٠٩٩ هـ وآخرهم السلطان عبد الحميد خان الأول سنة ١١٨٧ هـ.^(٢)

(١) - سمط النجم العوالي للعصامي ٤ : ٣١٩ .

(٢) - السلطان سليمان خان الثاني بن السلطان ابراهيم، جلس للسلطنة في شهر ذي الحجة سنة ١٠٩٩ هـ، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين.

- السلطان أحمد خان الثاني ابن السلطان ابراهيم، جلس في سنة ١١٠٢ هـ ومدة سلطنته أربع سنين.

- السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع، جلس في سنة

كانت الدولة العثمانية في هذا القرن مستقرة نسبياً - بالنسبة للأحوال الداخلية، حيث لم تكن هناك صراعات بين العثمانيين أنفسهم على الحكم كما هو الحال في القرن الماضي،^(١) وكذلك خفت ثورات العسكر والشعب على السلاطين، حيث كان السلطان يستمر في

١١٠٦هـ وكانت مدة سلطته حوالي ٨ سنوات.

- السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد الرابع، الذي جلس سنة ١١١٥هـ، ومدة سلطته ثمان وعشرون سنة.

- السلطان محمود خان الأول، وجلس سنة ١١٤٣هـ ومدة سلطته خمس وعشرون سنة.

- السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني، الذي جلس سنة ١١٦٨هـ وكانت مدة سلطته ثلاث سنين.

- السلطان مصطفى خان الثالث، جلس سنة ١١٧١هـ ومدة سلطته ستة عشرة سنة.

- السلطان عبدالحميد خان الأول، جلس سنة ١١٨٧هـ ومدة سلطته ست وعشرون سنة.

وهو آخر سلاطين آل عثمان في هذا القرن.

انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ليوسف آصاف، تاريخ الدولة العلية

العثمانية لمحمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية لإبراهيم بك حلیم،

تاريخ الدولة العثمانية لعلی حسون.

(١) - سمط النجوم للعصامي ١٠٢/٤ - ١٠٩.

الحكم حتى الوفاة فيما عدا السلطان مصطفى الثاني والسلطان أحمد الثالث حيث تنازل كل منهما عن الحكم.

وكان تنازل مصطفى الثاني لأخيه أحمد الثالث بسبب ثورة الجند والعلماء ضده لتدخل فيض الله أفندي المفتي معلّم السلطان في أمور الدولة واحتكاره المناصب لأقربائه وعزل الوزراء وتوليبتهم، فاتحد العلماء والعسكر محتجين على ذلك، مما حدا بالسلطان للتنازل عن الحكم لأخيه المذكور (أحمد الثالث)، الذي تنازل بدوره للسلطان محمود الأول وذلك بسبب مانسب للصدر الأعظم من التأخير عن إرسال جيش لقتال شاه العجم، حيث ثار العسكر وهجموا على السراية^(١)، وحاصروها، وطلبوا تسليم الصدر الأعظم والقبودان باشا^(٢)، والكتخدا بك^(٣) إليهم.^(٤)

أما بالنسبة للحالة الخارجية فقد كانت الدولة طوال هذا القرن في حروب وصراعات مستمرة مع الدول الكثيرة المجاورة، كان أغلبها مع

(١) - السراية : القصر.

(٢) - القبودان باشا : رتبة عسكرية بحرية.

(٣) - كبير العسكر .

(٤) - سلاطين آل عثمان ليوسف آصاف ، تاريخ الدولة العثمانية العلية لإبراهيم

بك حلیم، تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد المحامي، تاريخ الدولة

العثمانية لعلی حسون.

دولة النمسا ودولة الروس ودولة العجم، وغالباً ما كانت تنتهي الحرب مع إحدى هذه الدول بمعاهدة ثم ما تلبث أن تعود الحرب إلى سابق عهدها. (١)

أما إقليم الحجاز الذي كانت المدينة تخضع لسلطة حاكمه المباشرة، فقد كانت الدولة تعطي الشريف والي مكة ولاية الحجاز العامة، ففي جدة قائم مقام ومعه فرقة من الجنود والجيش، وفي كل من مكة والمدينة كبير عسكر مع جنود (أي حامية عسكريّة)، وشيخاً للحرم وقاضياً. (٢) وكان تعيين شاغلي هذه الوظائف من قبل الدولة العثمانية مباشرة وغالباً ما يرسلون من يتولون هذه المناصب من الأستانة، مما يجعل لأصحاب هذه المناصب نفوذاً قوياً، بحيث لم تكن للشريف سلطة عليهم. (٣)

وقد قاد الحد من سلطة الشريف في الحجاز لحساب سلطات أصحاب الوظائف السابقة، وارتباط توليته وعزله بالدولة العثمانية إلى الخلاف الكثير والتربص المستمر بين الشريف والوالي العثماني، فكل منهما يريد اضعاف سلطة الآخر والاستئثار بالأمر، وعلى ذلك فقد

(١) - سلاطين آل عثمان ليوسف آصاف، تاريخ الدولة العثمانية العلية لإبراهيم بك حليم.

(٢) - سمط النجوم العوالي للعصامي، خلاصة الكلام لدحلان.

(٣) فصول في تاريخ المدينة ص ٣٥

كانت سلطة الشريف في الحجاز تقوى وتضعف حسب سياسته وهيمنته أو عدم معارضة الوالي لتصرفاته وأعماله، وهذا الأمر له خطورته الكبرى في ضعفة الوضع السياسي والأمني في الحجاز. كما نتج عن ذلك أيضاً صراع بين الأشراف أنفسهم على الإمارة، فغالباً ما يدب الخلاف بين حاكم مكة وأحد أبناء عمومته، فما يلبث أن يستفحل هذا الخلاف، فيخرج قريب الحاكم من مكة مغاضباً له ليتجمع حوله بعض أقاربه^(١) وبعض القبائل المجاورة، فيعود ليهجم على مكة لانتزاع الحكم من صاحبها الذي يقاوم هذا الثائر، وقد يطلب من كبير العسكر أن يساعده في قتال بني عمه، فيمتنع عن التدخل بحجة أن العسكر قد وضعتهم الدولة للذود عن مكة في حالة وجود عدو خارجي يهددها، أما الأشراف فهم أبناء عم لا يتدخل بينهم^(٢)، وغالباً ما يخرج الحاكم من مكة إذا أحس بقوة خصمه حيث يدخل مكة له بالحكم ليرسل بعد ذلك إلى السلطة يطلب إصدار قرار بتوليته وغالباً ما يجاب لهذا الطلب.

وما يلبث أن يستجمع الشريف المعزول قوته ويحاول العودة إلى حكم مكة، وهكذا دواليك.^(٣)

(١) - خلاصة الكلام لدحلان ص ١١٢.

(٢) - خلاصة الكلام لدحلان ص ١١٣.

(٣) - انظر : خلاصة الكلام ، إتخاف فضلاء الزمن ، منائح الكرم ، تاريخ أمراء

وقد صورّ الشاعر المدني السيد جعفر البيتي (١١١٠-١١٨٢هـ)^(١) محدودية صلاحية حاكم مكة، وعدم إعطاء السلطنة العثمانية الصلاحيات والنفوذ اللازم للشريف لكي يكون الحاكم القوي المسيطر حيث قال الشاعر في تصوير الفتنة المسمّاه بفتنة العهد التي وقعت في المدينة سنة ١١٥٥هـ وذكر أسبابها :

سوسو البلاد بعين من نفوسكم دعوا الأجانب أعطوا القوس باريها
لو أن مسعود قلدت له عملاً أجزا وثار لأعداكم يجازيها
لكنه راح مربوطاً على يده تحت الإشارة لا يبغي تعديها
ينهي إليكم وبعد الحول ينظر في جوابكم عن أمور كان ينهيها^(٢)

وقد بلغت فترات تولي حكم الأشراف مكة خلال فترتنا (القرن الثاني عشر) أكثر من ثلاثين فترة تولى فيها حوالي عشرين حاكماً بلغت ولاية بعضهم خمس مرات ، وكانت ولاية بعضهم لا تتجاوز عدّة أشهر، بينما تجاوزت ولاية البعض العشرين سنة^(٣) وكان من أشهرهم:

مكة، حيث تذكر هذه الكتب الكثير من المحاولات للعودة إلى الحكم.

(١) - سبقت ترجمته ص ٩ .

(٢) - ديوان البيتي، نسخة مكتبة عارف حكمت ٧٥ .

(٣) - خلاصة الكلام لدحلان ص ١١٢ وما بعدها .

- مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا ج ١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

- الرحلة الحجازية للبتنوني ص ٨٦ .

١ - الشريف أحمد بن غالب :

تولى إمارة مكة في شهر ذي القعدة سنة ١٠٩٩هـ، وفي أول سنة ١١٠١هـ تنافر مع جماعة من الأشراف ذوي زيد فخرجوا من مكة مغاضبين له واتفقوا على تولية الشريف محسن بن الحسين بن زيد، وتتابع بعد ذلك الأشراف في المنافرة مع أحمد بن غالب والخروج وتولية محسن بن الحسين مكانه وذلك في شهر رجب سنة ١١٠١هـ، وكان قد أمضى في الولاية سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً وكانت وفاته سنة ١١١٣هـ .

٢ - الشريف سعيد بن سعد بن زيد :

تولى إمارة مكة خمس مرات أولها في جمادى الأولى سنة ١٠٩٩هـ ، والثانية في أول سنة ١١٠٣هـ والثالثة في ذي القعدة سنة ١١١٣هـ ، والرابعة في ذي الحجة سنة ١١١٦هـ، والخامسة في ذي الحجة سنة ١١٢٣هـ ، واستمر في هذه الولاية الأخيرة إلى أن توفي سنة ١١٢٩هـ، وكان مجموع ولاياته عشر سنين وسبعة أشهر.

٣ - الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد:

وذكر الدكتور عبدالله الحامد في كتابة الشعر في الجزيرة في قرنين ص ٣٠ أن عدد من تولى إمارة مكة في القرن الثاني عشر ثلاثة وثلاثون حاكماً، ولعله خلط بين عدد الولايات وعدد الحكام.

له ولايتان الأولى في جمادى الأولى سنة ١١٤٥هـ، والثانية في رمضان ١١٤٦هـ، واستمرت هذه الولاية إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر سنة ١١٦٥هـ، فكان مجموع ولايته عشرين سنة تقريباً.

٤ - الشريف مساعد بن سعيد بن سعد:

تولى بعد وفاة أخيه مسعود سنة ١١٦٥هـ، وقد حصل خلاف بينه وبين بعض الأشراف مما أدى إلى نشوب الحرب بينهم والتي انتصر عليهم فيها في النهاية.

قبض عليه عبدالله باشا أمير الحج سنة ١١٧٢ وولى مكانه أخيه جعفر بن سعيد حيث أبرز أمير الحج تفويضاً من الدولة يخوله النظر في شأن الحرمين وتولية من يرى فيه الصلاح، ولكن بعد عودة أمير الحج إلى الشام، اتفق الشريف مساعد مع أخيه جعفر فتنازل الأخير عن الإمارة لمساعد، فاستمر فيها إلى أن توفي في محرم سنة ١١٨٤هـ وقد كانت ولايته ما يقرب من عشرين سنة.

٥ - الشريف سرور بن مساعد بن سعيد:

تولى إمارة مكة سنة ١١٨٦هـ بعد أن انتزعتها من عمه أحمد بن سعيد الذي حاول -بعد ذلك- أن يسترجع إمارة مكة لكنه فشل، والشريف سرور هو أشهر أمراء مكة في هذا القرن حيث كان حازماً شجاعاً صعب المراس، كان له عدّة وقائع مع بعض الأشراف وبعض القبائل المحيطة بمكة والمدينة مثل قبيلة هذيل وقبيلة حرب، وإليه تنسب

الفتنة الواقعة بالمدينة سنة ١١٩٤ والمعروفة بفتنة الشريف سرور. بقي في الحكم إلى أن توفي مريضاً سنة ١٢٠٢هـ وعمره نحو خمس وثلاثين سنة، وكانت مدة ولايته أكثر من خمس عشرة سنة. وقد انعكس تعدد الولايات وكثرتها والتنازع عليها وخاصة في النصف الأول من هذا القرن على الوضع السياسي في الحجاز مما أدى إلى اضطراب الحياة السياسية بصورة لا تحفى، حيث عانت المدينتان (مكة والمدينة) بسبب ذلك كثيراً، وقاسى الناس صنوف الشدائد والمحن، وسيأتي الحديث عن الفتن الكثيرة الواقعة في المدينة في هذا القرن (موضوع دراستنا) والتي قد يكون من أسبابها هذا الاضطراب والتزعزع^(١).

أما المدينة المنورة، والتي كانت إمارتها لبني حسين^(٢) منذ أواخر

(١) - خلاصة الكلام لدحلان، إتحاف فضلاء الزمن للطبري، منائح الكرم للسنجاري، تاريخ أشراف وأمراء مكة لعبدالله عبدالشكور، أمراء مكة عبر عصور الإسلام لعبدالفتاح راوه.

(٢) - بنو حسن وبنو حسين نسبة إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ويطلق على من ينتسب لأحدهما السادة أو الأشراف، وقد اختلف في التسمية وهل كل منهما مختص باسم معين، ولكن الذي أرجحه أن ذلك من قبيل المترادفات وأن اطلاق كلاً من الاسمين يختلف باختلاف المناطق، ففي الحجاز مثلاً - وهو ما يخص البحث - يعرف

القرن الرابع الهجري، ولكنها ضعفت منذ القرن العاشر بسبب صراعهم على الإمارة، وضم إمارة المدينة لحاكم مكة في العهد العثماني ونزوح كثير منهم إلى البوادي والقرى المجاورة.^(١)

وقد صور ذلك العياشي^(٢) في رحلته (ماء الموائد) عام ١٠٧٣ هـ حيث ذكر (أن الأمر في الحجاز قد صار لبني حسن فجمعوا الولايتين

المنتسبين لكل من الحسين والحسين بالأشراف حيث ينتسب للأول جل أشراف مكة وينبع والطائف ويعرفون ببني حسن، وينتسب للثاني جل أشراف المدينة ويعرفون ببني حسين ولكل منهم قبائل وبطون عديدة، للتوسع في هذا الموضوع ينظر في - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن عنبه وغيره من كتب الأنساب .

(١) - زهرة المقول لابن شدقم ، حيث ترجم لكثير من أمراء المدينة وذكر نزوح بعض بني حسين إلى خارج المدينة.

(٢) - هو أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي نسبة إلى قبيلة من البربر تدعى آيت عيَّاش من أهل فاس (ولد سنة ١٠٣٧ هـ وتوفي سنة ١٠٩٠ هـ) له عدد من المؤلفات منها رحلته (ماء الموائد) أو (الرحلة العياشية). حج مراراً أولها سنة ١٠٥٩ هـ وسنة ١٠٦٤ هـ وسنة ١٠٧٢ هـ جاور في الحرمين وفي القدس وفي الخليل .

- مقتطفات من رحلة العياشي حمد الجاسر ص ٧ ،

- المدينة في رحلة العياشي محمد أمخزون ص ٤٧ .

- الشعر الحجازي للردادي ص ٨١ .

ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة^(١) ولم تذكر لنا أكثر المراجع أسماء الأمراء الحسينيين في القرن الثاني عشر، بالرغم من ذكرهم في القرن الحادي عشر، مما جعل بعض الباحثين يعتقد أن منصبهم الاسمي أيضاً قد انتهى مع نهاية القرن الحادي عشر وذلك بسبب تعيين شريف مكة نائباً له في المدينة يسمى وزيراً أو قائم مقام^(٢)، ولكننا نجد السنجاري^(٣) يذكر وصول السيد محمد بن سلطان الحسيني^(٤) أمير المدينة إلى مكة عام ١١٢٢ هـ، ويذكر العباس الموسوي^(٥) الذي زار المدينة سنة ١١٤٠ هـ أنه اجتمع بأمير

(١) - مقتطفات من رحلة العياشي حمد الجاسر ص ١٨١.

(٢) - عبدالباسط بدر . حيث ذكر أن إمارة بني حسين الإسمية في المدينة انتهت في نهاية هذا القرن بوفاة آخر الأمراء وهو حسن بن زهير، التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ٢ : ٣٦٤.

(٣) - هو علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري الحنفي المكي الخطيب الإمام بالبلد الحرام، عالم فقيه، وأديب شاعر، له كتاب (مناجح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم) توفي سنة ١١٢٥ هـ .

- المختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبدالله أبو الخير ص ٣٥٨

- نفحة الريحانة للمجبي ٤ : ١٣٤

(٤) - مناجح الكرم للسنجاري ص ٤٦٣ .

(٥) - هو العباس بن علي نور الدين بن أبي الحسن المكي الموسوي الحسيني ، أديب رحالة غزير العلم بالأخبار واللطائف، ولد بمكة سنة ١١١١ هـ وعاش

المدينة مديبع الحسيني^(١) ويذكر الطبري^(٢) في كتابة (اتحاف فضلاء الزمن) السيد تركي الحسيني^(٣) ويقول إنه كان أميراً للمدينة وكان ذلك سنة ١١٠٤هـ، وفي هذا دلالة على أن إمارة بني حسين الإسمية والتابعة لشريف مكة قد استمرت وإن لم يكن لهم أي دور فاعل في الحياة السياسية وهذا لا يتعارض مع تعيين شريف مكة نائباً أو وكيلاً له في المدينة.

وقد جعل العثمانيون في المدينة أربع سلطات، كان لها النفوذ الحقيقي في المدينة بحكم مناصبهم والصلاحيات المخولة لهم، حيث أنهم كما أسلفنا يعينون مباشرة من قبل السلطنة في الأستانة، والسلطات

بها، رحل إلى العراق والهند واليمن، له كتاب (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) ط، جمع فيه أخبار رحلاته وترجم فيه لكثير من العلماء والوجهاء بعضهم من المعاصرين له، توفي سنة ١١٨٠هـ . الأعلام ٣: ٢٦٣ ، مقدمة كتاب نزهة الجليس للناشر.

(١) - نزهة الجليس ٢: ٣٢٩.

(٢) - هو محمد بن علي بن فضل بن عبدالله الطبري الحسيني ولد بمكة سنة ١١٠٠هـ، مؤرخ من فضلاء مكة من كتبه (عقود الجمان في سلطنة آل عثمان) و (اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن) وغيرها، توفي سنة ١١٧٣هـ ، الأعلام ٦: ٢٩٦ .

(٣) إتحاف فضلاء الزمن للطبري ص ٢١١.

كما يلي:

- ١- القاضي الشرعي: ومهمته الفصل في الخصومات الفردية.
- ٢- سلطة الشرطة للمحافظة على الأمن الداخلي.
- ٣- سلطة الحاكم العسكري، وتتولى المحافظة على الأمن في المنطقة المحيطة بالمدينة .
- ٤- سلطة شيخ الحرم النبوي، وهي السلطة العليا التي ترتبط بها السلطات الأخرى وهي التي تتصل بالأستانة، ويشترط في القاضي أن يكون تركيا يعين لمدة سنة ثم يبدل، ويشترط في شيخ الحرم أن يكون من العلماء الذين اشتغلوا في القضاء وعمل مشيخة الإسلام في استانبول وأن يكون تركياً^(١) .

ومما لا يخفى فإن في هذا ازدواجية وتنافساً ، وفيه تعصب للتركية والأتراك، مما يوغر صدور أهل المدينة ولاسيما أنه قد يكون منهم من هو أعلم وأبصر وأوعى بما يناسب سياسة هذه المدينة العربية الإسلامية، بخلاف من يولونهم العثمانيون هذه المناصب، حيث يكونون بعيدين عن فهم خصوصية المدينة وأهلها والقبائل المحيطة بها.

ونتيجة لتعدد السلطات وتعيين أصحاب هذه المناصب من قبل الدولة في استانبول أصبح النفوذ في المدينة بأيديهم، مما أضعف نفوذ

(١) - فصول من تاريخ المدينة لعلي حافظ ص ٣٥.

حاكم مكة عليهم، والذي كان يعتبر أمور الحجاز كلها راجعة إليه، كما نتج عن ذلك قيام الفتن التي كانت شبه متواصلة في المدينة المنورة، والتي تختلف أطراف النزاع فيها من فتنة إلى أخرى، وإن كان لشيخ الحرم غالباً الدور الكبير فيها.

وفيما يلي نذكر أهم الحوادث والفتن الواقعة في المدينة المنورة في هذا القرن:

١ - الفتنة الواقعة بين أهل المدينة وبني

علي^(١) سنة ١١١١ هـ :

وهي كما يذكر صاحب كتاب (الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة)^(٢) أنه حصلت الواقعة العظيمة بين بني علي وأهل المدينة في حرّة بني قريظة^(٣) سنة ١١١١ هـ، حيث خرج أهل المدينة خلف بني علي بالسلاح والعدد والأمداد والمدد، واذرعوهم قتلاً ونهباً وأسراً

(١) - بنو علي: قسم من مسروح من قبيلة حرب، وقد انتقل معظمهم إلى نجد في أطرافه الشرقية، ولاتزال بطون عديدة منهم تسكن حول المدينة، وهي ديارهم الأصلية. نسب حرب للبلاذني ص ٥٤.

(٢) - الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة لجعفر بن حسين هاشم المدني

(٣) - حرّة بني قريظة: وتسمى حرّة واقم وهي الحرّة الواقعة شرقي المدينة.

وسلباً، وكان مع أهل المدينة شاهين أحمد آغا^(١) شيخ الحرم الذي أمرهم بالرجوع فأبوا، فغضب عليهم وقطع عنهم المياه ورجع بأكثر الناس، فرجع الأعراب عليهم وصاروا يقتلونهم كيف شاءوا، ثم استولوا على جميع أموال أهل المدينة الخارجة عنها، ولم يذكر المؤرخ شيئاً عن سبب هذه الفتنة بل قال (إن أصل الفساد كله من مشايخ الحرم، ووقع غير مرة مع أهل المدينة)، وذكر أن شيخ الحرم المذكور عزل عن المشيخة بعدما وصل خبره للدولة.^(٢)

وقد ذكر الأستاذ فايز البدراني نقلاً عن كتاب (الدر الفاخر) أن سبب الفتنة بين بني علي وأهل المدينة، كان دخول بعض الأغنام لبستان أحد أعيان أهل المدينة، مما أدى إلى نزاع ضُرب فيه صاحب البستان فمات مثخناً بجراحه، فقتل أربعة من بني علي وشنق اثنان منهم أيضاً.^(٣)

٢ - فتنة العهد (١١٣٤ هـ) :

ووقعت هذه الفتنة بين الأغوات^(٤) وأهل المدينة وملخصها أن رجلاً

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) - الأخبار الغربية لجعفر هاشم (مخطوط) ص ٣.

(٣) - فصول من تاريخ قبيلة حرب لفائز بن موسى البدراني ص ٢٤١.

(٤) - الأغوات: جمع آغا وهو الخصي من العبيد، حيث يوقف على خدمة المسجد النبوي، وقد اختاروا وقف الخصي دون غيره، ليتفرغ للخدمة إذ

من توابع الأغوات يسمى (علي قنا)^(١) أزداد أن يستفرغ وظيفة من وظائف العسكر ويدخل في العسكرية، فامتنع من إدخاله كبار العسكر، حيث أنه كان في العسكرية ووقعت منه خيانة وأخرج منها فلايعاد، وقال أغوات الحرم لا بد من إدخاله، وطال النزاع بينهم ووافق أهل المدينة كبار العسكر في عدم إدخاله ووقع في المدينة ضجة واتسع الأمر حتى آل إلى القتال، وابتدأ ذلك (علي قنا) ومن كان معضداً له من الأغوات، وكان معهم بعض من قبيلة حرب، فصعدوا منائر الحرم الشريف وترسوها وأغلقوا أبواب المسجد وترسوا بعض البيوت التي بجانب الحرم النبوي وعزموا على محاربة العسكر ومن يعضدهم من أهل المدينة، فرفع كبار العسكر وأهل المدينة أمرهم إلى قاضي الشرع خوفاً من وقوع الفتنة، فأرسل قاضي الشرع للأغوات يمنعهم من الفتنة ويطلبهم للحضور إلى مجلس الشرع فامتنعوا عن الكف والحضور عند القاضي، فسجل عليهم القاضي أنهم عصاه بغاة يجب قتالهم، فقتل في تلك الفتنة أشخاص من الفريقين، وجنح الأغوات بعد ذلك للسلم فأبى العسكر إلا بعد تسليم الأغوات القائمين مع (علي قنا) وحبسهم،

لأهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهذا من البدع المحدثه التي ليست من الدين

الإسلامي في شيء، نزهة الناظرين لجعفر البرزنجي ص ٢٥٢.

(١) - لم أعثر له على ترجمة.

ثم يرفع أمرهم لشريف مكة مبارك بن أحمد بن زيد^(١) الذي طلبهم إلى مكة بعد ذلك ، وبعد مداوولات مع العلماء والأعيان رأى حبسهم إلى أن يرفع الأمر للدولة، ويأتي الجواب بحقهم ، فجاء الجواب بالحكم بعزل بعضهم ونفي بعضهم، ومازال الأغوات يسعون في الانتقام من أهل المدينة لدى الدولة حتى جاء الأمر بقتل أشخاص منهم السيد عبدالكريم البرزنجي^(٢) وابنه حسن^(٣) ونفي أشخاص آخرين ، وقد نفذ القتل في عبدالكريم البرزنجي في جدة وهرب ابنه حسن إلى مصر.

٣- فتنة سنة ١١٤٨ هـ :

يذكر صاحب (الأخبار الغريبة) أنه (في زمن شيخ الحرم بك بشير آغا وقعت فتنة عظيمة بين أهل المدينة وأغوات الحرم، فأدخل شيخ الحرم بك بشير آغا^(٤) الأعراب من حرب المسجد النبوي الشريف

(١) - هو الشريف مبارك بن أحمد بن زيد تولى إمارة مكة مرتين الأولى سنة ١١٣٢ هـ، ومدتها سنتان ونصف ، والثانية ١١٣٦ هـ ومدتها خمسة أشهر خلاصة الكلام ص ١٧١، ١٧٩.

(٢) - هو عبدالكريم بن محمد البرزنجي، قتل في جدة بموجب أمر سلطاني سنة ١١٣٤ هـ، ويعرف عند أهل جدة بالمظلوم. تحفة المحبين ٨٨، تراجم اعيان ١١٧

(٣) - ستأتي ترجمته ص ٨١

(٤) - لم أعثر له على ترجمة.

وأغلق أبوابه، وأطلعهم على المنائر فصاروا يرمون بالرصاص على الناس، ويصيب ذلك جميع من حول المسجد الشريف واستمر ذلك خمسة وأربعين يوماً^(١).

وقد نظم السيد جعفر البيهقي قصيدة يشتكي فيها إلى الشريف مسعود بن سعيد أمير مكة لإنهاء الضرر الواقع على أهل المدينة من جراء هذه الفتنة .

ولم تذكر المراجع سبباً لهذه الفتنة ، ولكن يبدو أنها كغيرها من الفتن ناتجة عن تعدد السلطات والصراع على السلطة.

٤ - فتنة كابوس سنة ١١٥٥ هـ :

حدثت هذه الفتنة في زمن شيخ الحرم عبدالرحمن آغا الكبير^(٢) وسميت هذه الفتنة بهذا الاسم نسبة إلى (حسن كابوس)^(٣) وهو رجل عسكري يملك دكاناً يبيع فيه الحبوب، وملخص هذه الفتنة أن عثمان

(١) - الأخبار الغريبة لجعفر هاشم ص ١٥ .

(٢) - لم أعثر له على ترجمة .

(٣) - هو حسن كابوس ترجم لعائلته الأنصاري في تحفته ووصفه بأنه بطل شجاع مشهور في جميع الأمور، ولكنه قليل حظ، كان يتعاطى بيع الحبوب بباب المصري وقتل في دكانه سنة ١١٥٦ هـ ، وثارت الفتنة بسبب ذلك . تحفة المحيين ص ٤١١ .

بك^(١) أتى بمال الغلال فأخذه ومنع كل ذي حق حقه، بعد أن اتفق مع رؤساء عسكر القلعة، فحصل احتكاك بين أناس تزعمهم (حسن كابوس)، وبين من في القلعة، ثم انتهى الأمر صلحاً إلا أن شيخ الحرم ومن معه أثاروا الفتنة التي شارك فيها بعض أهل المدينة، واستفحل الأمر حتى وقع القتل من الفريقين بما فيهم حسن كابوس، فأرسل شيخ الحرم للدولة يعرفها بذلك، وكذلك أرسل إلى والي جدة، والي الشريف مسعود أمير مكة، فأرسل الشريف مسعود جرادة^(٢) ودسّ إلى أميرها بأن شيخ الحرم إن لم يطع أهل القلعة في مطلوبهم فانت معهم عليه، وبلغ ذلك شيخ الحرم فاستنجد بمشائخ حرب ومكنهم من المدينة، فأرسل الشريف مسعود في أمر الصلح بينهم ظاهراً وكان مباطناً لأهل القلعة، فتمت الهدنة إلى أن وصل الحاج الشامي ومعم (فرمان)^(٣) بعزل عبدالرحمن آغا الكبير شيخ الحرم، ونصب عبدالرحمن آغا الصغير^(٤)، وذلك سنة ١١٥٦ هـ حيث كان أمر الدولة مبنياً على العروض التي أرسلها الشريف وغيره، وقد شارك محمد سعيد سفر^(٥)

(١) - لم أعثر له على ترجمة.

(٢) - في القاموس : الجريدة: خيل لارجاله فيها، القاموس المحيط (جرد).

(٣) - فرمان : أمر سلطاني .

(٤) - لم أعثر له على ترجمة.

(٥) - انظر: الملاحم ص ٢٦٥ من هذا البحث .

وجعفر البيهقي^(١) في وصف هذه الفتنة ورفع الشكوى لشريف مكة والدولة.

٥- ذكر صاحب (الأخبار الغريبة) سلسلة من الفتن التي بدأت سنة ١١٨٧هـ واستمر اندلاعها بين الفينة والفينة حتى نهاية القرن.

وقد بدأها بفتنة جماعة القمقمجي^(٢) سنة ١١٨٧هـ والذي كان يشغل منصب (كتخدا نوبجتيان)^(٣)، حيث حصل شقاق بين عسكري القلعة والنوبجتيية، فتدخل شيخ الحرم وأمر بحبس بعض النوبجتيية إلى أن يصل رد الشريف أحمد بن سعيد^(٤) أمير مكة حيث أرسل إليه شيخ

(١) - انظر: الملاحم ص ٢٥٤ من هذا البحث .

(٢) - هو محمد جلبي بن مصطفى بن محمد آغا بن جعفر بيك بن مصطفى باشا، ومصطفى باشا أحد وزراء السلطان محمد خان، يذكر الأنصاري أن أول من قدم منهم المدينة هو جدة محمد آغا في حدود سنة ١١١٠هـ، وقد ولد محمد جلبي بالمدينة سنة ١١٣٩هـ، ونشأ بها حتى صار صاحب ثروة عظيمة، وصفه الأنصاري بأن له همة عالية وأخلاق رضية. تحفة المحبين ص ٣٩٦.

(٣) - كبير عسكري المناوبة.

(٤) - هو أحمد بن سعيد بن سعد بن زيد، تولى شرافة مكة سنة ١١٨٤هـ بعد نزول أخيه عبدالله عنها له، وقد نزعته منه في نفس السنة حيث تولى الشريف عبدالله بن حسين البركاتي، ولكنه عاد إليها في نفس السنة وبقي بها إلى أن انتزعها منه ابن أخيه الشريف سرور بن مساعد بن سعيد سنة

الحرم يعرفه بأمرهم ويطلب رأيه فيهم.

لكن بعض النوبجتيه لم يرضه حبس هؤلاء نفر، فطالبوا بإطلاقهم مما أدى إلى انقسام النوبجتيه إلى قسمين قسم يرى رأي شيخ الحرم وقسم يخالفه، فأصر المخالفون وأطلقوا المسجونين رغماً عن شيخ الحرم، وطالبوا أيضاً بعزل بعض عسكر الوجاق^(١) مما اضطر شيخ الحرم والققمجى إلى الاستعانة بعسكر القلعة، ثم أرسل شيخ الحرم إلى الشريف أحمد بن سعيد يعرفه بهذا الأمر، فردّ الشريف بأن لا يتعرض أحد لوجاق غيره، وأن يرسل إليه في مكة الجماعة الذين حصل منهم الفساد.

واضطر المتحالفون إلى المصالحة ظاهراً، على أن لا يخرج أحد من وجاق إلى وجاق، وكتبوا بينهم حجة شرعية.

ولكن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً، حيث اندلعت الخلافات بين وجاق القلعجية^(٢) ووجاق النوبجتيه ورفع الأمر للشريف سرور بن مساعد في أول ولايته، فطلب أن يرسل إليه مسببي الفتنة من جماعة الققمجى الذي رأى أن يذهب بنفسه إلى مكة لمقابلة الشريف سرور وإطلاعه على الأمر، ولكنه عزل أثناء وجوده في مكة وعين مكانه أحمد

١١٨٦هـ. خلاصة الكلام ص ٢٠١.

(١) - وجاق : الوجاق الطائفة من الجند، تحفة المحبين ص ٤٧.

(٢) - القلعجية: عسكر القلعة.

مكي^(١) مما اضطر القمقجي لطلب قوة من الشريف سرور لاسترجاع منصبه، فبعث معه الشريف بعض الأعيان وطلب من شيخ قبيلة حرب أن يعينه، فدخل القمقجي المدينة ونشبت حرب بينه وبين أحمد مكي وجماعته، واستمرت الحرب إلى أن وصل أمير الحاج الشامي محمد باشا العظم^(٢)، والذي كان مفوضاً من قبل الدولة لتعيين الكتخدا الذي يراه مناسباً، فعين القمقجي وأخذ أحمد مكي وسلّمه للشريف سرور بمكة ثم أذن له الشريف فيما بعد بالعودة إلى المدينة بشرط أن يلزم أدبه ويلتزم بيته ولكن شيخ الحرم لم يرضه ذلك فكتب إلى الدولة عرضاً ضد القمقجي وذلك باطلاع من جميع أعيان المدينة.

(١) - هو أحمد بن عمر بن حسن بن مكي حسن، ذكر الأنصاري أنه نشأ نشأة صالحة وصار في وفاق النوبختية فصار جاوشاً ثم بيرقداراً ثم تولى كتخدا، ويذكر عند تأليفه التحفة أن أحمد محبوس في القنفذة بعد الفتنة المذكورة. تحفة المحبين ص ٤٤٨.

(٢) - محمد باشا العظم، هو محمد بن مصطفى بن فارس بن إبراهيم، ولد بدمشق سنة ١١٤٣هـ اتصل بالسلطان العثماني مصطفى بن أحمد حيث قلده رتبة الوزارة، تولى الشام سنة ١١٧٦هـ، ثم حلب، ثم إيالة الرها، فإيالة صيدا، ثم ولي الشام وإمارة الحج سنة ١١٨٥هـ و ١١٨٧هـ، واستمر في ولاية دمشق إلى أن توفي سنة ١١٩٧هـ. سلك الدرر ص ٩٧.

٦- فتنة الدوس^(١) / سنة ١١٨٩ هـ :

حدثت هذه الفتنة قبل وصول الأوامر السلطانية بعزل القمقمجي، وذلك أنه وقعت ضجة أثناء صلاة الجمعة، فظن كل من جماعة القمقمجي وجماعة أحمد مكي أن الآخر هجم عليه، لأن كلا من الآخر على حذر، فصار ازدحام الناس على باب الرحمة حيث مات نحو ثلاثين رجلاً، وحدث قتال بين جماعة القمقمجي وجماعة أحمد مكي في المسجد وخارجه.

وعندما علم الشريف سرور^(٢) بأمر الفتنة أرسل شخصاً من طرفه فعقد بينهم هدنة إلى مجئ الحاج الشامي، فوصل أمير الحاج الشامي ومعه الأمر السلطاني بعزل القمقمجي وحمله وتسفيره إلى الدولة، إلا أن الشريف سرور طلب من أمير الحج أن يسلمه القمقمجي وإلا منعه من الحج، فكان له ذلك، ثم أذن الشريف سرور للقمقمجي بالعودة إلى المدينة، وذلك بعد تولي منصب الكتخدا أحمد مكي بموجب الأمر السلطاني.^(٣)

(١) - الدوس : شدة وطء الشيء بالأقدام. لسان العرب (دوس)، وسميت هذه

الفتنة بذلك لكثرة ما حصل فيها من الموت بسبب الازدحام والدوس.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٤٠.

(٣) - الأخبار الغربية جعفر هاشم (مخطوط) ص ٤٠ وما بعدها.

- فصول من تاريخ قبيلة حرب للبدراني ص ٢٤١ وما بعدها.

٧- فتنة الشريف سرور:

يذكر صاحب (الأخبار الغريبة) أن الشريف سرور بن مساعد وصل إلى المدينة في شهر رجب سنة ١١٩٤هـ؛ لنصرة القمقمجي الذي سبق وأن وعده بأنه سيأتي لنصرته.

وقد بدأت الفتنة بالقبض على نجاب^(١) خارج من المدينة معه كتاب من بعض أهل المدينة إلى قبائل حرب يحثونهم على قتال الشريف سرور من خارج المدينة في نفس الوقت الذي يقاتله فيه هؤلاء من داخل المدينة، فقبض الشريف سرور على الذين أرسلوا الرسالة، وطلب منهم تسليمه القلعة، ولكنهم رفضوا ذلك، فأراد أن يستولي عليها ولكن أهل القلعة حصنوها وصوبوا المدافع والبنادق على عسكر الشريف، فوقع القتال بينهم حتى انتهى الأمر باستيلاء الشريف سرور على القلعة، ووضع فيها حامية من أهل اليمن، ثم عاد إلى مكة بعد أخذ معه نحو خمسين رجلاً من خصومه.

ولكن بعد مسير الشريف سرور هجم بعض خصومه على القلعة وأخرجوا الحامية منها، فلما علم بذلك الشريف سرور أرسل جيشاً

- مجلة العرب سنة ٢٠ ص ٤٤١.

(١) - في القاموس (المنتجب) المختار من كل شيء، لسان العرب (نجب) والمقصود بالنجاب هنا من اختيار لحمل الرسالة.

لقتالهم، ولكنه عاد منهزماً إلى مكة وهو ما يسمى بفتنة (الجردة)^(١) وإذا تأملنا هذه الفتن السابقة وجدنا أطراف النزاع التي اشتركت فيها أطرافاً عديدة، فأهل المدينة وشيخ الحرم وكبار العسكر وأمير مكة وقبيلة حرب وأمراء الحج كلهم أطراف كان لهم دور في هذه الفتن. وقد لعبت قبيلة حرب دوراً كبيراً في الحوادث الواقعة في المدينة وذلك بحكم سكنهم في المناطق المجاورة، ومرور الحجاج في أراضيهم، فتارةً تكون طرفاً مباشراً كما في فتنة بني علي سنة ١١١١هـ^(٢)، وتارةً يتقوى بها طرف من الأطراف المتنازعة داخل المدينة - كما مر معنا - أو يحدث صدام مع الحجاج الذين يمرون في تلك الأراضي أو يكون الصدام مع حاكم الحجاز مباشرة كما حدث سنة ١١٩٤هـ مع الشريف سرور في طريقه من مكة إلى المدينة. وقد أدى الخلاف الكبير بين هذه الأطراف وضعف نفوذ السلطة

(١) - في القاموس (الجريدة): خيل لا رجالة فيها. المحيط (جرد)

وللتوسع في خبر هذه الفتنة انظر:

- كشف الحجب والستور عمّا وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور لمحمد

البرزنجي مجلة العرب س ٢٠ محرم / صفر ١٤٠٦هـ .

- الأخبار الغربية لجعفر هاشم ص ٧٨

- خلاصة الكلام لدحلان.

(٢) - انظر: ص ٣٠ من هذا البحث.

الحاكمة إلى الفوضى الإدارية والسياسية، حتى أصبح من الصعب تحميل أي طرف من هذه الأطراف تبعات هذه الحوادث، حيث أن كل طرف يريد أن يكون له النفوذ والسلطة، وكل طرف يرى أنه صاحب حق يجب أن يدافع عنه.

وقد يتبادر للذهن أن لا مكان للشعر في هذه الحياة المضطربة والتي ينعدم في أكثر أحوالها الأمن والإطمئنان، وتشيع فيها الفوضى والذعر، وذلك لانشغال الناس بشؤونهم الخاصة، ومتطلبات حياتهم الضرورية، ولكن الواقع الأدبي غير ذلك فقد نظم الشعراء في شتى الأغراض والفنون، وكانت هذه الحياة المضطربة مجالاً خصباً للشعراء حيث شاركوا واصفين لها ومحللين، وهو ما سنتعرف عليه في هذا البحث.

ب - الناحية الاجتماعية :

١ - الأجناس :

يتكون سكان المدينة من أجناس شتى تنتمي إلى مختلف البلاد الإسلامية، فإلى جانب السكان الأصليين هناك من وفد من بلدان مختلفة منذ العصور الإسلامية الأولى.

إلا إنه قد ازداد عددهم في القرنين السابقين - العاشر والحادي عشر - حتى أصبح هؤلاء الوافدون يشكلون أغلبية السكان داخل سور المدينة^(١).

لذا نجد أن كثيراً من الكتب التي ترجمت لأعيان سكان المدينة في هذه الفترة تذكر البلد الأصلي الذي قدم منه المترجم له وسنة قدومه مع ذكر سبب القدوم، فإما أن يكون للمجاورة أو للتجارة أو لشغل وظيفة من الوظائف المدنية مثل القضاء والتدريس وخدمة الحرم، أو وظيفة عسكرية في أحد القطاعات التي مرت بنا في الحديث عن الناحية السياسية^(٢).

(١) - انظر الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري للدكتور عائض الراددي ص ٨٦ وما بعدها.

(٢) - ترجم الأنصاري في كتابة (تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب) لكثير من الأسر في المدينة، ولكن هذا الكتاب عليه مآخذ نجدها في حديث عن الكتاب للسيد عبيد مدني نشرته مجلة المنهل (سنة ٣٦ مجلد

وتسمى كل أسرة من أسر المدينة باسم معين نسبة إلى جد هذه الأسرة الوافد إلى المدينة، أو نسبة إلى مهنته، أو إلى اسم البلد الذي قدم منه، ويطلق على كل أسرة اسم (بيت) كما هو الحال في وقتنا الحاضر مثل: بيت البساطي، وأسرة آل هاشم، وبيت البرزنجي.^(١)

أما سكان المدينة الأصليون فمنهم الأشراف بنو حسين الذين لم يبقَ

٣١ ، شوال ١٣٩٠) وما بعدها حيث يذكر إن المؤلف (أهملاً أسراً كانت موجودة في المدينة المنورة عندما وضع كتابه ولا يمكن القول إنها كانت من تفاهة الشأن وضالة المركز بحيث لا تستحق الذكر بل كان لها مقام وبروز، ومما يثبت ذلك أن المرحوم الداغستاني ترجم لبعضهم وذكرهم بعض الرحالة الذين زاروا المدينة في تلك الحقبة ونحوها وكتبوا عنهم كالسيد العباس المكي والشيخ عبدالغني النابلسي وغيرهما غير أن المؤلف ذكر أسراً لاتضارع من أهمهم ولا يبلغ مستواهم) ، ويقول المؤلف عن بعض البيوت .. أصلهم من الترك أو من السند أو من .. الخ، مع أن من هذه البيوت من كانوا علويين أو عرباً أقحاحاً أصلهم من المدينة ونزح أجدادهم عنها لأسباب مختلفة وتناسلوا في المهاجر التي ساروا إليها ثم عاد من أحفادهم من عاد إلى الوطن الأصلي) كما (زيف المؤلف نسب بعض الأسر وعلل ألقاب بعضها بما يخدم كرامتها كما نال بعض الأشخاص بالتجريح ..، والطعن في الأنساب مركب صعب لا ترسل الأقوال فيه على عواهنها...).

(١) - انظر: تحفة المحبين للأنصاري وتراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني

منهم إلا القليل بسبب نزوحهم عن المدينة في عصور سابقة لأسباب سياسية واقتصادية.

ومنهم من ينتسب إلى قبيلة حرب ، ومنهم النخاوله الذين هم خليط من أجناس وقبائل مختلفة، اجتمعوا تحت هذا الاسم نسبة إلى فلاحه النخيل التي يحترفونها. ويعيش غالبية هؤلاء الآخرين خارج سور المدينة أو في القرى القريبة المجاورة للمدينة مثل قباء وقربان والعوالي.

٢ - المعيشة :

كانت المعيشة في المدينة المنورة بصفة عامة مزدهرة نسبياً، وإن كانت لا بد أن تتأثر بالحوادث والفتن المتلاحقة التي سبق الحديث عنها عند الحديث عن الناحية السياسية، وخاصة في أواخر هذا القرن. وكان هذا الازدهار يعود إلى وجود موارد ثابتة للرزق كان أهمها الحجاج والزائرين الذين يفدون إلى الحجاز، حيث يقضون مدة من رحلتهم في المدينة تصل إلى بضعة أشهر في بعض الأحيان، وكان السكان يستفيدون من هؤلاء الوافدين أموالاً لقاء تقديم الخدمات المختلفة لهم وتوفير كل ما يحتاجه الحاج أو الزائر أثناء إقامته ، أو للتزود لإكمال سفره، كما أن الكثير من السكان كانت تدفع لهم مرتبات ومخصصات مالية من خزينة الدولة، إضافةً إلى الهدايا والنذور

التي تأتي إلى أهل المدينة من شتى البقاع الإسلامية^(١)، لكن هذه الجرايات والأموال أهمها ما كانت تدفعه الدولة العثمانية لأهالي الحرمين، وقد كانت تكثر وتقل، وبسببها حدث كثير من الخلافات السياسية بين الولاة والأشراف، وكثيراً ما كانت تنقطع بسبب ذلك ولا تصل للأهالي، ولعل فتنة سنة ١١٥٥ هـ بالمدينة (كما مرّ في الحياة السياسية) خير مثال لما تؤدي إليه هذه الموارد من قلاقل، وكانت ينبع هي المنفذ البحري الذي تأتي عن طريقه هذه الهبات والجرايات إلى المدينة.

وكان أغلب المجاورين الوافدين إلى المدينة من الموسرين الذين أتوا إلى المدينة وبجوزتهم أموال طائلة استطاعوا أن يشتروا بها المنازل والمزارع وذلك لتأمين حياتهم وحياة أبنائهم، حيث كانوا -غالباً- ما يوقفون هذه الأملاك لكي يستفيد منها الأبناء جيلاً بعد جيل.^(٢)

كما أن كثيراً من السكان - كما أسلفنا - يشتغلون بالزراعة حيث كانت تكثر المزارع وخاصة في أطراف المدينة والقرى المحيطة بها، حيث تنتشر زراعة النخيل التي تمثل الزراعة الرئيسة إلى جانب الفواكه

(١) - انظر - الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر للردادي ص ٨٦ وما بعدها

- الشعر في الجزيرة العربية في قرنين للحامد ص ٢٤.

(٢) - انظر تحفة المحبين للأنصاري حيث تحدث عن بعض من وفدوا إلى المدينة

من هؤلاء الميسورين في أثناء ترجمته للأسر.

الأخرى مثل العنب والرمان والتين، وكذلك الخضار والحبوب المختلفة.^(١)

كما أن الحركة التجارية كانت نشطة ويعود ذلك لكثرة الوافدين للبحر والزيارة، وإلى ورود الكثير من سكان البادية والقرى المحيطة الذين يأتون إلى المدينة لبيع ما لديهم من منتجات حيوانية ونباتية، وشراء ما يحتاجونه من ضرورات الحياة المختلفة.

ولا يعني هذا ازدهار هذه الناحية بصفة كبيرة، وإنما ربما كانت المدينة أسعد حالاً من غيرها سبب هذه العوامل، والتي لا تخلو فيها المعيشة من كثير من الكدر والتنغيص.

٣- العادات والتقاليد:

تميزت عادات أهل المدينة عن عادات سكان مدن الحجاز الأخرى، ويرجع ذلك لطبيعتها التاريخية والجغرافية، إضافةً إلى تركيبها السكانية التي تتكون من أجناس شتى.

ولكن المراجع التي اعتمدت عليها في الدراسة، لم تظهر لنا الصورة الكاملة والواضحة لعادات أهل المدينة في القرن الثاني عشر، والتي نجدها عند أبي سالم العياشي في رحلته المسماة (ماء الموائد)، والتي

(١) - الحقيقة والحجاز لعبدالغني النابلسي.

كانت آخر رحلة له للحرمين وذلك في سنة ١٠٧٢هـ^(١)، والتي ليست بعيدة عن هذا القرن موضوع الدراسة، وقد اعتمد عليها كثير من الرحالة المغاربة الذين جاءوا إلى الحرمين في القرن الثاني عشر^(٢). فعن عادات أهل المدينة يقول العياشي: (وأهل المدينة أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغال في الملابس الفاخرة، وتزيّوا بزّي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها، ... ، وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام، يشترّون الحصص والجامكية^(٣) فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة،

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٦

(٢) مثل: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام لعبدالمجيد الزبادي المنالي، الخزانة العامة الرباط مخطوط رقم ك ٣٩٨.

- محمد بن أحمد الجزولي الحضيكي (رحلة إلى الحرمين الشريفين) رقم ٨٩٦. الخزانة العامة - الرباط.

- الرحلة الحجازية (أبومدين ابن الصغير الدرعي) الخزانة العامة - الرباط رقم ف ٢٩٧.

- رحلة أحمد بن محمد الدرعي الجعفي .

- ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي عرض وتلخيص حمد الجاسر.

(٣) - الجامكية : كلمة تركية تعني الراتب - تحفة المحبين ص ٥٥.

فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويائها^(١)

وعن نساء المدينة يقول: (بيد أن نساءهم يبالغن في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبرة، حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، ويتبرقعن ويسدلن من أزهرن ما يكون نهاية في الستر)^(٢)

ومن عادة أهل المدينة في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محققون بهم. ومن عاداتهم يوم الجمعة الخروج للبقيع ووضع الرياحين الكثيرة على القبور.^(٣) ومن عاداتهم تزيين المسجد النبوي والمبالغة في تنظيفه في ليلة مولد النبي ﷺ استعداداً لإحياء ذكرى المولد، حيث تخرج في هذه الليلة مصابيح خاصة توقد بعد المغرب، وتبسط البسط الرفيعة، ويأخذ الناس بالاجتماع حتى إذا كان بعد صلاة العشاء جلس الأمراء على الفرش المعدة لهم، كل على مرتبته، وجلس الشعراء والمنشدون أمامهم، حتى إذا امتلأ قام المنشدون بإنشاد غرر القصائد في مدح النبي ﷺ، ثم يسقى الحاضرون بأنواع من الأشربة الحلوة، وتفرق أنواع الرياحين والأزهار واللوز والسكر وأنواع

(١) - حمد الجاسر مقتطفات من رحلة العياشي ص ١٤٩.

(٢) - المرجع السابق ص ١٥٧.

(٣) - المرجع السابق ص ١٥٢.

الخلوى، ولا يزال هذا الاحتفال إلى قريب نصف الليل. ^(١) ومن عاداتهم خروج الناس من أول رجب وتوافدهم من أقطار الحجاز لزيارة قبر سيدنا حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، حيث تضرب الخيام وتنصب الأسواق، فإذا تكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر حصل في تلك الليلة اللهو واللعب والرمي بالمدافع والمحارق، وقضى الناس طول ليلهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر. ^(٢)

وبعد الرجوع من أحد ينزل الوافدون في المدينة ينتظرون الرجبية وهي ليلة سبع وعشرين منه ليلة المعراج، حيث يفد خلق كثير من الأعراب، وتقوم بالمدينة سوق عظيمة، ويمتلئ المسجد ويغص بمن فيه ويفتح طول الليل ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة. ^(٣)

ومن عادة أهل المدينة إذا كان يوم السابع عشر من شهر ذي القعدة أن يجتمع الأكابر والأعيان وغيرهم في المسجد النبوي بعد صلاة الصبح فيرفعون البسط وينقلون المصاحف إلى داخل الحجرة النبوية، ثم يكنسون سطح الحرم الشريف والقبة وسائر أجزاء الحرم، ويسمى هذا

(١) - حمد الجاسر مقتطفات من رحلة العياشي ص ١٥٢، ١٥١.

(٢) - المرجع السابق ص ١٢٧

- رحلة عبدالغني النابلسي الحقيقة والمجاز ص ٤٠١.

- رحلة أحمد بن محمد الدرعي ص ٢٥.

(٣) - حمد الجاسر مقتطفات من رحلة العياشي ص ١٧٠.

اليوم (يوم الكنيس)، ويجتمع فيه أولاد المدينة حيث يرمي لهم خدام الحرم من السطح الكعك والأقراص والنقل، ويلبس أهل المدينة في هذا اليوم أحسن ملابسهم، ويهنئون بعضهم بعضاً ويستبشرون به وكأنه يوم عيد.

ويقول عبدالغني النابلسي في وصف هذا اليوم وذلك عند زيارته

للمدينة سنة ١١٠٥هـ :

يا رعى الله حُسن يوم الكنيس	فيه قاموا بغاية التقديس
حرمٌ طيبٌ لطيفةً تزهو	بمعاليه نفسٌ كلُّ رئيس
كنسوا سقفه وقامت رجال	لقماماته بفرط رسيس
تربه التبر والقمامة مسك	ونفيس موفق لنفيس
حضر الناس فيه وقت صباح	حيث هم في التربع والتسديس
يخدمون المكان بالقلب منهم	طاعةً للإله بالتأسيس
وتضحُّ الصغارُ فيه صباحاً	عادةً يا لسادة التأسيس

ومن عادة أهل المدينة في آخر شهر ذي القعدة أن ينصب كل جماعة

منهم خيمة على طرف جبل سلع لاستقبال الحاج الشامي. (١)

ومن عادات أهل المدينة الخروج للتنزه والتفرج في البساتين خارج

المدينة حيث يعدون الأطعمة المختلفة ويلهون ويمرحون ويسمون هذا

(١) - عبدالغني النابلسي (الحقيقة والمجاز) ص ٤٣٠ - ٤٣١.

الخروج (القبيلة).

وكذلك خروجهم عندما يسيل وادي العقيق حيث ينصبون الخيام على طرف الوادي ويعدون الأطعمة وقد يقيمون به يوماً أو أكثر في سرور ولهو وطرب.^(١)

ومن عاداتهم في عقد النكاح أن يكون في المسجد النبوي بحضور حشد من الناس، حيث تلقى خطب وقصائد خاصة بهذه المناسبة، ثم تفرق الرياحين واللوز والسكر على الحاضرين، وينتهي المجلس بتهنئة الحاضرين للمتعاقدين.^(٢)

هذا بالنسبة لعادات السكان داخل المدينة، أما السكان خارج سور المدينة والقرى المحيطة بها فقد كان لهم عادات مختلفة في بعض الجوانب عن عادات من بداخل المدينة، ومرد هذا الاختلاف هو طبيعة معيشة هؤلاء السكان حيث الاشتغال بالزراعة وتربية الحيوانات من جهة، ووحدة الجنس لهؤلاء السكان حيث ينتمون للقبائل العربية المحيطة بالمدينة من جهة أخرى والتي غلب عليها طابع البداوة^(٣).

(١) - مقتطفات من رحلة العياشي ص ١٦٨ ، رحلة النابلسي ص ٤٣١ .

، رحلة أحمد بن محمد الدرعي ص ٧١

(٢) - مقتطفات من رحلة العياشي ١٥٥ ، خطب وقصائد من إنشاء حسن

بوسنوي مخطوط مكتبة عارف حكمت ٨١٠/٣٥

٣ - عبدالله الحامد الشعر في الجزيرة في قرنين ص ٤١-٤٤ .

ولا ريب أن هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية للمدينة المنورة
حفل بها شعر القرن الثاني عشر، ودل على حفاوة الشعراء برصد كثير
منها، وسرى ذلك في موضوعات الشعر المختلفة الآتية في هذا البحث.

ج - الناحية العلمية :

ظلت المدينة المنورة مركزاً علمياً على مر العصور الإسلامية، لمكانتها الكبيرة لدى المسلمين، والتي جعلتها مهوى أفئدتهم بعد مكة المكرمة، حيث يفدون إلى الأماكن المقدسة من كل فج عميق لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ والصلاة فيه.

لذلك ظلت رغبة المسلمين في زيارة المدينة وسكنائها مستمرة على اختلاف الأجيال والعصور، وكان العلماء في كل مكان من العالم الإسلامي في طليعة من يحدوهم الشوق للتشرف بزيارة الأماكن المقدسة، والعودة إلى الديار، أو المجاورة لمدة تطول أو تقصر.

وكان ذلك من أهم الأسباب التي جعلت المدينة دائمة الصلة بالمراكز العلمية الكبرى في مشارق الأرض ومغاربها بالرغم من صعوبة المسالك وطول الطريق.

وكان جل العلماء الذين ذكرتهم المراجع المختلفة في هذه الفترة ممن قدموا من بلاد إسلامية مختلفة أو هم من أبناء وأحفاد علماء قدموا في القرنين السابقين لهذا القرن، حيث شهدت المدينة قدوم أعداد كبيرة من العلماء إليها^(١)، وكان لهؤلاء العلماء إلى جانب العلماء من أبناء المدينة

(١) - انظر: تحفة المحبين والأصحاب للأنصاري

- تراجع أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر تحقيق التونجي .

الدور الكبير في تنشيط الحركة العلمية، فكان تأثر العلماء المجاورين والوافدين بالعلماء المقيمين تأثراً مشتركاً، (فكل من المقيم والمجاور أعطى للآخر علماً وأخذ منه مثله، فكم من عالم تشوق لرؤية عالم آخر وحال دون منيته بعد الشقة، حتى إذا قدم الحجاز تحقق له أمله، وكم من عالم آخر في الحجاز وفر عليه مقامه فيه شقة الرحيل إلى أحد الأقطار الإسلامية للأخذ عن عالم سرت بخبر علمه الركبان)^(١).

وعند النظر في كتب التراجم والرحلات^(٢) التي تحدثت عن هذه الفترة نجد الحرص الشديد على مقابلة العلماء والأخذ عنهم، فهذا الشيخ عبدالغني النابلسي^(٣) في رحلته (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز)، يذكر عدداً من العلماء والشيوخ والمدرسين الذين قابلهم في المدينة سواءً في المسجد النبوي أو في الزيارات الخاصة، حيث لا تكاد تخلو مقابلة له مع أحد منهم من المذاكرة العلمية والمطارحة الأدبية والبحث في مسائل معينة، أو قراءة أحد الكتب عليه، أو الاطلاع على كتاب عند مؤلفه.

وكان طالب العلم قبل أن يتجه إلى الحلقات العلمية في المسجد

(١) - الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري للدكتور عايض الرادادي

ص ١٠٢.

(٢) - سيأتي الحديث عنها ص ٧١ وسبق الحديث عنها ص ٤٨

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢

النبي الشريف، يكون قد تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئاً من القرآن الكريم، وذلك عن طريق التحاقه بأحد الكتاتيب^(١) الموجودة في المساجد وخاصة في مؤخرة المسجد النبوي وعادة ما تكون خاصة بتعليم القرآن الكريم، ويكون بعضها الآخر في مكان خاص يتصدى فيه شيخ واحد لتدريس الطلاب، أو عن طريق الزوايا^(٢) والمدارس التي أنشأها عادة ثم أوقفها أحد الشخصيات الهامة في الدولة سواءً من العلماء أو الأثرياء أو كبار موظفي الدولة، حيث يوقف عليها عادة مزارع وعقارات لتلبية احتياجات المدرسة وصرف رواتب القائمين بالتدريس بها^(٣) وربما دفع أحدهم مبلغاً كبيراً من المال لشراء وظيفة

(١) - الكتاب: هو الموضع المخصص لتعليم الصبيان، يتعلمون فيه القراءة والكتابة والقرآن الكريم والحساب. انظر: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٦٢، التعليم في المدينة المنورة ص ١٩٣.

(٢) - الزوايا جمع زاوية: وهي مكان ملحق بالمسجد أو بالرباط يتلقى فيها الصبيان علوم الدين واللغة العربية، ويعقد فيها مشائخ الصوفية حلقات الذكر. انظر: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٦٢، التعليم في المدينة المنورة ص ٢٢٥.

(٣) - تحفة المحبين والأصحاب للأنصاري ص ٢٦٦، حيث ذكر شخصاً اسمه محمد بن زاهد كان يعلم الصبيان في مؤخر المسجد النبوي محل والده.

التدريس في إحدى هذه المدارس.^(١)

وإذا ما أراد الطلاب المتخرجون من الكتاتيب والمدارس الدينية اكمال دراستهم، فإنهم يتجهون إلى المسجد النبوي حيث كانت حلقات التدريس عامرة بالطلاب سواءً من المتفرغين للعلم، أو من أصحاب الأعمال الذين لا يستطيعون التفرغ للعلم بسبب البحث عن لقمة العيش، ويحضر بعض هؤلاء الطلاب علوماً معينة، وبعضهم يحضر الوعظ والإرشاد والفقه والتوحيد، إلا أن الدراسة لم تكن منظمة تنظيمياً دقيقاً أو ملزماً، فكل طالب موكول لرغبته وجهده في الدراسة، يدرس العلم الذي يريده، ويحضر الدرس الذي يناسبه، ولا توجد اختبارات للطلاب غير أن المدرس إذا آانس من الطالب الكفاءة في التدريس يعطيه شهادة خاصة بصلاحيته للتدريس، وبالعلوم التي درسها عليه.^(٢)

وقد تحدثت كتب التراجم عن أسر علمية أشتهرت بجهود أبنائها العلمية، حيث توارث أبنائها العلم كابر عن كابر ومن أشهر هذه الأسر أسرة الشرواني، والياس زادة، والبري، والاسكداري، وآل السمهودي، وآل الأنصاري، وآل الفاسي وآل السندي، وآل

(١) - تحفة المحبين ص ٢٤٧، حيث يذكر شخصاً اسمه عبدالعزيز رضوان اشترى

وظيفة تدريس من مدارس محمد باشا الشهيد بمائة أحمري.

(٢) - التعليم في مكة والمدينة للدكتور الشامخ ص ٦٥.

الخليفتي العباسي، وآل الكوراني، وآل جودة، وآل البرزنجي وغيرهم ممن يضيق المجال عن حصرهم،^(١) والذين ينسب إليهم كثير من المؤلفات والمصنفات في هذا القرن والتي مازالت تحفظ نسخ مخطوطة من كتبهم في مكتبات المدينة العامة والخاصة، وكثير من المكتبات الأخرى.

كما أن للمكتبات وكثرتها في هذا القرن دور كبير في إذكاء الحركة العلمية حيث تأتي الكتب إليها من الأقطار الإسلامية المختلفة، حيث يحرص المؤلف أن يرسل نسخة من كتابه إلى المدينة طلباً للأجر، ولاشتهار كتابه حيث اجتمع العلماء وتوافدهم إلى المدينة - كما أسلفنا- فقد كانت هناك خزائن للكتب بالمسجد النبوي، إلى جانب المكتبات العامة الأخرى، حيث يكون بعضها ملحقاً بالأربطة والمدارس وبعضها مستقل عنه، إضافة إلى المكتبات الخاصة لدى العلماء، حيث يفتحون بيوتهم لاستقبال طلاب العلم للمطالعة والإستعارة.^(٢)

ومما سبق نستخلص أن الحركة العلمية في المدينة في هذا القرن مزدهرة رغم اضطراب الأوضاع في أحيان مختلفة، وليس أدل على ذلك من وجود علم يشار إليه بالبنان في هذا القرن وهو العلامة محمد حياة

(١) - انظر تحفة المحبين للأنصاري، وتراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر .

(٢) - انظر: التعليم في مكة اوالمدينة للشامخ ص ١٠٩ .

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين ص ٧٠ .

السندي. (١)

وكذلك نقرأ في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورحلته في طلب العلم قدومه إلى المدينة بعد حج سنة ١١٣٩هـ واجتماعه بعلمائها وتلمذه عليهم واجازتهم له، ومن أشهرهم عبدالله بن إبراهيم بن سيف ومحمد حياة السندي وعلي الداغستاني واسماعيل العجلوني ومحمد العفالق وعبد اللطيف العفالق، وغيرهم، وقد كان لزيارته تلك أثرها الكبير في انتشار الدعوة بعد ذلك في المدينة.

وفي هذا كله دلالة كبيرة على حركة علمية طيبة، وبذلك يمكن الرد على ابن عبدالسلام الدرعي^(٢) والذي قال في رحلته (والبلد الطيب

(١) محمد حياة بن ابراهيم السندي، العالم المحدث، من اشهر تلاميذه الشيخ محمد

بن عبد الوهاب، توفي سنة ١١٦٣. سلك الدرر ٤/٣٤، الاعلام ٦/١١١.

(٢) - هو محمد بن عبدالسلام بن عبدالله بن محمد الناصري الدرعي نسبة إلى

بلدة درعة التي ولد وتلقى العلم فيها، ثم في مدينة فاس، ودرس على علماء ذوي مكانة في بلاد المغرب وقد قام برحلتين إلى الحج الأولى سنة ١١٩٦هـ والثانية سنة ١٢١١هـ، وقد وصفه الكتاني بأنه أعلم علماء البيت الناصري بالفقه والحديث وأوسعهم رواية وأجرهم قلماً وأعلامهم إسناداً، له عدة مؤلفات منها الرحلة الكبرى والرحلة الصغرى توفي سنة ١٢٣٩هـ. ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي، عرض وتلخيص الشيخ حمد الجاسر ص ٣٥.

كادت أن تعرفوا من متعاطي العلم^(١) ، وقد تسرع الدرعي في هذا الحكم حيث أن المدة التي مكثها في المدينة وهي ثلاثة أيام لا تمكنه من الحكم على الحياة العلمية بدقة، كما أن الدرعي نفسه قد ذكر عدداً من العلماء الأجلاء وأخذ عنهم وأثبت ذلك في رحلته .

(١) - ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي للشيخ حمد الجاسر ص ١٦٣ .

د- الحياة الدينية

أغلب سكان المدينة على مذهب أهل السنة حيث توجد المذاهب الأربعة، المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي، كما وجدت أقلية من الشيعة، ولكن المذهب السائد هو المذهب السني وهو مذهب الدولة العثمانية.

وتشيع في المدينة الطرق الصوفية حيث تنتشر الأربطة والزوايا، فقد عدد صاحب كتاب وصف المدينة^(١) منها زوايا السمان وعبدالقادر الجيلاني، والبدوي، والسنوسي، والقشاشي، والجنيد، وابن علوان، والساوي، والرفاعي وغيرها مما ذكره صاحب الكتاب، والذي ذكر أن هناك زوايا صغيرة ذكرها يوجب الإطالة^(٢) وقد انتشرت البدع الدينية حيث التعلق بالقبور وزيارتها والتوسل بالأموات الذي يصل إلى درجة الاستغاثة بهم، والاحتفاء ببعض المناسبات الدينية التي أصبحت وكأنها من شعائر الله التي يجب القيام بها.

وستتناول بعض هذه التجاوزات الشرعية، والتي لها صلة بموضوع بحثنا والتي وردت في بعض الأشعار التي وصلتنا من شعر هذا القرن، حيث أنه لايسعنا الحديث عن الحياة الدينية بكافة جوانبها.

(١) - وصف المدينة لعلي بن موسى ضمن رسائل في تاريخ المدينة .

(٢) - المرجع السابق ص ٥٣ .

أولاً : التوسل بالنبي ﷺ وبأهل بيته وصحابته رضي الله عنهم أجمعين:

لا ريب أن الأنبياء والصالحين لهم الجاه عند الله، لكن الذين لهم عند الله من الجاه والمنازل والدرجات أمر يعود نفعه اليهم، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا، فإذا توسلنا إلى الله بإيماننا بنبيه ﷺ، ومحبته وطاعته واتباع سنته كان هذا من أعظم الوسائل، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته، فلا يكون وسيلة، فالتوسل إلى الله بذات خلقه بدعة مكروهة، لم يفعلها السلف من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان.^(١)

وعند مطالعتنا للشعر في المدينة في هذا القرن نجد هذا التوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته وصحابته صريح واضح فيه، بل يتعدى إلى أئمة المذاهب الأربعة.

من ذلك قصيدة للبيهي يتوسل فيها بالرسول ﷺ ويتوسل بالصحابة

(١) - للتوسع في هذا الموضوع انظر:

- قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط .

- التوسل حكمه وأقسامه لابن عثيمين والألباني جمع وإعداد علي أبولوز.

- دعاوي المناوتين لدعوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب (عرض ونقض) إعداد عبدالعزيز عبداللطيف.

والآل إلى الرسول ﷺ فيقول:

لُذَّ بِيَابِ الْمَشْفَعِ الْمُخْتَارِ
وَتَوَسَّلْ بِهِ إِلَى اللَّهِ مَهْمَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَادِعِهِ عِنْدَ شِدَّةِ الْاضْطِرَارِ
ضَقَّتْ ذُرْعاً مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ

يَرْتَجِي مِنْكَ سُرْعَةَ الْإِنْتِصَارِ
بِرِّ حَاوِيِ الْهَدَى رَفِيقِ الْغَارِ
طِينِ فِيهِمْ وَآلِكَ الْأَطْهَارِ^(١)

فَالْغِيَاثِ الْغِيَاثِ مِنْكَ لِدَاعِ
وَشَفِيعِي إِلَيْكَ صَدِيقِكَ الْأَكْبَرِ
وَجَمِيعِ الْأَصْحَابِ عِنْدَكَ وَالسَّبَبِ

وَيَتَوَسَّلُ مُحَمَّدٌ أَمِينٌ بِآلِي^(٢) مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَحَابَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأُئِمَّةِ
الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ، فيقول:

مَوْلَايَ هَذَا الْعَبْدُ يَرْجُو الْمَقْصِدَا
وَابْنَيْهِمَا السَّبْطَيْنِ أَعْلَامِ الْهَدَى
وَبِحِزْبِ أَزْوَاجِ طَهْرِنِ مِنَ الرَّدَى
وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ دَوَاماً سَرْمِداً
السَّائِرِينَ إِلَى عِلَاكَ بِالْإِقْتِدَا
وَالشَّافِعِي قُطْبِ الْوُجُودِ وَأَحْمِداً

مُحَمَّدٍ وَبَيْنَتِهِ وَبِيعْلَهُمَا
وَبِآلِهِ جَمْعاً خُصُوصاً مِنْ حِظْوَا
وَبِأَهْلِ بَدْرِ وَالصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ
وَبِتَّابِعِيهِمْ فِي الْهِدَايَةِ وَالتَّقَى
وَبِعَبْدِكَ النِّعْمَانِ ثُمَّ بِمَالِكَ
وَبِكُلِّ عَبْدٍ خَاشِعٍ لَكَ قَانِتٍ

(١) - انظر ص ٩٢ من هذا البحث

(٢) - ستأتي ترجمته ص ٨٤ من هذا البحث .

ثانياً : دعاء الموتى والاستغاثة بهم:

الدعاء من أفضل الطاعات وأكد العبادات، وأعظمها شأنًا، وأعلاها قدرًا، وقد دل على هذا الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

ومع أهمية هذه العبادة، ووجوب صرفها لله وحده، وإخلاص الدعاء له سبحانه في السراء والضراء، حيث أن تجريد الدعاء لله وحده إيمان وتوحيد، ودعاء غيره -مهما كان- كفر وإشراك، ولكننا للأسف نجد في هذه البقعة الطاهرة من يصرف هذه العبادة لغير مستحقها، فمثلاً يذكر علي بن موسى (سنة ١٣٠٣) في رسالة له عن وصف المدينة أن هناك باباً للحجرة التي بها قبر النبي ﷺ (يعرف بباب الوفود لا يفتح إلا في المهام وطلب النصر للدولة العلية إن تضايقت في حرب الأعداء، أو دفع وباء حل بالناس أو قحط شديد)^(١).

كما نجد عند شعراء هذا القرن اللجوء إلى الموتى واللواذ بهم وسؤالهم أشياء لا تسأل إلا من الله سبحانه وتعالى، فيسألون هؤلاء المخلوقين تفريج الكربات وقضاء الحاجات وغفران الذنوب.

فمثال ذلك ما نجده عند الشاعر حسن البرزنجي^(٢) الذي يمدح النبي

(١) - وصف المدينة ص ٨٩،

(٢) - ستأتي ترجمته ص ٨١

ﷺ ثم يعلن عبوديته له قائلاً:

أنا عبدك الجاني الظلوم لنفسه
أنا عبدك الخطا حليف بطالة
أنا عبدك الغمر العثور أخو الونى
بنقض عهود أبتنيها وأغدر
غريق ببحر اللهو أزهو وأصعر
أسود صحفي بالقذى وأكدر

ثم يعود لممدح النبي ﷺ فيصفه بأنه الذي تجلى عنده الشدائد وأنه
الملجأ عند الأزمات والكربات، ثم ينتقل بعد ذلك ليسأل الرسول ﷺ
حاجات لا تطلب إلا من الله سبحانه وتعالى، فيقول:

وليس بيدع إن تطلعت سائلاً
فهذا سؤال لاعلى حسب سائل
فما أنت في جان يريجك صانع
فلا تخزني فيما أروم وأرتجي
وجد لي بإنجاز لبرك عاجلاً
كذاك أماناً ثم عفواً مع الرضا
نوال جواد عنده البدن تنحر
على حسب مسؤول نداه موفر
ومن جاء بالرجوى له الذنب يغفر
فمن لي إذا جدواك عني تقصر
سراعاً بداراً فالكريم يبدر
لعل بها وزري الثقيل يكفر

وهذا جعفر البيتي يستهل قصيدة بأن جواره وقرب سكنه من الرسول
ﷺ مجير له من نائبات الدهر وحوادثه، يقول:

لي من ذمة الجوار مجير
وبظني وإن أسأت فعـالاً
كيف لا وهو مقصدي واعتمادي
إن يكن جاري البشير النذير
أن حظي من جاهه موفور
وملاذي ومفزعي والنصير

ويستمر على هذا المنوال فيؤكد أن من يلجأ إليه ﷺ تلبي حاجاته
وتزول عنه همومه، ويرى أن دعاءه هذا غير بدع، يقول:

غير بدع إذا دعونا إلى الشد دة جاه النبي فهو الجدير
فتمسك به فمن أعظم الخس ران سهو من جاهه أو نفور
وادعه إن أردت أن يكشف الكر ب وينجو من ضره المضرور
يانبي الهدى إليك مددنا ساعد الابتهاال وهو قصير
غير أن الرجاء منا عظيم فيك أضعافه نوال وخير
إلى أن يقول :

هات من غارة لديك عهدنا ك بأمثالها الغداة تغير
هات من غارة يفك بها العا ني سريعاً ويجبر المكسور
في زمان الرخا اتخذناك ذخرأ وقد احتيج هاهنا المذخور^(١)

ونجد كذلك أحمد الخياري^(٢) يمتدح حمزة بن عبدالمطلب ﷺ

(١) - انظر ص ٩٠ من هذا البحث.

(٢) - هو أحمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن علي بن خضر الخياري، ولد بالمدينة
سنة ١٠٧٠هـ، ووالده إبراهيم الخياري ترجم له كثير من المؤرخين وله
مؤلفات من أشهرها رحلته (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)، وابنه أحمد هذا
أجمع كل من ترجم له على كرم أخلاقه فقد قال عنه الأنصاري إنه (نشأ
على طريقة حسنة مثل أبيه وزيادة، وباشر الخطابة والإمامة)، ذكره النابلسي

فيذكر أنه أناخ بفنائه وقد تحمل ذنوباً عظيمة يرجو منه أن تغفر وتمحي، فيقول:

سندي سيدي معيني مغيثي	ملجئي منجئي لدى الحوباء
قد حططنا أثقالنا وأنحنا	بفناك الرحيب فوق الرجاء
بذنوب عظيمة علّ تمحي	بذنوب الغفران والإغضاء
فاكفنا سوءها وكف المعاصي	واجليّنها بنور شمس الهداء
واكسنا من وشي النقاء بروداً	دونها ما يحاك في صنعاء

هذه النماذج السابقة -سواءً في التوسل أو الاستغاثة- أوردناها على سبيل الاستشهاد لا الحصر، فهناك الكثير من أمثال هذه الأشعار التي تحتوي على هذه التجاوزات والتي ستمر بنا خلال استعراض نماذج من الشعر في هذا البحث والتي سنشير إليها في مواضعها.

ثالثاً: الاحتفال بالعديد من المناسبات في زمن معين وبطرق معينة وكأنها من شعائر الله التي لا يتم دين المرء إلا بها:

من ذلك الاحتفال بذكرى المولد النبوي حيث يجتمع الناس في ليلة المولد فينشد المنشدون وتوزع الأشربة والنقل والأزهار، ومن ذلك خروج الناس من أول رجب وتوافدهم من الأقطار لزيارة قبر سيدنا

في رحلته (الحقيقة والمجاز) وأورد بعض شعره، توفي سنة ١١٢٣ تحفة المحبين

٢٠٥ ، الحقيقة والمجاز ٣٨٤ ، نفحة الريحانة ٤/٣٧٤.

حمزة وقضاء ليلة الثاني عشر من رجب في القراءة والزيارة حول القبر،
واللهو واللعب، ثم العودة إلى المدينة لانتظار الرجبية وهي ليلة سبع
وعشرين من رجب فيحتفلون بذكرى الإسراء والمعراج.^(١)

وفي السابع عشر من شهر ذي القعدة يجتمع أهل المدينة في المسجد
النبوي حيث يكنس الحرم، ويسمى هذا اليوم يوم الكنيس، ويلبس أهل
المدينة في هذا اليوم أحسن ملابسهم ويهنيء بعضهم بعضاً ويستبشرون
به وكأنه يوم عيد.^(٢)

ومما لا شك فيه أن كل هذه الأمور محدثة ليس لها أساس في الشرع
القويم ولم يفعلها السلف الصالح بل هي أمور درج الناس على تعظيمها
وتقديسها وحرصوا على الاحتفال بها حتى وصل بهم الأمر إلى هذا
الحد.

(١) - عبدالغني النابلسي (الحقيقة والمجاز) ص ٤٣٠

(٢) - مقتطفات من رحلة العياشي ١٥٠

ثانياً/ رواج الشعر وأسبابه في القرن الثاني عشر:

شهدت المدينة النبوية في القرن الثاني عشر نهضة أدبية كمّاً وكيفاً، حيث ذكرت لنا المصادر عدداً من الشعراء، ولو وصل إلينا كل شعرهم لكان شيئاً كثيراً.

فمنذ بداية القرن نجد عبدالغني النابلسي^(١) في رحلته (الحقيقة المجاز) سنة ١١٠٥هـ يذكر عدداً من الشعراء وشعرهم، حيث كان له مطارحات مع بعضهم، وكذلك فعل العباس بن علي الموسوي^(٢) في رحلته (نزهة الجليس) حيث ذكر مقابله لبعض أعيان المدينة وفضلائها وأدبائها.

كما نجد كتب التراجم تذكر جملة من هؤلاء الشعراء وبعض شعرهم، مثل (نفحة الريحانة) و (خلاصة الأثر) للمجيب^(٣)، وكتاب (حلية البشر) للبيطار، وكتاب (سلك الدرر) للمرادي^(٤)، و(البدر

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٨

(٣) - هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبي، الحموي الأصل، الدمشقي المولد والدار، ولد بدمشق سنة ١٠٦١هـ، تتلمذ على كبار علماء عصره، وله عدة رحلات، توفي سنة ١١١١هـ. نفحة الريحانة ٤/١.

(٤) - هو محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، المرادي،

الطالع) للشوكانى^(١).

ولهذه النهضة الشعرية في المدينة أسباب يخصص بعضها هذا القرن بينما يعود شيء منها إلى قرون سابقة، ونلخصها فيما يلي:

أولاً: المجاورة :

ذكرت لنا كثير من المصادر وخاصة كتاب (تحفة المحبين) للأنصاري وكتاب (تراجم أعيان القرن الثاني عشر) قدوم أعداد كبيرة من مختلف الأقطار الإسلامية للإقامة في المدينة ومجاورة المسجد النبوي الشريف، ونذكر أن عاد هذا المجاور إلى دياره، حيث أنه غالباً ما يكون عالماً أو صاحب مال، فيستطيع أن يكون لنفسه منزلة بين أبناء المدينة فيتقلد وظيفة أو يقتني الدور والبساتين بها.

وقد كان جل الأسر التي ترجم لها الأنصاري في كتابه (تحفة المحبين والأصحاب) يرجع نسب أصحابها إلى شخص قدم إلى المدينة في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، ولعل من أشهرهم شاعرنا جعفر البيتي

البخاري الأصل ولد بدمشق سنة ١١٧٣هـ، المؤرخ والمفتي والشاعر ونقيب أشرف دمشق، توفي في حلب سنة ١٢٠٦هـ، حلية البشر ٣/١٣٩٣هـ، سلك الدرر، المؤلف تاريخ الجبرتي ١٤٠/٢.

(١) - هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكانى، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولد سنة ١١٧٣هـ، له ١١٤ مؤلفاً، توفي سنة ١٢٥٠هـ. البدر الطالع ٢/٢١٤، الأعلام ٦/٢٩٨.

الذي قدم والده إلى المدينة سنة ١١٠٠هـ (كما يذكر الأنصاري)،
وعمر الداغستاني الذي قدم والده إلى المدينة ١١٤٠هـ على الأرجح،
وأحمد الجامي الذي لم تذكر سنة قدومه والده إلى المدينة ولكنه توفي
فيها سنة ١١٦٢هـ مما يعني أن قدومه كان بعد ١١٠٠هـ.^(١)

وكما أسلفنا فإن جل هؤلاء الوافدين المجاورين هم من العلماء
والأدباء الذين كان لهم دور كبير في إثراء الحركة الأدبية بعمامة والشعر
بصفة خاصة، ولاغرو أن قدوم المجاورين للمدينة لما جاء من آثار فضل
سكنها والإقامة بها والوفاء في بقعتها، فضلاً عما لها من مكانة في
نفوس المسلمين في كل زمان ومكان لقداستها وأهمية مسجدها، كما
ساعد على تلك المجاورة عدم وجود القيود على تلك المجاورة كما في
العصر الحاضر.

ثانياً : الرحلات :

تعددت الرحلات من المدينة وإليها، فالرحلة إلى مكة والمدينة
لاتنقطع على مدار العام من كافة الأقطار الإسلامية، ولكن ما نقصده
هنا وله أثر مباشر في إنعاش الشعر هو رحلة العلماء والأدباء حيث
يلتقون مع علماء وأدباء المدينة ويكون لذلك الأثر الكبير.

(١) - انظر: تحفة المحبين ص ١٢٢ ، ص ١٤٩ وانظر ترجمة الداغستاني ص ١٠

من هذا البحث.

ومثال ذلك رحلة الشيخ عبدالغني النابلسي التي ضمنها كتابه (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز) حيث يذكر في رحلته التقائه بعدد من علماء وشعراء المدينة ومطارحته لهم علمياً وأديباً، وقد أورد بعض أشعارهم.

وقد تعددت رحلات العلماء إلى الحرمين وخاصة المغاربة حيث وصلنا منها ما يقارب الثمان رحلات^(١)، لعل من أشهرها رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفي الزيني سنة ١١٢١ والمسماه بالرحلة الناصرية والتي اعتمد فيها على ما ذكره شيخه أبوسالم العياشي في رحلته، وقد ضمن أحمد الدرعي رحلته هذه شعراً له ولغيره، وكذلك رحلة عبدالمجيد بن علي بن محمد الزبادي المنالي المسماة بـ (بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام) سنة ١١٤٨ هـ.

هؤلاء الرحالة ذكروا لنا عدداً طيباً من الشعراء، بل وأوردوا شعرهم مع قصر مدة إقامتهم أو مرورهم، فلا يستبعد أن يغيب عنهم، أو الا يلتقوا بشعراء وأدباء آخرين لا نجد لهم ذكراً في كتبهم عن أدباء المدينة.

هذا بالنسبة للرحلات إلى المدينة، أما رحلات أبناء المدينة إلى الأقطار الأخرى فقد رحل جعفر البيتي إلى القسطنطينية واليمن وقصد

(١) - سبق ذكرها ص ٤٨

في رحلاته بعض الأعيان ومدحهم.

وكذلك عمر الداغستاني حيث تذكر عنه المصادر أنه كان كثير الرحلات فلا يكاد يستقر به المقام في المدينة، وقد كانت رحلاته إلى مصر والهند وتركيا، ورحل كذلك أحمد الجامي إلى البلاد التركية حيث يذكر ذلك الداغستاني فيقول: (وسافر إلى الروم وبلغ منها ما يروم)^(١).

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلاف بين شعراء العالم العربي والإسلامي يثري الحركة الشعرية حيث التواصل والإطلاع على ما عند الآخرين، وقصد الممدوحين وبعث قصائد الشوق والحنين إلى المدينة حيث الأهل والأحبة.

ثالثاً: ازدهار الحياة العلمية:

لابد للشاعر من قاعدة ثقافية ينطلق منها ليطور أدواته. التي تجعله شاعراً، إلى جانب موهبته الشعرية التي تحتاج إلى الصقل والتطوير بالاطلاع على التراث والأخذ عن العلماء والأدباء المعاصرين، وكان ذلك متوافراً في المدينة في هذا القرن، فقد زخرت المدينة - كما أسلفنا في الناحية العلمية - بالكثير من العلماء المقيمين والوافدين المجاورين

(١) - تحفة الدهر ٦٦ .

والذين يدرسون في المسجد النبوي في حلقات علمية شتى أنواع العلم والمعرفة.

وكذلك المجالس الخاصة التي تكون مجالاً خصباً للمطارحة الأدبية والمذاكرة العلمية، وقبل ذلك كله كانت المدارس والزوايا والأربطة التي تهتم بتعليم الناشئة وتزودهم بالعلوم الشرعية والعربية. كما أن الاهتمام بإنشاء المكتبات العامة والخاصة والولع باقتناء الكتب وتأليفها وتبادلها أدى إلى نشوء حركة معلوماتية يستفيد منها الشعراء فيطلعون على التراث العربي والإسلامي الكبير، وكان من نتائج ذلك وجود الكثير من المصنفات والمؤلفات القديمة والجديدة التي يرجع تاريخ نسخها لهذا القرن.

رابعاً: الاضطرابات والحوادث الواقعة في المدينة:

سبق وأن تحدثنا عن هذه الحوادث -والتي سماها المؤرخون بالفتن- وذلك عند الحديث عن الناحية السياسية في المدينة في القرن الثاني عشر الهجري حيث ذكرنا هناك أسبابها وتطوراتها.

وقد يكون من المستغرب أن نعد هذه الفتن سبباً من أسباب ازدهار الحركة الشعرية في المدينة في هذا القرن، ولكن المتأمل لشعر هذه الفترة يجد فيه ما تتضح به الصورة، حيث أن هذه الاضطرابات والفتن قد ألهبت قرائح الشعراء الذين انبروا ينظمون القصائد متأثرين بهذه

الأوضاع التي لن يقفوا أمامها مغلقي الأفواه، فحبهم الكبير للمدينة وأهلها وتأثرهم بما حدث أشعل فتيل الشاعرية، حيث وصف الشعراء هذه الفتن ذاكرين أسبابها وتطوراتها رافعين الشكوى لأمرء مكة ثم لسلطين آل عثمان لإيقاف هذه السلسلة من الحوادث الدامية التي استمرت حتى نهاية القرن تقريباً.

وقد كان لهذا الشعر الخاص بهذه الحوادث تميزاً مما حد ببعض الباحثين بتناوله وافراده ببحوث خاصة تحت اسم الملاحم، وسوف نتحدث عن هذا الشعر - إن شاء الله - عند الحديث عن أغراض الشعر تحت اسم (الملاحم)^(١) أيضاً.

إن القرن الحادي عشر في الحجاز قد شهد نهضة أدبية وعلمية خير ما يصورها تلك الكتب التي رصدت للحجاز شعراء إلى جانب شعراء وأدباء الأقطار الإسلامية الكبرى كمصر والشام والعراق وسواها، ومن تلك الكتب (نفحة الريحانة للمجبي) و (سلافة العصر لابن معصوم) وسواها. مما حدا بالدكتور الراددي لدراسة هذه النهضة الأدبية آنذاك، ولاريب أن هذه النهضة اتصلت وامتدت أيضاً إلى القرن الثاني عشر في الحجاز، فالواقع أنه لم يطرأ ثمة فرق كبير في ظروف وأوضاع الحجاز بين هذين القرنين المتقاربين.

(١) - انظر ص ٢٤٩ من هذا البحث.

ولقد اعتاد مؤرخوا ودارسوا العصر الحديث أن يصفوا القرون السابقة له كالثالث عشر والثاني عشر وما قبلها بالتخلف والضعف العلمي، وإذا أرادوا البحث عن تلمس جذور النهضة الحديثة فغالباً ما يجعلون الحضارة الغربية التي صدمت عالمنا العربي في العصر الحديث هي باعثة النهضة الحديثة وكانت وراءها، وقد نسوا وتجاهلوا هذا النشاط العلمي الذي نشير إليه في هذه القرون المتقدمة للعصر الحديث. ولعل خير ما ندل به على صحة هذه الفكرة أن أضخم معاجمنا العربية (تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي) من نتاج هذه الفترة، ويكفي أن يكون الشيخ الشرقي المغربي شيخ الزبيدي هو أكبر مصدر اعتمد عليه في معجمه هذا، فقد اعتمد على أقواله وعلى كتابه (إضاءة الراموس) بصورة جلية، وكان أخذ الزبيدي عن الشيخ الشرقي في المدينة، حيث أن الشرقي الذي ولد بفاس سنة ١١١٠هـ ورد المدينة سنة ١١٤٣هـ وتوفي بها سنة ١١٧٠هـ.^(١)

(١) - تراجم أعيان المدينة ص ٥٧

- سلك الدرر ٩١/٤

- مقدمة تاج العروس (حي)

- تاريخ الجبوتي ٢٩٨/١

الباب الأول

موضوعات الشعر

الفصل الأول / الشعر الديني:

نشأ الشعراء في هذه البقعة الطاهرة، حيث مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يغيب عن أنظارهم، ينعمون بعبقه الروحي وفضله الخالد، إضافةً إلى ما في كل موضع من المدينة وما جاورها من ذكرى عظيمة، وتاريخ إسلامي عظيم، حيث سيرة الرسول ﷺ وهجرته ودعوته، وآثار صحابته الأعلام، وأئمة الإسلام الذين ساروا خلفهم من التابعين وأتباعهم على مدار الأزمان.

نشأوا وهم يرون الوفود التي لاتنقطع على مدار العام، تزور مسجد المصطفى ﷺ من كل أصقاع الأرض، يقطعون الفيافي والقفار للوصول إلى هذه البقعة المباركة للزيارة، ومروراً بها في طريقهم لأداء الحج والعمرة.

يعود هؤلاء الشعراء إلى أنفسهم ليروا النعمة التي حباهم الله بها، إذ جعلهم من سكان هذه المدينة التي ارتضاها مهاجراً لرسوله ومعقلاً للإيمان.

والمدينة النبوية منبع الإيمان ومركز دولة الإسلام الأولى، وبها نشأت خيرة القرون، من اختصهم الله بصحبة خاتم رسله، فكانوا أصل الإسلام وجرثومته، وحمله أبناؤهم من بعدهم، من أجيال التابعين وتابعيهم بإحسان، حتى لقد جعل علماء الإسلام (عمل أهل المدينة) معتبراً في الفقه الإسلامي.

وقد بقيت هذه المدينة المباركة منبعاً لنور الإيمان، وعلماً للهدى على

مدار التاريخ، فرغم قيام دول الإسلام وعواصمه بعيداً عنها، فقد حافظت على معالم الدين الصحيحة ونهجه القويم، ولعل هذا البعد مما ساعدها على التمسك بهدي الإسلام وعدم التأثر كثيراً بغيره، ولعل في قوله ﷺ (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) ما يوحى بذلك، ولاغرو أن حلق العلم في مسجد الرسول ﷺ، وقيام حركة علمية على مدار تاريخ هذا المسجد المبارك مما زكى الإيمان بها وأوضحه في ربوعها.

كل هذه الأمور جعلت الشاعر المدني دائم القرب من خالقه دائم الذكر لسيرة نبيه ﷺ، ينطق شعره بنفحات إيمانية عطرة تزين هذا الأدب الذي وصلنا بعد ما ينيف على قرنين من الزمان.

وفي هذا الفصل سنذكر الإنتاج الشعري لشعراء المدينة والذي كان مبعثه في الغالب دينياً إيمانياً، فالشعر الديني الذي نقصده هو الشعر ذو المنزع الديني، أو بعبارة أخرى هو أي شعر ناقش فيه أصحابه قضية أو مسألة دينية، مثل شعر الإلهيات والمدائح النبوية ومدائح الصحابة والتابعين، علماً بأن هناك أشعاراً جاوز فيها أصحابها الحد وغالوا في مخاطبتهم للنبي ﷺ وصحابته، حيث التوسل البدعي الذي لا أساس له في شريعة محمد ﷺ، ووصفه وصحابته بصفات فيها غلو واضح، وإننا إذ نذكر هذه النماذج لإبراز شعر العصر كما وصلنا، والدلالة على طبيعته.

ومن الشعر الديني ما نظمته الشعراء لإظهار حبهم الكبير للمدينة،

فحب الوطن سجية في كل نفس وكذلك الحنين إليه، ولكن حب المدنيين لمدينتهم حب يفوق ذلك، فهو حب لمدينة الإسلام ودار دولته الأولى، وفضلها على الإسلام معلوم وقد أحبها المصطفى ﷺ، فليس عجباً أن يحبها المسلم ويهيم الأدياء بحبها، فضلاً عما إذا كانوا من سكانها فحبها حب لسكانها ﷺ، ونحن مأمورون بحبه بلا شك.

١- الإلهيات :

شعر الإلهيات هو كل شعر اتجه به الشاعر إلى الله عزوجل داعياً راجياً، مبيناً عن ضعفه وقلة حيلته، طامعاً في كرمه ورحمته، مؤمناً بأن الله قريب يجب دعوة الداعي إذا دعاه ويكشف السوء.

وبذلك فشعر الإلهيات شعر صادق لاتصنع فيه ولا تكلف ، لأنه ينتج عن نفوس مؤمنة راضية، نفوس مليئة بالعاطفة الجياشة التي تكتنفها الرغبة والرغبة .

فهذا الشاعر أحمد الجامي^(١) يطلب من ربه المغفرة ويطلب منه نصيباً من الدنيا يغنيه عن السؤال والحاجة إلى سوى الله ويستعين به على دينه كما يطلبه طول العمر وحسن الخاتمة فيقول:

يارب مع عظم ذنبي فيك لي طمع	ففيك يا ذا الندى ما أحسن الطمعا
أرجوك دنيا تقيني أن أمدّ يدي	إلى سواك بها ما عشت متّسعا
وأستعين على ديني بها أبداً	ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

(١) - ستأتي ترجمته ص ١٢٦

وطول عمر كذا مع حسن خاتمة بطيبة وشهودا للجمل معاً^(١)

وهذا حسن بن عبدالكريم البرزنجي^(٢) يطلب من الله أن يخفف ما يلاقه من معاناة، وأن يوجب له صدق التوكل، ويسترسل في هذه المناجاة لله عزوجل فيقول:

وخفف عني ما ألقى من العنا
وأوجب لي صدق التوكل والرضا
قدير حكيم مالك الملك فاعل
تفصل آيات تصور ما تشا
تذل عزيزاً بتليله تحبباً
تعاليت لا أحصي ثناءك كثرة
تعوضني بالضر نفعاً موفراً
وتغفر لي ذنباً تعاضم وزره
وتتحفني لطفاً حفيماً يحف بي
تعودني حسن اختيار بغيطة
بأنك أنت المبتلي والمقدر
شهودي سرّاً في امتحانك يبهر
بصرف اختيار للأمر مدبر
وترسل لطفاً أثر قهر فيقهر
تكون له سمعاً وعيناً فيبصر
وهل يضبط التعداد ما ليس يحصر
وتكسر لي نفساً طغت ثم تجبر
وترفع لي ذكراً لديك فاذا ذكر
فلا أخش ما تبدي الليالي وتضمّر
أجمل منّي بعد ذاك تضجّر

(١) - نوافح الزهور ٨٠

(٢) - هو حسن بن عبدالكريم بن محمد بن عبدالرسول البرزنجي ولد سنة ١٠٩٩هـ، خرج من المدينة المنورة محتفياً في فتنة العهد الواقعة سنة ١١٣٤هـ، ودخل مصر وبقي بها محتفياً إلى أن توفي سنة ١١٤٨هـ، وله تصانيف ورسائل وخطب. تحفة المحيين ص ٨٨، تراجم أعيان ص ١١٨.

فكيف أرى في العسر لا أتصبر
فها أنا ذا شكراً أسر وأجهر

وتوعدني فضلاً على الصبر زلفة
وتمنحني صفو الولاء مع البلا

إلى أن يقول:

من النعم الغراء والفضل أوفر
فلا غيره أرضى ولا أتحير
مهيض جناح بالجناح مؤزر
يعلل قلباً بالقبول فيجبر
فرحل سراه من خطا النفس موقر
بكل البرايا إن جفوا وتنكروا
مهاجرة الإخوان صفوي تكدر
فسيرته في الحرّ أمر مقدر
فذاك قضاء سابق ومقدر
مناهل لطف نهرها العذب كوثر
وجلل بستر يحوي ويدفر
وأنعم بتوفيق به السر يسفر
وكشف حجاب طال منه تستر

فها أنا لا أخلو دواماً لك الثنا
وها أنا راض بالذي قد رضيته
لعلك ترضى عن جريح جوارح
عليل فؤاد بل كسير خواطر
بطئ خطى في مسلك الصدق والوفا
فلست أبالي حيث ترضى لك الرضا
ولا غربة الأوطان تزعجني ولا
وما أنا في ريب الزمان بعاتب
وما أنا مما يعتريه بجازع
فهب لي مع الصبر الجميل كذا الرضا
وحقق أماني يا إلهي من الردى
وعجل بإنجاز المآرب والمسنى
ومن بقرب منك يقدمه الهنا

وقال جعفر البيهقي متوجهاً إلى الله - عز وجل - طالباً منه المغفرة والحلم

والغوث فهو أهل المغفرة ، الحليم غياث المستغيث:

يا من عرفت بنعمة الإحسان

هبنا بفضل منك للغفران

بكبائر الآثام والعصيان
 ث المستغيث ويا ملاذ الجاني
 ندعوه في البأساء غيرك ثاني
 ضعفاء أهل صنائع الشنآن
 أملاك مولى العالم الإنساني
 ضيماً فبدّل خوفنا بأمان
 والبؤس والضراء والخسران
 صدع الحشا والهّم والأحزان
 من كل ناحية وكل مكان
 إلا إلى شكوى مهم ثاني
 فينا بكل مصيبة وهوان
 دعوات والمولى القريب الداني
 مكتومة في طيّ كلّ جنان
 بالحق أنك واحد ربّاني^(١)

يارب يامن لا يعادل حلمه
 يا أهل غفران الذنوب ويا غيا
 يا رب نحن البائسون فمن لنا
 يا ربنا فقراك نحن عبادك الض
 جيران أحمدك المشفع سيد ال
 ياربّ ما عودتني في سوحه
 ياربّ أنت المستغاث من البلا
 وحوادث الأيام والكرب الذي
 ونوائب ونوازل لاتنقضي
 حال مهم لانفارق بعضه
 فيألى متى تدعو الزمان مفوضا
 من ذا الذي ندعو وأنت السامع الد
 لك في القلوب سريرة أودعتها
 تخفي ويظهرها اضطرار شاهد

ومن قصيدة طويلة للبيتي يتجه بها إلى الله سبحانه وتعالى ويذكر جواره
 للرسول صلى الله عليه وسلم ثم يذكر أهل البيت والصحابة، فيقول
 قاصداً إلى الله داعياً له أن لا يكله إلى حوله ويطلب منه أن يغفر له
 ويتوب عليه، فيقول:

(١) - ديوان البيتي - نسخة مكتبة آل الصافي ١٠٢

رب إني قصدت بابك فاشهد
يا عظيماً يرجي لكل عظيم
يا مجيب المضطر مهما دعاه
لا تكلني إلى احتيالي وحولي
وترحم بنظرة منك تمحو
ومتاب إليك من كلّ ذنب
حسبي الله في الأمور جميعاً
بمقامي وما إليه بصير
وعلى ما يشاء حقاً قدير
يا إلهي أنت اللطيف الخبير
فهما دون ماتريد غرور
سيأتي بها فأنت غفور
منتهى فعله اللطى والسعير
وهو نعم المولى ونعم النصير^(١)

وهذا محمد أمين بالي^(٢) يشطر قصيدة، يتوسل فيها بالرسول ﷺ وبأهل بيته وصحابته والتابعين وبأئمة المسلمين ثم يتوجه بالدعاء إلى الله حيث يطلب منه الفرج وأن يختم له بحسن الإيمان وأن يحفه بلطفه فيقول:

فرج بفضلك يا إلهي كربنا
والطف بنا في كل ما قدرته
ياخير مقصود وأعظم ملجأ
يامن يرجي للشدائد كلها
واختتم بإيمان لنا وقت النداء
ياخير من بسط الأنام له اليد
يامن به الكربات لن تتأبدا
يامن به الأزمات تفرج سرمدنا

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ١٠ .

(٢) - هو محمد أمين بن علي بن عبد الله بالي، اشتغل بطلب العلم الشريف في المسجد النبوي حتى صار خطيباً وإماماً، ثم باع الوظيفة واشتغل بطلب الدنيا توفي بعد ١٢٠٠هـ. تحفة المحبين ص ١٠٠ ، تحفة الدهر ٢٨ ، حلية البشر ٣ : ١٢٢٦ .

أو أن تخيب سائلاً يرجو الندى
جعل الدعاء لبحر جودك مورداً
فرّجت كرباً قد علا وتوطدا
أنجّدت ملهوفاً وصنت من الردا
وأفضت فيضاً وافراً متأكداً

حاشا لجودك أن تقنّط عاصيا
متذللاً متوسّلاً متشفّعاً
أنت المهيمن والرحيم فطالما
ولكم بإيجادٍ وحسن عناية
واليتّ بالإحسان منك تكرّماً

إلى أن يقول :

سل للتفضّل والتكرّم والهدى
سل للجميل فنعم من قد عودا
يمحو بها الذنب الخفيّ ومابدا
تجلو بها درن الذنوب مع الصدى

عودتنا منك الجميل فأنت أهـ
أنت الجميل وربّه إذ أنت أهـ
يرجوك عبدك وابن عبدك توبة
وامنن بمغفرةٍ وعفو شامل

٢- المدائح النبوية :

يندرج تحت الشعر الديني الشعر الذي قيل في مدح الرسول ﷺ والتوسل به، لأن مبعث هذا الشعر كان إسلامياً خالصاً فهو يعبر عن الحب الصادق للرسول ﷺ الذي لا يكون إسلام المرء إلا به.

مما لاشك فيه أن الرسول ﷺ تقصر دونه المدح، فهو صاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة ورسول الرحمة للعالمين، ونحن إذ نستعرض بعض هذه النماذج ندرك ما بها من غلوّ وتجاوزات للعقيدة، مما لا يقبل حتى وإن كان في مدح سيد البشر ﷺ. (١)

على أن الموضوعية تقتضي استعراض هذه النماذج التي هي جزء من الشعر في هذا العصر مجال بحثنا.

وقد جمع هؤلاء الشعراء -غالباً- في قصائدهم بين المدح والتوسل، وإن اقتصروا أحياناً على أحدهما.

سذكر حسن البرزنجي (٢) في كتابه (نفثه مصدر) كثيراً من المدائح النبوية حيث يقول في إحداها أنه لا يطمع في حصر صفات الرسول الكريم ﷺ لأنه لا يستطيع إحصاء هذه الأوصاف ويعجز عن وصفها القول:

وما كنت في إطناب مدحك طامعاً بحصر صفات قد غدت تتكثّر

(١) - انظر ص ٦١ من هذا البحث .

(٢) - سبقت ترجمته ص ٨١ ، والأبيات ص ٥٧

وعنه غدت كل المطامع تحظر
تفرّد في إحصائها المتكبر
تبارك ذو المجد البديع المصور
وأنت الذي من جودك المدح يصدر
وأبت حسيراً مني القول يحصر
رأها لساناً في صفاتك تنشر
لمرسوم مدح فيك كانت تقصّر
متى حاولت وصفا فهي تتأخر
فكانت به الأقلام في اللوح تسطر
ومن قدم الإقرار بالعجز يعذر

فذاك مقام أحصر الفكر دونه
وكيف بإحصائي لأوصافك التي
وقد أودع الوهاب فيك صفاته
وهيهات أن أوفيك حمداً ومدحه
لقد بان عجزني واختزالي وحيرتي
ومن لاحظ الأكوان لحظ مراقب
ولو كانت السبع البحار محابراً
كذاك الحروف العاليات بأسرها
وقد سبق الرحمن فيك ثناؤه
فماذا يجول المادحون بفكرهم

ولحسن البرزنجي أيضاً قصيدة في مدح الرسول ﷺ والتوسل به ذكرها
في كتابه (نفثة مصدر) يقول فيها:

وأكرم مسئول به البحر يزخر
ويا رتبة عليا بها الكون يفخر
ويا منقذ المهلكى إذا غصّ محشر
بنقض عهد ابتنيها وأغدر
غريق ببحر اللهو أزهو وأصعر
أسودّ صحفي بالقذى وأكدر

فيا خير مبعوث إلى الخلق بالهدى
ويا طلعة غراً ويا بهجة الملا
ويا كعبة الآمال يا رحمة الورى
أنا عبدك^(١) الجاني الظلوم لنفسه
أنا عبدك الخطأ حليف بطالة
أنا عبدك الغمر العثور أخو الونى

(١) - العبودية لا ينبغي أن تكون إلا لله وحده .

ويستمر على هذا النحو من ذكر العبودية إلى أن ينتقل إلى مخاطبة الرسول ﷺ فيقول:

وأنت سفير الجود مانح نعمة
وأنت حبيب الله خاتم رسله
وأنت صفيّ الخلق من بين خلقه
وأنت الذي تجلى الشدائد عنده
وأنت الذي اعتدّ ذخر ملامة
وأنت الذي أرجوه كنزاً لفاقتي
وأنت الخضمّ الغمر صفوة هاشم
فإن أك جاراً قد تجرأ جائراً
وإن أك إبناً قد عقت أبوة
وإن أك عبداً قد أبقت مضيعاً
وإن أك قد أسلفت قبحاً وسبّة
وإن أك قد أهملت رسم تأدّب
فحلّمك معروف وصفحك شائع
وإن أك قد أغفلت شكراً مقيداً
وإنني لما أوليتنيه لشاكر
كذلك بما عودتني أنا طامع
وها أنا راج من صلاة هباتكم

وقاسم غنم للعفاة موفر
ومخاتاره مـزمل مدثر
خلاصة سر طاهر ومطهر
وتكشف غمّاء تهول وتدعر
وأنت لدى الأزمات حصن مسور
فينظم لي ما ابتغيه وينثر
أتخفر جاراً في هواك يصهر
فأنت مجير عفوك الذنب يغفر^(١)
وقطعت رحماً فالأبوة تجبر
أوامر مولى فالسيادة تهدر
فجودك فضفاض به القبح يستر
بحضرة ملك عنده الملك يحقر
وفضلك مبدول يذاع ويذكر
سوابغ نعمي عندها الفضل يشكر
وهذا لساني ليس عن ذاك يفتّر
أحدث نفسي بالوفا وأبشر
تحقق سرّ ضمن بيت يقرّر

(١) - المجير العفو غافر الذنب هو الله سبحانه وتعالى وليس لأحد من خلقه شيء في ذلك.

أخذتم فؤادي وهو بعضي تكراً
 وليس ببدع إن تطفلت سائلاً
 فهذا سؤال لا على حسب سائل
 وإلا فياني قد تلوتت بالخطا
 فما أنت من في جان يرحيك صانع
 فلا تخزني فيما أروم وأرتجي
 وجد لي بانجاز لبرك عاجلاً
 كذاك أماناً ثم عفواً مع الرضا
 وهكذا حتى يختتم هذه القصيدة بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فيقول:
 عليك صلاة يخجل الندّ عرفها
 كذاك سلام الله يترى مبكراً
 تضمخ تربا مسكه الرطب أذفر
 يؤم ضريحاً روضه الغضّ مزهر
 فما ضرّ لو تدعون جسمي فيحضر
 نوال جواد عنده البُدن تنحر
 على حسب مسؤل نداء موفّر
 فأنى بمطلوبى وذنبى يكبر
 ومن جاء بالرجوى له الذنب يغفر
 فمن لي إذا جدواك عني تقصر
 سراعاً بداراً فالكريم يبدّر
 لعل بها وزري الثقيل يكفر^(١)

ويعمدح البيه الرسول ﷺ ويتوسل به بقصيدة يستهلها بمقدمة غزلية ثم يتخلص بعدها للمدح فيقول :

وأقسم ما الهوى غرضي ولكن
 ومدح محمد شرفي وذخري
 إمام الأنبياء وخير مولى
 وما زالت له العلياء تبني
 وأعلاه وصيره جليساً
 وأعلل بالهوى قلباً معنّى
 وهل شرف وفخر منه أسنى
 به سعد الورى إنساً وجنا
 براه واصطفاه الله خدنا
 وأسرى ثم قرّبه وأدنا

(١) - نفثة مصدر ٨١، في الأبيات يطلب الشاعر من النبي ﷺ أشياء لا تطلب ولا ترجى

كذلك كل محبوب يوافي أحبته إذا ما الليل جئنا

ثم ينتقل إلى التوسل:

ألا يا سيّد الكونين سمعاً
لُداع سائلاً أمنا ومنا
فجد لي بالشفاعة يوم حشر
واسكنني من الجنّات عدنا
عليك صلاة ربّي ما تغتت
حمام الأيك في فنن وحنّا
وآلك والقراة خير آل
وصحب ما شدا شاد وغنّي

وللبيتي قصيدة طويلة يتوسل فيها بالرسول ﷺ وبأصحابه وآله، ويتوجه في بعض أبياتها- كما ذكرناها سابقاً في الإلهيات- إلى الله عزوجل.

ويستهل هذه القصيدة ذاكراً أن جواره^(١) للنبي ﷺ بسكناه المدينة موجب لإجارتته مما يخافه، وأن الرسول ﷺ هو مقصده ومعتمده وملاذه ومفزعته ونصيره وإن أساء فعلاً، بل هو رأس ماله الذي أعده لنوائب الدهر، ويسترسل في ذلك في ثمانية وعشرين بيتاً حيث يقول:

لي من ذمة الجوار مجير
إن يكن جاري البشير النذير
وبظنّي وإن أسأت فعلاً
أن حظي من جاهه موفور
كيف لا وهو مقصدي واعتمادي
وملاذي ومفزعي والنصير
رأس مال أعدّه للرزايا
إن نبا الدهر أو تخلى العشير
ولديه أسباب حفظ ذمامي
وافرات هناك وهي كثير

(١) - إن الجوار والقرب منه صلى الله عليه وسلم ليس بالسكنى أو الأماكن التي كان بها، وإنما القرب الحقيقي منه هو اتباع سنته وطاعته فيما جاء به.

فيه فهو الحميد والمشكور
والأعادي تفور ثم تغور
وهو مولى الكرام شهيم غيور
أن ينال اللاجيء به تقصير
وعليه من الحماية سور
خفيراً ونعم ذاك الخفير
يرجع الطرف عنه وهو حسير
حاك فيه القضاء والمقدور
فهو فيه الحياة والإكسير
دة جاه النبي فهو جدير
ران سهو عن جاهه أو نفور
ب وينجو من ضرّه المضرور^(١)
ساعد الابتهاال وهو قصير
فيك أضعافه نوال وخير
لسؤالي مجرّب مشهور
بين أيدي الدعاء إليك تسير
غير الدهر معلناً ويشير

فإذا قام لي بذمة حبي
دعه لي ناصرأ معيناً ودعني
قد عرفنا قياس كل كريم
حاشا علياه والمروة فيه
يالركن يأوي إليه شديد
وعتاد يعدّ في نوب الدهر
في مقام صعب المرام منيع
بئس حظ امرئ تغافل عنه
كل ما في الوجود من كل سر
غير بدع إذا دعونا إلى الشد
فتمسك به فمن أعظم الخس
وادعه إن أردت أن يكشف الكر
با نبي الهدى إليك مددنا
غير أن الرجاء منّا عظيم
إنما بابك الكريم صحيح
فانتدب لاعدتك مني صلاة
وأغث صارخاً ببابك يشكو

(١) - الذي يدعى لكشف الكرب ورفع الضرر هو الله سبحانه فهو القادر المهيمن الذي يجيب

دعوة الداعي إذا دعاه.

إن تكن للفقير كنزاً وذخراً
هات من غارة لديك عهدنا
هات من غارة يفك بها العا
في زمان الرخا اتخذناك ذخراً
وهزنا مكارماً منك هزال
ومعينا يرجي فإني فقير
ك بأمثالها الغداة تغير
ني سريعاً ويجبر المكسور
وقد احتيج هاهنا المذخور
جذع نلوي من حوله وندور^(١)

ويستمر البيتي في قصائده التوسلية حيث يتوسل في قصيدة أخرى
بالرسول ﷺ من المشقة والكد والفقر، بل يستشفع عنده بالصديق
وجميع الأصحاب والسبطين وآل بيته، فيقول:

لذ باب المشفع المختار
وتوسّل به إلى الله مهما
فهو باب لما تشاء صحيح
فادعه في المهم من كل أمر
قل فقير لجا إليك فدارك
يا نبي الهدى ويا خاتم الرسد
طال غشيانى الكروب فخذني
وأجرني من المشقة والكد
وادعه عند شدة الاضطرار
ضقت ذرعاً من سائر الأقطار
لقضاء الحاجات والأوطار
وتعلق ببابه والستار
بالغنى منك فاقتي وافتقاري
ل عسى عطفة لجبر انكساري
من يدي عند كربتي وعثاري
د سريعاً وعلة الافتقار

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٩ ، وراجع الحياة الدينية ص ٦١
للوقوف على رأي الدين من هذا الكلام.

وأمرٍ قد أوقفني على الضيـ
فالغياث الغياث منك لـداع
وشفيعي إليك صديقك الأكـ
وجميع الأصحاب عندك والسبـ
وعليك الصلاة ثم سلام
م ملئاً فيها بغير اختيار
يرتجي منك سرعة الانتصار
بر حاوي الهدى رفيق الغار
طين فيهم وآلك الأطهار
دائم في البكور والأسحار^(١)

وأورد البيهقي قصيدة في ديوانه قال إنه قالها بالتماس السيد محمد
أسعد^(٢) مفتي المدينة بعد ختم البخاري وكتاب (الشفاء)^(٣) في الحضرة
النبوية، وفيها يمدح الرسول ﷺ ويتوسل به وبصحابته وآله فيقول:

بين أيدي الشفيـع خير الأنام
ووقفنا باباه فقراء
هذه داره وهذا حماه
أريحي متمم كرم الأخـ
رحمة العالمين حساً ومعنى
جابر الدين بالحماية عنه
قد ختمنا حديثه بالتمام
نرتجي خيره بهذا المقام
وهو للمحتمي به خير حامي
سلاق من خلقه كريم الكرام
نور عين اليقين ماحي الظلام
كل سوء مكسر الأصنام

(١) - ديوان البيهقي، نسخة م آل الصافي ١٠١

(٢) - انظر ترجمته ص ١٩٢

(٣) - هو كتاب (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض بن موسى

اليحصبي (ت ٥٤٤).

أي وصفٍ له يقوم بحق
بالغ الله في الثناء عليه
فتنزل بمدحه ببركات
وتمسك بدمه منه وثقى
فبذكر النبي يستنزل الغي
يا معاذي من خوف هول معادي
إن تكن ذمتي اتباعك والحب
لك في مطلق الشفاعة قيد
وبجيرانك المقيمين حق
وهو روح الكمال والإعظام
بمعان تخفي عن الأفهام
نيلها نعمة من الإنعام
فعرها مأمونة الإنصام
ث وينشق من متون الغمام
وأمني ومعقلي واعتصامي
فحاشاك من ضياع ذمامي
عمّ أهل الذنوب والآثام
أو كدي^(١) على جميع الأنام

ثم ينتقل للتوسل بالكتاب العزيز والأصحاب والآل ويستمر بالتوسل
إلى أن يقول:

فاغثنا يا غوثنا يا رجانا
يا رجاء الراجين في كل أمر
قد شفّعنا إليك بالآل جمعاً
ليس فينا إلى بحور عطايا
ومرجّ شفاعة منك عظمى
مارمينا إلى سؤال بعيد
يا حمانا من حادث الأيام
نرتجي منك خير هذا العام
وبنيهم وصحبك الأعلام
ك سوى قاصد إلى الورد ظامي
وأمانا من هول يوم الزحام
ونبيّ الهدى قريب المرام

(١) - من (وكّد)، في القاموس وكّد العقد والعهد أو ثقّه. لسان العرب (وكّد)

فعليه الصلاة ما أمّ وفد سوحه للحبباء والإكرام
 وثناء ومدحه وسلام أبد الدهر من خصوص السلام
 ما تجلّى بجاهه كلّ كـرب ودعا مسلم بحسن الختام^(١)

ونعود للشاعر حسن البرزنجي^(٢) وقصائده ذات التوسل الخالص والتي
 ضمنها - كما أسلفنا - كتابه (نفثه مصدر) ، فهناك عدة قصائد
 جعلها الشاعر متنفسه في محنته ومصيبته، فيقول في إحداها:

أيا خاتم الرسل العليّ مقامه حديث الغريب الحال فيك غريب
 فؤادي على جمر الغرام مقلب يباح عليه للدموع قلب
 فليلته ليل السليم ويومها إذا شدّ للشوق العصاب عصب
 ألا ليت شعري هل ليحوميّ مورد لديك وهل لي في رضاك نصيب
 وإنك للمولى الجواد وجاره على أي حال كان ليس يخيب
 وكيف يضيق الذرع يوماً بقاصد وهذا الجناب المستجار رخب^(٣)

ويقول في أخرى :

(١) - ديوان البيّتي، نسخة م آل الصافي ١٠٢.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٣) - نفثة مصدر ص ٢٩

وأجلّهم سبقاً وإن هم اعنقوا
فالذل والإذعان عندك ينفق
فالقلب من عظم الخطايا يقلق
باب الرضى دوني يسدّ ويغلق
فلأنت لي منّي أحنّ وأرفق
مما أخاف فما بغيرك أعلق
فالعبد من قطع العوايد يشفق
يقضي لسعيي أنه لا يخفق^(١)

يا سيد الأرسال غير مدافع
بالفقر جئتك موئلي لا بالغنى
فأجبر كسير جرائر وجرائم
أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع
حاشاك تطرد من أتاك مؤملاً
ومحبّتي تقضي^(٢) بأنك منقذي
لا تقطعن عني الذي عودتني
لا تحرمني مطلبي فتوسّلي

ويقول في أخرى:

بقلب من الأشواق ذاب صميمه
على البعد محفوظ الوداد سليمه
وتعجزه الأدوا وأنت حكيمه
ويشرح ما يخفي وأنت عليه^(٣)

ألا يارسول الله ناداك ضارع
يهيم على قرب إليك وإنه
أجهر بالنجوى وأنت سمعها
ويظهر مقصوداً لديك عرفته

(١) - نفثة مصدر ٢٩ ، ٣٠

(٢) - محبته صلى الله عليه وسلم في اتباعه وليست في دعائه، قال تعالى (قل إن

كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله..).

(٣) - هنا نجد الغلو واضح في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فالعليم الذي يسمع النجوى

هو الله سبحانه وتعالى .

وتعوزه السقيا وأنت غياثه
وتزعجه البلوى وأنت طيبها
ولي يا رسول الله فيك علاقة
ولي في كريم المجد منك أذمة^(١)
فلا تقطع الحبل الذي قد وصلته
وجد يا عميم الفضل لي بشفاعة
وأنت لي الغيث الذي استدرّه
وكيف هجير الحادثات يصيبني
ولولا اعتناء منك يا ملجأ الورى
وحفظك والإسعاف للجار والحمى
فلا تنسني يا خير من وطى الثرى
وحاشاك تنسى خادماً السوح بالثنا
ويبرد حراً كان منك نسيمه
وتلفه الشكوى وأنت رحيمه
وعقد شجون لايبيد نظيمه
ومجدك لاينسى الذمام كريمه
بدوحه قرب لايزول نعيمه
فجودك موفور النوال عميمه
إذا ما الغمام الجود شح ركيمه
وأنت لي الظل الذي استديمه
وبارق لطف لا أزال أشيمه
لريع حمائي واستبيح حريمه
فغادره مسكاً يفوح شميمة
فمثلك لاينسى لديه خديمه^(٢)

(١) - يقصد جمع (ذمة) وهي تجمع على (ذمام) وجمعها على (أذمة) خطأ .

لسان العرب (ذمم)

(٢) - نفثة مصدر ص ٣٠

ويخاطب علي البرزنجي ^(١) الرسول ﷺ بتخميس بيتين من الشعر

ليصفه ﷺ بأنه مورد الظمآن ونصير المظلوم ، فيقول:

يا كوثر العرفان يا خير مرسل ^(٢) ويا مورد الظمآن والعارف الولي
وساقي حميا الحب في حضرة العلا وأظماً وأنت العذب في كل منهل؟
وأظلم في الدنيا وأنت نصيري ؟

حبيب بك الرحمن في الحجر أقسما ^(٣) وخصك بالتصريف في الأرض والسما
أغثني إذا ما الضيم بالسهم قد رمى وعار على راعي الحمى وهو في الحمى
إذا ضاع في البيدا عقال بعيري ^(٤)

ويذكر حسن البرزنجي ^(٥) في قصيدة له هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، تلك الهجرة التي غيرت من حال المدينة فأصبحت طيبة مباركة محمية من

(١) - هو علي بن حسن بن عبدالكريم البرزنجي، الناظم والناثر ، ولد بالمدينة سنة ١١٣٤هـ ، وأخذ بها عن أخيه جعفر وغيره، له شعر لطيف، توفي في آخر القرن الثاني عشر. تحفة المحبين ص ٨٩ ، سلك الدرر ٣ : ٢١٣ .

(٢) - ورد هكذا في الكتاب مكسور الوزن ولعله (أيا كوثر العرفان ..)

(٣) - يقصد قوله تعالى: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) سورة الحجر الآية ٧٢ .

(٤) - تراجع أعيان المدينة ص ٨٧ .

(٥) - سبق ترجمته ص ٨١ .

الدجال والطاعون^(١) واصبح ما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة.
يقول:

وهاجر في حب الإله وبرّه
فطابت به مذ حلّ فيها ركابه
وضاءت نواحيها وأشرق أفقها
وبارك في أقواتها وصواعها
وأرصد في غاباتها وجهاتها
فكانت من الدجال معقل عصمة
وأخبر عن أحد يصير لجنة
ولما توالى خطوه فوق تربة
علا قدرها صعدا فحلّت بجنة
فيا لهف قلب ذاب شوقاً لوردها
ولولا رجاء احتسي منه نشوة
لضاق طراد القلب في حلبة المنى
إلى بقعة قدماً ييثر ب تشهر
وطاب لأهليها ورود ومصدر
وضاع بها عرف أريج معطر
فصارت بها البركات تنمو وتكثر
ليوثا من الأملاك تسطو وتزأر
كذاك من الطاعون حصن مسور
كذلك عن بطحان قول مقرر^٢
تكتفها قبر زكيّ ومنبر
فهي روضة عن حوضة الرحب تصدر
ويا قرح جفن من نواها يفجر
فصار سلفاً منه للروح مسكر
واضحت حنايا في الضلوع تسعر

(١) - ورد في الحديث (على أنقاب المدينة ملائكة يجرسونها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال) وفاء الوفاء ٦١/١ .

(٢) - في الحديث (هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة..) يعني جبل أحد، وفاء الوفاء ٩٢٦/٣، وفي الحديث (إن بطحان على ترعة من ترع الجنة) وفاء الوفاء ١٠٧١/٣

ولكن لي من أكرم الخلق عادة لها أجل إن جاء لا يتأخر^(١)

٣- مدائح أهل البيت والصحابة :

ومن الشعر الديني ما قيل في آل بيت النبي ﷺ و صحابته رضوان الله عليهم، وهو شعر يفيض بالعاطفة الصادقة الجياشة تجاه هؤلاء الأبرار الذين يفصل بين الشاعر وبينهم مئات السنين ، فلا مصلحة شخصية أو دنيوية في ذلك، وإنما هو الباعث الديني ، حيث ذكر الرسول ﷺ فضلهم ورغب في حبهم.

فمن ذلك قصيدة لحسن البرزنجي يتوجه إلى آل بيت النبي ﷺ فيها، حيث يصفهم فيها بسيوف النصر والذين بهم يستسقى الغمام وإلى غير ذلك من الصفات، فيقول:

فيا آل بيت لا يضام نزيلهم	فلا طرفه يكبو ولا يتعثر
لأنتم غياث الله للخلق في البلا	بكم يسأل الله الغمام فيمطر
لأنتم سيوف النصر تشهر في الوغى	فيهزم جيش للضلال ويدبر
لأنتم شمس الكون أشرق ضوءها	فنارت دياج قد علاهن عثير ^(٢)
لأنتم قران للقران معاً إلى	ورود بحوض طينه الرطب أعفر
لأنتم حفاظ للعباد تمسكاً	بجبلكم حتى معاد ومحشر

^١ - نفثة مصدر ٥٠ .

^(٢) - العثير : العجاج . لسان العرب (عشر)

لأنتم لهذا الكون روح حياته
 لأنتم غدا حجر النبي مهادكم
 وأنتم لكم ثوب النبي مجلل
 وأنتم بكم أضحي النبي مباحلاً
 وأنتم بكم نظر الإله لخلقه
 ومدة أمداد بها يتقرّر
 وفي بيتكم يتلى الكتاب ويسطر
 سما شرفاً ذاك الكساء المحبّر
 لعصبة كفر فاستجاروا وفاخروا
 وأنتم لكم يوم القيامة مظهر

وهكذا يسترسل في ذكر فضائل أهل البيت ثم ينتقل إلى التوسل بهم
 ووصف حبه لهم، فيقول:

وها أنا ورقاء بروض مديحك
 والجا إليك في الأصائل والضحي
 وأهفوا إليكم ما سرى البرق وامضاً
 أحن لكم ما ضاءت الشمس غدوة
 أحن لكم ما ناحت الورق في الدجى
 أحن لكم ما ماست الدوح في الربا
 أحن لكم ما الروض باكره الحيا
 أحن لكم ما حنت النوق بالمسا
 أحن لكم ما أدلج الكرب معنقا
 أبث علاكم ما حيت وأنشر
 واصدح بالنجوى جهاراً وأهدر^(١)
 وما جاءت السحب الغوادي تقطر
 وما سطع البدر اليلياح ينور
 فأبدت من المشتاق ما كان يضمّر
 وقد نسمت ريح الشمال تبشر
 فضاع عبير والعرار وعبهر^(٢)
 تنادى حواراً ند في القفر ينفر
 فحنّ قصيدي قد غدا يتحسر

(١) - التوسل بهم يلحق بما قيل في التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم، راجع

الحالة الدينية ص ٦١ .

(٢) - العبهر : الياسمين. لسان العرب (عبهر) .

فوافوا عليل البين يا جيرة النقا ^(١)
وأحيوا قتيل الحب يا غيبة التقى
وشدوا بضبعي يا حماتي وأسررتي
كذلك انسكاري فأجبروه بسرعة
وأني لأرجو من لطايف سركم
عليكم سلام مع دوام عبيره
تمّ مع الآناء لطائم مسكّه
وابروا جراحاً اثخنت فهي تقطر
ساقكم ملث من فم السحب ممطر
ففيكم صلاة الرحم والجار تذكّر
فعنكم شعار البر والعرف يؤثر
ختاماً بحسنى فيه أقضي وأحشر
يعبّق نشر الروض ثم يعطّر
فتذري على الأكوان وتنشر ^(٢)

ويتوسل محمد أمين بالي ^(٣) - بتشطير قصيدة - بمحمد ﷺ وبأهل
بيته وصحابته وتابعيهم وتابعي التابعين رضي الله عنهم وبأئمة المسلمين
أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، فيقول:

بمحمد وبينته وبيعها
وبآله جمعاً خصوصاً من حظوا
وبأهل بدر والصحابة كلهم
وبتابعيهم في الهداية والتقى
وبعبدك النعمان ثم بمالك
مولاي هذا العبد يرجو المقصدا
وابنيهما السبطين أعلام الهدى
وبحزب أزواج طهرن من الردى
والتابعين لهم دواماً سرمداً
السائرين إلى علاك بالاقتدا

(١) - النقا : موضع بالمدينة بين وادي بطحان والمصلى . وفاء الوفاء ١٣٢٢/٤

(٢) - نفثة مصدر ٨٣

(٣) - سبقت ترجمته ص ٨٤

وبكل عبد خاشع لك قانت والشافعي قطب الوجود وأحمد^(١)
ولعل من أكثر المدائح التي وصلتنا ما قيل في مدح سيد الشهداء حمزة
بن عبدالمطلب رضي الله عنه، ولعل ذلك يرجع لتأثر الشعراء الذي
يذكرهم بقصة مقتله الذي فجع الرسول ﷺ وآله ، وفقد الإسلام
والمسلمون به بطلاً مغواراً دافع عن الرسول ﷺ ودعوته في مواقع
كثيرة، وكان في مقدمة البارزين لإشهار سبق الحق في وجه الشرك
والمشركين.

جل هذه القصائد التي قيلت في سيدنا حمزة هي ما أورده الشيخ
عبدالغني النابلسي^(٢) في رحلته (الحقيقة والمجاز) فيما نقله عن شعراء
المدينة، فمن ذلك قصيدة لأحمد بن إبراهيم الخياري^(٣) ذكر النابلسي
أنه نظمها سنة ١١٠٣ هـ ، ويذكر الشاعر فيها أنه نزل بسيد الشهداء
أسد الله قاصم الشرك ومؤيد المصطفى وناصره، ثم يتوسل به بعد ذلك
ويذكر أنه نزل بفناه بذنوب عظيمة يرجو أن تمحي لنزوله على سيد الشهداء،
فيقول:

نحن في سوح سيد الشهداء وحماه أعظم به من حماء
أسد الله حمزة ذي الأيادي عم خير الورى رحى الهيجاء

(١) - تحفة الدهر ٥٧ .

(٢) - سبقت ترجمته والحديث عن رحلته ص ١٢

(٣) - ستأتي ترجمته ص ٦٦

مخلص في الغزاة غير مرائي
 وافتداه بنفسه في الوغاء
 ملجئي منجئي لدى الحوباء^(١)
 بفناك الرحيب فوق الرجاء
 بذنوب الغفران والإغضاء
 بيض صحف لنا يد الأعداء
 واجليتها بنور شمس الهداء
 دونها ما يحاك في صنعاء
 وأبح نحتلي وجوه الصفاء
 لم يحب مخلص له في الولاة
 فقري الضيف عادة الكرماء
 ومنيل العفاة كل مناء
 بل وحلت بقمة الجوزاء
 وأجرني من حادثات البلاء
 بشآيب هاطل الرحماء
 نحن في سوح سيد الشهداء^(٢)

قاصم الشرك فاصم لعراه
 أيّد المصطفى وأولاه نصراً
 سندي سيدي معيني مغيثي
 قد حططنا أثقالنا وأنحنا
 بذنوب عظيمة علّ تمحي
 طالما سوّدت بكل قبيح
 فاكفنا سوءها وكف المعاصي
 واكسنا من وشي التقاء برودا
 واتح نحتني زهور التهانى
 في ذراك المنيع يا خير حبر
 واجعل العفو والسماح قرانا
 أيها الليث والهزبر المفدى
 هاك عذراً بمدحك قد تحلت
 فأجزني منك القبول عليها
 وتغشى الإله قبرك دهرأ
 وغدا من أتاك ينشد فخرأ

ويذكر الشيخ عبدالغني النابلسي أن القصيدة السابقة وغيرها -مما

(١) - المعين المغيث الذي يلجأ إليه العبد بطلب النجاة هو الله سبحانه وتعالى ولا

سواه، وهو غافر الذنب .

(٢) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٦ .

سيأتي - قد كتبت في أوراق والصقت على حائط عند القبر^(١) والتي منها قصيدة عبدالكريم الخليفة العباسي^(٢) والتي قالها - كما ذكر النابلسي - سنة ١٠٩٣هـ ، وفيها يطلب من صاحبه أن يعرّج على وادي الشظا^(٣) وسفح أحد ليبكي من الشوق لسيد الشهداء والحزن لمقتله ، ثم يطلب أن تناخ المطايا في سوح سيد الشهداء الذي جلت كراماته عن العدد وأن يسأل كل ما يرجو فهو على باب من لايرد سائله ، ثم ينتقل إلى مدح سيد الشهداء وذكر صفاته ، وأنه عم الرسول ﷺ البطل المقدم الكريم الشهيد والذي أوصافه بعدد الرمال ، ثم يطلب بعد ذلك التوسل بجميع شهداء أحد ثم يرجع لمخاطبة سيد الشهداء ليستنجد به ويطلب منه الشفاعة لنفسه ولأقاربه وأصحابه .

فيقول:

(١) - هذا من البدع التي ليس لها أساس شرعي .

(٢) - هو عبدالكريم بن عبدالله بن عبدوالهاب الخليفة العباسي ، نسبة إلى الخلافة العباسية ، ولد بالمدينة سنة ١٠٧٠هـ ونشأ بها ، طلب العلم وبرع فيه ، وقد أجمع كل من ترجم له على أنه أفضل أهل بيته ، تولى منصب الفتوى بالمدينة ومنصب الخطابة والإمامة ، له فتاوي وتحريرات ، وله شعر لطيف ، توفي سنة ١١٣٣هـ تحفة المحبين ٢٠٢ ، سلك الدرر ٣/٦٦ ، تراجم أعيان المدينة ٧٢

(٣) - وادي الشظا : في وفاء الوفاء (الشظاة : اسم لوادي قناة) . وفاء الوفاء ٤/

وأذّر المدامع من شوق ومن كمد
 منه الكرامات إذ جلّت عن العدد
 فما على باب أهل الفضل من رصد
 هيجاً ذا الفضل والإسعاد والرشد
 واخجل القطر في التسكاب بالمدد
 يدعي لسطوته في الحرب بالأسد
 هادة ألت بها قد فاز في أحد
 وعن مدى صيته نبئ ولا تحد
 بعروة الفضل منه آخذاً بيد
 أصحاب خير الورى المختار ذي السدد
 المهرقين الدما في نصرة الأحد
 واقر السلام عليهم غير متئد
 حسن الثناء لهم طراً مدى الأمد
 كي تستضيئ بها في ظلمة البلد
 من بهم وعليهم كل معتمدي
 عوناً ومنّ بما لا كان في خلدي
 في يوم لا والد يحنو على ولد^(١)
 كل الأخلاء يا ذا الطول والجلد
 من هول خطب ومن هم ومن نكد
 لمثل من قد أتى إذ عُدّ في الحفد

عرّج بوادي الشظا والسفح من أحد
 أنخ مطايا الرجا في سوح من وضحت
 وسل تجد كل ما ترجوه من أرب
 أعني بذا الباسل المقدام بدر دجى ال
 من قد علا قدره فوق السماك علا
 عمّ الرسول شديد الباس حمزة من
 ذو الحزم والجزم والمجد الأثيل وذو الشد
 فعن ندى كفه حدّث ولا حرج
 فدون أصوافه عد الرمال فكن
 ولذ بسادات ذاك السفح كلهم
 أعني بهم شهداء الحق قاطبة
 فافر المهامة في تحصيل زورتهم
 وجدّ في طلب الامداد وابق على
 واستجد أنوارهم بالعين مقتبساً
 ونادهم في خطوب الحادثات يا
 فيا ابن عبد مناف كن لذي وجل
 وكن شفيعي ليوم الحشر من سقر
 وعترتي وصحابي والقراية مع
 بك النجاة فكن لي منجداً أبداً
 ولتبق يا سيدي كهفاً وملتجأ

(١) - الشفاعة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم وبإذنه تعالى.

ثم الصلاة على المختار من مضر نبينا المصطفى الهادي إلى الرشيد
والآل والصحب ما هبت نسيم صبا تقفوا شميم شذا ذا الضيغم الأسد^(١)

ومن هذه القصائد التي ذكرها النابلسي قصيدة عبدالرحمن جليبي^(٢) وذلك في سنة ١١٠٥هـ كما ذكره النابلسي، ويبدأ القصيدة باستفهام تفريري عن صاحب هذه الأنوار التي تعظم عن الحبوّ والأسرار والأملآك والرحمات، ثم يذكر أن ذلك كله لحمزة عم الرسول المصطفى ﷺ فخر هاشم الكريم البطل، ثم يسترسل في تعداد صفاته، ثم يذكر أن من قصد سيدنا حمزة تعدّر أن يكبو نيله لمطالبه، وأخيراً يختم القصيدة بمدى حبه لآل النبي ﷺ والصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه، فيقول:

لمن هذه الأنوار تعظم أن تحبو	لمن هذه الأسرار يمنحها الرب
لمن هذه الأملاك يهدي سلامها	لمن هذه الرحمات عاكفة تصبو
لحمزة عم المصطفى فخر هاشم	كريم السجايا ذلك البطل النذب
هو الليث ليث الله فالدين غابه	برائمه ^(٣) الإيمان مطعمه القرب
له مشهد بيت القصيدة شاهد	على أن أهل البيت فخرهم حسب
كريم ولا منّ حليم ولا ربا	عظيم ولا كبر عليم ولا كسب
جواد يذل المال في جنب عزه	وتخجل من ذكرى مروّته السحب

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٦

(٢) - لم أقف له على ترجمة .

(٣) - في القاموس، البرثن : مخلب الأسد ، ولم يرد (برثم) ولعله خطأ من الناسخ .
لسان العرب (برثن)

له راحة فيها لسراجيه راحة
تخذت المنى نوقاً إلى سوح ماجد
وكف بها قد كف عن جاره الخطب
ومن حادثات الدهر في ساقتي ركب
تغازلني الأفلاك والسبعة الشهب
وإن الذي أمسى وحمزه قصده
تعدّرت في نيل المطالب أن يكبو^(١)
فيا ابن ولاة البيت دونك مدحة
ترجم ما يملي لأوزانها القلب
تفضّل وقابلها بجبرك كسرهما
وبادر فلا يتلو بوادرك العتب
ودادي لكم روح وروحي جسمها
وإعراضكم داء ولطفكم طب
عليكم صلاة الله آل محمد
ويتلوكم فيها العشرة والصحب^(٢)

ومن نظم خير الدين الياس^(٣) قصيدة ذكرها كذلك عبدالغني النابلسي
يستهلها بمقدمة غزلية يقول فيها :

بدر أفق يفوق شمس ضحاء
قد تبدى بليلة ضحياء
أم غزال أزرى الغزالة حسنا
وغزاني بهدبه الهدباء

ثم يتخلص بعد المقدمة الغزلية لممدح سيد الشهداء حيث يصفه

(١) - المسلم قصده الله سبحانه وتعالى وحده فبيده ملكوت كل شيء.

(٢) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٧.

(٣) - هو خير الدين بن تاج الدين بن محمد الياس زاده، المدرّس والإمام بالمسجد

النبوي الشريف، ولد سنة ١٠٨٦ هـ، كان عالماً فاضلاً أديباً له مشاركة في

الفنون العلمية، له عدّة مؤلفات ومصنّفات ورسائل، توفي سنة ١١٢٧ هـ.

تحفة المحبين ٢٤٢، تراجم أعيان المدينة ص ٣٠.

بالأوصاف التي ذكرها الشعراء في القصائد السابقة حيث قرابته
للرسول ﷺ وكرمه وشجاعته وشهادته، ثم ينتقل بعد ذلك إلى
الاحتماء بسيد الشهداء وطلب الإجارة من جائرات الليالي.
فيقول:

كل صب له المتاعب سهم	لا كمثلي فإنني كالسهاء
ما تحملت ذاك جهدي إلا	بانتسابي لسيد الشهداء
حمزة الفضل عم خير رسول	منجح السؤل دافع الأسواء
أسد الله حفصه وابن حفص	الكريم الأجداد والآباء
الجواد السمح الذي مرج البحر	رين من راحتيه في لقياء
لم تمس التراب نعلاه إلا	لنبي مصدق الأنبياء
بذل الروح عند نصره خير الر	سل قد كان ذا بوادي الشطاء
طار لب السماح لما توفى	ت وشقت مراير الأمراء
كيف كف في الدهر كف كريم	واكف سحب كفه بالعطاء
إن من يحتمي حماه المرجى	ذاك قطعاً مجاوز الجوزاء
إنني صرت في حماك نزيلا	ونزولاً في ذروة الأسخياء
عادة الضيف فيض جود عليه	وقراه فريضة الغرباء
فأجرني من جائرات الليالي	وأنلني من رحب بحر القراء ^(١)

(١) - المجير هو الله سبحانه وتعالى فهو الذي يجير ولا يجار عليه.

وأجز مدحتي ببردة برّ واقبلنّها هديّة الفقراء
 بنت فكر بنت بزّاكي مدح كي توافي رصيفها بالصفاء
 أسكرت كالشمول بل كشمال قد تمادى به غصون قباء
 حاز منها القبول نفحة طيب حازها بالقبول يا مولائي
 وصلاة الإله بل مع سلام تغشي مولاي سيد الشفعاء
 سيد المرسلين أحمد والآ ل وصحب ما آل إل إحاء
 وبدا فوق غصن قد رشيق بدر أفق يفوق شمس ضحاء^(١)

ومن المدائح التي قيلت في صحابة الرسول ﷺ مدح سعيد بن
 عبدالكريم الأنصاري^(٢) لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أوردها البيطار
 في كتابه (حلية البشر) وذكر أن الشاعر كتبها على تابوته في ضريحه،
 ويصفه الشاعر بأنه ذو النورين سليل ذري المجد، ثم يذكر فضله
 ومواقفه مع الرسول ﷺ ، فيذكر بيعة الرضوان، وتجهيزه لجيش
 المسلمين في غزوة تبوك، ووقفه للبئر (بئر رومة) ، ونزول قوله تعالى:
 (أمن هو قانت ...) ، ومصيبة قتله إلى غير ذلك من فضائله رضي الله عنه ، ثم
 يخاطبه بثالث الأصحاب ويجعله وسيلته، فيقول:

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٨ .

(٢) - هو محمد سعيد بن عبدالكريم الأنصاري ولد سنة ١١١٥ هـ ، نشأ على
 طلب العلم وبرع فيه، فنظم ونثر توفي سنة ١١٦٣ هـ. تحفة المحبين ص ٢٠،
 حلية البشر ٢ : ٦٦٢ .

لعثمان ذي النوري تُفدى الجوانح
 ألا كيف لاتسعى وقد حاز رفعة
 سليل ذرى المجد الرفيع مكانه
 فإن كان مجد الصاحبين محققا
 لقد بايع المختار عنه بنفسه
 وجهّز جيش المسلمين بماله
 وقد انزلت فيه أمن هو قانت
 وبشر بالبلوى ففوض أمره
 وأضحى شهيداً في الجنان منعماً
 همام أمير المؤمنين قد استحت
 وأثنى عليه الهاشمي ببذله
 وزوجه بنتاً له ثم بعدها
 وهاجر حباً مرتين فأخصبت
 فيا ثالث الأصحاب أنت وسيلتي
 وهاكم قريضاً فوق تابوتكم زها
 وكالنور نورا بل يزيد وضاءة
 فمع غاية المجد الموثل قد أتى

وتسعى إليه العارفون الجحاجح
 لها الشرف العالي مدى الدهر راجح
 به يتقى والحادثات فوادح
 فمجد أبي عمرو له الفضل شارح
 مبايعة فيها الكمأة كوالح
 وأوقف بئرا تنتحيها الموائح
 يقوم الدياجي والدموع سوافح
 فوافته بالدار الرزايا النواطح
 له الحور تجلي قد علتة الوشائح
 ملائكة الرحمن منه وصالح
 تليدا معدا قد حبته المرباح
 حباه بأخرى نشرها ثم فايح
 سنون وسالت من نداه الأباطح
 ويا جامع القرآن جودك مانح^(١)
 على الروض فيه المطربات صوادح
 وحسنا له بين الأنام مدايح
 لتاريخه شطر من الشعر واضح

(١) - وسيلة المؤمن إلى النجاة هي عمله الصالح وتمسكه بدينه.

يقولون زوار الضريح إذا أتوا أيا حسن تابوت له الله مانح^(١)

وفي قصيدة - سبق وأن ذكرنا أبياتاً منها في الإلهيات والمدائح النبوية - يتوسل جعفر البيتي بالصحابة جميعاً وبآل البيت رضي الله عنهم ويطلب منهم أن يغيثوه مما أصابه، فهم الملاذ الوحيد له والذي لا يخشى من شيء إن قبلوه في حمايتهم، ثم ينهي القصيدة بالأبيات التي أوردناها في الإلهيات باللجوء إلى الله تعالى . فيقول:

وشفيعي أصحابك الغرّ جمعاً كل حبر منهم إليك سفير
سيّما صاحبك صديقك الأكبر والفاروق الوزير الظهير
ثم عثمان ذو الحياء وقارا وعليّ وشبّر وشبير
ولعمّيك والبتول خصوصاً من قبيل الأرحام جاه كبير
وبنو العم جعفر وعقيل وابن عباس الحميم الأثير
وبنوهم أئمة الهدي فينا من أتى فيهم بك التطهير
يالبيت النبي نجدة داع فعسيري إذا اردتم يسير
قسما أنكم لطلسم سرّ وبأقسامه يدك الطور
قسم ما لمقسم عنه بد يشهد الله أنه مبرور
فأغثوا بحاضر الوقت فوراً فالرزايا تيارهن يمور

(١) - حلية البشر ٢: ٦٦٢

نسبة الغوث في السباق إليكم إن أتانا قدامكم محذور
لو فرضنا سواكم لاستحى المف رروض من أنه الذليل الحقير
لو تقاعدتم لعز اعتذار دون مستنجد وعز عذير
وبدا للعادة منّا محلّ ممكن أن يقال إفك وزور

ومدح جعفر البيتي عبدالله بن عباس رضي الله عنه بقصيدتين^(١)
لا تخرجان عما طرقه الشعراء من معان في مخاطبة الصحابة في قصائدهم
السابقة ، حيث المدح والتوسل البدعي والاستغاثة.

٤- حب المدينة والحنين إليها:

جبل الإنسان العربي على حب الوطن كغيره من بني البشر، وقال في
ذلك أشعاراً كثيرة يزخر بها تراثنا العربي، فحب الإنسان لوطنه مدعاة
للحنين والشوق إليه بغض النظر عن هذا الوطن ومكانته التاريخية
والجغرافية، وقد خص مؤرخو الأدب شعر الغربة والحنين فجعلوه
غرضاً مستقلاً كبقية أغراض الشعر.

والشعر الذي قاله أبناء المدينة في الشكوى من الغربة عنها والحنين إليها
قسم سنتناوله كغرض مستقل يشترك فيه الشعراء مع غيرهم
من الناس في شتى أنحاء المعمورة ، فهو حنين إلى المدينة الوطن ومسكن

(١) - ديوان البيتي ، نسخة آل الصافي ١٠٣

الأهل والأحبة والأصدقاء ، أما القسم الآخر فهو ما تضمنه الشعر الديني ، والذي له صفة خاصة فهو مرتبط بالدين حيث أن المدينة بلد محرم له خصائص معينة، وقد رغب الرسول ﷺ في سكنها والصبر على لأوائها، وزيارة مسجده ﷺ ، ثاني المساجد الثلاثة.

فهذا السيد علي البرزنجي^(١) يذكر حبه للمدينة ويصف معاناته بالبعد عنها وأهلها، ويعلل نفسه بالعودة إليها ومشاهدة معالمها، ويمنيها بمشاهدة النقا^(٢) والشظا^(٣) والمصلى^(٤) والمساجد والبقيع ومنازل الأحبة ثم ينتقل إلى مدحه ﷺ .
يقول:

بل ما خليّ هوى كواجد	ما الحب والسلوان واحد
في سويدا القلب خالد	يا أهل كاظمة هواكم
دمع من الآماق شاهد	لي بالصباة فيكم
فمتى أرى تلك المعاهد	طال البعاد أحبتي
مذ غبت عن تلك المشاهد	ولهي تزايد والجوى

(١) - سبقت ترجمته ص ٩٨

(٢) - النقا : موضع بالمدينة يقع بين وادي بطحان والمصلى . وفاء الوفاء (٤/٤)

(١٣٢٢)

(٣) - الشظا : اسم لوادي قناة . وفاء الوفاء (٤/١٢٤٣)

(٤) - المصلى : موضع شرقي وادي بطحان . وفاء الوفاء (٤/١٣١٤)

مني وأما الشوق زائد
 والحشا مما أكابد
 ذابت لها صم الجلامد
 لغدا لها الجثمان فاقد
 مالي سوى دمعي مساعد
 أحظى وحضرته أشاهد
 د شاكر لله حامد
 هذا المصلى والمساجد
 ظر كيف منها النور صاعد
 ب وذو المآثر والمساجد
 كالزهر في روض الفدافد
 ومن بودهم أناشد
 فطالما وافاه وافد
 والكوكب الدرّي شاهد
 يهواه لو وافاه جاحد
 هو في الوري بيت المحامد
 راعع لله ساجد
 ت فكم بها بهر المعاند
 من مدلهمات الشدايد

أمّا اصطباري فانقضى
 واهاً لقلبي والجوى
 ها زفرتي من مهجة
 لولا رجال قياكم
 ما حيلتي أهل الهوى
 فعسى بقرة أعيني
 وأقول من شبحي فؤا
 هذا النقا هذا الشظا
 ذي القبة الخضراء فان
 هذا البقيع وذو القبا
 هذي القبور على الربا
 هذي منازل من أحب
 ذا مهبط الروح الأمين
 هذا ضريح المصطفى
 هذا المقام هو الذي
 أكرم بقبر ضمّه
 فيه رسول الله حي
 ذو المعجزات الباهرا
 حامّي الذمار مجيرنا

من لا يضام نزيهه
 طاب المقام بطيبة
 محبوبة في فضلها
 فمع التأدب والخمو
 وأغنم بها حسن الجوا
 وتعرض النفحات حيد
 ثم يتوجه بعد ذلك داعياً الله وحده الذي هو الملجأ والعاصم، وإليه
 يرجع الأمر - سبحانه وتعالى - فيقول:

ولديك باب الله سل
 يارب يا غوث الورى
 يا عمدتي في الأمر إن
 يا ملجأي يا عصمتي
 أرجو عنايتك التي
 ظني جميل في جنابك
 ماشئت واستفد الفوائد
 يامن إليك الأمر عائد
 جفت الأقارب والأبعاد
 يامن له حسن العوائد
 كم ساعدت مثلي بساعد
 مانحي حسن العقائد

ثم يتوسل بعد ذلك بالرسول ﷺ ، ويصلي عليه وعلى آله وصحبه
 فيقول:

وجناب صفوتك الذي
 في الأنبياء هو خير ماجد

فبه أقلني عشرتي فضلاً وجد لي بالمقاصد
ثم الصلاة تخصّه والآل والصحب الأماجد
ماحنّ مشتاق الحمى أو أنشدت فيه القصائد^(١)
ويقسم ويؤكد مشيخ باعبود العلوي^(٢) في أبيات له أن قرص شعير
ردئ الطعم بغير إدام والفقير مع العيش في المدينة، أحب إليه من المنّ
والسلوى في سواها، فيقول:

لقرص شعير تافل غير صالح بغير إدام والذي يسمع النجوى
مع الفقر في دار الحبيب محمد الدّ على قلبي من المنّ والسلوى
على أنني فيها على كلّ حالة غنيّ بتيسير الأمور كما أهوى

ويدخل أحمد با علوي جمل الليل المدينة فيثير ذلك شاعريته فيطلب
خلع رداء الترحال وينزل بساحة الرسول ﷺ وقصده للنجاه من

(١) - تحفة الدهر ٦

(٢) - هو مشيخ باعبود العلوي قال عنه صاحب تراجم أعيان المدينة في القرن
الثاني عشر إنه لاينكر فضله ، له رسالة في التصوف وله غزليات نظماً، توفي
بالمدينة سنة ١١٧٠هـ. (تراجم أعيان المدينة (٩١))

الحوادث وصروف الزمان ، فيقول :

هذا العقيق وذي ربا أزهاره
وأنخ مطيّك في حمّاه فإنه
فاخلع ردا الترحال صاح وحلّ من
وانزل بساحة ذا كالكريم ومن يزف
غوث الوجود وغيثه وملاذه
مولى الأنام الهاشمي المصطفى
والعود من ظمأ الزحام إذا همى
فاسكب دموعك في ثرى أعتابه
واقصده في كل المقاصد راجياً
وإذا خشيت من الحوادث ريبها
فاجنح لناديه الرحيب وناده
يامن له الجاه العظيم وربّه
يامن إله العرض جل جلاله
إن الكرام ومنك كل نوالهم
كم جيد سؤل قد أتاك معطّلاً
نرجو بجاهك من إلهك نظرة
ورضىّ يعم الكل سيب سحابة

فانشق عبير خزامه وعراره
حمد السرى يهنيك طيب قراره
عزم السفار وثيق شد إزاره
بسنزيلة فيسداره في داره
إن تبد من غاب الخطوب ضواره
والمعقل الأحمى لحومة جاره
هول الجحيم وكرّ كرب أواره
وامسح حدودك في ثرى آثاره
وحذار أن ترجو سواه حذاره^(١)
أو خفت بث صروفه وضراره
واخلص دعاك وقل تجاه مزاره
لاشك يسعد منتم لجواره
خلق الوجود ليؤذنن بفخاره
يرتاح فيضيهم إلى استدراره
حلّاه جودك من عقود بحاره
في موقف العقبي وزمرة ناره
والبرء من مرض الفؤاد وعاره^(٢)

(١) - الذي يقصد ويرجى هو الله سبحانه وتعالى وليس نبيه.

(٢) - تحفة الدهر ٢٤ ، حلية البشر ١ : ٢٨٥

وَيَخَاطَبُ الشَّيْخَ مِصْطَفَى الرَّحْمَتِي الشَّامِي^(١) مِنْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى حَرِّ الْمَدِينَةِ وَحَمَّاهَا وَأَوَائِهَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنْ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ مُوجِبٌ لَشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ السَّكْنَ فِي الْمَدِينَةِ يَنْسِي جَمِيعَ مَا يَصِيبُ الْإِنْسَانَ فِيهَا مِنْ مَصَائِبٍ وَنَوَازِلٍ .
يقول:

وقالوا سموم في المدينة محرق	فقلت سمو بالكرامات مغدق
وقالوا بها حمى تذيب لحومنا	فقلت حمى عنا الجحيم تغلق
تذب لظى عنا وتكشف بأسنا	محببة فينا من الأم أشفق
وقالوا بها اللاوا قلت هي التي	بصبر عليها بالشفاعة نطلق
وإن ضاقت الأحوال أو زاد سعرها	فإننا لفي فضل الإله لأوثق
وإن أشكلت فينا أمور عظيمة	فأنوار طه بالمواهب تشرق
فلا عجب تشتاقه النوق في الفلا	تمد له أعناقها وهي تخفق
حبيب إله الخلق موصل جوده	وقاسم فيض الله إذ هو يطلق
فهل يشتكي ضيماً منيخ ركابه	بساحة بحر بالعطايا تُدْفَقُ
عليه صلاة الله في كل لحظة	وآل كرام أصلهم عنه ينطق

(١) - هو مصطفى بن محمد بن رحمة الله بن عبدالمحسن بن جمال الدين الأيوبي الأنصاري ينتسب إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ولد بدمشق سنة ١١٣٥هـ، أخذ من كثير من علماء عصره في الفقه والحديث حتى صار علم الشام وفقهها، قدم المدينة سنة ١١٨٧، توفي في طريقه إلى الحج سنة ١٢٠٥ هـ. تحفة المحبين ٢٥٣، تحفة الدهر ٥١، حلية البشر ٣: ١٥٣٦

كذلك حماة الدين أصحابه ومن لآثارهم يقفو من الله يفرق (١)

ولمحمود بن حيدر البغدادي (٢) قصيدة في الحنين إلى المدينة، يذكر فيها بعده عن المدينة ويتمنى العودة إليها حيث أنه لا صبر له ولا طاقة على البعد فقد ذابت نفسه أسى وتشوقاً، وتقرّحت عينه من كثرة البكاء وأحل جسمه كثرة الأحزان، ثم ينتقل بعد ذلك للتوسل بالرسول ﷺ فيرجوه أن يغيثه ويخلصه من همومه وكربته ويرده إلى طيبة التي طابت به ﷺ، لأنه أشرف الخلق وشفيعهم، ويذكر بعد ذلك من دفن بها من الصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم.

يقول :

رعى الله دار بالحبيب تشرفت	بها أهل ودي سادتي وأحبي
نأت دارهم عني وأصبحت موثقاً	بحبهم والقلب ثاوٍ بطيبة
رمانى بسهم البعد دهري فليته	يجود بوصل بعد بعدي وغربتي
أحن إليهم والدموع هواطل	فمن زفرتي سالت على الخد دمعي
ونفسي قد ذابت أسىً وتشوقاً	ودمعي قرّح جفن عيني ووجنتي

(١) - تحفة الدهر ٥١

(٢) - هو محمود بن حيدر البغدادي ولد سنة ١١١٥هـ، ذكر عنه الداغستاني

أنه كان جوربجيا (يعمل الشوربة) في وفاق النوبجيتية (عسكر المناوبة) وسافر إلى الروم (تركيا) ومصر والشام واليمن والهند، كان يتعاطى التجارة. توفي بالمدينة سنة ١١٨٧هـ. تحفة المحبين ص ١٩٤-١٩٥، تحفة الدهر ٩٩.

فماء عيوني أطفأت نار حسرتي
 تراه خيلاً شاهدي منك رؤيتي
 ولولا حنيني لا ضمحت حقيقتي
 لذاب فؤادي من تباريح زفرتي
 هي العروة الوثقى وغاية بغيتي
 فأنت رجائي عدّتي عند شدتي
 فأحسن خلاصي من همومي وكربتي^(١)
 وارحم مشيبي وانكساري وعبرتي
 فتربتها عن طيب دنيك جلت
 وأشرف خلق الله خير البرية
 سما فوق كيوان^(٢) بأشرف بقعة
 شفاء لأسقام القلوب الضعيفة
 بها حمزة قد حل داراً بجنة
 سما قدره العالي على كل ذروة
 بها أكثر الأنصار أفضل أمة
 بها البدر إبراهيم أفضل بضعة

فلولا دموع العين لا حترق الحشا
 وأحزان قلبي أنحلت جسمي الذي
 ولولا أنيني ما تراني من الجوى
 ولولا ندائي باسم خير مشفع
 ولكنني استمسكت بالعروة التي
 فيا سيد السادات يا خير مرسل
 وأنت غيائي عند كل ملمة
 أجرني أنلني طيبة بسلامة
 فلا عرف أشهى من شذى نفحاتها
 فكيف وقد طابت بأفضل شافع
 بها الحجرة الفيحاء والمنبر الذي
 بها روضة من جنة الخلد تربها
 بها الخلفاء الراشدون ثلاثة
 بها بنته الزهراء والحسن الذي
 بها عمه العباس والصحب جلّهم
 بها الآل أهل البيت ثم نساؤه

(١) - المغيث الذي يجلي الهم ويكشف الكربات هو الله سبحانه وتعالى، أما ما يطلبه الشاعر هنا فهو من التجاوزات الشرعية .

(٢) - وردت في المخطوطة (كيوان) ولعلها (إيوان) وهو المجلس الكبير. المعجم الوسيط (آن).

أبى القلب إلا حب حزب محمد غرست هواهم في سويداء مهجتي
همُ بغيّتي فيهم حياتي وراحتي قضت في هواهم مهجتي وإرادتي
عليهم صلاة كلما انهلّ بارق وما حرّكت أشجان قلبي ولوعتي^(١)

ونلاحظ أن السمة المميزة للشعر الديني هي صدق العاطفة وحرارتها، حيث أن الشعر يصدر عن شخص مؤمن لا يتكلف هذا الشعر، ولا يقلد في قوله أحداً أو يحاول محاكاته، لأن همه وفكره منصرفان إلى التعبير عن مشاعره المتأججة الصادقة التي لا يخشى في إبرازها أحداً فهي منصرفة لله سبحانه وتعالى وأهل بيته وصحابته، أو بمعنى آخر هي مشاعر دينية خالصة بغض النظر عما يعتورها من مخالفات وانحرافات.

(١) - تحفة الدهر ٩٩.

الفصل الثاني / المدح :

يعد شعر المدح من أغزر الأغراض الشعرية التي حفظتها المصادر المختلفة على مر تاريخ الشعر العربي، ويرجع ذلك - في رأينا - لسببين أحدهما يعود للشاعر الذي يحاول أن يوظف تجربته الشعرية في نظم مثل هذا الشعر، والثاني يعود للمدوح الذي قيل فيه هذا الشعر، حيث يكون غالباً من ذوي الهيئات وأعيان المجتمع الذين يُهتم بتدوين تاريخ حياتهم في كتب التاريخ والتراجم .

وفي هذا القرن - موضوع دراستنا - كان شعر المدح من أكثر الأغراض الشعرية وفرة فيما نقلته لنا المصادر المختلفة. وقد اتجه هذا الشعر إلى الحكام بدءاً من سلاطين آل عثمان ومروراً بولاية الأقاليم الإسلامية، الحجاز ومصر والشام، وانتهاءً بأمراء الحج والوزراء. كما اتجه إلى وجهاء المجتمع داخل الحجاز وخارجه من العلماء ومتقلّدي المناصب العليا والأعيان وشيخ قبيلة حرب وغيرهم مما له بضع قائد لاجمال لذكرها، وحسبنا ما وجدنا له العديد من النماذج الشعرية.

وقد تميّز أغلب هذه القصائد بالمقدمة الغزلية الطويلة نسبياً، ثم الانتقال إلى المدح الذي يسترسل فيه الشاعر غالباً، عدا المدائح التي

قيلت في سلاطين آل عثمان فهي على قلتها لا تتجاوز أبياتاً قليلة، وأغلب قصائد المدح التي قيلت في هذا القرن هي للتكسب وطلب النوال، وهذا ما سنلاحظه أثناء استعراضنا لهذا الشعر.

أولاً : مدح السلاطين والأمراء والوزراء.

أ- مدح سلاطين آل عثمان:

مدح الملا علي الشرواني^(١) السلطان مصطفى خان^(٢) وأرخ لولايته حيث اعتلى عرش السلطنة سنة ١١٧١هـ، وقد أشاد بشدة السلطان وقوة بأسه، ورأى في تولّيه نعمة كبيرة على الدولة، حيث سيكون

(١) - هو علي بن محمد بن علي الزهري الشرواني، ولد بالمدينة سنة ١١٣٤هـ، ونشأ بها، تفقه على والده، وأخذ عن جملة من العلماء كالشيخ محمد حياة السندي والشيخ محمد ابن الطيب المغربي، ومحمد الدقاق وغيرهم، انتهت إليه رئاسة فقهاء الحنفية، ولي القضاء سنة ١١٨٦هـ، وقد كان فصيحاً، متكلماً، مهاباً، أورد له الداغستاني قصيدتين، توفي سنة ١٢٠٠هـ. سلك الدرر ٣:٢٣٠، تحفة الدهر ٥٠، تراجم أعيان المدينة ٢١.

(٢) - هو مصطفى خان الثالث بن السلطان أحمد الثالث، ولد سنة ١١٢٩هـ، تولى السلطة ١١٧١هـ، كان من أهم أعماله الاهتمام بتنظيم الأحوال الداخلية في البلاد وتوطيد الأمن والتشجيع على رواج التجارة والصناعة والزراعة، توفي سنة ١١٨٧هـ. انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٣٤، تاريخ الدولة العثمانية ١١٧٧.

ناصراً للدين ناشراً للعدل، يقول:

على عرش مجد الملك حقاً قد استوى
بسلطنة عظمى ونصر موزر
فألبيست الدنيا حليّ مسرّة
بنادي سرير الملك في كل لحظة
لمن هو ظل الله في الأرض نعمة
بسر (قل اللهم) فضلاً أقامه
هو المصطفى السلطان مدت ظلاله
ليسمو منار الدين كالأوج شامخاً
فتجلى شمس الفضل بعد انكسافها
فأصبح ثغر الدهر ييسم قائلاً

ملك شديد البطش قد طاب عنصره
وفتح مبين قد سما فيه مفخره
وعقد جمال قد تلاً لأجوهره
منحت بهاءً قد تكامل مزهره
يبين سبيل الرشيد والحق يظهره
ليعدل بين الخلق والله مقدره^(١)
على مفرق الأكوان والسعد موزره
على عاتق الجوزاء والسيف يشهره^(٢)
ويمحى به البغي الشنيع ومعشره
لتاريخه طيب ويتلوه مظهره^(٣)

(١) - يريد الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء .. الآية) آل

عمران: ٢٦

(٢) - الأوج : العلو . المعجم الوسيط (الأوج)

(٣) - تحفة الدهر ٥٠ .

وقد أورد عمر الداغستاني في كتابة (تحفة الدهر) بيتين قال إنهما ابتداء قصيدة لأحمد أفندي البساطي^(١) اختلستها يد الضياع، وهي كما يبدو في مدح السلطان عبدالحميد^(٢) آخر سلاطين آل عثمان في هذا القرن، حيث يدعو له بدوام السلطان والنصرة على أعداء الإسلام، ويصفه بأنه سلطان الوجود مؤيد الدين، فيقول:

أدام الله سلطان الوجود مؤيد ديننا عبدالحميد

وقلده الإله بسيف نصر على الكفار جمعاً واليهود^(٣)

وقد مدح الشاعر أحمد الجامي^(٤) السلطان عبدالحميد ضمن قصيدة

(١) - هو أحمد بن عمر بن حمزة البساطي ولد سنة ١١٥١هـ، وصار إماماً وخطيباً، أورد له الداغستاني شعراً غزلياً وإخوانياً، توفي في أوائل القرن الثالث عشر. تحفة المحبين ص ٩٦، حلية البشر ١: ٢٨٢، تحفة الدهر ٦٢.

(٢) - هو السلطان عبدالحميد خان الأول بن السلطان أحمد الثالث وهو السابع والعشرون من سلاطين آل عثمان، ولد سنة ١١٣٨هـ وتولى السلطنة سنة ١١٨٧هـ، توفي سنة ١٢٠٣هـ تاريخ الدولة العثمانية ص ١٨٣، تاريخ سلاطين آل عثمان ص ١٣٩.

(٣) - - تحفة المحبين ٦٣.

(٤) - هو أحمد بن عبدالرحمن ملا جامي، ذكر الأنصاري أنه في غاية الكمالات، وأن له نظماً حسناً ونثراً مستحسناً، وذكره الداغستاني في تحفته، وأورد له عدة مقطوعات وقصائد، وله كتاب (نوافح الزهور فيما جرى به القلم من منظوم ومنثور)، أورد فيه بعض الآراء والأخبار الخاصة بالأدب، وختمه

طويلة نظمها بمناسبة صدور الأوامر السلطانية من استانبول ضد مثيري فتنة سنة ١١٨٩هـ في المدينة^(١)، حيث يلقب السلطان بحامي الملك وسلطان البسيطة الذي تهابه أسود الشرى، فيقول بعد أن هنا المدينة بصدور هذه الأوامر السلطانية، وذكر من صدرت بحقهم هذه الأوامر:

واعرف نتيجة خفار الذمام ومن	رمى به الأمل الخوان في الخطر
ولم يبال بحامي الملك حافظه	ظل الإله عظيم القدر والقدر
فقلد المنن العظمى نحور بلا	د المصطفى عونها بالتبر والبتير
طوق الخلافة سلطان البسيطة من	هابته أسد الشرى فضلاً عن البشر
عبدالحميد أدام الله دولته	وصانها من صروف الدهر والغير ^(٢)

هذا القدر من الشعر الذي وصلنا من مدائح الشعراء لسلاطين آل عثمان، قد لا يصور مقدار عواطفهم تجاه السلطان العثماني، والذي كان يعتبر في حينه خليفة المسلمين، والخروج عليه خروج على دولة الإسلام.

ببعض نماذج من شعره، توفي في بداية القرن الثالث عشر. تحفة الدهر ٦٦،

تحفة المحبين ص ١٥٠، حلية البشر ١ : ٢٨٧.

(١) - انظر الناحية السياسية ص ٣٩

(٢) - الأخبار الغريبة ص ٦٣

ولعل هذه القلة ترجع لعدم معرفة هؤلاء السلاطين باللسان العربي، وإن عرفوه فإنهم لم يكونوا من متذوقي الشعر، وكذلك بعد المسافة بين عاصمة الخلافة والمدينة، إضافةً إلى اشتغال الشعراء بمدح من لهم صلة مباشرة بهم مثل أمراء مكة والوزراء وأمراء الحج.

ب- مدح أمراء مكة :

مدح شعراء المدينة أمراء مكة من الأشراف، وكانت مدائحهم أكثر وأطول من المدائح التي قيلت في آل عثمان، ويرجع ذلك - في رأينا - لقرب شريف مكة وسهولة وصول القصيدة إليه، وسلطته المباشرة على المدينة، إضافةً إلى تذوقهم للشعر وعطائهم عليه.

ومن هذه المدائح مدح الشاعر عبدالرحمن جلبي عابدي المدني^(١) وتاريخه لولاية الشريف سعيد بن سعد^(٢) الثانية عام ١١٠٣ هـ، حيث يرى ولاية الشريف سعيد فخراً للزمان يؤهله للتناول على غيره من الأزمنة، ويمتدحه بأنه وارث الملك كابرًا عن كابر فعلى البلاد أن تهناً به، فيقول:

(١) - لم أقف له على ترجمة.

(٢) - انظر ترجمته في الحياة السياسية ص ٢٣

افتخر يا زمان فالسعد وعد
فيك حاز الإمام خير بلا
فهو القائم المؤيد بالسند
وارث الملك عن أب وأبوه
فبدا منه للخلافة تاج
ضحك العدل واستبان وقد كا
فهنيئاً به الأرائك تزهو
قل لراجي الخطوب ويحك أحمد
هاك تاريخ خير ملك حميد
أفق الملك حِلّه بل حِمَاه

وتطاول فما لمثلك ندُّ
د الله ملكا ولم يكن منه بدُّ
نصر له العرب والملائك جندُ
عن أيه وثم كم ذا أعدُّ
وزهى منه للشرافة عِقْد
ن لدينا به جفاء وصد
في رباها وطائر الأيك يشدو
ما لهزل في دولة الجِدُّ جدُّ
حكمه في الأنام جود وجد
نجم سعد فطالع السعد سعد^(١)

ومن هذه المدائح قصيدة للشاعر جعفر البيتي^(٢) في مدح الشريف مسعود بن سعيد عام ١١٤٧هـ حيث تقع القصيدة في تسعة وخمسين بيتاً يستهلها بالغزل ثم يتخلص إلى المدح فيربأ بالممدوح أن يقاس بسواه من الملوك العرب أو العجم، فهو السامي الأشم، الرضي المتواضع، حامي حمى مكة بشدة بأسه وقوته في الحرب، ثم يسهب الشاعر في تعداد هذه الصفات، فيقول:

(١) - اتحاف فضلاء الزمن ص ٢٠٣.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٩ .

وانفض يد الياس من غير الملوك فهم
 فطالع الدولة الميمون طالعتها
 ملك الملوك تعالى أن تقاس به
 سامي ذرا منصب العليا أشمُّ رضي
 حامي حمى الحرم المحجوج وهو له
 أعظم به من شديد الباس ليث شرى
 ومسعر نار حرب ترتمي شرراً
 يسير في موكب العليا تحف به
 وفيلق غص بالأقطار تحسبه
 صان النفوس بدرع حاك لحمتها
 وسبق من عتاق الخيل شيدها
 أغارت الطير في مضمـارها خبياً
 ثم يوجه خطابه إلى الشريف مشيدا بشعره فيه مصرحاً بطلب نواله
 مذكراً له بالرحم التي تجمع بينهما وهي النسبة لآل البيت، فيقول:

(١) - الفيلم: العظيم ، القُثم: الجموع للخير. لسان العرب (فلم) ، (قثم)

(٢) - انتخى : افتخر . لسان العرب (نخا).

(٣) - الأجم: الحصن . لسان العرب (أجم)

(٤) - العسم: ييس في المرفق والرسغ تعوج منه اليد والقدم . لسان العرب (عسم)

(٥) - الأطم : الحصن. لسان العرب (أطم) ، ويقصد الشاعر هنا أن الممدوح

باقتنائه الخيل الجياد كأنه شيد حصناً منيعاً.

يا أيها الملك السامي المنار ومن سما ومن بثناه تشرف الكلم
إليها من بنات الفكر غانية تحلو لذي الذوق في المعنى وتنسجم
شوارداً في الورى سيرتها مثلاً في الدهر ينشدها في مدحك الأمم
ضمنتها من يدي دهري شكايته أنواع يعجز منها الخط والقلم
كم لي على الدهر استعدي وها أنذا لحم وجائحة الأيام لي وضم^(١)
عسى غنى من يدي رحماك تجعله يرم رث معاشي والغنى قسم
يا آل زيد بن عجلان لنا رحم إن كان تعطفكم في أهلها الرحم^(٢)

وهذا الشيخ أحمد بن محمد سعيد سفر^(٣) يمدح الشريف سرور بن مساعد^(٤) أشهر أمراء مكة وآخرهم في هذا القرن، حيث يبدأ بمدحيه مباشرة لآل البيت الذين ينتسب إليهم الشريف الذي عظمت همته وذاع صيته وأخباره، ووطد الأمن وسهر على الرعيّة وأزال الفواحش وهو أمين البيت وحاميه، وفي نهاية الأبيات يعود لما بدأ به القصيدة وهو طلب العفو عن أهل المدينة الذي غضب منهم الشريف في الفتنة

(١) - الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم. لسان العرب (وضم)

(٢) - ديوان البيهقي نسخة عارف حكمت ٢٨

(٣) - هو أحمد بن محمد بن محمد سعيد بن محمد أمين بن علي بن عبدالله السليمانى

الشهير بسفر، ولد سنة ١١٥٨هـ، واشتغل بطلب العلم له نظم ونثر، توفي

سنة ١١٩١هـ. تحفة المحبين ص ٢٨٥.

(٤) - انظر ترجمته ص ٢٤ في الحياة السياسية.

المشهوره^(١) عام ١١٩٤ هـ فيقول:

العفو في آل بيت المصطفى عهداً
لقد أقاموا عماد الدين واجتهدوا
وأمنوا حرم الله الأمين وهم
وأشرقت شمس في الكون واشتهرت
ماضي العزائم ماحي الظلم ذو كرم
فهو الشريف سرور من علا نسباً
الله أيده بالنصر فارتفعت
فيا سرور الهنا يا ابن الرسول لقد
فكم سهرت بها والناس قد رقدوا
وكم فواحش كانت قبل ظاهرة
وصرت أنت أمين البيت حاميه
جيران جدك منك العفو قد طلبوا

والصفح منهم مع الغفران قد وجدنا
حتى غدوا لجميع الناس مستندا
أمان طيبة من والاهم سعدا
أخباره فغدا في الناس معتقدا
عالي الجناب عظيم القدر نور هدى
وقام بالأمر حتى صار معتمدا
راياته في سماء العز فانفردا
أمنت مكة فاحمد ربك الصمدا
فلا برحت مكاناً دائماً أبداً
أزلت لازلت سيف الدين منجردا
فاشكر إلهاً عزيزاً واحداً أحدا
فعنهم اصفح تفر واسمح وكن سنداً

وهكذا لم يكن النوال والمال وراء كل شعر المدح، بل لقد سما
الشاعر أحمد بن محمد سعيد بأن وظف المدح لغاية نبيلة ومسئولية
عظيمة، وهي فكك الأسرى الذين سعوا في نار الفتنة، فلعل فيما مرّ

(١) - الفتنة المعروفة باسم فتنة الشريف سرور انظر الحياة السياسية ص ٤٠

بهم ما يكفي، وقد حاول هذا الشاعر أن يستلّ سخيمة ممدوحه بذكر
كثير من جوانب فضله حتى أفضى إلى حاجته، حيث طلب العفو عن
أهل الفتنة مذكراً للشريف بحق حرمتهم لجوار جدّه -صلى الله عليه
وسلم- وفي هذا ما لا يخفى من الرجولة والحصافة والذكاء^(١).

(١) - تحفة الدهر ٥٤

ج- مدح أمير ينبع:

مدح جعفر البيتي الشريف عبدالمعين الهجاري^(١) أمير ينبع بمناسبة الظفر على جماعة من قبيلة حرب، وذلك سنة ١١٣٥هـ، وقد بدأ قصيدته بمقدمة غزلية تخلص بعدها إلى المدح حيث يصف الشريف بالقوة والباس وبأنه صاحب الغارات على أعدائه، ثم يتحامل الشاعر على هؤلاء الأعداء ويصفهم بالباغين المارقين الذين انهزموا شر هزيمة أمام قوة الشريف عبدالمعين، المؤيد، ذو النسبة الهاشمية، ثم يسترسل في وصف انهزام قبيلة حرب ويذكّرهم بمن قتلوه غدرًا من أصحاب الشريف، فيقول بعد المقدمة الغزلية:

كم عاشق مثلي لما رأى	ألحاظه خرّ من الساجدين
يموت من ينظرها بهتة	كأنها أسياف عبدالمعين
السيد المولى الذي دمرت	غاراته كلّ شقي لعين

(١) - هو عبدالمعين بن مبارك من الأشراف ذوي هجار من آل قتادة من بني حسن، أمير مدينة ينبع، مدحه جعفر البيتي، ومدحه العباس بن علي الموسوي في كتابه (نزهة الجليس)، لم أقف على تاريخ ميلاده ووفاته، ولكنه عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، وقد مدحه العباس الموسوي سنة ١١٤١هـ. ديوان البيتي نسخة آل الصافي (١٠٦، ١٢٦)، نزهة الجليس ٤٠٩/٢، منتهى الإفادة في أخبار وأنساب الأشراف ذوي هجار بني الحسن بن قتادة لعصام بن ناهض الهجاري (مخطوط).

والأورع الماجد رب النهى ونقمة الباغين والمارقين
يبدو إذا الروع أطار الحجى في خلق سهل وقلب متين
سقى بني حرب كؤوس الردى فانقلبوا في حربٍ صاغرين
خاشعةً أبصارهم ذلة يحسد أحياءهم الهالكين
أيّدت يا ابن رسول الهدى محمد الطهر النبي الأمين
قابلت أعداءك في جحفل جم من الفرسان والمدرعين
وعارض فيه الظبا والقنا تمطر موتاً في عذاب مهين
من كل ليث فاتك هاتك يحن للهيجا بقلب حنين
حتى إذا الحرب استوى ساقها وفرق الطعن فؤاد الطعين
ونادت السمر بصوت الغنا إنني لكم منه نذير مبين

ثم يستمر في وصف الهزيمة التي لحقت بأعداء عبدالمعين إلى أن يختم القصيدة بقوله:

وهاكها بنت ابتكار أتت تزهو على المنشين والشاعرين
سيف انتقام في العدا قاطع فاصدع به من ألسن المنشدين
واسلم ودم باق على ما تشا فإنك اليوم مكين أمين^(١)
ولجعفر البيتي أيضاً قصيدة يمدح فيها عبدالمعين ويشتكى إليه الضيق

(١) - ديوان البيتي نسخة آل الصافي ١٠٦ .

فيطلب نواله، وهي أقصر من الأولى يقول في مطلعها:

قالت لطيف الخيال يسلبني
حين غدرت الرقاد في غفوه^(١)

د- مدح ولاية مصر والشام :

مدح السيد جعفر البيتي محمد باشا^(٢) متولي القاهرة، سنة ١١٥٩هـ وذلك - كما قال في ديوانه - بمشورة من إسماعيل أفندي^(٣)، وقد بدأ القصيدة بمقدمة غزلية انتقل بعدها إلى مدح الوالي حيث يلقبه بالعزير الذي كأن كرمه وعطاءه نهر النيل، ثم يستطرد في ذكر مآثره وصفاته موظفاً قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وقصة الخصيب المشهورة في

(١) - ديوان البيتي نسخة آل الصافي ١٢٦، الفلك المشحون ١٧٧ .

(٢) - هو راغب محمد باشا، تقلد عدة مناصب منها ولاية مصر التي انتشلها من أيدي المماليك بعد أن أبادهم، عينه السلطان عثمان خان الثالث في منصب الصدر الأعظم سنة ١١٧٠هـ، وبقي به إلى أن توفي سنة ١١٩٥هـ . تاريخ الدولة العلية ١٧٥، تاريخ سلاطين آل عثمان ١٣٢ .

(٣) - لم أقف للمذكور على ترجمة، إلا ما ذكره البيتي في ديوانه من أن المذكور اسمه إسماعيل أفندي عاصم جلبي زاده، ويتحدث عنه البيتي بقوله (أفندينا) مما يدل على أنه تربطه به علاقة طيبة، وهذه القصيدة التي أوردناها هنا يذكر البيتي أنه أرسلها لإسماعيل أفندي عقب سفره من المدينة إلى القسطنطينية، وأن إسماعيل أرسلها إلى راغب باشا في القاهرة وذلك سنة ١١٥٩هـ . ديوان البيتي نسخت عارف حكمت ٩٨ .

الورود على مصر لطلب النوال والعطاء، مختتماً ذلك بالإشادة بأبياته
هذه وأنها تستحق من العطاء أجزله، فيقول عند التخلص للمدح:

وافزع معي نحو كؤس الطلا	حتى نقضني عصرنا بالعصير
وحرّك العود لنا واسقني	وابعث سروري يا صفى بالصفير
لعلنا نذهل عن دهرنا	هذا الطير العابس القمطير
نفرغ للمدح وجلب الثنا	لسوق مولانا الرئيس الكبير
محمد صنوة أهل الحجى	عناية الحق الحكيم القدير
عزيز مصر نيّله نيّله	قاموسه البحر المحيط الغزير
مختار رأي المجد خدن العلا	راغبها صاحبها والعشير
نيل المنى بحر الغنى كنزه	إكسیره جبر الجناح الكسير
غيث مغيث غاية في الندى	يشهدا فيه السحاب المطير

إلى أن يقول:

مآثر لا ينقضي عدّها	كل بها عنك عليم خبير
عجالة جاءتك من خاطر	تقعده الحال وهم يثير
تنزل في مصر على يوسف	لأهلها من فضله تستجير
وقد وثقنا أنها عندكم	تزداد كيلا زائداً عن بعير

أنا نواسيّك في طيبة
أجبر حمد ودعاء إلى
جزاء مطر مطرب صادح
ضمن قواف أنا حسّانها
بنات فكر لك زفيتها
يتيمة كافلها أنت لي
وأنت في مصر الخطيب الأمير^(١)
عليك فانظر في جزاء الأجير
بالمدح ما بين الغنا والهدير
أجر فيها جرولا مع جرير
تهزؤ بالروض النضيد النضير
تكرم مثواها وعليك ظير^(٢)

ومدحه بقصيدة أخرى طالباً لنواله، وهي على نسق القصيدة السابقة،
يقول فيها بعد أن تخلص إلى المدح:

ورحت أشكو للطلول الجوى
ومن حزين ينقضي عمره
ظلمت يا دهر وأظلمت لي
ولو ملكنا أمرنا في الذي
فآه - لو أجدت - على رحلة
إلى حمى الفسطاط لوصح لي
أعجب لمن يشكو الجوى للجماد
من دهره بين العنا والعناد
فاقدح لأبناء الزنا بالزناد
نرى إذن بان طريق الشراد
أفرق السرج لها والبيداد
نزلت كلـواذ علي كيقباز

(١) - في القاموس نوّس بالمكان: أقام. لسان العرب (نوس).

(٢) - ديوان البيتي ص ٩٨ (نسخة حكمت ٩٨، والظُّر: العاطفة على غير ولدها
المرضعة له من الناس والإبل) لسان العرب (ظأر).

ضيفا على الراغب في حمده محمد محمود رب الأياد
أقصى الأماني بايزيد الغنى ولم أرد بعد لقاءه مراد
نابغه الإحسان بل نفحة الر حمن بل غيث السنين الشداد^(١)

ومدح الشيخ يحيى الجامي^(٢) محمد باشا^(٣) والي الشام وذلك بمناسبة وفوده مع الحاج الشامي مصطحباً الفرامين السلطانية التي أتى بها تاج الدين اليأس من السلطة العلية بعد أن ذهب إلى استانبول بالعروض بشأن فتنة الدوس^(٤) التي حدثت في المدينة عام ١١٨٩، وقد استدعى محمد باشا الأطراف المتنازعة ونفذ هذه الأوامر السلطانية. وقد بدأ الشاعر القصيدة بتهنئة المدينة بوصول محمد باشا الذي أخذ

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ص ١٠٠.

(٢) - هو يحيى بن عبدالرحمن بن أحمد المدني الشهير بالجامي ولد سنة ١١٤٨ هـ، أديب مكثر من النظم توفي سنة ١٢١٥ هـ . حلية البشر ٣/ ١٥٨٣ ، تحفة الدهر ٨٣.

(٣) - هو محمد بن مصطفى بن فارس بن إبراهيم ولد بدمشق سنة ١١٤٣ هـ، اتصل بالسلطان مصطفى بن أحمد فقلده الوزارة ، ثم ولاه الشام سنة ١١٧٦ ثم الرها فصيدا ثم عاد إلى ولاية الشام وإمارة الحج، توفي بدمشق سنة ١١٩٧ هـ. سلك الدرر ٤: ٩٧.

(٤) - انظر ص ٣٩ الحياة السياسية .

الفتنة وضرب على أيدي مثيريها الذين لقوا الجزاء العادل، فيقول:

يهنيك يا بلدة المختار من مضر قدوم تاج العلا بالنصر والظفر
ونظم أحوالك اللاتي قد انتشرت عقود سيرتها في سائر القطر
ونفي ما حل في ناديك من خبث لحيث ألفت كما قد جاء في الخبر

ثم يذكر هؤلاء المشاغبين بما فعلوه في المدينة وأهلها ويهجوهم ويتشفى منهم، فيقول:

هذا جزاؤهم بالنص حين بغوا وحادبوا الله والمبعوث بالسور
أليس قد أصبحوا داراً لهجرته ومهبط الوحي مأوى العلم والنظر
فقل لمن خسر الدنيا وضررتها في حربها أين أنت اليوم فاعتبر
أين الركوب الذي يقضي بأنك إن في طيبة دمت لاتبقي ولاتذر
فالبعض تصلبهم والبعض تقتلهم والبعض قصدك نفيًا لو إلى سقر
ولم تراع لأهل العلم مرتبة ولا لمتشحح بالفضل مسترر

ثم يذكر بعد ذلك الأحكام السلطانية التي نفذ محمد باشا أحكامها، فيقول:

هذا ولما أراد الله أن لنا لديه وجه قبول غير منكسر
ولاتضيع سدى في بابه وبه أضحى توسلنا عقدا من الدرر
هياً لنا سببا في حل عقدتنا وفصم عروة هذا البؤس والضرر

لكي نغلب في ظل الأمان على
وهو التصور للفتوى التي حظيت
أعني محمد المولى الأمين على
ومن تطول أبقى الله دولته
بمئة الفرمانات التي نفذت
جمال وجه أولى الآراء قاهر من
والي دمشق وحاميه محمد من
لازال وجه التهاني من تردده
وكم وكم من مهمات قد انحدرت
تخالها حين تبلوها وتخبرها
وأصلها همة الشهم الذي ابتهجت
فرش السرور ونجني لذة الثمر
بخير كفوها في الدوم معتبر
ما قلده أيادي الدولة الغرر
وزاده بسطة في العلم والعمر
أحكامها حين وافى عمدة الوزر
عتوا عتواً وقوى عصبة النفر
به تباغت أهالي الحج والعمر
بين الحجاز طليقاً زاهر الطرر
عنها المدارك حسرى أيّ منحدر
قد حاكت الفلك الدوار في الصور
به المدينة حين العود من سفر^(١)

هـ - مدح أمراء الحج:

جرت الحال على أن يُعين على كل من الحاج الشامي والحاج المصري
أمير يكون عادة من الشخصيات البارزة ذات القدرة على تحمل
مسئولية الإشراف على رحلة الحج في الذهاب والإياب، لما يعترض
هذه الرحلة من صعوبات ومشقة في الطريق وما يكتنفها من مخاطر

(١) - الأخبار الغربية ص ٦٢.

أمنية، وقد كان لأمير الحج نفوذ كبير وصلاحيات واسعة، حيث أنه يتدخل في مجريات الأمور في الحجاز، لدرجة تصل إلى عزل شريف مكة نفسه.

أكثر ما وصلنا من مدائح أمراء الحج هو ما قيل في مدح عبدالله باشا الجتجي^(١) (جته جي) القادم بالحاج الشامي لعام ١١٧١هـ، ١١٧٢هـ، وذلك بعد أن نهب الحجاج سنة ١١٧٠هـ ولم ينج منهم أحد، وفي طريق الجتجي لحج ١١٧١ تصادم مع قبيلة حرب وقتل شيخهم، وأنزل بهم هزيمة منكرة، وفي حج ١١٧٢هـ اختلف مع شريف مكة الشريف مساعد بن سعيد^(٢) فعزله وولى مكانه أخاه جعفر الذي خلع

(١) - هو عبدالله بن إبراهيم الحسيني الجرمكي الجتجي (جته جي) ولد في مدينة (جرمك) من أعمال ديار بكر سنة ١١١٥هـ، له معرفة بالتفسير وتفقه في علوم العربية، تنقل في الولايات الكبيرة، فولي حلب ودمشق وديار بكر، وتولى إمارة الحاج الشامي لعامي ١١٧١، ١١٧٢هـ، كان له وقائع مع قبيلة حرب انتصر فيها انتصاراً ساحقاً، وقد ألف جعفر البرزنجي رسالة في ذلك سماها (النفح الفرجي في الفتح الجتجي)، وفي السنة الثانية خلع الشريف مساعد بن سعيد عن ولاية مكة مما كان سبباً في عزله عن إمارة الحج من قبل الدولة، توفي بديار بكر سنة ١١٧٤هـ. سلك الدرر ٨١/٣، الفلك المشحون، الأعلام ٦٤/٤.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٤

نفسه وأعاد الشرافة لأخيه بعد رحيل الأمير.

وكان لانتصارات الجتحي على من يهددون الحجاج والمسافرين أكبر الأثر في إثارة قريحة الشعراء، حيث انبروا مادحين له واصفين لشجاعته وسطوته وتأمينه لطريق الحجاج.

وقد ذكر صاحب الفلك المشحون ثمان قصائد كلها في مدح الجتحي اثنتين للبيتي والبقية لشعراء آخرين.

وقصيدة البيتي الأولى مدحه بها سنة ١١٧١ هـ وهي التي مطلعها:

حرام عليها أمنها وانتظامها إذا نام راعيها وغاب إمامها

حرام عليها برؤها وشفأؤها إذا كان من سبعين عام سقامها

يعز علينا أن نروح ونغتدي يرى طيبة ما طاب منها مقامها

ويصف بعد ذلك حال المدينة وسوء الأوضاع الأمنية بها وبما جاورها ثم يمدح الجتحي فيقول:

ألا ربما آن الأوان لعزها وكان بعبدالله باشا اعتصامها

يعود لها العهد القديم ويحتمي ويأمن منها حلها وحرامها

هو السيد الصمصامة الشامخ الذرى أمين سرايا المسلمين همامها

سهيل على أهل الضلالة طالع نشأ منه فيها فتكها وحمامها

وبدر على أفق المدينة مشرق به اليوم يجلي ظلمها وظلامها

ونجم بأنواع السعادات ماطر يظل عليها سحبها وغمامها

هنيئاً لها بابن النبي وإنها بها شمسها قد زيد عنها هشامها^(١)
ويسترسل البيتي في قصيدته بين الثناء على الممدوح ووصف أحوال
المدينة قبله وبعد مجيئه.

أما القصيدة الثانية للبيتي والتي قالها في مدح عبدالله باشا في السنة
الثانية، لا تختلف في معانيها عن الأولى حيث المدح ووصف الأوضاع.
يقول في مطلعها:

بعبدالله باشا زال همي وهم المسلمين وكل غمّ
سقى بيد الردى أشياخ حرب كؤساً شابها صابا بسمّ^(٢)

أما القصائد الأخرى فهي متفاوتة من حيث الطول والجودة، ولكن
يجمعها صدق العاطفة والإعجاب الشديد بالممدوح الذي ضرب بيد
من حديد على من كان يراهم هؤلاء الشعراء خطراً يهدد طرق
الحجاج والمسافرين.

نختار من ذلك قصيدة لعلي بن حسن البرزنجي^(٣) لما فيها من حماسة

(١) - ديوان البيتي نسخة آل هاشم ٢٦٩ ، الفلك المشحون ١١٩٠

(٢) - الفلك المشحون ١٢٠

(٣) - هو علي بن حسن بن عبدالكريم البرزنجي ، ولد بالمدينة سنة ١١٣٤هـ ، وأخذ
بها عن أخيه جعفر البرزنجي وغيره، ذكر الأنصاري أنه برع في النظم والنثر ،
توفي بالمدينة في أواخر القرن. تحفة المحبين ص ٨٩ ، سلك الدرر ٢١٣/٣

وجزالة.

يقول في مطلعها :

سل الحسام على العدا من غمده
فوق الجياد الصافنات عروسها
يا قتلة في آل حرب لم تكن
دهشت لشدة بطشه ألبابها
ذهب الزمان بسعدها وسعيدها
يا ويلها من بعده يا ويلها
كنا نحذرها المليك وسيفه
حتى رأيت سيفاً أصاب ذبابه
ورقى إلى شم الجبال بجنده
وأذاقهم كأس الردى بفرنده
أبدأ لعمرك أنبأت عن حدّه
والخوف سطوات المنون وأده
وأتاهم خطب الزمان بضده
لاعيد تلقى ويلها من بعده
قدما فقالت سيفه في غمده
فرقت فأنى لو أصاب بجده

ثم ينتقل إلى مدح الجتجي فيقول:

جتجي عبدالله والمنصور بالنـ
حامي حمى الحجاج فوق جواده
لم يأت وال مثله يا صاح بل
حبر همام بارع ذو نخوة
شهم نعوت الخير فيه تجمعت
لازال بالنصر المؤيد ظاهراً
نصر الذي برقت بوارق رعه
بالنيل والعضب الذي في زنده
ما قلدت صيد الولاة كعقده
برّ جواد صادق في وعده
وحوى الذي عجز الورى عن عدّه
من ربه ومظفرا من عنده

ثم الصلاة على المؤيد بالظبا والآل والصحب الليوث ووفده
مافي سماء النصر أشرق بدره وتبلجت فيها مطالع سعده^(١)

و- مدائح الوزراء :

مدح شعراء المدينة الوزراء في الحجاز وخارجه، ومن ذلك مدح
السيد جعفر البيتي للوزير محمد بن إبراهيم الشامي^(٢) وزير الشريف
مساعداً^(٣) وذلك سنة ١١٦٥هـ، حيث يبدأ القصيدة بمقدمة غزلية ثم
ينتقل إلى المدح فيصف الوزير بالنجم المتألق، الكريم راحم الفقراء
واليتامى، وهو وزير ابن وزير ويهنته بهذه الوزارة للشريف مسعود^(٤)
ثم لابنه مساعداً من بعده فيقول بعد التخلص للمدح:

فمحمد الشاميّ شامة دهره في خده كالنجم في الديجور
قطب العلا الشاميّ سام أصله ومكانه هو موجب التغيير

(١) - الفلك المشحون ١٢٥ .

(٢) - هو محمد بن ابراهيم بن عبدالرحيم الشامي تولى وزارة الشريف مسعود
بعد والده الذي توفي سنة ١١٥٣هـ ، ولم أقف على تاريخ وفاة المذكور.

المختصر من كتاب نشر النور والزهر لأبي الخير ص ٤٦ .

(٣) - انظر ترجمته ص ٢٤

(٤) - انظر ترجمته ص ٢٤

كفف اليتيم حمى الأراامل راحم
 كرمت سجيته فعرض وفره
 عملاً لوجه الله فهو منزه
 عن خطة الإسراف والتقتير
 أكرم بمجتمع الكمال قعيدة الص
 صيد الملوك وزير ابن وزير
 من ملك مسعود لملك مساعد
 هُنيت بالتقديم والتصدير^(١)

ومن مدائح الوزراء مدح السيد زين العابدين^(٢) للوزير يوسف باشا^(٣)،
 حيث يستهلها بمطلع غزلي ثم ينتقل بعده لمدح الوزير حيث يمتدحه
 بأنه والي المدينة وحاميتها ومحافظها البطل الشجاع الذي تحذر الليوث
 من كرهه، وهو كريم جواد، حتى أن حاتم الطائي يعتبر خادمه في
 الكرم،

فيقول بعد أن تخلص إلى المدح:

(١) - ديوان البيتي ١١٣

(٢) - زين العابدين بن محمد زين العابدين انظر حلية البشر: ٢/٦٤٣ ، تحفة

الدهر ٩

(٣) - تحدث الأنصاري عن إحدى الدور المشهورة في المدينة فقال: (واليوم

ساكن فيها حضرة يوسف باشا بن محمد باشا والي جدّة، محافظ المدينة

المنورة) ويدل ذلك على أن المذكور كان محافظاً للمدينة عند تأليف

الأنصاري لكتابه مطلع سنة ١١٩٧هـ. تحفة المحبين ٢١٣، ٤٨١.

يا نفس آي كتاب الشعر قد نسخت
والي المدينة حاميها محافظها
اليوسفي عزيز العصر سيده
أنت الشجاع الذي في كل معركة
أنت الجواد الذي الطائي خادمه
أنت الحلیم الذي من حل ساحته
أدامك الله طول الدهر في سعة

لولا قدوم وزير جل مفخره
الفرس البطل الفتاك أبتزه^(١)
حامي الرعايا بفصل ضاء نيره
تكر كراً ليوث الأرض تحذره
والنيل من نيله والخير غامره
نال البشاشة والجبران خاطره
بجيرة المصطفى المختار عنصره^(٢)

ثم يمدحه بقصيدة أخرى فيصفه بالمحسن التقي الذي أمن المدينة ففرح
به البدو والحضر، وشدت بذلك الحمائم وماس الأيك، فيقول:

اليوسفي الحسن نخبة عاظم
يا عيلم الإحسان ياخذن التقي
أمنت مدينتا بحط رحالكم
وحمائم الأفراح تشدو بالهنا
والأيك ماست في غلائل زهرها

رب الوزارة بل ومالك صعبها
يا والي الفيحا وسيد حزبها
فرحت بكم حضارها مع عربها
ولكم ترحب فوق انضر قضبها
طرباً بواليتها الهمام وقطبها^(٣)

(١) - الباتر: السيف القاطع . لسان العرب (بتر)

(٢) - تحفة الدهر ٩

(٣) - المرجع السابق ٩

وقد مدح حسين هاشم الوزير المصري مصطفى باشا بقصيدة بدأها بمقدمة غزلية ثم انتقل إلى المدح فوصفه بالحزم والقوة وإغاثة الناس وقت العسرة وأنه عريق في نسبه تقي ورع شجاع، وهو الذي كأنه خلق كما يشاء، فيقول بعد ذكر المحبوبة في مقدمته الغزلية وذكر محاسنها:

أهام هواها كل صب مقيم	على الهدي فيها بالتقى أنفذ العمرا
كما أنني انفذت مدحي قاصدا	ذرا الشامخ الغمدان من ناهز الزهرا
أبو العزم والحزم المحرد سيفه	إذا صادم الأعداء أولا هم بترا
عظيم المزايا كامل الحلم والتقى	بسيط أيادي الفضل قد أوضح البرا
رضيع لبان المجد من يوم كونه	وفرع نما بالعز من دوحة غرا
إذا عد ذو التقوى رأيت إمامهم	هداه ولم تلق على عدله وزرا
تجمع فيه الفضل حتى كأنه	على خلقه قد شاء فاستحضر الفخرا
هو الماجد الضرغام والفيصل الذي	إذا رام أمراً لم يكن أمره أمرا

وفي نهاية القصيدة يشيد بنظمه لهذه القصيدة، ثم يُهنئ الوزير بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج وشهر الصوم وعيد الفطر بعده، ثم ينتقل إلى يوم النحر الذي سيكون أعداء الوزير فيه أذلاء.

فيقول:

فيا أيها السامي المعظم قدره ويا من سما فوق السهى قدره قدرا

إليك قريضاً فاقو الدر نظمه
 وضاهى زهور الروض بل حاسن الحورا
 يهنئك بالمعراج والصوم بعده
 كذاك بعيد الفطر تستكمل الأجر^(١)
 وأعداك يوم النحر تُحر عليهم
 من الذل خزي لم يزل فوقهم دهرا^(٢)

ثم يمدحه بقصيدة أخرى وذلك بمناسبة قدوم الوزير إلى المدينة، حيث يبدأ القصيدة بمقدمة غزلية يصف فيها محبوبته التي لم ينج منها عاشق إلا الذي لاذ بالوزير المدوح، ذو الكرم والمفاخر والحجى والرأي السديد، الشجاع الذي يبطش بأعدائه ويعفو عنهم عن مقدرة، الذي طاب الزمان في طيبة بقدمه وولّى الشر واندحر بوصوله، ثم يحتتم القصيدة واصفاً قصيدته بالبكر التي لا تحلّ إلا ببذل المهر، فيقول عند التخلص للمدح:

لم ينج منها عاشق من غصة
 إلا الذي قد لاذ منها وانتصر
 بحمى الوزير الشهم أكرم من حمى
 أرجاء طيبة بالذكاء المبتكر
 رب المكارم والمفاخر والحجى
 والمجد والرأي السديد المبتدر
 شهم الوزارة ليثها وهزبرها
 مقدام كل ملم خطب يحتدر
 إن دار في الأعداء كاس عقابه
 لم يبق ذي بغى تراه ولا يذر

(١) - الاحتفال بالمعراج من البدع التي انتشرت آنذاك، ولم يرد ذلك عن سلف الأمة.

(٢) - مساجلات شعرية : جمع جعفر هاشم ص ١٣.

يعفو إذا ملك العدو بهمة
خدمت له الأقدار ما في نفسه
بقدمه طاب الزمان بطيبة
فلك الهنا قد حزت كل فضيلة
واليكها بكر تزف وحسنها
فاخلع عليها من قبورك خلصة
إني نطقت بقدر علمي مادحاً
فانظر الي بعين رحمتك التي
واسلم ودم تتلى عليك بعزة
والعفو من طبع الكريم المنتصر
فسعى له المقصود طبقاً للقدر
والشر أدبر ثم ولى واندحر
هاكنت أنت المصطفى سامي المقر
فاق الغواني في البداوة والحضر
فالبكر لم تحلل بلا بذل المهر
ومطول الشعرا بمدحك مختصر
تدع الرسيس من المقابر ينتشر
خطرت وجادت بالوصال على قدر^(١)

ثانياً : مدح الوجهاء :

أ- متقلدي الوظائف والمناصب العليا:^(٢)

من أهم الوظائف التي هناؤها الشعراء متقلديها هي القضاء ومشیخة الحرم، ومن ذلك قصيدة لمحمود بن حيدر البغدادي^(٣) يمدح أحد مشايخ الحرم ويهنئه بالتأييد والنصر فهو الكريم الجواد الذي أخضع بقوته وحكمه ودهائه مثيري القلاقل والشغب والمهددين لأمن المدينة،

(١) - مساجلات شعرية لجعفر هاشم ص ١٥ .

(٢) - انظر الحياة السياسية ص ٢٩

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢٠ .

فيقول:

جاءت تهنيك بالتأييد من رجب حسناء ترفل في ثوب من الأدب
تقبل الأرض والأعتاب حاملة لواء مدح لما أسلفت في الحقب
خريدة من بنات الفكر سامعها بادي مسرته من ثغرة الشنب
لو صور الجود طرفاً كنت فارسه تصادم الدهر في الاقبال والنبوب
يا أيها البحر مهلاً جدت ما ملكت كفاك لم تبق غير المجد والحسب
يا راكباً متن أسنى الغر مقتنصاً نوافر المجد طبعاً غير مكتسب
أخصبت طيبة من جدواك ذا لجب تذب عن حيّها بالسمر والقضب
قيدت ماردها قيدت شاردها رجمت مسترقاً للسمع بالشهب
وسالمتك أسود الغيل مذ عرفت في راحتك نقيع السم في ضرب
محيت ما ترك الماضون من إحن حتى ثوى ميت الأضغان في الترب^(١)

وقد مدح السيد جعفر البيهقي عبدالله أسعد زاده^(٢) وهنأه بقصيدة لما
ولي القضاء سنة ١١٣٢هـ، حيث يصفه بالتبحر في العلم ومعرفة
المذاهب على اختلافها، ويصفه بأنه نادر الشبيه في علمه وكمالته كما

(١) - تحفة الدهر ٩٩

(٢) - هو عبدالله بن أسعد بن أبي بكر بن أحمد بن عبدالله الاسكداري ولد
بالمدينة سنة ١٠٩٥هـ، تولى الافتاء بالمدينة، توفي سنة ١١٥٤هـ. تحفة المحبين
٣٧، سلك الدرر ٨٣/٣. تراجم أعيان المدينة ٤٢.

أنه صاحب نسب عالي صريح حيث يذكر أنه شيباني النسب، ثم يبين عن مدى سروره بأن يتولى القضاء مثل هذا الممدوح الذي هو أهل ومكسب لهذا المنصب.

فيقول:

دام عبدالله قاضٍ وولي	ولي السعد علينا مذ ولي
حاكم الشرع الشريف الحنفي	شافعي مالكي حنبلي
جمع العلم لديه كل ما	هو في الأربع من نص حلي
تعجز المنية عن أشباهه	إذ هو الكنز عزيز المثل
حائز أشتات علم وتقى	معجزاتٍ جمعها في رجل
فله التسهيل خلق بارع	يقتضي إحياء علم عملي ^(١)
ومن التصريح أعلى نسب	رأس شيبان له في ذهل ^(٢)

نسباً يروى صحيحاً مسنداً	عن صحيح حسن للمرسل
يا بني أسعد أغنى سعدكم	عن حلول الشمس برج الحمل
قد أضيفت لعلاكم مثلها	حبذا الكحل بعين الأكل
سرنا حسن القضا في مثلكم	هذه الدولة خير الدول

(١) - التسهيل في النحو لابن عقيل.

(٢) - التصريح على التوضيح اسم كتاب.

- ذهل: اسم قبيلة . لسان العرب (ذهل)

ما شككنا أن من يحسدكم
لو تنسكت بمدحي فيكم
نلتهم من كل قرب غاية
عدداً صح به تاريخه
مات من قبل انقضاء الأجل
قل في السعي إليه رملي
في معالي الأكرمين الأول
دام عبدالله قاض وولي^(١)

ب- مدائح العلماء :

مدح شعراء المدينة العلماء من أهل المدينة أو المجاورين أو الوافدين للحج والزيارة، فقد مدح كثير من الشعراء الشيخ عبدالغني النابلسي^(٢) الذي وصل إلى المدينة في شهر رمضان عام ١١٠٥ هـ وأقام فيها حتى حلول موسم الحج من العام نفسه، وقد قابل الكثير من علماء المدينة وشعرائها، وقد حفظ لنا كتابه الذي دوّن به هذه المرحلة والمسمى (الحقيقة والجواز) الكثير من هذه القصائد ورد الشيخ عليها، وسوف نورد بعضها مقتصرين على القصائد التي قيلت في مدح الشيخ دون ذكر الرد عليها حتى لا نخرج عن دائرة البحث.

فقد مدح الشيخ عبدالغني النابلسي الشاعر أحمد بن إبراهيم الخياري^(٣) حيث استهلها بمقدمة غزلية تخلص منها إلى مدح الشيخ

(١) - ديوان البيتي، نسخت عارف حكمت ١٣.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢

(٣) - هو أحمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن علي بن خضر الخياري، ولد بالمدينة

بتخلص لطيف، وقد وصف الشيخ بتبحره في العلم، وأنه عين أهل الشام صاحب التداوين والمؤلفات الكثيرة، وهو التقى البعيد عن الرياء، ثم يهنئه بعد ذلك بزيارة مسجد الرسول ﷺ، ويشكر الله الذي حقق أمنيته برؤية الشيخ والتي كانت أقصى مراده، فيقول:

كدت أخشى الضلال في الحب لولا	أن هدتني أنوار رب اليقين
روح جسم العلا وإنسان عين المح	د حقاً وعمدة في الدين
بحر فضل مفتاح كنز علوم	وسراج الهداية المستبين
عالم عامل تقى نقي	للمعالي والمجد خير قرين
هو عبدالغني الأجل المفدى	الغني مدحه عن التبيين
عين أهل الشام بل شامة العص	ر ومبدي نفايس التدوين
يا لها من مؤلفات تجلت	كعروس في أحسن التزين
زين العلم في الملا بتقاء	وبنسك عن الرياء مصون
من تحلى جيد الزمان بعقد	من نظام له كدر ثمين

سنة ١٠٧٠هـ، ووالده إبراهيم الخياري ترجم له كثير من المؤرخين وله مؤلفات من أشهرها رحلته (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)، وابنه أحمد هذا أجمع كل من ترجم له على كرم أخلاقه فقد قال عنه الأنصاري إنه (نشأ على طريقة حسنة مثل أبيه وزيادة، وباشر الخطابة والإمامة)، ذكره النابلسي في رحلته (الحقيقة والمجاز) وأورد بعض شعره، توفي سنة ١١٢٣ تحفة المحبين ٢٠٥، الحقيقة والمجاز ٣٨٤، نفحة الريحانة ٣٧٤/٤.

فهنئاً لكم زيارة طه
 قد أنلتم من الشفاعة حقاً
 فتمتع بروضه الخلد وأكحل
 قد شكرنا الإله لما أرانا
 كان ذا منيتي وأقصى مرادي
 سيدي هاكها عروسة فكر
 سيد الرسل المجتبي المأمون
 وحظيتم بعز مجد مكين
 من ترى المصطفى سواد العيون
 غرة الدهر في أعز السنين
 في دعائي المقرون بالتأمين
 في قيود الغرام كالمسجون^(١)

ومن المدائح التي قيلت في الشيخ عبدالغني النابلسي قصيدة لأحمد بن
 ابي الغيث الشهير بمغلباني^(٢) حيث يبدأها مباشرة بمدح الشيخ ويهنئه
 بزيارته لدار الهجرة ثم يسترسل في تعداد مناقبه، فيقول:

يا أيها المولى الهمام الأورع
 الجهبذ اليقظ النبيه أخو الذكا
 العالم العلامة الحبر الذي
 يهنئك أن وافيت دار الهجرة الـ
 دار بها قبر النبي محمد
 الفاضل القرم البهي الأروع
 قيد الأوابد في الوري والمرجع
 هو مستقر الفضل والمستودع
 قعسا ونعم الدار هذي الأربع
 قبر به نور النبوة يلمع

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٤١٠

(٢) - هو أحمد بن أبي الغيث مغلباني الحنفي الخطيب، المدرس والإمام بالمسجد
 النبوي ولد بالمدينة سنة ١٠٧٠هـ، وتوفي سنة ١١٣٤هـ. تراجم أعيان ص

لا بدع أن وافاه وارث علمه
 فابشر بخير الدين والدنيا فقد
 وصفاتك العليا ثم بنشرها
 فلأنت حلال المعالي والمعاني
 جمّ الفوائد والفرائد كيف لا
 مدحي شمائله كفرض واجب
 أخلاقه تحكي النسيم لطافة
 ما فيه من عيب سوى أن الأفا
 من ذا الذي يستطيع ينكر فضله
 يا غايةً لبيان كنز دقائق
 من لي بمنطقك البديع بيانه
 وحكاية هي في القريض حياكة
 وعلت بكم رتب السيادة بل غلت
 وصفت قلوب الأكرمين إليكم
 فأليك بنت الفكر وافت تجتلي
 وتؤم كل خريدة في خدرها
 قد قصرت عن شأؤ مدحك فاغتندت
 هذا وداعي البر ابرزها كما
 والشيء بالشيء التزاماً يجمعُ
 وافيت من يولي الجميل ويوسعُ
 طيب الثناء الفائح المتضوعُ
 ني إن تلعثم لودعي ألمعُ
 تعنو له شم الأنوف وتخضعُ
 حتمٌ ومدح الأكثرين تبرعُ
 والماء ينصعُ إذ يطيب المنقعُ
 ضل عنده من هيبه تتكعكعُ
 وذكا شمائله عليه تسطعُ
 وحقائق منها الفنون تنوعُ
 فيما يوشيه البنانُ ويبدعُ
 لمطارف الآداب إذ ما تصنعُ
 أسعارها وشعارها المتمنع
 وبحب أهل الفضل كل يولع
 شمس المعارف من رؤاك فتسطع
 وفريدة ما أن اليها مطلع
 لحياها في طرسها تتلفع
 جاءت فعلّ يطيب منها الموقعُ

فاسبل عليها ذيل سترك واقبلن عذري فوجهي بالحياء مبرقع^(١)

ومما مُدح به الشيخ عبدالغني النابلسي أيضاً قصيدة لعبدالكريم الخليفتي العباسي^(٢) الخطيب والمدرس بالمسجد النبوي الشريف، حيث يهنيئ الشيخ بزيارة مسجد الرسول ﷺ، ثم يمتدحه على أنه يرى الشيخ غنياً عن المدح بذاته التي أضحت يشار إليها بالبنان، ويذكر مؤلفات الشيخ التي حققت له طيب الذكر ويبدى اعجابه من قدرته على التفنن والابداع في القول والبيان فيقول:

كل من أمّ ذا الشفيح وزاره كَفَّرَ اللهُ بالـلِّقا أوزاره
وحباه من الشفاعة نصّاً قد رويناه بين الملا أخباره
فهنيئاً لزائريه أقاموا بحماه وشاهدوا أسراره
كيف لايسحبون ذيل فحار ولهم في الأنام أسنى بشاره

(١) - الحقيقة والمجاز ٤١٢

(٢) - هو عبدالكريم بن عبدالله بن عبدوالهاب الخليفتي العباسي، نسبة إلى الخلافة العباسية، ولد بالمدينة سنة ١٠٧٠هـ ونشأ بها، طلب العلم وبرع فيه، وقد أجمع كل من ترجم له على أنه أفضل أهل بيته، تولى منصب الفتوى بالمدينة ومنصب الخطابة والإمامة، له فتاوي وتحريرات، وله شعر لطيف، توفي سنة ١١٣٣٨هـ تحفة المحبين ٢٠٢، سلك الدرر ٦٦/٣، تراجم أعيان المدينة ٧٢.

سَيِّمًا الْعَالَمَ التَّقِيَّ أَخُو الْفَضْلِ
هو عَبْدُ الْغَنِيِّ الْغَنِيُّ عَنِ الْمَدْرِ
الْعَظِيمِ الَّذِي تَعَاظَمَ قَدْرًا
الذَّكِي الَّذِي بَنَى نَوَّارَ ذِكَاةِ
وَأَرَانَا مُؤَلَّفَاتٍ حَسَانًا
فَتَفَنَّنَ فِي الْوَصْفِ فِيهِ صَرِيحًا
لَا تَقْلُ فِيهِ بِالْقَصِيرِ مِنَ الْقَوْلِ وَطَوَّ
فَهُوَ الْمَفْرَدُ الَّذِي جَمَعَ الْفَضْلَ
مِنْ عَلِيٍّ طَيْبِ أَصْلِهِ وَثَنَاهُ
أَيُّهَا الْأَمْجَدُ الرَّفِيعُ مَقَامًا
لَكَ نَهْنِي بِأَنْ غَدَوْتَ نَزِيلاً
لَسْتُ كَفْوًا لِأَنْ أَهْنَيْكَ لَكِنْ
فَاغْضُضْ الطَّرْفَ عَنْ عَوَارِ مَدِيحِي
وَتَلَقَّ امْتِدَاحَهُ بِقَبُولِ

لِ وَمِنْ أَصْبَحِ الْوَقَارِ شِعَارَهُ
حَبَّذَاتٍ أَضْحَتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةَ
دُونَهُ أَنْجَمِ السَّمَاءِ السَّيَّارَةَ
كَمْ جَلَا عَنْ خَفِيِّ لَفْظِ غَبَارِهِ
حَقَّقْتَ طَيْبَ ذِكْرِهِ وَاشْتَهَارَهُ
إِنْ تَشَاءُ أَوْ كُنْيَاةٍ وَاسْتِعَارَهُ
وَلِ وَامْتَدَدَ لِسَانِ الْعِبَارَةَ
لِ وَوَأَفَى مَحَلِّهِ وَقَرَارَهُ
مِنْهُ طَيْبِ الْفِعَالِ أَضْحَى أَمَارَهُ
مِنْ أَدَامِ الْإِلَهِ فِينَا اعْتَبَارَهُ
لِنَبِيِّ يُولِي وَيَكْرَمُ جَارَهُ

حَالَةَ الْحُبِّ عَلِمْتَنِي الْجَسَارَةَ
مِنْ مَحَبِّ وَقَلْبِهِ فَضْلًا عَثَارَهُ
مِنْكَ مَوْلَايَ وَأَقْبَلْنِي اعْتِذَارَهُ^(١)

وَمِنْ مَدَائِحِ الْعُلَمَاءِ مَدْحِ السَّيِّدِ جَعْفَرِ الْبَيْتِيِّ^(٢) لَزِينِ الْعَابِدِينَ الْمَنُوفِيِّ^(٣)

(١) - الْحَقِيَّةُ وَالْمَجَازُ ص ٤١٧

(٢) - انظُرْ تَرْجُمَتَهُ ص ٩

(٣) - هُوَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ بْنِ سَعِيدِ الْمَنُوفِيِّ، قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَنَةَ ١١٣٨، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ

سنة ١١٤٧ حيث يستهل قصيدته في مدحه بمقدمة غزلية يتخلص بعدها بمدح الشيخ، فيصفه بالتقى وطيب المنبت، حيث يقصده الجود، وأنه قد قصده لأنه أهل للشكوى فشهرته وكرمه ساقى إليه الناس، فيقول بعد انتقاله إلى المدح:

مالنا عند الليالي عتبٌ قد أقلناها ذنوباً وعثارا
 إن زين العابدين المنتمي للعلا أصبح عنهن اعتذارا
 فهو ذاك المرء دنيا وتقى طيب النبت أصلاً ونجارا
 واحد الدنيا نسيج وحده فبايٍّ من علاه تتمارا

يا عناة الجود ها نارالقرى فأمكثوا أني قد آنت ناراً
 عند شهم كلما جاد ندى فجر الأرض عيوننا وبحارا
 كعبة للجود من مبلغكم أني أدركت حجاً واعتمارا
 يا أخوا الإحسان أدعوك ويا نعم من أدعوه غوثاً وانتصارا
 من أمور قد رأيناك لها دون هذا الجليل كنزاً وادخارا
 حشدتنا عندك الآمال لا تبغني إلاك ملجأ وجوارا
 وحذفنا حشو مجموع الورى واختصرناك وناهيك اختصارا
 لاتلمنا شهرة ساقى إلى نحوك الناس صغاراً وكبارا

رئاسة الشافعية، وصار خطيباً وإماماً ومفتياً بها، توفي سنة ١١٥١هـ. تراجع

أعيان المدينة ص ٨٢، نزهة الجليس ١ : ٢٠٣

فأليد العلياء خير من يد دونها سفلى انحطاطا وصغارا
فأبغ عند الله سعياً رافعاً لك ذكر الحمد في الدنيا مناراً^(١)

ومن مدائح العلماء مدح الملا علي الشرواني^(٢) للسيد أحمد بن حماد
المغربي^(٣) حيث يمدحه بفضله وسمو مقامه وفصاحة لفظه، ويهنئه بزيارة
مسجد الرسول ﷺ ، فيقول:

يقول لسان الفخر والشرف الجلي جنابك حقا قد علا كل معتلي
مديراً لأفلاك العقول وقطبها ومركز عرش المجد والحسب العلي
إمام فروع الفضل مالك أصلها فمن فيضه كل العوالم تمتلي
طوالع أنوار الكلام حديثه وحكمة عين السر منطقته الجلي
مطالع أسرار البلاغة لفظه معانيه كنز بالدقائق ممتلي
يُهنأ بأن زار الشفيع محمداً ففرغ زكي التقى أصله العلي
وأحيا علوماً قد تقادم عهدها بروضة خير الخلق جاهي ومؤلي^(٤)

(١) - ديوان البيتي ص ١١٨ .

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٤ .

(٣) - لم أعثر له على ترجمة .

(٤) - تحفة الدهر ص ٥٠ .

ومن مدائح العلماء قصيدة للشيخ علي الفرضي^(١) في مدح السيد
عبدالله أسعد^(٢)، بدأها بمقدمة غزلية ثم مدح السيد ذاكراً نسبته الهاشمية
ويصفه بالماجد ابن الأماجد العفيف الأديب الهمام الذي حاز الكمال
والسؤدد فيقول في مطلعها:

مليح بدا يزري بغزلان حاجر يتيه دلالاً نافرأ غير زائر
إذا ما تثنى ينجل الغصن قدّه عذيب اللمى باهي اللحاظ الفواتر

وهكذا إلى أن يتخلص إلى المدح:

فما طلني عند اللقاء غير مرة وعاملني بالصد منه كجائر
فما زلت أبدي شكوتي وتولعي خصوصاً على المولى خليلي مسامري
هو البر عبدالله من آل هاشم عفيف لدين الله نجل الأطاهر
سليل أولي الأفضال والحلم والحجى ووارث مجد كابرأ بعد كابر
أديب لبيب لوذعي سميدع^(٣) همام أريب بالغ خير ماهر

(١) - هو محمد علي بن سعد بن عبدالله بن إبراهيم الفرضي، قال عنه الأنصاري
إنه (شاب لا بأس به اشتغل بصناعة أبيه وهي صناعة الكوافي البيض المنقوشة)،
ترجم له الداغستاني في تحفته ولقبه بـ (صاحبنا الشيخ علي الفرضي) أورد له
شعر اخواني وغزلي تحفة المحبين ص ٣٨٧، تحفة الدهر ٨٦.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٢

(٣) - السميدع: الكريم السيد الجميل الجسم الموظأ الأكناف، وقيل هو
الشجاع. لسان العرب (سمدع).

أعز مفدى ذو كمال وسؤدد غدا غرة العليا وبدر المظاهر
 فيا حبذاه أنه ذو مكارم سما بالمعالي فوق هام المفاخر
 فاعظم بفرع طاب أصلاً وعنصراً وأكرم بفرد فاق جمع النظائر
 فيا سيدي لازلت بالعز دائماً لك الحظ والإقبال أسعد ناصر
 ولا برحت أيامك الغر تزدهي بفضلك ماهبت نسيم الأزاهر^(١)

ومدح عمر الداغستاني^(٢) الشاعر خضر بن يحيى بن صحرة^(٣) المكي
 عند زيارته للمدينة حيث استهل قصيدته بمقدمة غزليّة طويلة نسبياً ثم
 تخلص بعدها إلى مدح الشاعر الذي يسترسل في ذكر مناقب قومه

(١) - تحفة الدهر ٨٨

(٢) - انظر ترجمته ص ١٠

(٣) - ذكره الداغستاني في تحفته، وهو ليس من شعراء المدينة، ويظهر أنه ممن
 فات صاحب كتاب نشر النور والزهر ترجمته في شعراء مكة، وقد ذكر
 الداغستاني أنه مدحه عام زيارته للمدينة، ويظهر من حديث الداغستاني أنه
 كانت تربطه به صداقة وثيقة حيث أورد قصائد اخوانية بينهما تظهر عمق
 هذه الصداقة وقال إنه (أديب صادق اللهجة، من بيت شرف..) والنماذج
 التي أوردها الداغستاني له تظهر أنه كان يتمتع بشاعرية قوية. تحفة الدهر

ونسبتهم الهاشمية ثم ينتقل إلى ذكر صفات الشاعر الذاتية مما يدل على
اعجاب صادق بأدب الشاعر حيث يشبهه كلامه بقطر الغمام والرحيق
والسكر فيقول في مطلع القصيدة:

صنم من الكافور وشح عنبراً وحوى بصحن الخد مسكاً أذفراً
أبدى على محمر أبيض صدغه شعر العذار حكي طرازاً أخضراً

إلى أن يتخلص للمدح فيقول:

فعدت تجود بعرفها وتضوعت عن نشر مولى نشره ملاً الورى
نجل الأمائل والأفاضل من سما عالي الشمائل والفضائل والذرا
من سادة شمّ الأنوف أجلة رفعوا لهم فوق الثريا منبرا
لهم انتماء بالنبي وبنته وكذا الحسين وضم معهم حيدرا
فهو الذي ملك الضخامة والفخا مة والشهامة بالوراثة لاشترى
ونشا بميدان السيادة يافعا وحوى صنوف الفضل كهلا أفخرا
بجر من الآداب عذب ورده بالدرد من عاداته أن يزخرا
ويزين أجياد الكواغد^(٢) بالقلا ئد كالخرائد^(١) حين يمسك مزبرا^(٢)
البدر يرغب أن يكون لنظمه طرساً ليجمع من حلاه جوهرا
فكلامه أندى على الأكباد من قطر الغمام على الكمّام مبكرا

(١) - الخريدة من النساء : البكر التي لم تمس قط. لسان العرب (خرد)

(٢) - المزبر : القلم . لسان العرب (زبر)

تشـتفه أسـمـاعـنا فكأنـمـا تشـتف من فيه الرحيق وسكرا^(١)

ج- مدائح الأعيان:

من هذه المدائح مدح السيد جعفر البيتي الشريف باز بن شبير الحسيني النموي^(٣) بقصيدة يستهلها بمطلع غزلي ثم يتخلص للمدح حيث لا يرى للشكوى مكان ييئها إليه إلا للشريف، ثم يصفه بأنه العمدة في النائبات الذي يشد به الأزر، وهو السيد ذو النسبة الهاشمية العالية، حيث لا يستطيع الشاعر أن يوفيه حقه من المدح، فمدحه إياه كمن يمدح الشمس، وفي آخر القصيدة يشتكي له من فقره وحاجته ويطلب منه أن يذكره عند الشريف مسعود أمير مكة ليحسن أحواله ويرمم معاشه وإن صعب تحقيق ذلك في المدينة فلا بأس من العمل في بلدة أخرى، وينهي قصيدته بالإشادة -على عاداته- بهذه الأبيات متمنياً للمدوح طول العمر .

فيقول:

(١) - تحفة الدهر ٤٦

(٢) - الكاغد: القرطاس . المعجم الوسيط (الكاغد)

(٣) - هو باز بن شبير بن مبارك بن فضل بن مسعود بن حسن النموي الحسيني ذكره العباس الموسوي في رحلته . انظر ص ٣٩٢ ج ٢، تراجم مشاهير القرن

الثاني عشر الهجري للعيدروسي (خ) ٣

ولو رمت للشكوى محلاً أبثه
ومن مثل باز والجوارح جمّة
أخي عمدتي في النائبات ومن أنا
أخو الفوز بالقدح المعلّى مناقبا
أبو الكرم بن الجود عم العلا أخو ال
وما زدت وصفا فوق ما أنت أهله
ولكن ذكرنا عنك ماهو حاصل
سوى ابن شبير ما وجدت ولا شبرا
ولكن بصيد الحمد ما اعرف الحرّاً
أشد به أزري وأطرح من أزرى
ولامنتهى في علم ذاك ولا حصرا
مزايا وفرع الوحي حقاً ولا فخرا
إذا جاء هذا المدح في أمره أمرا
كمن بات يطري الشمس أو ينعت البدرا

ثم يصرح بحاجته يقول:

سلمنا وسالمنا الزمان وصرفه
لك الحمد في مكسور حظ جبرته
إذا كنت ميقاتي لعمرة حاجتي
فذكر بأمرى عند ربك ربما
متى كان مسعود رئيسي وعمدتي
فسر لي بسفن القصد في بحر فضله
وقصدي ترميم المعاش وكونه
وخط لنا في حطّه إصره إصرا
فبعذك كسرى ما يطيقُ له كسرا
وحجّي فلا زيدا أرجي ولا عمرا
بخطك أن الله يحدث لي أمرا
ركبت على دهما الزمان به شعرا
وواظب بسم الله في ذلك الجرى
بداري وإن يصعب ففي بلدة أخرى

وفي نهاية القصيدة يثني على أبياته ويدعو لممدوحه وينهي القصيدة بما
بدأها به فيقول:

ودونكها آيات حمد مفصل بشكرك أرسلنا له به رسلنا تترى

قصاراً ولولا الحادثات أطلتها وكانت متى تسفر سفارتها سفراً
 وخذ حيرات من بيوتك خزها ومنظوم در قد جمعت به النشرا
 ومرّ على مزجاة صنفي ولا تقل لقد جلب البيتي إلى هجر تمرا
 وعش وابق واسلم واستمر على البقا تمد لك الأيام من عمرها عمرا
 مدى الدهر ما قال الشجي لصحبه قفوا نتعاطى في الطلول طلا الذكرى^(١)

ومن الأعيان الذين مدحهم البيتي السيد على سيف^(٢)، حيث بدأ قصيدته بمقدمة غزلية لم يطل فيها كعادته وإنما تخلص إلى المدح بتخلص لطيف، حيث يصف ممدوحه بالسؤدد والرياسة وعلو المنزلة وأن من أوى إليه ضمن الحماية، ويقول إن هذا غير مستغرب من شخص هو فرع من بيت النبوة، وأنه يختلف عن أصحاب الأجداد المستحدثة الذين أتوا من خارج الحجاز ليتولوا مناصب ليسوا لها بأهل، وإنما همهم جمع

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٦١، ٦٢.

(٢) - هو علي بن أحمد سيف، ذكر البيتي في قصيدة له في مدح أخيه أن له نسبة هاشمية، فقد مدح البيتي أخوا المذكور حسن بن أحمد سيف وذكر أنه يسكن جدّة، وقصائد البيتي في الأخوين تنبي عن مكانة كبيرة وانتمائها لأسرة مرموقة، حيث أفاض في مدحهما ثم طلب نوالهما، وقد ذكر في الديوان أنه قال هذه القصيدة سنة ١١٤٢ هـ. ديوان البيتي (نسخة آل هاشم) ٢٣٥، ٢٥٥.

الأموال والمحافضة عليها، وبنو سيف أسرة الممدوح على النقيض من هؤلاء فهم أصحاب مجد مؤثل، وهم واسطة عقد هذا الجيل، وهو لا يفي بحقهم مهما مدح، ثم ينهي القصيدة بطلب العطاء والإحسان الذي قد ألفه من آل سيف جميعاً.

فيقول بعد المقدمة الغزلية:

قسما ما انثنى قوامك إلا	ليدل الغصون كيف تميل
كعليّ لما أنال وأعطى	دلّ كيف الكرام كانت تنيل
طالعاً في سما الرياسة بدرا	ماله كالبدور فيها أفول
كل آوٍ إليه من كل خطب	فله من حماه ظل ظليل
غير بدع من فرع عنصر وحي	هو في فترة الكرام رسول
سبق الناس بالندى وسواه	بوثاق من شحه مغلول
كل نذل نفته من أرضها الغر	ب إليها ومصر واستنبول
صان عرض الأموال شحاً ولؤماً	في البرايا وعرضه مبذول
وبنو سيف أهل دار قرار	لهم في البلاد مجل أثيل
كل جيل له أناس كرام	وهم وحدهم كرام وجيل
أي مدح يقضي حقوق أناس	كان خدام جدهم جبريل

إلى أن يصرح بطلب العطاء في آخر القصيدة :

فتفقد قرباك لاذقت فقدا أيها الغيث إن أرضي محيل
 لاتعرج بسيل جودك عني يا كريم العطا فاني مسيل
 قد ألفنا إحسانكم آل سيف نسأل الله أنكم لن تزولوا^(١)

ومن مدائح الأعيان مدح عبدالكريم الخليفة العباسي لزين العابدين
 أفندي البكري الصديقي^(٢) بقصيدة أرسلها له في مصر والتي أوردها
 الشيخ عبدالغني النابلسي في رحلته حيث أورد ستة أبيات نونية
 كمقدمة للقصيدة ، وقد ذكر في هذه الأبيات أنه أرسل هذا الشعر إلى
 مصر ليعبر عن عظيم الود المتمكن في فؤاده ويؤم الممدوح الذي يؤمه
 القاصي والداني ، والأبيات هي :

كتاب شعر بعظيم ود تمكن في الفؤاد وفي الجنان
 إلى مصر البهية طاب منها ترى كالمسك أو كالزعفران

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ١٣.

(٢) - هو زين العابدين محمد بن محمد بن محمد البكري الصديقي ولد سنة
 ١٠٦٠هـ، وتوفي سنة ١١٠٧هـ، ترجم له المحبي في كتابه (نفحة الريحانة)،
 وقد ذكر محقق النفحة أن البكري هذا هو صاحب المحبي الذي استقدمه من
 الشام إلى مصر، وأعانه على اخراج هذا الكتاب (نفحة الريحانة)، وقد أفاض
 المحبي في ترجمته والثناء عليه وأورد له شعراً كثيراً يتميز بالأصالة والجزالة.
 تاريخ الجبرتي ١١٧/١ نفحة الريحانة ٣٣٢/٤، الأعلام ٦٢/٧.

يؤم السوح مولانا الذي لا يزال يؤم من قاص وداني
 ينوب عن المحب بلثم كفّ من الشهم الرئيس أحي المعاني
 هو البكريّ زين العابدين الـ لذي أضحيّ يجل عن البيان
 أدام الله بهجته وأبقى له ذكراً على مرّ الزمان

أما القصيدة التي وردت بعد ذلك فهي رائيه بدأها الشاعر بالغزل
 ثم تخلص لمدح زين العابدين حيث يصفه بأنه فدّ لا يقاس به أحد من
 أبناء زمانه، ثم يذكر نسبه إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-
 ويصفه بأنه فخر أضاف إليه هذا الماجد فخرا من ذات نفسه، ثم
 يسترسل في تعداد وذكر مناقبه فيصفه بالحلم والكرم ويذكر أن صفاته
 لا تحصى وأن شعره يقصر دون الوفاء بحقه، ثم يتمنى أن ينعم بروايته
 والاجتماع به ليحظى بلثم كفه وذلك منتهى قصده ومطلبه.

فيقول بعد المقدمة الغزلية:

ولم أدر قبلا ما الغرام وطعمه إلى أن غدا حيي يجل عن الستر
 وحيي لهم من أجل حيي لسيد له صرت ذا شوق على الوصف والذكر
 وقد صح أن الأذن تعشق قبل أن ترى العين لا يرتاب في ذاك ذو خبر
 هو المفرد الفذ الرفيع مقامه مدار نطق المجد والعز والفخر
 هو الجوهر الشفاف والأنور الذي به ينصر المظلوم في ظلمة الغدر
 هو البر زين العابدين فلا تقس بزيد له مجدا حواه مجداً ولا عمرو
 هو البحر للعافين والمورد الذي به سكر العشاق من عالم الدر

هو السيد البكري فاعظم بنسبة إلى السيد الصديق حقاً أبي بكر
 فيالك من فخر تعاضم قدره وقد حزت مع هذا فخاراً على فخر
 الست وسيع الصدر والرحب الفنا ألسـت الرفيع الجار والجاه والقدر

ومنها :

صفاتك لا تحصى بضبط وإنما قصدت بذكر البعض حفظي من الضر
 فيا أيها المولى العظيم جنباه ومن قد سما منه المقام على النسر
 وداك قد أفضى إلى ما تراه من قليل مديح فيك قد صين عن هجر

وإن كنتُ دوناً عن مديحك سيدي فعذراً ففرط الحب قد صار من عذري
 عسى تسمح الأيام منا بزورة واكحل جفن العين من وجهك البدري
 ويجمعنا بعد التفرق مجلس يكفر ما قد كان للوقت من وزري
 واحظي بلثم الكف منكم فأنثي ولي نشوة من دونها نشوة السكر
 فذلك قصدي ما حييت ومطلبي ورفع مقامي في الورى وغنى فقري^(١)

وقد مدح السيد جعفر البيتي الشيخ سعد بن بدوي^(٢) شيخ قبيلة

(١) - الحقيقة والمجاز ٤١٩ .

(٢) - لم أعثر على ترجمة لسعد بن بدوي هذا ، وقد ورد في كتاب (مذكرات
 تاريخية عن بعض أعلام حرب) لفايز بن موسى البدراني ص ١٢١ ، ذكر
 بدوي ابن أحمد بن رحمة بن مضيان الظاهري ، الذي كان شيخاً لقبيلة
 حرب إلى أن توفي سنة ١١١٤هـ وتولى المشيخة من بعده أخوه مبارك بن

حرب^(١) على لسان أحمد بن يحيى الأزهري^(٢) يستنجده على جماعة من أهل المدينة كانوا أخرجوه لاتهمهم إياه بقتل السيد محمد أسعد^(٣) مفتي المدينة هو وجماعة معه وقد بقي أحمد المذكور عند الشيخ سعد بن بدوي مدة ثم عاد إلى المدينة وبقي أياماً ثم تحرك خصومه السابقون لإخراجه، فبعث بهذه القصيدة إلى الشيخ يستنصره، فسعى الشيخ سعد في الصلح بينه وبين أهل المدينة سنة ١١٤٣هـ.

استهل البيتي القصيدة بذكر المنازل التي ينزلها آل ظاهر^(٤) جماعة

أحمد بن رحمة، ويظهر أن بدوي بن أحمد هذا هو والد سعد ممدوح البيتي المذكور سنة ١١٤٣، وقد اطلعت على وثيقة قديمة غير مؤرخة عند الاستاذ/فايز البدراني ذكر أنه حصل عليها بعد تأليف كتابه المذكور، تذكر هذه الوثيقة سعد بن بدوي منعوتاً بالشيخ مما يدل على توليه مشيخة قبيلة حرب.

(١) - قبيلة حرب، انظر الحياة السياسية ص ٤١

(٢) - هو أحمد بن يحيى الأزهري ولد بالمدينة سنة ١١٠٣، طلب العلم حتى صار من علماء عصره، توفي بالطائف سنة ١١٤٧هـ، تراجم أعيان ص ٤١.

(٣) - هو محمد بن أسعد بن أبي بكر الاسكداري ولد بالمدينة سنة ١٠٨٨هـ

كان عالماً تولى إفتاء المدينة، توفي سنة ١١٤٣هـ. تراجم أعيان ص ٤١.

(٤) - آل ظاهر من المراوحة من بني سالم من حرب، من شيوخ حرب، انظر.

مذكرات تاريخية عن بعض أعلام قبيلة حرب للبدراني ص ١١٧.

الشيخ سعد ويدعو لها بالسقيا والغيث العميم، ثم يصف الأيام التي قضاها في جوارهم حيث يصفها بأنها أيام عز وأمن حيث أن سعداً حمياً لمن يلتجى به من الخائفين المظلومين، وما ذلك إلا نحوه الباعث لها مكارم أخلاقه الأصيلة، وقد انتشر ذكر الشيخ الطيب في المنطقة كلها، وهو صاحب قوة وله جيش ضخم من قومه وهو عفيف عند تقسيم الغنائم.

فيقول:

سقى الغور نوء العارض المتراكم ولا خلّيت منه اضاء التهايم
إلى الخبت^(١) من قوز العذيب^(٢) وواسط^(٣) ومخشوش^(٤) دار العز بين العوالم
وحيّاً ربوعاً حلها آل ظاهر ولا برحت تسقى صدور الغمائم
شربنا مياه العز في جنب دارهم على حسن حال من أكف المكارم
أقمنا على خفض من العيش مدّة إلى ظل شههم يرتجى في العظائم
أبو عيد سعد الملتجى بجنابه إذا اطردت في البغي خيل المظالم

(١) - الخبت: صحراء بين المدينة ومكة. معجم البلدان ٣٩٢/٢.

(٢) - ورد في معجم البلدان (العذيبة): ماء بين ينبع والجار، والجار بلد على

البحر قريب من المدينة ١٠٤/٤٠.

(٣) - واسط: موضع بين ينبع وبدر. وفاء الوفاء ١٣٢٩/٤.

(٤) - مخشوش: اسم موضع.

وماهي إلا نخوة تقتضي له مكارم أخلاق الجدود الأكارم
 طوى صيته أرض السراة بجوده وسير رايات الثنا في العواصم
 إذا قلت ياسعد أجابك مسعد ولباك بالبيض الحداد الصوارم
 وأرجف في جيش من النصر غاشم تعود رد الكيد في نحر غاشم
 إذا اقتسم القوم المغانم بينهم رضي بالثناء يوم اقتسام الغنائم

ثم يبعث بالتحية إليهم والسلام على آل مضيان ويخبرهم بأن حياته
 مهددة ويطلب منهم النصرة، فيقول:

ومن بعد يا ساري وفي دمة الدجي يحوب فيافي البيد فوق الرواسم
 تحمّل إلى الشيخ الأعز تحية شحنت بها مني بطون التراجم
 واعطف بأنواع السلام على أبو ثنيان ذو الاقدام يوم التصادم
 وحيي رجالاً كان بيتي بيتهم يحومون حولي كالبزاة الحوائم
 لهم مني الود الذي لا يشوبه نفاق ولا يسمو له وهم واهم
 وإن سألوا عني فقل قد تركته يروح ويغدو في شقوق الأراقم
 تألست الأعدا عليه واجمعو وقد مسّه منهم هجير السمائم
 وبالله أرجو دفع كل ملمة فعارض هذا الحال ليس بدائم
 فيال مضيان بن ظاهر غارة تبدد شمل البغي قبل التلازم
 ألم تر أني كلما أرجف العدا وثقت بأن الله عوني وعاصمي
 واذكركم عند الشدائد كلها فانشد قول الفاخر المتعاضم
 فهبوا بنصري وامطروا بصوارم تسقي دروع الجور ماء الجماجم

لَتَنجُوا غَرِيقاً فِي بَحَارِ مَظَالِمٍ تَوَرَّطَ فِي تَيَارِهَا الْمَتَلَاظِمِ^(١)

و نلاحظ أن شعر المدح على اختلاف مستويات من قيل فيهم، يظهر مدى العناية والتأنق بالشعر والمحافظة على مستوى راقٍ بالرغم من افتقاره -أحياناً- للصدق العاطفي، حيث يحاول الشاعر أن يحشد الصفات الحميدة ليصف بها ممدوحه، مما يوقعه في المبالغة المستهجنة.

(١) - ديوان البيتي ص ١٢٠.

الفصل الثالث / الغزل:

كلف شعراء الحجاز منذ القديم بالغزل، وخاصة في عصر صدر الإسلام، حيث كان منهم رواد شعر الغزل العربي مثل عمرو بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وقيس بن ذريح والعرجي والأحوص وعروة بن حزام.

ولاعجب أن نرى شعراء المدينة في هذا القرن-الذي هو امتداد لما قبله- يولعون بالغزل، فلا يكاد يخلو شعر أحدهم منه، بل لا تكاد تخلو منه أكثر القصائد في معظم الأغراض، ونجد أن أغلب ما نقلته لنا المصادر المختلفة من شعر هذا القرن قيل في الغزل، فكتاب عمر الداغستاني^(١) (تحفة الدهر) وديوان جعفر البيهقي^(٢) مثلاً، جلّهما مقطوعات وقصائد غزليّة، ولعل ذلك يرجع إلى احتفاء كل من المبدع والمتلقي بشعر الغزل مما ساعد على رواجه وحفظه وتدوينه.

نظم شعراء هذا القرن غزلياتهم سائرين على التقاليد المتوارثة للشعر

(١) - انظر ترجمته ص ١٠

(٢) - انظر ترجمته ص ٩

العربي الاسلوبية والمعنوية فنجد هذه الغزليات على نوعين: القصائد الغزلية التي نظمت كقصائد مستقلة ، والمطالع الغزلية لقصائد نظمت لغرض آخر، حيث يبدأ الشاعر القصيدة بمقدمة غزلية تطول أو تقصر ثم يتخلص إلى الغرض من القصيدة الذي غالباً ما يكون المدح، جرياً على التقليد العربي المعروف في التخلص والخروج.

ويظهر لي أن هناك شعراء كان نظمهم لهذا الشعر الغزلي ناتجا عن نزعة عاطفية ومعاناة حقيقية، جعلت الشعر هو المتنفس الوحيد للشاعر يبت من خلاله آهاته وتباريحه وأشواقه وحنينه، وهناك شعراء نظموا في هذا الغرض لمجرد اثبات الشاعرية وجرياً على عادة الشعراء وإظهاراً لقدرتهم وتمكنهم من النظم في جميع أغراض الشعر، حيث لا يكون هناك حب ولا حبيب، ومن ذا الذي ينكر هذه الغريزة التي جبل عليها بنو آدم ومالها من سحر عجيب في توجيه النفوس وميلها إلى جنسها الآخر، لتنمو وتصلح الحياة.

تنوعت المعاني التي تحملها هذه المقطوعات الغزلية متنقلة بين الشاعر ومحبوبته، حيث نجد الشاعر يتحدث عن ذاته واصفاً معاناته مع هذه التجربة الغرامية، فنجد الحنين والشكوى من فراق الحبيب بسبب البعد أو الهجر، أو المعاناة النفسية التي يصفها الشاعر ليظهر ما تكنه

نفسه من لواعج الحب والغرام ومرارات الهوى والشوق.

كما يتحدث عن العاذل والواشي والرقيب، ويذكر الأماكن التي تنزلها الحبيبة والأطلال التي تثير في نفس الشاعر الشجن حيث تذكره بما سبق لهما من أيام، وما مر بهما من سعادة وصفاء فيها، وما كان شأنهما الذي يطول في ذهنه ذكره وذكراه.

أما بالنسبة لما يتعلّق بالمحبة، فنجد الشاعر يتحدث عن أوصافها الحسيّة في المقام الأول، حيث يذكر استواء حلقة محبوبته ومفاتها الجسديّة، كما يتحدث عن طباعها وأخلاقها من غنج ودلال ورقة ونعومة، وهجر وصدّ، وكبرياء وأنفة، وتذلّل وخضوع وما إلى ذلك من الطباع والسجايا.

وقد التزم أكثر الشعراء في هذا العصر بكثير من التقاليد الموروثة في الغزل في الشعر العربي التي سبق أن أومأت إليها، فوقفوا على الأطلال وبكوا واستبكوا وساءلوا الرياح وادعوها تحياتهم إلى الحبيب، واستخدموا نفس الأوصاف التي استخدمها سابقوهم، فشبها الوجه بالبدر والشعر بالليل والقدّ بالرمح والخد بالورد إلى غير ذلك من الصفات والتشبيهات.

كان هناك غزل بالمدكّر وقد نظم فيه أكثر الشعراء، والغزل

بالمذكّر - كما هو معروف - يرجع إلى العصر العبّاسي^(١)، وقد أصبح تقليداً شعرياً فيما تلاه من عصور، لم يتورع عن النظم فيه الكثير من الشعراء، وهو تقليد أكثر منه معاناة حقيقية ابتلي به الشعراء حيث أنه - مهما كان نوعه - انحراف عن جادة الفطرة الإنسانية وجنوح تأباه الأخلاق العربيّة الأصلية.

وهناك من القصائد ما يستخدم فيها ضمير المذكر، فتكون المعاني الغزلية فيها مشتركة يصعب التمييز فيها - ولعل هذا ما قصده الشاعر - بين المقصود أو المتغزل فيه هل هو ذكر أم أنثى، وسنعرض أمثلة لكلا النوعين، الغزل بالمذكر الصريح والغزل المبهم - الذي لم تكن ثم قرينة واضحة تدل عليه - فيما يلي بعد استعراضنا للقصائد الغزلية بوجه عام. لعلّ من أوّل ما وصلنا من شعر الغزل في هذا القرن ما ذكره الشيخ عبدالغني النابلسي^(٢) في رحلته، وهو شعر لأحمد بن إبراهيم الخياري^(٣)،

(١) - انظر : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري - د. حسين بكار.

اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري د. محمد مصطفى هداره.

تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام - د. شكري فيصل .

العصر العبّاسي الأول - د. شوقي ضيف.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٤

حيث يشكو من هجر الحبيب فيصف معاناته ومسامرته لليل ثم يذكر ظفره بهذا الحبيب دون رقيب أو واش، فيقول:

من منصفي من غزال ظل يهجرني بعد الوصال لذا قلبي أذيب ضنى
أسامر النجم طول الليل مكتئباً ولم تذق مقلتي يا صاحبي وسنا
حتى ظفرت به يوماً فلا طفني وصار عندي جميعاً فعله حسنا
وليس عندي رقيب كان يشغلني كذاك لم يصغ واش نحونا أذنا
فقلت قلبي لطول الصد ذو حزن فقال لي العيد يأتي ينقض الحزنا^(١)

وقد نظم البيتي^(٢) قصيدة جواباً على قصيدة لأحد المكيين (لم أعرف من هو) يعارض فيها حائية ابن النحاس^(٣) المشهورة التي مطلعها:

بات ساجي الطرف والشوق يلحّ والدجى إن يمض جنح يأت جنح

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٣٨٤.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٩

(٣) - هو فتح الله بن عبدالله الشهير بابن النحاس الحلبي ثم المدني، ولد بجلب سنة ٩٨٠هـ ونشأ بها، قام برحلة طويلة تنقل فيها بين دمشق والقاهرة والحجاز وقد تعرض في رحلته لكثير من العنت وضيق ذات اليد مما اضطره لملاح الأُمراء والوجهاء، عاش آخر حياته في المدينة وتوفي بها سنة ١٠٥٢هـ.

- ديوان الشاعر تحقيق د. محمد العيد الخطراوي ص ٧.

- خلاصة الأثر للمجدي ٣ : ٢٥٧

- الأعلام ٥ : ١٣٥

حيث يبدأ البيتي القصيدة بمقدمة غزلية يتخلص بعدها إلى إجابة المكي، فيذكر في هذه المقدمة معاناته من فراق الحبيب، ثم يصفه بعد ذلك، فيقول:

أدمعي بالسفح من عيني سفح	كم بجزع السيح أجفاني تسح
كم ولوع كم غرام كم ضنى	عمت البلوى وزاد الجرح جرح
في هوى أحوى رشيق قدّه	في فؤادي يا لقومي منه رمح
أدعج العين مشلاً أفلج ^(١)	جعده ليلي وذاك الوجه صبح
إن يكن صح الضنى من طرفه	لي فالصحة أمر لا يصح
بدر ثم طالع من حوله	شعره إن يمض جنح يأت جنح
كلّما رقيت في الحب قسا	ودموعي كلما سّحت يشحّ
كيف ترجون سلوى بعده	والعدا تلحو وأشواقى تلح ^(٢)

وله قصيدة أخرى في الحنين يقول فيها :

عاجلت قلبي عن سلوانكم فأبى	وطار شوقاً إلى لقياكم وصبا
ونص لي عاذلي كل الملاح فما	مال الفؤاد لهم كلاً ولا طربا
يزداد داء جنوني يوم أذكركم	شوقاً وتزداد نارى في الهوى لها

(١) - الفلج: في الأسنان تباعد ما بين الثنايا ، وفي القاموس فنخذ ما شلة أي قليلة

اللحم ولعل الشاعر هنا يصف محبوبته بالرشاقة لسان العرب (فلج) و(مثل).

(٢) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٤

مسحور والله فيكم مستهام بكم
 كونوا كما شئتم إني وحقكم
 يا رحمتاه لمن تبكي عواذله
 سقى لنا بالمصلى عهد مجتمع
 أيام أنس ولذات ووقت هوى
 رووا فؤادي الذي قطعتم قطعاً
 ثلاثة أيام غبتم عن منازلنا
 سقيم مبلى عليّ الوجد قد غلبا
 قضيتُ دينَ التصابي كل ما وجبا
 له وعند الأحبا الجافلين غبا
 ويا رعى الله عهداً معكم ذهباً
 وطيب وصل قضيناه وحسن صبا
 عليّ أو فاجعلوا للملتقى سببا
 وإن تزيدوا عليها تسمعون نبا^(١)

وله يتألم من الفراق والهجر ويعبر عن معاناته التي جعلت حياته كلها
 بكاءً وسهراً :

لأنال جسمك من ضنا
 يا تاركى بفراقه
 سهران مبلى قد يئس
 يقرا عليك السقم من جسـ
 يا رحمتاه لواله الأكـ
 وأنا الذي هجت الحما
 وإذا دعا اللاحي فما
 أهون بعقل العاذليـ
 ي ولاعناي ولا ولوعي
 لهفان أكرع في دموعي
 ت من الكرى ومن الهجوع
 مي بما كنت ضلوعي
 بباد والقلب المروع
 م على البكا وعلى السجوع
 أنا بالبصير ولا السميع
 ن إذا دعوا غير المطيع

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٨٨

يا ناهبين القلب هـلا كان عندكم جميعي
 هذا النزاع إليكم والـ له من طول النزوع
 كانت دموعي الصبر تعـ صمني فمزقتم دروعي
 يا ساكنين الحزن من نعـ مان^(١) والكنف الرفيع
 يا هل ترى ينوى الزما ن إلى معاهدكم رجوعي
 قولوا نعم بشراك نـ نزل في المنازل في الربيع
 أنتم بدأتم بالصنيـ ع فتمّموا باقي الصنيع

وله أيضاً في ذكر الحنين والشوق وذكر الأحبة والديار:
 ذكر الفريق فصاح واشوقاً إلى أهل الفريقِ
 ورأى البروق فطار نحو النازحين مع البروقِ
 لله أيام العقيق وأين أيام العقيقِ
 يا صاح أين توجه الأحاب قل لي يا صديقي
 خذني إلى نحو الخيام وحطني بين الطريقِ
 من لي بلثم ثرى الربوع وأن يكون به لصوقي
 يا ساكنين البان رقوا للشجي المضى المشوقِ
 إن الليالي بعدكم صارت تغصني بريقي

(١) - نعمان: وادٍ بالمدينة ، وفاء الوفاء (٤/١٣٢١)

متلفتاً نحو الحمى لا بالأسير ولا الطليقِ
 أهوى الشقيق لأجلكم وأميل للروض الأنيقِ
 غرقان في بحر الهوى بالله خذ بيد الغريقِ
 بارت بضائع لوعتي فيكم متى تحتط سوقي^(١)

وللبيتي مقدمة غزلية لقصيدة يمدح فيها راغب محمد باشا^(٢) متولي
 القاهرة، وقد حرص أن يظهر التحنيس في كل بيت من أبياتها، وفيها
 يشتكي الشاعر من مجافاة النوم له ويذكر معاناته ثم يصف محبوبته،
 فيقول :

تدار كوني بالرقى لرقاد	تعبت كم أرعى السها بالسهاد
من منصفي ياقوم من شادن	حلّ السويدا وثوى في السواد
ظبي ولكن طبعه يرتوي	دمعي ويرعى ثمرات الفؤاد
يا صنماً من وجهه خاله	أذن في العشاق يا للعباد
يجرح كالخطي إذا ما خطا	والماس مهما ماس قطعاً وماد
كيف خلاصي من رناه وقد	عرضت في سوق السيوف الجداد
قيد قلبي في الهوى قلبه	وفت أعضادي ذاك العِضاد ^(١)

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٨٩ ، ٩٠

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٦

(٣) - البريم : جبل فيه لوان تشده المرأة على وسطها . لسان العرب (برم).

وبرم الوجد بريم^(٢) له
 بعتكم رشدي بغيي به
 فلا تلوموا في جنوني فقد
 كيف شعوري باللواحي وقد
 سقى لياليها وأيامها
 ومن دموعي حسب ما تشتهي
 يا منزلي بالبان هل عودة
 وممن اشتكى من مسامرة الليل والجوى وبعد الحبيب زين
 العابدين بن محمد زين العابدين^(٣)، ثم يسترسل بعد ذلك ليعدد
 أوصاف هذه المحبوبة، فيقول:

أرى القلب مغرى مغرمًا بالتغزل
 يسامر زهر الليل يشكو لها الذي
 وينشد عن ليلي ولبنى وزينب
 فليلي سواد القلب حلت وغيرها
 حليف جوى يصبو إلى كل عيطل^(٤)
 يقاسيه في ذاك الجمال المكمل
 وينعم مع هند ويصبو لمنزل
 رسوم وأسماء تزال بمعول

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ١٠٠ .

(٢) - العِضاد : بكسر العين ما شد في العضد من الحرز . لسان العرب (عضد).

(٣) - انظر (حلية البشر ٦٤٣: ٢) ، تحفة الدهر ٨

(٤) - امرأة عيطل أي طويلة . لسان العرب (عطل)

فشاهد سنى ليلى فضوء جبينها
وحاجبها قوس أراش لأسهم
وأعينها حور حمين ببتز
ومسند جناح الليل مرسل أدمعي
وكافور خديها تنفس فجره
ومبسمها الزهري أشرق نوره
ومرشفه راح ببابل صنعته
وجيد لها يحكي الغزالة صورة
وراحات أيديها كبدر دجنة
فدائي هواها والدواء وصالها
فأنت ترى زين العابدين قد أتى على أعضاء المحبوبة وتناولها، لا يكاد
يترك منها شيئاً، ولأريب أن الشاعر إنما يوغل بذلك في إضفاء مظاهر
الحسن وآيات الجمال عليها، مما يكون حجة له في شكواه وتبرمه مما
يجعل سامعه يتجاوب معه ويحن له ويرثي لحاله.

ومثله نرى شاهين الشدقي^(٣) في شكواه من الحب وما يطلب من

(١) - المنديل : العود الرطب . لسان العرب (منديل)

(٢) - تحفة الدهر ٩ ، ١٠

(٣) - هو شاهين الشدقي من آل شدقم الحسينين من الأسر الهاشمية المعروفة في
المدينة حتى الآن، ويطلق عليهم أحياناً الشياطين نسبة له حيث لم يبق من

قومه كي يتداركوه مما يجد من تباريحه، ولكنه يتخذ طريقاً آخر،
ويتخذ من البرق بداية لأشجانه ومثيراتها فيقول:

أبارق لاح لي يا جـيرة العلم	أم تلك ليلي بذات الشيخ والسلم
أم زينب ابتسمت عن لؤلؤ فحككت	لأدمعي فجرت تنهل كالديم
أم أسفرت في الدجى عن شمس غرتها	فصيرت أدمعي ممزوجة بدم
وبت من وهي أرعى السها أسفا	متيماً من لظى الأشواق لم أنم
وقلت واحسرتى أضنى الهوى كبدي	وحلّ متي مكان الروح بالألم
وصححت يا آل قومي عجلوا فأنا	قتيل ليلي بلا ذنب ولا جرم
ظبي الخدور رعاك الله كم صنعت	سهام لحظيك في قلبي مع الكلم
وكم فريت برمح القد قلب فتى	تفر منه أسود الحرب كالغنم
رفقاً بصب كئيب ناحل دنف	جرت مدامعه حمراء كالغنم ^(١)
وعاذلي لامني في الحب قلت له	دع الملام فسمعي عنك في صمم
جهلت حالي فاكثر العتاب ولو	انصفتني يا خلي البال لم تلم ^(٢)

هذه الأسرة إلا من ينتسب إليه، لم أجد له ترجمة سوى ما ذكره عنه
الداغستاني في تحفته حيث أشاد بنسبته منوهاً بفضله ومكانته وذكر أن له
أشعاراً أورد منها هذه الأبيات الغزلية. تحفة الدهر ٣٦، وثائق الباحث.

(١) - العنم : شجر لين الأغصان لطيفها يشبه به البنان ، لسان العرب (عنم).

(٢) - تحفة الدهر ص ٣٦.

ويتساءل عبدالقادر كدك^(١) عن أنوار الحسن التي يراها، هل هي شمس الضحى أم البدر، ولكنه يعود فيؤكّد أن ذلك نور طلعة الحبيب الذي يفوق حسنه الشمس والبدر، فيقول:

أنوار حسن بدا أم ذاك شمس ضحى أم تلك أنوار بدر نوره وضحا
 وذا بريق بدا من نور طلعتة في الحسن أم ذلك البدر الذي لمحا
 فاقت محاسنه بدر السما وسما لما بدا طلعة الحسن الذي اتضحا
 والشمس والبدر مذبانة محاسنه فهذه استترت منه وذا افتضحا
 بوجهه آية الحسن التي بهرت ونوره آية الليل البهيم محا
 لله في الحسن من بدر علا وغلا وقد حلا وجلا من وجهه الصبحا^(٢)

ويتساءل السيد علي أبو العزم^(٣) في جزء من قصيدة أوردتها عمر

(١) - لم أجد له ذكر إلا عند الداغستاني في التحفة حيث أثنى على فصاحته وشاعريته وخص غرامياته بالاطراء، فذكر له ست مقطوعات غزلية، وتخميس واحد ولم يذكر كعادته سنة الولادة أو الوفاة. تحفة الدهر ٧٢

(٢) - تحفة الدهر ٧٢

(٣) - هو علي بن عثمان بن عبدالله بن علي العادلي، من بيت قديم بالمدينة يقال لهم بيت أبي العزم، قال عنه الأنصاري: (كان من أحسن الرجال أهل الكمال، وكان يقول الشعر بأحسن ما يسمع) توفي سنة ١١٩٤هـ. تحفة المحبين ٣٥٩، تحفة الدهر ٤١.

الداغستاني في (تحفة الدهر) عن مصدر الرائحة الذكيّة التي يشمّها هل هي رائحة مسك نشره نسيم الصباح أم هي زهور الروض قد فاحت أم هو عطر العروس.

فيقول:

هل عرف مسك نسيم الصبح ناشره
أم فاح عطر عروس لاح منظرها
الوجه جامع حسن طاب عنبره
ما كنت أملك نفسي إذا نظرت إلى
حتى جنيت ومن جنات وجنتها
وسلمت شفقي من بعد ذاك على
تبارك الله ذي الحسناء أفرغها
فاقت كما فاق مولاها وحق له
أم ذلك الروض قد فاحت عباهره
ليلا فخلت الدجى شابت غدائره
بروضة الخد قد عجت مباخره
ذاك المحيّا الذي عزّت نظائره
جنيت ما يشتهي قلبي وخاطره
در المباسم إذ ضاءت جواهره
في قالب الحسن والإحسان وافرّه
مقام عز ينال الأمن زائره^(١)

ولقد زواج شعراء المدينة بين الغزل والخمريات، فهذا البيتي يطلب من أصحابه الوقوف في الطلول لتعاطي الخمر، وذلك في مقدمة قصيدة يمدح فيها باز بن شبير النموي^(٢)، فيقول:

قفوا تعاطى في الطلول طلا الذكرى ونشفي خمّار الحب بالشربة الأخرى
قفوا قابلوا بين الرسوم بجاجر وبين ضلوع الهايم المغرم المغرى

(١) - تحفة الدهر ٤١ .

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٦٥

وبكّو معي وابكوا على الدار مرّة ويبكي عليّ المزن من عينه عشرا
على مدنف بالوجد طار اشتياقه به يكره الصبر الجميل ولا يكرى
خذوني إلى البطحاء معكم وذكروا بحالي في البطحا عسى تنفع الذكرى
وطيف سرى ليلاً من الغور منجدا فسبحان يا طيف الحبيب الذي أسرى
فما زادني إلا غراماً ولوعةً ومر وما أهني عليّ ولا أمرى
وبت سمير النجم وهداً وعاذلي يظن سفاهاً أنني أعبد الشعري
وفي زاهر التسنيم زاهر طلعة جعلت له أكمام زهر الحشا خدرا
غزال غرير قد غزال لي لحظه وظبي ظباه كان قلبي بها غراً
نبي جمال راح قلبي أسيره ومالني أن يكون له أسرى
رأى حسنه اللاحى فاعذر في البقا وقال نعم قد بان عذرك في العذرا
ومن أجل أحداق الغواني وكأسها وريقتها حرّمت كأسك والخمرا
لك الله يا قلبي ولي بعد بعدكم فإنك لم تسطع معي دونهم صبرا
ويا لدم بالسفح أجراه ناظري وبات وما يرجو ثواباً ولا أجراً^(١)

ولعمر الداغستاني^(٢) قصيدة ذكر جزءاً منها في تحفته، حيث

يبدأ هذه القصيدة بذكر الوصل والأنس والمدام، ثم يصف الخمر بعد ذلك في عدّة أبيات ويصف ساقها بمعاني جمالية مبهمة، فلا ندري هل الساقى ذكر أم أنثى، ولكن ذكر الداغستاني هنا للخمر يختلف عنه عند البيتي في القصيدة السابقة، حيث أن استخدام البيتي للفظ

(١) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ٦١

(٢) - انظر ص ١٠

الخمير أقرب إلى الاستخدام المجازي أو السير على التقليد الشعري، أما الداغستاني هنا فإنه يصفها ويصف تأثيرها ولعله يحاكي بذلك الشعراء السابقين حيث يقول :

أعيدوا الوصل والأنس المداما	واحسوني المروِّق ^(١) والمداما
أديروا لي العقار ^(٢) فإن قلبي	على رشف العقار ملي هياما
سلاف بنت كرم قد تغالت	بقيمتها لذا تهوى الكراما
تذب قذى الهموم بحسن دبّ	وتترك ذا الصغار بها هماما
هي الشمس المنيرة في سماء	من البلور قد تجلو الظلاما
بوجه نضارها يطفو حباب	يريك لآلئاً فاقت نظاما
يطيف كؤوسها رشاً أغن	خفيف الروح تعطفها النعاما
لنا من كفه والخـد راح	ومن عين تظن بها مناما
حويم ذو فتور واحـرار	مكحل جفنه يسبي الأناما
له حدق حكمت من حسن لطف	حدائق نرجس فتق الكماما
حواجهه كمثل القوس ترمي	من الألحاظ في قلبي سهاما
حوى في طرفه سحرا ولكن	هو السحر الحلال فلن يلاما
ووسط الثغر اسفنتا ^(٢) عتيقا	لذا لثم الثغور غدا حراما

(١) - في القاموس ، الروِّقُ : الصافي من الماء وغيره . لسان العرب (روق)

(٢) - العقار : الخمر . لسان العرب (عقر)

تراني إن بدا أشكوه حالي وأبكي وهو بيدي لي ابتساما
 وأسأله الوصال يصدّ عني ويخل ثم يمنعني الكلاماً^(١)

وذكر الشعراء الأماكن ودعوا لها بالسقيا، وتحسروا على ذكريات
 الأحبة فيها، فمن بلاد الروم يرسل يحيى الجامي^(٣) بقصيدة يطلب من
 صاحبه فيها أن يقف له على وادي النقا^(٤) ويحيي الريم فيه وأن يبكي
 ويمرّغ خديه بتراب الوادي ويقبل المكان الذي ينزلون به في سفح جبل
 سلع^(٥) فيقول:

على وادي النقا قف لي صباحاً وحيّ الريم والغرر الصباحا
 وعانق لي بسحّ الدمع بانا بسوح من العقيق^(٦) لديه ساحا
 ومرّغ لي الخدود على تراب تشم به عبير المسك فاحا
 وغض الصوت في نجواك واخفض جناح الذل منك عسى نجاحا
 وأم الجانب الغربي منه سقى الله رباه والبطاحا

(١) - تحفة الدهر ٤٦ .

(٢) - الاسفنت : من أسماء الخمر . لسان العرب (اسفنت).

(٣) - يحيى الجامي : انظر ترجمته ص ١٣٩

(٤) - النقا: موضع بالمدينة يقع بين بطحان والمصلى (وفاء الوفاء ٤/١٣٢٢).

(٥) - سلع : اسم جبل بالمدينة .

(٦) - اسم وادي يمر بذي الحليفة غربي المدينة . معجم البلدان ٤/١٥٦

وسل عن جيرة في سفح سلع
 بهم خز يشي حبراً ، برتني
 لروحي من صداه غذا وراح
 ترى الأوتار ناطقة فصاحاً
 به معنى فهمناه فهمنا
 فشاهد ساعة وارجع سريعاً
 فإن حشاي مما في فؤادي
 وقبل القول قبّل لي المراحا
 بروق ظباه ، دع عنك الرماحا
 غذا يجلو الصدا عنها وراحا
 إذا غنّى بنغمتها فصاحا
 فلاح سنا فشاهدنا فلاحا
 وحاذر يستميلك إن تصاحا
 يئن أنين من ذاق السلاحا

إلى أن يقول :

فحسبي أن محبوبي بقلبي
 وسلم لي على قمري العلالبي
 وجمع الصحب بلغهم سلامي
 وكرر لي السلام على عقيق
 وتعرف يا عقيق الروح منّي
 وإنني في الهوى أهوى الملاحا
 وندماني غبوقا واصطباحا
 لعل الله يجمعنا صحاحا
 كذوب مكرر يسقي الأقاحا
 لمن في الحسن قولي القصد لاحا^(١)

وفي مقدّمة غزلية لقصيدة يمدح فيها جعفر البيتي الشريف مسعود بن سعيد^(٢) شريف مكة ١١٤٧هـ ، يذكر وادي إضم^(١) ويدعو له

(١) - حلية البشر ٣ : ١٥٨٤ .

(٢) - انظر ترجمته ص ٣٩

بالسقى، ويحيى عهد الغواني فيه ويقف بالمازل والأطلال فيبكي على
من كان يسكنها، ثم ينتقل إلى وصف المحبوبة وصفاً لا يتجاوز البيت
الواحد ليذكر بعد ذلك معاناته مع هذا الهوى والغرام، في محاكاة
واضحة لقصيدة المتنبي المشهورة في سيف الدولة، يقول:

وَأورقت في حماك البان والسلم	حيًا مغانيك ساري المزن يا إضم
حظي الحمى بالغواني فيه والعلم	وحيّ عهد الغواني بالحمى فلکم
أبكي لها وثور البرق تبسم	منازلاً قمت فيها بعد ساكنها
بعد النوى يعترها المحو والسقم	حال المحيين والأطلال واحدة
لجاهلية أرباب الهوى صنم	لله كم باراك الجزع من رشأ
وردفه جائر والخصر منهضم	فتان ما لشجن في عدله طمع
(واحر قلباه ممن قلبه شيم)	أشكو إليه لظى قلبي وييسم لي
من لحظها ما سقاه قبلها الحوم	سقى نصال بيوت الحيّ ناظره
فيها وقيت به في الحيّ يتهم	فليس إلا قتيل طرفه سبب
اتبعتة الطعن شوقاً يوم بينهم	استودع الله لي قلباً أسير هوى
معها وقلباً بنار البين تضطرم	ظعائنا حملت من مهجتي رمقا
أيام شمل الصبا والغى منتظم	كانوا منى زهرة الدنيا وبهجتها
منهم ولا الطيف يديهم ولا الحلم	واليوم لا خبر عنهم ولاعدة

(١) - إضم: وادٍ تجتمع فيه سيول المدينة، وسمي بذلك لانضمام السيول به. (وفاء

ولا السلوَّ أرجيّه ولا بدل يغني ولا سبب الهجران منحسم
فكيف بالصبر والأشواق أحملها مصيبتين تلقى بعضها ألم^(١)

ويخاطب السيد عبدالله أسعد^(٢) الأحبة الذين يسكنون بين أضلعه
قبل أن يسكنوا أي منزل آخر، ثم يذكر المنازل الحقيقية التي ينزلها
أحبائه، فيذكر وادي رامة^(٣) والعقيق ، فيقول :

يا ساكنين المنحنى من أضلعي متّوا على قلبي وعظم توجّعي
بالله إن جزتم بوادي رامة ورأيتم تلك الظباء بلعلع
ونظرتم تلك الأثيلات التي بين العقيق وبين ذاك الأجرع
ووجدتم تلك الأحبة عندها ردّوا السلام عليهم بتوجّع
قولوا لهم عبدالإله معذب يكي الفراق يصب سيل الأدمع^(٤)

ويشتكي عمر الداغستاني^(٥) من معاناته وسهرة يتذكر محبوبه،
ويخاطب البدر الذي رقّ له وعذله فيقول إن الذي أسهره بدر آخر لو

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٢٨ .

(٢) - انظر ترجمته ص ١٥٢

(٣) - رامة : موضع في طريق البصرة إلى مكة . (معجم البلدان ٢٠/٣)

(٤) - حلية البشر ٢ : ١٠١٨

(٥) - انظر ترجمته ص ١٠

اجتمع به لانصرف عن البدر الحقيقي لأنه أجمل منه.

فيقول:

يا شوق قد شبّيت نار الأضلع	وأسلت من عينيّ سيل الأدمع
وتركت قلبي خافقاً متلاعباً	يحكي الغصون تلاعباً في المرتع
فغدوت في الليل الأحم مسهداً	حيران ذا عقل ولكن أضيع
والنجم ترمقني بطرف مراقب	وأنا سمير البدر فوق المضجع
قد رقّ لي لمّا رأني في أسي	وأفادني بالصبر لو أضحى معي
يا بدر دع عنك الملام فيأني	سهران في بدر بوادي الأجرع
لوبت أرعى في رياض جماله	ماكنت تعجبني ولست بأبدع
لكنّ مُذّ حجت شمس جماله	أمسيت مرآة لذاك الأرفع
أين العيون الراشقات بهدبها	وبلحظها قلب الجليد الأمتع
أين التفترّ في الجفون إذا رنت	فتصيّر العشاق سكرى لاتعي
أم أين ذاك الخد وهو مورّد	والخال مثل المسك حين توضع
أم أين ذاك الثغر وهو منضد	والدر في كأس الرحيق المترع

إلى أن يقول:

فاعذر سميرك واثد لو تعلمن حسن المنادمة التي لم تسمع

لعلمت ما أنشأته بصفاته
 قل لي فكيف يقر قلبي مذناً
 لم أنسَ لما قلت وهو مواسل
 ياجائراً في العاشق العاني إلى
 ماأنت منصف صبك المظنى ولا
 إن لحت أدهش من جمالك حيرة
 ما في إفصاح لأخبر ما حوى
 فأجابني لِمَ ذا وأني قد أفى
 فأجبتة لمَ ذا تواعد ثم لا
 فأجابني لولا مخافة راقب
 وعذرت للذنف الكئيب المولع
 عني حبيب القلب بعد تجمّع
 بتلطف وترفق وتخصّص
 من اشتكيك فإنني لك مدعي
 تدنيه يامن في فؤادي يرتعي
 فأصير في وجد وحال مفجع
 قلبي ولابك رحمة لتوجّعي
 إن كان عندي الحق غير مضيّع
 توفي بوعد في الحشاشة مودع
 ماكنت تبصر عن لقاك تمنّعي^(١)

ويشتكي أبو بكر بن عبدالسلام الداغستاني^(٢) من التباعد
 والصدود والجفا من حبيبه، الذي كان مدعاة لشماته الأعداء به، وهو

(١) - تحفة الدهر ٤٥.

(٢) - هو أخو عمر بن عبدالسلام الداغستاني صاحب كتاب (تحفة الدهر)، وقد ذكره بما يدل على عدم رضاه عنه حيث ينسب إليه الكبر والغرور وقطيعة الرحم، وأورد هذه الأبيات التي سنذكرها فقط، وقد وصف هذا النظم بأنه وقع من أخيه فلتته، ولم أقف في غيره من المراجع على ذكر له. تحفة الدهر

لا يصرّح بشيء من صفات هذا الحبيب ، وإنما يستعطفه ويسترحمه
ويطلب منه الوصال ليكون رداءً له وحيث أن وصال المحبّ من شيم
الكريم ، فيقول :

تالله قد شمتت بي الأعداء	ماذا التباعد والصدود وذا الجفا
والسقم منه ذابت الأعضاء	حزني تزايد من صدودك سيدي
وبعادكم إن الصدود جفاء	مولاي يكفي ما مضى من هجركم
مما بليت كمن به إغماء	دب الهوى بين الضلوع فها أنا
وتقطعت من بعدك الأحشاء	قلبي من الإعراض ذاب تيقنا
من طول هجرك والدموع دماء	شوقي تكاثر والعيون تقرّحت
فالبعد داء والوصال دواء	ارحم محبّك بالوصال وداوه
والصفح فيما زلّ والإغضاء	شيم المحب وصاله لمحبه
للعاشق المجنون فيه هناء ^(١)	يوم التلاقي يوم عيد أكبر

وقد وصف الشعراء محاسن المحبوبة وإن كانت أكثر أوصافهم للمرأة
مكررةً فالتشبيهات تكاد - كما أسلفنا - تكون صورة لما نجده في
الشعر العربي القديم، فهذا عمر الداغستاني يصف حبيبته فيشبهه محيّاها
بالبدر وغدائرها بالليل ووجناتها بالورد وقدها بالغصن إلى آخر
الأوصاف التي لم يأت فيها بجديد ولكن برغم هذه التقليدية إلا أن
القارئ يشعر في جل هذه القصائد بامتلاك شعرائها لناحية اللغة،

(١) - تحفة الدهر ٨٥.

وقدرتهم على قول الشعر وصوغ البيان في لغة حية لا ضعف فيها،
فيقول:

ما البدر في التمسك إلا من محيّا	والأنجم الزهر إلا من ثناياه
ولا ليالي الهنا إلا غدائره	ولا أصبا سحر إلا بمسلكه
ولا الورود سوى من روض وجنته	وقده الغصن ما أبهى وأحلاه
مهفهف رشأي الجيد قامته	كالمسك إذ ينعش الأحشاء رياه
شفاهه كعقيق لاح منطبقة	من فوق ثغر يداويني حميّا
عيونه نرجس يرنو بذبلها	إلى الشحي فتصمى وسط أحشاه
وجفنة الفاتر المخمور حيّرني	لذا القلوب غدت بالشوق سكره

ثم يذكر بعد ذلك لقاءه بهذا الحبيب وخطا به له :

لاقيته في طريقي قلت أوحشني	لقاك كم ذا الجفا فاهتش مرآه
فقال أنت وإلا يا حبيب أنا	وظل مبتسماً يبدي تحاياه
فقلت لا تبعدن عني فتهلكني	قد ضاع قلبي وإني لست ألقاه
فقال أدهشت عنا بالسوى بدلا	ورمت ميلاً إلى السلوان ترضاه
فقلت أنت الذي أدهشتني شغفاً	وزدت قلبي اشتياقاً لست أقواه
فراح عني بلا صدّ وواعدني	فالقلب منتظر ما قد ترجّاه ^(١)

(١) - تحفة الدهر ٤٦ .

ويركز الشاعر عبدالقادر كدك^(١) في أبيات له على العيون ويذكر تأثيرها على القلوب وفتكها بها فيحذر منها ويشتكى من معاناته التي طالت ، وهو يتغزل بهذه العيون مظهراً الكثير من أسرارها .
فيقول:

أبداً بقلبي والحشاشة تفتك	تلك اللواحظ أم عيون فتك
وحذار ممن في المحبة يسفك	فحذار ذاك اللحظ من فتكاته
لي معرك في ذا الغرام ومهلك	ما بين معترك العيون ومهجتي
وبها غراماً دائماً أتهتك	قد طال في غزل العيون تغزلي
في الحب ألباب الورى يستملك	ويلاه من غنج اللواحظ أدعج

(١) - انظر تحفة الدهر ٧١ .

الحاظه بالسحر لي نفاثة في القلب بالعقد التي لاتفكك
 فالعقل منها حل وجدا عقده والقلب مني بالغرام مشبك
 وجبينه كالصبح أسفر سافراً والشعر من ليل المتيم أحلك
 بأبي الخدود الناعمات ملابساً الموريات أحبا الهوى ما يهلك
 والشعر ذياك المنظم دره كالألى في سلكها لاتسلك
 والقدر ذاك الغصن مال مع الصبا لكنّه للوصل لايتحرك
 وعليه قلبي طار وجداً في الهوى ولطائر في ذا الهوى من يمك
 لولاه ما سكن الغرام بمهجة كلا ولم يك لي الغرام يحرك
 لو كنت أملك في الهوى ترك الهوى لتزكته لكنني لا أملك^(١)

ويتغزل زين العابدين بن محمد زين العابدين^(٢) ويعدد صفات
 محبوبته الحسينية والمعنوية فيذكر أن محبوبته تأسر القلوب بغنجها واعتدال
 قامتها، ثم يسترسل بعد ذلك في ذكر صفات هذه المحبوبة.
 فيقول:

فتكت بسيف الغنج مهجة صبها وبأسمريّ القدر جسم محبها
 وتدرعت حقاً بثوب جمالها فاستأسرت أسد الشراء بعضبها^(٣)

(١) - تحفة الدهر ٧٣.

(٢) - انظر ترجمته ص ١٤٧

(٣) - العضب: السيف القاطع. لسان العرب (عضب)

برزت بميدان التفاحر طفلة فالقرم بدر من أسنة هديها
وبدت بإيوان التغزل ظبية فتحجبت منها الشمس بحجبها
سفرت خمّار الأنس عن ذاك السنّا فتكوّرت شمس الدنى في غربها
وجلّت لنا كأس المحبّة والهنا وملته راحاً من معتق شربها
وشدت بألحان الرباب وزينب وبثينة العشاق نخبة سربها
فسكرت من ذاك المدام فلا أعى وطربت من ذكر الرباب وتربها^(١)

وقوله مجيباً عمر الداغستاني صاحب التحفة على قصيدة له حيث
تكرر فيها الصفات الغزليّة المعروفة فيقول:

لاحت كبدر لاح تحت الحندس وسرت بقدر بالغدائر مكتسي
وتبسّمت عن عقد جوهر ثغرها وتنسّمت عن طيب عرف أنفس
وجلّت لنا من أوج أفق جبينها صباحا تنفس عن دجى متعسعس^(٢)
وبدا لنا في روض وجنة خلدّها فيّاح عنبر خالها في الحرس
وغدت تذود عن الخدود لحاظها فحمت ورود حياض تلك الكنّس^(٣)
وبرت بصارم أنفها مهج الورى وبرت بماء رضاها للأنفس
وحقاق فيها فتحت عن لؤلؤ في سلك مرجان المباسم منتسي

(١) - تحفة الدهر ٢ : ٦٤٦

(٢) - عسعس الليل إذا أقبل بظلامه وإذا أدبر، فهو من الأضداد . لسان العرب

(عسعس)

(٣) - الكنّس : الظباء . لسان العرب (كنس)

لله مبسمها الشهيّ إذا غدا
والجيد قد فضح الغزالة لفته
والكف أهطل من سحاب سخاوة
والخصر أوهن من قوام محبّها
متبسماً كالصبح حين تنفس
ما قدرها تحكيه غير تهجس
والجسم أرطب من برود السندس
والساق أصفى من زجاج الأكؤس^(١)

وقد ذكر بعض الشعراء في قصائدهم حوارهم مع الحبيب ومخاطبتهم له، فمحمّد بن محمد يوسف الأنصاري^(٢) يتغزل بفتاة نجدية يذكر أنها من بني شرف ومجد، ويصف تمايلها وثوبها وفوح عطرها وعبيرها، ثم يذكر بعد ذلك حوارها معها وردّها عليه حيث أنه وصفها بأن حسنها يوسفني فقالت أن يوسف في الحسن ندها، ثم وصفها بالغزلان فأنكرت عليه ذلك الوصف لأن الأطباء ليس لها قدّ كقدّها، ثم يصف خدّها بالورد فترد عليه بأن الورد معروض للبيع بثمن زهيد، أمّا هي فأهل الحسن كلهم عبيدها، ويشهد لها بذلك ثغرها وخدّها، فيقول:

(١) - حلية البشر ٢: ٦٤٣ .

(٢) - هو محمد بن محمد يوسف بن عبدالكريم الزرندي الأنصاري، ترجم له البيطار في حلية البشر وذكر له قصيدتين غزليتين، وذكر الأنصاري في تحفة المحبين أن المذكور نشأ نشأة صالحة وطلب العلم على والده ونظم الشعر الحسن. تحفة المحبين ٢٦، حلية البشر ٣/١١٩٤ .

سبت عقلي مهفهفة بنجد
 تمايل من مزعفرة عليها
 فقلت أيوسف في الحسن أنت
 فقلت لها رشا أنت فقلت
 حكيت من الظبا عيناً وجيداً
 فقلت لها أحد مثل ورد
 فكيف تقول خدي مثل ورد
 وحقك ليس يشبهني فإني
 وأهل الحسن كلهم عبيدي
 فبادر بالتحية قلت أهلاً
 فبت ملذذاً في طيب عيش

فتاة من بني شرف ومجد
 يفوح عبيرها مسك بند
 فقلت يوسف في الحسن ندي
 أراك تعرض الغزلان عندي
 ولكن ماهن قد كقدي
 فقلت لا يحاكي الورد خدي
 يباع مع الوصايف بيع زهد
 جميع الحور والولدان جندي
 ويشهد لي بذنا ثغري وخدي
 ببدر زارني من غير وعد
 ونجمي طالع في برج سعدي^(١)

وهذا الحوار على ما في أوصافه من تقليدية فإنه لا يخلو من طرافة
 ولطافة مما يسبغ على هذا الغزل لونا من الحيوية والحياة .

ولمحمد سعيد بن حماد الحمادي المدني^(٢) مطلع قصيدة يمدح فيها

(١) - حلية البشر ٣: ١١٩٤

(٢) - هو محمد سعيد بن حماد الحمادي المدني ترجم له البيطار في حلية البشر
 وأورد له مقطوعتين غزليتين موشحة ، وذكر أنه توفي في أوائل القرن الثالث
 عشر ودفن بالمدينة (حلية البشر ٣/١٢١٨).

السيد بن عمّار المغربي، فيذكر فيها مساءلته لحبيته عن قدرتها على التأثير في الأرواح واستعباد الأحرار، ثم يصفها بالتيه والخيلاء، وحلو الابتسامة، ورقة اللفظ وسحره.

وهذا لون آخر من الغزل، فإذا كان أكثر من سبق من الشعراء اهتموا بوصف الحبيبة في أعضائها ومفاتها الجسدية ومظاهره الخارجية من لبس وطيب ونحوها، فإن الحمادي يلفت النظر إلى لون آخر من الحسن والجمال، فيقول:

الشمس تدهش من سناه وتفقد	تسعى إليّ بمنظر متبلّج
فعل الظبا يعزى إليه ويسند	ذي ناظر ساج ^(١) كحيل فاتر
يا هذه الأرواح فيك تنقد	ناشدتها بالود هل أنت التي
أحرارنا وهم لحسنك أعبد	أم أنت يا بدر البسيطة من غدت
أبدأ بغير قلوبنا لا يغمد	فرنت بصارم لحظها ذاك الذي
تيها يذوب لها الأصمّ الجلمد	ثم انثنت تحتال في حلل الصبا
يفتر عنه لؤلؤ متنضّد	وتبسمت عن مبسم عذب الجنا
سحراً ينفثه الحياء ويعقد	تشدو بلفظ رقّ حتى خلته
جيد الزمان بعقدها متقلد	تبدي من القول البديع بدائعاً

(١) - في القاموس، عين ساجية: فاترة النظر. لسان العرب (سجا)

مفهوم ما تبديه يا هذا استفق المثل فضلي في البرية يجحد^(١)

وفي هذه القصيدة يبدع لنا البيتي نصاً جديداً يختلف عن سابقه في أن القصيدة كلها قصة يضرب فيها الحوار بقوة وحيوية، من أولها إلى آخرها، وكل هذا مما يجعل للقصيدة تسلسلاً وتتابعاً مطرداً، بل ويضفي عليه وحدة موضوعية وترابطاً كبيراً.

يقول:

زارت علي غفلة حراسها	تسعى إلى عاشقها المغرم
مشتاقة قامت علي بابنا	تطرق والليل بها يرتمي
فقلت من بالسباب قالت أنا	طبُّ جراح المدنف المسقم
والتفتت ألفت رقيباً لها	ليت رقيبى قبلها لو عمي
قالت أنا أسأل عن مريم	فقلت ما نعرف من مريم
فادخلي نسأل جيراننا	لاتقفي بالباب واستكتمي
وقمت أسعى نحوها مسرعاً	أقول يا بشراي يا مغنمي
قالت سلام قلت يا مرحبا	أهلاً وسهلاً يا رشا واسلمي
هيا استريحي عندنا ساعة	حتى تجي مريم ثم اعزمي
قالت يروح الوقت أو ماتجى	فقلت باتي عندنا واجهمي ^(٢)
باتي وداوي علي خيطي	جرحي يا طبيّ يا مرهمي

(١) - حلية البشر ٣ : ١٢١٨ .

(٢) - من الجهمة : وهي أول مآخير الليل . لسان العرب (جهم).

أغيب عن بيتي ولا محرمي
وعاملي الله لصبّ ظمي
أبث شكواي عسى ترحمي
فأقضي بما ترضينه واحكمي
تنظر إلى ثغري ولا مبسمي
من يدفع الجور عن المسلم
فهو هلاكي متلقي معدمي
فاستترت عنّي بالبيرم^(١)
فطحت بين الخصر والمعصم
يا عز قد ساحتكم في دمي
وتمنعي الوصل وتستأثمي
تداركيني باللقا تندمي
واستعظفتني فمها في فمي
ذاك ولم أرجع ولم أقدم
ولا تعديت إلى مـأثم
ونبهتني غيبة الأنجم
لاتذكري البعد لنا واختمي
قالت من الموسم للموسم
ذلك فابك لي واسترحمي

قالت ولي ويلاه ما يمكني
قلت اقعدي واروي ظما مهجتي
ولا تخافي واجلسي قدر ما
أنا الشجيّ المضنى حليف الهوى
قالت فقم واقعد قبالي ولا
فصحت واطلماه من منصفني
كل القضا أرضاه إلا الجفا
وقمت أسعى نحوها مسرعاً
وأرسلت نحوي سهام الرنا
وقلت إنني ميت ها هنا
تحللي قتل شج عاشق
إنني إذا متّ بدائي ولم
فساءها من حالتي ما رأيت
وبت طول الليل في موضعي
حول الحمى حمت ولم أرعه
حتى إذا قال الصلاة الصلاة
قامت تناديني فقلت اسكتي
قالت فقم قلت متى نلتقي
فقلت إن جئت على وعدنا

(١) - في القاموس : البيرم : عتلة النجار، ولكنه لا يناسب المعنى هنا ، ولعل

البيرم هنا شيء آخر مما تستعمله النساء. لسان العرب (برم)

عن الشجّي المدنف واستفهمي
 أن يفعل الله الذي تزعمي
 سقاك من دمعي هام همي
 لم تطلع الشمس على مسلم^(١)

وإن يؤخرنا القضا فاسألي
 لكنما يا عز ما نرتجي
 يا عهد وصلي يا زمان اللقا
 ياليت ليلى طال ياليتها

سبق وأن تحدثنا عن الغزل المذكّر فكان من الشعراء من صرّح أنه المتغزل فيه ذكر وليس أنثى ، ومنهم من استخدم الضمير العائد إلى المذكّر فيحتمل قصده أحد الجنسين ما لم يذكر قرينه ترجح أحدهما.

فممن تغزّل بضمير وصرّح في قصيدته بما لا يدع مجالاً للشك أن المقصود ذكر وليس أنثى الشاعر أحمد بن إبراهيم الخياري^(٢) ، حيث يصف معذّبه وفاتنه، ويذكر معاناته في حبّه، ويقول إن قيساً وكثيراً لو رأوا صاحبه لم يميلوا لذات الخال^(٣).

وممن استخدم ضمير المذكّر وصرّح بقصد الذكر على الحقيقة عمر ابن عبدالسلام الداغستاني صاحب التحفة، حيث ذكر أوصاف المتغزل

(١) - ديوان البيّتي ، نسخة عارف حكمت ٦٩.

(٢) - انظر ترجمته ص ١٥٤

(٣) - انظر الحقيقة والمجاز ص ٣٨٤

فيه ومن بينها اخضرار شاربه^(١). (انظر حلية البشر ٢ : ٦٤٥)

وقد ذكرنا - فيما سبق - بعض النصوص التي يعود فيها الضمير
لمذكر، ولم تكن هناك قرينه واضحة ترجّح بأن المتغزّل به ذكر أو أنثى
على الحقيقة، ومن هذه النصوص والتي يرجّح أن يكون فيها المتغزّل به
ذكراً - وذلك لعدم إيراد الشاعر لصفات خاصة بالأنثى - قصيدة لعلي
الفرضي^(٢) حيث يقول:

مليح كغصن البان يهتز نشوة	يتيه دلالاً بالبهاء وبالخور
ويرفل في ثوب المحاسن مائساً	إذا ما بدا يسبي محياه كالقمر
وتخجل ظبي البر في لفتاته	فيا حبّذا ذاك المهفهف ذو الخفر
ولكنه قاسي على الصب جافل	يروعي بالسيف والرمح إن خطر
كوى مهجتي عمداً وقرّح مقلتي	وأورثني حزناً وعني قد نفر
فقلت له مهلاً ترفّق بمغرم	أيا كامل الأوصاف يا فتنة البشر
وصلني ولو في النوم عطف لحالي	فقد خانني صبري وزاد بي الضجر

(١) - انظر حلية البشر ٢ : ٦٤٥

(٢) - هو محمد علي بن سعد بن عبدالله بن إبراهيم الفرضي، قال عنه الأنصاري
أنه (شاب لا بأس به)، اشتغل بصناعة أبيه وهي صناعة الكوافي المنقوشة،
وذكره الداغستاني في تحفته وأورد له شعراً جله في الإخوانيات. تحفة المحبين
ص ٣٨٧، تحفة الدهر ٨٦.

فقد رقت العذال لما رأوا الضرر
هلمّ إلينا لاصدود ولا خطر
أرى العسر يسراً وانجلي عني الكدر
لقد نلت ما تهوى وساعفك القدر^(١)

وكن منصفاً واخش الإله لبطشه
فأبدى الثنايا عند ذاك وقال لي
فكدت من الأفراح والأنس والصفاء
وخاطبني قلبي وكل جوارحي

ويستخدم أحمد الجامي^(٢) في أبيات له ضمير المذكر دون أن يذكر
ما يرجع المقصود حقيقة ، الذكر أم الانثى .
فيقول:

دهش العقول وضاع فيه تصبري
رب المحاسن والأحاسن كلها
واها عليه وما ألد عناقه
يا لائمي فيه بغير درية
شاهدته بين الملاح بأسره
مذ ماس تيتها بالدلال المبهر
أفديه من رشاً أغن أحور
وألد رشف رحيق فيه السكري
كف الملام ودعه عني واقصر
ما شمت من يحكيه فاسمع واعذر^(٣)

(١) - تحفة الدهر ٨٧

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٣) - تحفة الدهر ٦٩.

وفي ختام هذا المبحث أحب أن أذكر أن ما استعرضته هنا من شعر الغزل في هذا القرن هو غيض من فيض حيث شكل هذا الشعر جل شعر فترتنا، حيث احتفى به الشعراء فأخذ حيزاً كبيراً مما وصلنا من الشعر، وما أوردته هنا هو ما انتخبته من روائع غزل شعراء العصر، ولعل فيما ظهر من قصائدهم ما يدل على مستوى شاعري لانستطيع التنكر له، بل إن فيه روح التجربة وأحاسيس النفس وخصوصية كل شاعر، ما يدل على حياة الشعراء ونهضة الشعر بينهم، وقد اقتصرنا على هذه النماذج ولم أعرض أكثر من ذلك طلباً للاختصار.

الفصل الرابع / الرثاء :

الرثاء من أهم الموضوعات التي يحفل بها شعر هذا القرن، ولهذا أجد فيه ما يدفع شيئاً ذا بال يقلل من الاتهامات التي يرمى بها شعر هذه الفترة، فالرثاء إنما يصدر فيه الشاعر عن أحاسيس حقيقية، ومشاعر متأثرة وجوانح ملتاعة، ليس لها مطمع من ورائه، أو غاية يأملها من جرائه، ولذا تراه بعيداً عن الزيف والبهرج، متجافياً الكذب والتملق، وحسب صاحبه أنه يرضي أحاسيسه المضطربة وينفس عن مصابه، ويرضي ضميره بشيء من ذكر ذلك الصديق المفارق والراحل العزيز، فليس أمامه من سبيل -وقد عدم لقياه- إلا التغني بما عرف عنه من محاسن، أو ما ترك من خير وذكر حسن، فلعل في ذلك ما قد يخفف المصيبة، أو يحسن العزاء.

أكثر ما وصلنا من شعر الرثاء في هذا القرن هو ما قيل في رثاء العلماء، وجل ذلك ما أثبتته الشيخ عبدالغني النابلسي^(١) في رحلته (الحقيقة والمجاز)، ولعل سبب حفاوته بهذا الشعر وحرصه على تضمينه رحلته يرجع إلى أن هذا الشعر قيل في العلماء الذي يعد واحداً منهم، إضافةً إلى أن هذا الشعر من الصدق والقوة بحيث يفرض نفسه على أديب شاعر مثل النابلسي.

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢

من أبرز هؤلاء العلماء المرثيين الملا إبراهيم الكوراني الكردي^(١)
المتوفي سنة ١١٠١هـ .

فقد رثاه عبدالكريم بن عبدالله الخليفة^(٢) الذي يرى في موت
الشيخ المرثي خطباً كبيراً فكأن الزمان يعلن بموته نهاية السرور وبداية
عهد آخر ثم يسترسل بعد ذلك في ذكر مناقبه حيث العلم الغزير
والخلق الحسن فيقول:

إنّ خطب الزمان أرخى ستوره وأرانا بعد السرور شروره
إذ رزئنا بموت خير همام تخذ العلم إلهه وسميره
من إليه يشار في كل صقع وعليه مدار أهل البصيره
من بكاه الأنام شرقاً وغرباً وتمنّوا لنفسهم تأخيره
ذاك قطب الزمان ربّ المعاني من غدت آي فضله مسطوره
ذاك من كان في الوري محض نفع بالأيادي وبالعلوم الغزيره
ذاك من عاش دهره بعفاف وأتصاف بحسن سير وسيره

(١) - هو إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري الشهراني الشافعي، ولد سنة
١٠٢٥هـ وطلب العلم بنفسه، ورحل إلى المدينة وتوطنها وأخذ بها عن
جماعة من صدور العلماء، وأخذ عن علماء دمشق ومصر، واشتهر ذكره
فقصده الطلاب من البلدان القاصية للأخذ عنه، درّس بالمسجد النبوي، وله
مؤلفات كثيرة، توفي بالمدينة سنة ١١٠١هـ . حلية البشر ١ : ٥ .

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٨

ذاك برهان كلّ فضل جليّ ذو الصفات الجميلة المخبوره
 ذاك ذو العلم والتقى من تراه كلّ حين أوقاته معموره
 من يحلّ العويص من بعد مولى تمّ الله في المعارف نوره
 من لإثبات كلّ دعوة حقّ بدليل وحجّة مشهوره
 ذهب العالم المحقق لكن في بنيه مامنه عيني قريه
 رحم الله ذاته وأنال الـ كل منّا ثوابه وأجوره
 وحبانا صيرا عليه وجيرا لقلوب من بعده مكسوره
 قلت لما أصبت في موت حير ما رأى الدهر مثله ونظيره
 جاء تاريخه بغاية أوب كان شمساً في العالمين منيره^(١)

ورثي إبراهيم الكوراني أيضاً الشاعر محمد بن الخليفة^(٢) العبّاسي
 حيث يصفه بالهمام الذي ليس له ثان في المعارف والفضل، والذي حلّ

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٣٥٨.

(٢) - هو محمد بن عبد الله الخليفة العبّاسي الخطيب الأديب، أخذ عن الملا
 إبراهيم الكوراني، ومحمد بن عبد الرسول البرزنجي وغيرهم، له شعر لطيف،
 توفي بالمدينة سنة ١١٣٠هـ، وقد خلط الزركلي في الأعلام بينه وبين محمد
 زين العابدين ابن عبد الله الخليفة المولود سنة ١١٣١هـ، والمتوفي سنة
 ١١٨٢هـ. سلك الدرر ٤: ٥٩، ٦٠، تحفة المحيين ٢٠٢، ٢٠٣، تراجم
 أعيان ٧٤، الأعلام ٦: ٢٤١.

ذروة هام العلا، وقد كان بجرأً في العلم يقصر دون وصفه الحديث،
فليس من سمع كمن رأى عياناً. يقول:

توفيّ الهمام الذي لم يكنْ له في المعارف والفضل ثان
ومن قد سما قدره في الورى فخاراً على كل قاصٍ ودان
ومن حلّ ذروة هام العلا وليس الحديث كمثّل العيان
ومن كان في حلبة الفضل لا يجارى إذا كان يوم الرهان
ومن لو رأى الأشعري فضله أو الفخر كانا له يشهدان^(١)
ومن كان في العلم بجرأً وعن دقائق سر الهدى ترجمان
فكم قد أجاد وكم قد أفاد وكم في المعاني له من بيان
فعنعن أحاديث عليائه وضع فيه مدحاً كعقد الجمان
حياه إله السما رحمة وأسكنه في فسيح الجنان
ومذ قيل ماعام فوت امرئ يحق لنبيكهُ كلّ آن
فقلت بتاريخه عاجلاً لقد مات إنسان عين الزمان^(٢)

(١) - الأشاعرة كثيرون ولعل المذكور علي بن اسماعيل بن اسحاق من نسل
الصحابي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة
المتكلمين المجتهدين، قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، ولد بالبصرة سنة

٢٦٠هـ، وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ. الأعلام ٤/٢٦٣

(٢) - الحقيقة والمجاز ص ٣٥٩

وممن رثاه أيضاً عبدالرحمن بن أبي الغيث^(١) الذي يرى الشيخ مجدداً
للدين والذي كان أمة في العلم. فيقول:

جدد الله ديننا بإمام كان في العلم أمة طاب ذكرا
شد في نصره الإزار بعزم كان عقباه قربه منه دهرا
أظهر الحجة التي تبهت الخضم هم وأوتي من حكمة الله خيرا
ورث الإسم والمسمى جميعاً من خليل الرحمن من غير فخرا
أرخ القرن واللقا بعد عام مات قطب الأنام قدس سرّاً^(٢)

ورثاه أيضاً أحمد بن محمد علي المدني^(٣) بقصيدة طويلة تقع في ثمانين
بيتاً، نورد مقاطع منها، يقول في مطلعها:

(١) - هو عبدالرحمن بن أبي الغيث بن محيي الدين بن قاسم مغلبي ، وصفه
الأنصاري بأنه كان مباركاً جداً ، كان خطيباً ، توفي سنة ١١٥٢ هـ تحفة
المحبين ص ٤٣٤ .

(٢) - الحقيقة والجواز ص ٣٥٩

(٣) - هو أحمد بن محمد علي المدني المدرّس بمدرسة رستم باشا ، ولد بالمدينة سنة
١٠٧٠ هـ ونشأ بها وأخذ العلم عن كبار علمائها ، له عدّة مؤلفات ، وكان
ولوعاً بجمع الكتب وتصحيحها ، كان يؤم بالمسجد النبوي ويدرس به ،
توفي بالمدينة سنة ١١٣٥ هـ . سلك الدرر ١ : ١٤٨ ، تراجم أعيان ص ٩٩ ،
نفحة الريحانة ٤ / ٣٨٨ .

قد دهانا ملام خطب أليم
 مات محيي ما كان من دارس العدم
 فتباكت مدارس وعلوم
 م بدرس فكل علم يتيم

وهكذا حتى ينتقل إلى ذكر صفاته حيث يصفه بالشيخ الحميد
 الذي ليس فيه من الصفات الذميمة شيء ، وهو شيخ العلوم العقلية
 والنقلية الذي أقرّ بفضلته الشرق والغرب ومصر والشام والروم.
 يقول:

ذلك شيخ حميد قول وفعل	ليس فيه من الصفات ذميم
ذلك برهان مشكلات الدياجي	قاطع ساطع سناه العميم
ذلك قطب ومركز قد سما فد	ك سماء فهو الجليل الفخيم
ذلك شيخ العلوم عقلاً ونقلاً	ظاهراً باطناً قوي قويم
قد أقرت بفضلته الشرق والغرب	ب ومصر وشامها والروم
فعلى مثله ينح ويبكي	كل صبر بجيشه مهزوم
هو تحرير كل تحرير بحث	منهل كم روى بذاك الهيم
كم خلاف للقوم صار وفاقا	فشتات الهوى به ملموم
حافظ العصر بالحديث أخيراً	وهو بالفضل سابق وقديم
كاد أن يجمع الأحاديث في الصد	ر ليدري صحيحها والسقيم
كم لمستدرك على القوم أبدي	حاكماً وهو للهدى محكوم

فهو عالي الإسناد في كل زاد وأبى عن الضعيف شهيم
 حاله في الحديث تميز ما صحح صح طريقاً وبالرواة عليهم
 في علوم التاريخ ثبت فريد ذو صواب عن الخطا معصوم^(١)

وهكذا يستطرد في ذكر مناقبه وفضله، ثم يصوّر مدى الفجيعة التي
 حلّت بالناس لفقده، ولا يعجب من ذلك حيث أنه يرى حبه واجب
 على كل ذي دين بل إن من يلوم في حبه فهو اللئيم، وقد تمنى الكثير أن
 يفدوه بارواحهم ولكن القضاء لارادّ له. فيقول:

كل طرف باك وقلب حزين لفراق الذي دعاه الرحيم
 حرم المجد سوله من بقاء طرفه منه سائل محروم^(٢)
 ذاك خطب أجل خطب وما فيه ه سوى صب الدموع حميم
 حبه واجب على كلّ ذي ديد من ومن لام فهو اللئيم
 حملته الأعناق لابدع فالأقد دم قد ما تسعى له وتقوم
 أفرغ الله قلب الصبر في قلـب ذوي العلم فهو رب كريم
 كم تمنى شخص فداه بروح غير أن القضا هو المحتوم^(٣)

(١) - العصمة لله ورسوله، وفوق كل ذي علم عليم.

(٢) - السول : الأمنية . لسان العرب (سول).

(٣) - الحقيقة والمجاز ص ٣٦٠.

ورثى جعفر البيتي عبدالكريم البرزنجي^(١)، الذي قتله باكير باشا^(٢) والي جدّة سنة ١١٣٨هـ. بموجب قرار ورد من الدولة العثمانية بسبب فتنة العهد، حيث يرى أنه قتل مظلوماً ثم يختتم الأبيات بتاريخ قتله. فيقول:

يا ابن عبدالرسول يرحمك الله هـ وقدّست ميّتاً وفقيداً
أسوة المسلمين أنتم جميعاً في جميع البلا قريباً بعيداً
إن قتلتم ظلماً فغير عجيب قد حكيتم آباءكم والجدودا
والذي قد شقوا بكم وسعدتم خسروا حيث أرجوكم سعودا

(١) - سبقت ترجمته ص ٣٣

(٢) - هو والي جدّة الذي قتل عبدالكريم البرزنجي سنة ١١٣٨هـ، بعد فتنة العهد في المدينة الواقعة بالمدينة سنة ١١٣٤هـ، وقد ذكر صاحب (الأخبار الغريبة) أن باكير باشا عزل عن ولاية جدّة بعد مقتل البرزنجي بقليل، وقد ذكر الجبرتي أن باكير باشا تولى مصر سنة ١١٤٢هـ ثم عزله العساكر بعد أشهر من ولايته، ثم يذكر أنه تولى مصر للمرة الثانية سنة ١١٤٧هـ، وحدثت في عهده اضطرابات أدت لعزله وتوجيهه إلى جدّة سنة ١١٤٩هـ، وترجم له المرادي في سلك الدرر بأبي بكر باشا بن إبراهيم الرومي، وذكر أنه توفي سنة ١١٧١هـ. سلك الدرر ٤٩/١، تاريخ عجائب الآثار ص ١١٣، ٢٢٠، الأخبار الغريبة ١٣.

ما برحتم مقسّمين قتيلا
 نحن نبكي الأحياء منكم قديما
 قتلوكم وقبّلوا كسوة التا
 قتلوكم ظلماً وصلوا عليكم
 لم يكن واحداً يزيد عليكم
 فسلام عليك مت سعيداً
 عام حزن قتلت فيه فأرّخ
 أو سليباً أو موثقاً أو طريدا
 لاتظنّوا هذا البكاء جديدا
 بوت من قبر جدّكم والحديدا
 عجباً ما نرى عليكم فريدا
 بل نرى دهركم يزيدُ يزيداً^(١)
 مثلهم في البلا وعشت حميدا
 سناه عبدالكريم مات شهيداً^(٢)

ورثي البيتي كذلك حسن بن عبدالكريم البرزنجي^(٣) المذكور المتوفي بمصر مختفياً حيث أنه هرب إليها بعد فتنة العهد سنة ١١٣٤ هـ والتي قتل فيها أبوه، ويرى البيتي أن المذكور أعلى من قصائد الرثاء حيث أنه اسم على مسمى فهو حسن الاسم والفعال وله نسبة علوية فاطمية فهو من بيت تقوى وحكمة، ويذكر أنّ المذكور قد رثي قبل موته لما أصابه

(١) - يقصد بذلك يزيد بن معاوية حيث في عهده قتل الحسين بن علي رضي الله عنه، والشاعر هنا يرى أنه بقتل البرزنجي يزيدُ الدهر يزيداً آخر ليزيد المذكور.

(٢) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ١٠٥ .

(٣) - سبقت ترجمته ص ٨١

من محن ومصائب، وأنه قد فاز بالمختين حيث أبتلي وأصابه الجور
ومات بالطاعون.

فيقول:

يا ابن عبدالكريم قدرك أعلى	عن رثاء فيه يردد فضلا
حسن الاسم والفعال جميعاً	أنت فيما تبديه قولاً وفعلاً
أنت إبن النبي وابن عليّ	وكريم الآباء فرعاً وأصلاً
بيتكم سيّد البيوت جميعاً	ولكم في العلا السهام المعلّى
بيت تقوى وحكمة وعلوم	أعرق في الكمال بعداً وقبلاً
قدّست روحك الشريفة روحاً	وحواها الرضى من الله نزلاً
وسقت أدمعي بمصر ضريحاً	لك والمعصرات هلاًّ وبلاً
صورة مت نائياً وغريباً	والرفيق الأعلى اتخذت محلاً
قد رثيناك قبل موتك لما	ساء رأي الزمان فيك وزلاً
فزت بالمختين بالجور والطا	عون يا للشهيد جوراً وقتلاً

وهكذا يسترسل في مدحه وذكر محنته إلى أن يتمنى لو كان يستطيع
أن يفديه بنفسه ، ثم يدعو الله أن يجبر قلب كل كسير ذاب من الحزن
على موته. فيقول:

ليتها لو تكون رأسٌ برأس	ليس نبغي لنا بذي الدار فضلا
يا فقيداً أفقدته وسروري	أنت ضاعفت فوق ثكلي ثكلاً

أنت في دفتر المظالم تالٍ ثم في العرض حال ظلمك يتلى
 جبر الله قلب كل كسير ذاب بالحزن فيك ثم اضمحلاً
 وسلام عليك في كل حين كلما سلّم الشجيّ وصلّى
 أبداً كلما أباح زمان حرمة من حمى العلا واستحلاً^(١)

ومن مرثي العلماء - التي وصلتنا - كذلك مارثي به جعفر بن
 حسن البرزنجي^(٢) - السابق الذكر - حيث أورد الداغستاني في كتابه
 (تحفة الدهر) ثلاث قصائد في رثائه، الأولى لمحمد سعيد سفر^(٣)، الذي
 يجعل موت جعفر بشارَةً له، حيث أنه كان يتمنى مجاورة الله في مقعد
 صدق عنده، وأنه يبكي عليه لعلمه وورعه، ثم يختتم الأبيات بتاريخ

(١) - ديوان البيهقي، نسخة عارف حكمت ١٢٧.

(٢) - هو جعفر بن حسن بن عبدالكريم البرزنجي ولد سنة ١١٢٨هـ، برع في
 الخطب والرسائل، فصار خطيباً وإماماً ومدرّساً، تولى إفتاء الشافعية إلى أن
 توفي سنة ١١٧٧هـ، وله مؤلفات. تحفة المحبين ٨٩، تراجم أعيان ١٢٠،
 سلك الدرر ٢: ٩.

(٣) - هو محمد سعيد بن سفر أمين، ولد سنة ١١١٣هـ، اشتغل بطلب العلم،
 وسافر إلى تركيا ومصر والشام، صار خطيباً وإماماً، ثم تركهما بعد أن
 كف بصره، فاشتغل بالتدريس، توفي سنة ١١٩٤هـ. تحفة المحبين ص ٢٨٣،
 تحفة الدهر ٥٢.

وفاته. يقول:

بشّر فقد حاز المنى جعفر	وهو بمنّ الله مستبشّر
بمقعد الصدق زكا وارتقى	حائطه الفردوس والكوثر
جنّات خلد زينها حبّها	بها الهناء الفوز والمفخر
شرابها التسنيم ماء له	لروح ريحان المنى مبشّر
رضوان مولاه يطيب به	وجده باد به مظهر
أبكى على مولى قضى نجبه	عاف به نسقى ونستبصر
وكيف لانبكي لغرّ مضى	وهو التقيّ الأروع الأعطر
تبكي السموات على يمنه	والترّب بالأنهار والأبحر
طاب لطب بيد آثاره	بوجهها مسك ندّ أذفر
خمسين عاماً سنه معلن	بالدرس والفتوى لها يعمر
مقامه الأعلى به أرحن	بشّر فقد حاز المنى جعفر ^(١)

والقصيدة الثانية في رثاء جعفر البرزنجي هي لأحمد بن محمد سعيد
سفر^(٢) وقد ذكر الداغستاني مقاطعاً منها وهي قوله:

(١) - تحفة الدهر ٥٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣١

برماحها السمر الطوال الذّبل
زار الإمام العارف الورع الولي
وكذا مدرّسهم بغير تأول
شيخ الشيوخ وغوث كل مؤمّل

صبراً لداهية أصابت مقتلي
صبراً لخطب قد أتانا بغتة
مفتي الأنام خطيبهم وإمامهم
قطب الحقيقة والشريعة والهدى

ومنها :

بكلامه الأعلى ومنطقه الجليّ
تنسيك خطبة أطول ومطوّل
أكرم به من فاضل متفضّل

كم فآخر الناس الأمائل بعضهم
كم خطبة قد قالها من صدره
كالسيد الجرجان في تقريره

ومنها:

رجلاً وليّاً قال تاريخاً جليّ
بمسلسل وكذا باسناد عليّ
في جنّة الفردوس يعلو منزلي
فالآن يحسد ظهرها بطنا مُلي
لو أنني كنت البقيع للدّلي
وكذاك تبكيه السما بتعلّل
والحور والولدان تضحك في الحُلي
بجزائها يجزيك مولانا العليّ
فهي التي نشتاها في المنزل

هل قد سمعتم أو رأيتم قبله
في موته يرويه عدل ضابط
قد قال يرجمه الإله مؤرخاً
قد كان بطن الأرض يغبط ظهرها
يهنيك يا أرض البقيع بضمّه
تبكيه عيني والجوارح كلها
فاعجب لنا نبكي عليه دائماً
لك منّة عظمى عليّ ولم أقم
يعطيك ربي رؤية لجماله

يا آل طه سادتي حبي لكم
فتقبّلوا شعراً حقيراً قاصراً
ماقدر نفسي حين تمدحكم وقد
سئلت مودّتكم على مقداركم
هذا وإنّي قد رثيت مؤرّخاً

والله أصمى مذهبي والسعد لي
أرجو به أعلى العلا في منزلي
طهّرتم في محكم النص الجلّسي
في سورة الشورى بنص منزل^(١)
بشراك جعفر كن بأعلى منزل^(٢)

والقصيدة الثالثة في رثاء جعفر البرزنجي لإبراهيم الطيار^(٣)، حيث
يصف حالته ومدى حزنه وما أصابه لفقد المرثي، ثم يذكر بعد ذلك
مدى ما أصاب حلقات الدرس من بعده حيث يذكر أنها تعطلت وأن
المنبر يبكي لفقده، ثم يختتم الأبيات بتاريخ وفاته. يقول:

عجباً لدمعي كيف يجري جعفر
والجسم أنخله التأسف والبكا
والقلب محترق بنار تسعر
والجفن قرّحه سهاد مضجر

(١) - يقصد قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) سورة
الشورى الآية (٢٣).

(٢) - تحفة الدهر ٥٣.

(٣) - هو إبراهيم بن عبدالله بن علي بن عبدالرحمن الاحسائي الطيار، كان أخوه
محمد صالح كتبخذا القلعة السلطانية (كبير العسكر) قتله والي المدينة شاهين
آغا سنة ١١٨١هـ، ففرّ إبراهيم إلى ضاحية البركة شمال المدينة وسكن بها
إلى أن رجع إلى المدينة سنة ١١٨٧هـ، توفي سنة ١١٨٨هـ. تحفة المحبين
٣٣٧، ٣٣٨.

والصبر منّي قد تمزّق ثوبه
غدر الزمان أصابني بمصيبة
من بعده تلك الدروس تعطلت
من عاد ينظم للعقود جواهرها
قد كان فخرًا للشوافع شافياً
هو تحفة الألباب في تحريره
في الروضة الزهراء يقطف زهرها
حاوي المعاني والبيان بمنطق
وبفقد فرد ثم لي تاريخه

عزّ اصطباري كيف إنّي أصير
هي فقد جعفر والمصيبة أكبر
يبكي لها قلبي ويبكي المنبر
من بعده ما صار عقد يذكر
يفتى ومفتى بالنهاية يخبر
بل هو عباب منه يلقط جوهر
ويفوح من تلقاه مسك أذفر
عذب لإحياء العلوم يفسّر
في جنة العلياء يسكن جعفر^(١)

ومن رثاء العلماء قصيدة لجعفر البيهقي في رثاء الشيخ زين العابدين
المنوفي سنة ١١٥١هـ^(٢) ، حيث يستهلهها طالباً أن تترك عيناه في ذرفها
للدموع ، وأن لاتتذكر الصبر والسلوان ، لأنه لايقبل العذل والعزاء في
ذلك الحزن ، وهي قصيدة طويلة تقع في تسعة وخمسين بيتاً ، حيث
يقول:

دعي عنك هذا الدمع يهمني ويهمل ولا تذكرني السلوى ولا الصبر أجمل

(١) - تحفة الدهر ٩٥

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٩

ولاتسديبي^(١) للتأسي ولا العزا فمندوب^(١) عزمي في التصبر أقزل^(٢)
 سألت من المحزون ماليس مالكا له ووهبت التصح من ليس يقبل
 لئن كشف التبريح وجه تجلدي فستر دموعي يا جويرة مسبل
 يروحك مني منظر الهم والبكا ولو عدّ ما ألقى وما أتحمّل
 وعندني سوى ما تفهمين وإن لي عويلاً على الحزن الطويل يعول
 ودمعاً على شرط الوفاء وقفتسه حبيساً يجاري الغيث وهو مسلسل
 ويستمر في وصف هذه الحال إلى أن يعود إلى ندب حظه الغبي، حيث

أن موت زين العابدين من سوء حظه فهو منهل سعادته:

متى أترقى بالنباهة في الورى وحظي غـبي والزمان مغفل
 أرى زهر الآداب صوّح^(٣) نبتة وكان على عهدي به وهو مخضل^(٤)
 أرى مورد اللذات من كل جانب تكدر حتى ليس في الأرض منهل
 سلام على الدنيا تحية زاهد لما ناله منها وما يتحصّل
 إذا مات زين العابدين فلا تسل عن الناس إن حلّوا ولا إن ترحلّوا
 ولا عن قلوب شققته يد الأسى وأخرى على نار النوى تتململ

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر مناقب الشيخ وصفاته:

جزى الله عني الثاكلات ومن بكى معي والحيا من حيث يرسى وينزل
 على من ثوى بطن المعالي صيانة عن الترب قبراً أو يواريه جندل

(١) - مندوب : اسم فرس . لسان العرب (ندب)

(٢) - الأقلل : الأعرج الدقيق الساقين . لسان العرب (قزل)

(٣) - صوّح : يبس . لسان العرب (صوّح) .

(٤) - الخضل : النبات الناعم . لسان العرب (خضل)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر مناقب الشيخ وصفاته:

جزى الله عني الثاكلات ومن بكى
 علي من ثوى بطن المعالي صيانة
 علي هادم ركن المكارم فقده
 علي خاطب قسّ إليه بناته
 علي من علي سحبان^(١) يسحب ذيله
 علي شمس فضل حان منها غروبها
 علي ناثر فضلاً علي ناظم تقى
 معي والحيا من حيث يرسي وينزل
 عن الترب قبراً أو يواريه جندل
 وكان قديماً وهو للمجد معقل
 من الفكر ولهاناً بها يتغزل
 بأحسن ما ينشي وما يترسل
 فيومك لا يوم وليك أليل
 علي ناشر علماً يقول ويفعل

ثم يدعو الشعراء في ختام القصيدة لإجازة شعره ونظم المراثي في
 الشيخ، ثم يفتخر بعد ذلك بمقدرته الشعرية، التي يتفوق بها علي كبار
 الشعراء. فيقول:

أجيزوا بني الآداب شعري عزّزوا
 عليّ لكم في حلبة الشعر سابق
 عليّ لكم أن تستهلّوا قوافيا
 عليّ لكم روض من النظم زاهر
 لقد جدت بالشكوى واجديت باكيا
 مراثي منكم بالمراثي وصلّوا
 أحبّ به يوم الرهان وأرقل
 يساجلني فيها حبيب وجرول
 زهير علي أبياته يتطفل
 وجديت حتى خلت أني أهزل

(١) - هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، المعروف بسحبان وائل، من باهلة
 يضرب به المثل في البيان، اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام، أسلم في
 أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به مات سنة ٥٤ هـ. خزانة الأدب
 ٣٩٦/١٠.

فهذا أنا الخنسا والامتّم فهل فيكم بالرجال مكّمّل
بكافية في القول من غير حاجب لها مجمل من نحوكم ومفصّل
أجزوا والآن يكن ثم مانع (فإني إلى قوم سواكم لأميل)^(١)

ولهذه المرثية السابقة قصة طريفة ذكرها البيهقي في ديوانه ، حيث أن البيهقي نظم قصيدة -سيأتي ذكرها فيما بعد- في رثاء الشريف حمود بن عبدالله بن عمرو^(٢) ، وعندما سمع الشيخ زين العابدين المنوفي^(٣) القصيدة استحسناها وقال: ليتني كنت الميت وأني رثيت بها، ثم مات بعد ذلك بأيام فرثاه البيهقي بهذه القصيدة السابقة.

وأرسل أحمد الجامي^(٤) قصيدة إلى عبدالله الطيار^(٥) معزياً في والده

(١) - ديوان البيهقي نسخة عارف حكمت ٦٤ ، وما بين القوسين تضمين لمطلع

لامية العرب للشنفرى، حيث أخذ عجز البيت الذي صدره :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ...

(٢) - هو حمود بن عبدالله بن عمرو النمويّ الحسنيّ المكيّ، أحد أشراف آل نُمّي

، كان صاحب صدارة ودولة وأخلاق، حسن المذاكرة والمطارحة، توفي سنة

١١٥١ هـ . تاريخ الجبرتي ١ : ٢٤٣ .

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٩

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٥) - هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن علي بن عبدالرحمن الاحسائي الطيار،

وصفه الأنصاري بأنه رجل كامل وهمام فاضل اشتغل بطلب العلوم، وله

علي الطيار وذلك سنة ١١٩١ هـ ، حيث يستهل قصيدته بذكر أولئك الأعيان الذين يتخطفهم الموت الواحد تلو الآخر فيبقى مكانهم ليس من أحد يسدّه، فهم الذين يعاش في أكنافهم، الذين لا ينقطع سيل الدمع لفقدهم. يقول:

مهلاً أكابرنا وأعيان البلد	وحماة حومتنا إلى كم ذا النكد
مابالكم تتخطفوا من حولنا	ويهد خطبكم قوانا والجلد
كم تتركوا غنماً بلا راع لها	يرعى فضل الذيب يرعى والأسد
كم من فراقكم تشق قلوبنا	كم فيكم الحلقوم صاباً يزدرد
كم ذا نحوقل كم نردد فيكم	أي المصيبة ثم هذا ما وعد
أو ما كفت نار الخليل وحرّها	إذ صيرت قلبي كليماً بالكمد
(ذهب الذين يعاش في أكنافهم) ^(١)	فعليك يا دنيا السلام إلى الأبد
هيهات أن ترقى العيون وقد جرى	منها عقيق الدمع ملتطم الزبد
يا رب يا مولاي قابل كسرنا	بالجبر يا نعم المعوض والسند

ثم يرجع إلى نفسه ويعزيها بأن الموت مصير كل حيّ وأن (كل

نظم ونثر، صار من رؤساء المتكلمين إلى أن رمي عند محمد باشا والي الشام فقبض عليه وأخذه إلى الشام ثم ردّه إلى أهله. تحفة المحبين ص ٣٣٨.

(١) - صدر البيت تضمين لصدر بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام):

يا قلب صيراً فالمقدر كائن
كل امرئ فان ويبقى وجه رب
الملك لله العلي الواحد الـ
فإذا علمت بذاك فارض بما قضى
واسأله حسن اللطف في تقديره
لا تجزعن لنفاد أمر لا يرد
ك ذي الجلال الواحد الفرد الصمد
قههار مولانا المنزه عن ولد
مولاك واحذر أن تضلّ عن الرشد
سيما إذا ما الروح فارقت الجسد

ثم ينتقل إلى ذكر مناقب المرثي فهو الامام الكريم الشجاع صاحب
الرأي السديد.

واعلم بأن بكاءنا لا ينبغي
أما على مثل الهمام أخ الغما
هو ذو الجناحين الذي شرفا سما
طيّار دوح عليّ جنات العلي
لا زالت الرحمات تسقي روضه
فعليه لا يجب النحيب لأنه
بل ينبغي أنا على طول المدى
إلا على من مع أولئك مانفد^(١)
م أب الأرامل وابن ذاك المعتقد
وغوارب المجد امتطأها واقتعد
أسد الحروب وصاحب الرأي الأسد
بنمير ممطر عارض ضخم البرد
ضيف على رب كريم قد وفد
في ذاك نغبته ونزرع ما حصد

(١) - يقصد أن ما يستحق البكاء هو العلم الذي فقد بفقد هؤلاء الأعلام.

ونقول يهنيك النعيم وبرده
وبخ بخ حيث المآل لطيبة
وشهودك الأوطان ثم الانتظا
وتراكم الفيض الإلهي والمدد
من بعد هاتيك المتاعب والشدد
م بسلك من في الغرقد الشامي رقد^(١)

ثم ينتقل لذكر الشوق إلى المدينة فيسأل الله أن يرجعه إليها وإلى أهلها :
ياحبذا هي من معاهد قد سمت
لم لا وفيها حلّ أشرف مرسل
الله ينشقني روائح طيبها
ويمن لي بلقا الذين أحبّهم
ويلف منشور التغرّب عاجلاً
فلقد فقدت لزيد طعم معيشتي
لكنّ لي في الله ظناً جيّداً
نفحات تربتها على مسك وند
لابدع إن حازت مزايا لاتعد
وينيلني ما ناله ذاك الأسد
ويقرّ عيننا قد أضرّ بها الرمد
ويلم بالأهلين شملي والولد
والنوم بعد البعد عن عيني شرد
في حسن عودي وانفصام عرى العقد

ثم يختتم القصيدة بالاعتذار عن أبياته التي قد ينتقدها ناقد ثم يدعو
لابن المتوفي بدوام الصحة والسعادة . يقول:

هذا وغب خلوص عرض تحيّي
انهى بأني حيث أخرني القضا
وأبى التثام تراب أقدام الأحب
ووقيد شوق في فؤادي قد وقد
والذيل للتعويق شمّر واجتهد
سبة والوورد إليهم مع من ورد

(١) - بقيق الغرقد مقبرة أهل المدينة المشهورة .

وازددت مذ كشف الغطاء تيقنا
 ورأيت أن لا بد من حسن العزا
 نهضت قريحتي الحقيرة بعد أن
 وورت زناد أداء بعض حقوقه
 ولسانها من نقد أرباب الذكا
 واستحسنت ايضاحه في قالب
 لكم نتيجة جعفر لاسيما
 عين القلادة بدر أفق سمائك
 ومقلدي المنن التي لم أنسها
 الله يجزيه جزيل جزائه
 ويديم طلعتة وغرة وجهه

ولدي صح الهدم في ركن البلد
 عملاً بسنة خير بطن من معد
 أكبادي انفطرت وحيلي قد قعد
 مع أنه من فقد من أهوى صلد
 خجلاً لعمرى قد تلثم وارتعد
 متناسق الللاء منتظم الزرد^(١)
 انسان أعياني العفيف المعتمد
 وأعز من بوداده قلبي انفراد
 مادمت حياً بل ولو شبحي التحد
 عني ويعظم أجره فيمن فقد
 ذاك الجميل مصرفاً عنه النكد^(٢)

وفيما سبق من مرثي العلماء تظهر لنا الرابطة الحميدة بين الشعراء
 وعلماء العصر، مما يدل على ثقافة الشعراء وتجانس نفوسهم إلى
 العلماء، وذلك لا ينبع من فراغ، فالمقاربة تدعو للمشابهة أو للتأثر،
 وكان نتيجة هذا التجانس والتعلق شعراً صادقاً يفيض بالمحبة والتقدير
 والإجلال.

(١) - الزرد: حلق المغفر والدرع . لسان العرب (زرد).

(٢) - نوافح الزهور ١٠١

رثاء الأمراء :

لم نجد فيما بين أيدينا من شعر هذا القرن مرثي في الحكام داخل الحجاز وخارجه سوى قصيدة لجعفر البيتي في رثاء الشريف مسعود بن سعيد شريف مكة ، ولعلّ هذه القلة ترجع إلى أن الحاكم يتوفى عادة وقد انتزع الحكم منه فيحجم الشعراء من رثائه تجنباً لسخط الحاكم الجديد الذي قد لا يرضيه رثاء من كان خصماً له في يوم من الأيام.

أمّا قصيدة البيتي في رثاء الشريف مسعود بن سعيد^(١) فقد قالها - كما ذكر في ديوانه- للثناء في مسعود والتهنئة لأخيه الشريف مساعد بن سعيد^(٢) وذلك سنة ١١٦٥هـ.

تقع القصيدة في سبعة وسبعين بيتاً يستهلها بوصف حالته وحزنه وعظم مصيبته لفقد الشريف المذكور . فيقول:

وجدي يجد وحسرتي تتجدد	وسهام حزني نافذ لا ينفد
ومصيبتي ذهبت بكل جلاذتي	وذهبت لا أقوى ولا أتجلد
وأسى أقام وإنني من قبله	ما كنت أعلم ما المقيم المقعد
مالي أرى بعد النباهة والنهى	بين المعالم باهتاً أتبلد
سيان عندي عاذر ومعنف	ومحسن ومقبح ومفند
حجبت وجوه الرأي دون تصبري	والرشد قل لي كيف ويحك أرشد

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٤

لله غرب مدامع شققته لو كان ينفع غلتي ويبرد

ويستمر في وصف هذا الحزن ثم ينتقل إلى ذكر صفات الشريف مسعود فيقول:

ظلّ الوري كهف الضعيف وحرزه
الصالح البرّ التقي الأروع الـ
الحازم اليقظ الذكي اللين الـ
ملك الأباطح سيّد الصيد الجحا
ابن النبوة والمروّة من نما
حلّت عزاليها^(١) الغمام على ثرى
ديما تراوحها الدموع وتغتدي
خرجوا به تتلوا المعالي خلفه
وبكت قلوب كالحديد لفقده
يا ترعه المعلى^(٢) هنيك بالعلا
يا ترعة المعلى نسيمك راحة
لازالت الرحمات تغشى روحه

بيت القصيد الملتجى والمقصد
سورع الوليّ العابد المتهدد
خشن الرضي المتنمّر المتأسّد
جح من نميّ والكريم الأجد
وزكا وطاب غراسه والمحتد
فيه استقلّ ضريحه والملحد
وتصوب طوراً في الحجون وتصعد
اليوم عهدكم فأين الموعد
فرأيت كيف يذوب ثم الجلمد
مذ حلّ فيك فغار منك الغرقد
مهما يراوحنا وتربك أئمد
يجري بها أبد عليها سرمد

(١) - يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر الجود : قد حلّت عزاليها. لسان العرب

(عزل).

(٢) - مقبرة بمكة .

وتقدّست نفس له بمكان ما يتنافس المتنافسون ويجهدوا
نزلاً يكون له الرضى من ربّه ومقام صدق في النعيم ومقعد

ثم يذكر بعد ذلك أن وجود مساعد بعد أخيه مسعود مدعاة للتصبر
والسلو حيث أنه نعم الخلف له ويقول:

والله أكرم ما استعيض فعاظنا
ماغاب مسعود وفرقد سعده
عادت لنا الحسنى وكانت فارقت
قرّت عيون كان اسخنها البكا
يا قرب ما بين الإساءة والهنا
بسمت لك الأيام بعد عبوسها
وبدت لنا الدنيا بأحسن منظر
عوض وحقك كيف شئت وأزيد
حتى بدا لك من مساعد فرقد
والعود من بعد التفرق أحمد
بالأمس كنت كأنّ جفني أرمد
أصبحت أنعق ثم رحت أغرد
فَهَنَّاكَ ثَغْرَ بالسُرور منضّد
غيداء يصحبها زمان أغيدُ

ورثى البيهقي الشريف حمود بن عبدالله بن عمرو^(١) وقد توفي في
المدينة، وهو من أعيان الأشراف في مكة ومبرزيهم، وقصيدة البيهقي
هذه هي التي تحدّثنا سابقاً عن استحسان الشيخ زين العابدين المنوفي^(٢)
لها حيث تمنى أن يكون هو المرثي بها.

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٢٩

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٩

يستهل البيتي قصيدته بالتقرير أن الصبر جفاه والدمع لم يكف للتعبير
عن مدى حزنه العميق الذي نال منه حظاً كبيراً ويحرص الشاعر أن
يستخدم الجناس في أكثر أبيات القصيدة . يقول:

نعم إن سرح الصبر جاف وجافل	وهيهات إن الدمع كاف وكافل
هو الحزن حزناً منه حظاً وإنه	على قدر ما تدعو المصيبة نازل
صروفاً من الأيام ذوداً من الأسي	تساق إلينا والقلوب مناهل
قضى ما قضى من طبعه الدهر إنه	على جمعه الضّدين عادٍ وعادل
وإنّا لأغراض نصبن على الشفا	ودهرك والأقدار سهم ونابل

ويستمر في وصف حالته هذه ثم ينتقل إلى ذكر صفات المرثي
ومناقبه فيقول:

وفـرقد مجد في سماء رياسة	بـدا وهو مع برج الشرافة آفل
وإن عقود المكرمات تساقطت	وأضحت وجيد الدهر منهنّ عاطل
على هالك شقت عليه جفونها	عيون المعالي فهي آيم تاكل
فيا للمصاب في لؤي بن غالب	بنو عمرو فيهم واحد وهو شامل
فليت المنايا كالرجال إذا التقت	يذبّ الفتى عن نفسه ويناضل
إذن لم يمت صبراً ولا حتف أنفه	ولم تتكشّف من حمود المقاتل
وأسرف في إثر الجريرة مسرف	وأذن للثّارات حق وباطل
فدى لك مبي يا حمود من الورى	رقاب القنا والصفانات الصواهل

فدى لك لو أجدى الفدا لتحملت عليه شعوب جمّة وقبائل
وكل نفيس بعد ذاك ادّخرته ونفسي إن أجدت فيائي باذل

ثم يسلم على أرض البقيع التي دفن بها ، ويدعو لها بالسّقيا. فيقول:
سلام على أرض البقيع التي انطوت عليك وسقّتها الغيوث الهواطل
من المرسلات الرائحات عشية منائح ضرع الحزن فيهنّ حافل
ولياً من الوسمي أنـوا تتابعت إذا شحّ منها وبال سحّ وابل
رحلت ومن حرصي على العود إنني أوّمل في نفسي بأنك قافل
تقدّمت في الركب المغدّين للبلاد ولكنّ باقي الركب بعدك راحل
فقابلك الرحمن منه برحمةٍ وعفو وغفران ونعم المقابل

ثم يعزّي قريباً للمرثي فيخبره أن هذه حال الدنيا ويكفيه العزاء
بمن ذهب من الخلق قبله وأن هذه سنة الله في خلقه، ثم يختتم الأبيات
بثنائه على هذه القصيدة التي تنسي المصاب مصيبته. يقول:

أبا طالب لافاتك الصبر إنّه جميل به تنسى الأسى بل تُجامل
وكيف سلوّ من حزين إذا بدا له ذاك يوماً ذكّرتّه المنازل
لعمرك إنّنا في المصاب لواحد جميعاً وإنّ الحزن لكلّ حاصل
وإن كان صبري ناقصاً وتجلّدي فدمعي بايضاح التلهّف كامل
وطائر شجوي بالمرثي مترجم تطارحه ورق الربا وتساجل

على القرب أمليك الجوى وإذا نأت
تعزّ ويكفيك العزاء بمن خلا
ومهما تشا فاطلب من الأرض شاهداً
خذ الحكم من حظ اللئيم فإنه
وإلا فللدنيا معلّى^(١) وناقص
صرفنا عنان الإعتراض لآتنا
فدونك من خدر القريض طعائنا
ملاهي ينسين المصاب وإنّها
ودم لاعدمننا في سلامتك البقا
مدى الدهر ما أنشى وأنشد قائل

بك الدار يوماً فالدموع رسائل
وراك ويشفيك القرون الأوائل
فصيحاً فكم فيها مجيب وقائل
يفيدك إن الدهر هاز وهازل
قسيم وللأخرى سفيح^(٢) وفاضل
علمنا بأنّ الله في الكلّ فاعل
يروقك معنى حسنها والشمائل
وأعجب ما فيها إليه وسائل
تسرّ بك الدنيا وتزهى المحافل
نعم إن سرح الصبر جاف وجافل^(٣)

وفي ما رأيت من هذا الشعر ما يدل على أن شعراء العصر قد تناولوا
رثاء الولاة والأمراء - رغم قلة هذا الشعر - مما يوحي بمتابعتهم وتيقظهم
الفكري والسياسي مع عصرهم، ولعل بعض من رثوهم كما عند البيهقي
يكون حسن السيرة محموداً بين الناس، وبعد هذا فرما تكون المصادر
لأدب العصر كانت للاضطراب السياسي غير حافلة بمتابعة هذا الرثاء.

(١) - المعلّى: القدح السابع في الميسر، وهو أفضلها. لسان العرب (علا).

(٢) - السفيح: قدح من قداح الميسر، مما لانصيب له. لسان العرب (سفيح).

(٣) - ديوان البيت، نسخة عارف حكمت ٦٢

رثاء الأصدقاء والأقارب:

لعل من أصدق الرثاء في الشعر العربي ما قاله الأديب في رثاء أبنائهم، وقد أورد الداغستاني في تحفة الدهر قصيدتين لمحمد سعيد سفر^(١) يرثي في كل واحدة منهما ابناً له، ففي الأولى يرثي أحدهما وقد مات غريقاً في بئر تدعى بئر الضعيني (كما يذكر في مستهل قصيدته) ثم يذكر بعد ذلك أنه كان خير أنيس وفخر وزين له، وأنه كان يرجو أن يموت قبله فيكون داعياً له ومؤدياً عنه الدين، ولكنه تقدّم عنه فلذلك يطلب الله أن يجمع شملهما في الجنة.

يقول:

يا وجيهاً ثوى ببئر الضعيني ^(٢)	إنّ مثوان ثمّ قرّح عيني
بئر جبر لمن أصيب وظعن	لمريد الوصول للجنّتين
متّ ظمآن في القفار وحيداً	فسقاك الإله تسنيم عين
يا حبيبي قد كنت خير أنيس	لي وفخري بين الأنام وزيني
كنت أرجوك أن تقوم بدفني	داعياً لي وأن تؤدي ديني
فتقدّمت بالكرامة عني	جمع الله شملنا بعد بين
في جنان وفي نعيم مقيم	أنت فيها يا زين قرّة عيني

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٢) - بئر الضعيني: بئر تقع شمال المدينة على طريق الحاج. مرآة الحرمين ١٠٩/٢

فزت حيّاً وميّتاً برضاء الد — سه ربّي وبرك الوالدين
 كنت برّاً بالوالدين وصولاً — لذوي الرحم ذا جمال وزين
 وقرأت القرآن فازددت حسناً — وكمالاً ففزت بالحسنين^(١)

أما القصيدة الثانية ففي رثاء ابنه أحمد الذي يتبين من القصيدة أنه مات قبل الابن السابق بعد أن بلغ مبلغ الرجال فضلاً وعلماً، حيث أنه كان كأبيه فهو يفوقه علماً بل يفوق جميع أقرانه.

يقول:

النار في كبدي والدمع منهمل — لعظم خطب له الأحزان تتصل
 لا الدمع يطفئ نار الحزن من كبدي — ولا بحرّ لظاها ينشف البلل
 مصيبة عظمت حتى لقد صدعت — قلبي فأصبح عقلي وهو منذهل
 وفاة أحمد أولادي وأسعدهم — من كان لله بالأسحار يتهل
 بجل يفوق أباه في معارفه — بل كلّ أقرانه عن علمه نزلوا
 قد كان من قبله اخوانه فعلوا — لكنهم لشهاب الدين لم يصلوا
 فالله يجبرني فيما أصبت به — إليه أشكو وأدعوه وابتهل
 فالله يرحمه فضلاً ويكرمه — في عدنه وله الرضوان والحلل^(٢)

(١) - تحفة الدهر ٥٢.

(٢) - المرجع السابق ٥٢

وكذلك رثى أحمد بن محمد سعيد سفر^(١) الشاعر عليّ أبو العزم^(٢) يذكر فيها أن فراق أحمد المذكور هو فراق للحبيب الصديق الذي أسرع للقاء ربّه وقد ادّخر لهذا اللقاء التقى وزاد الآخرة، ثم يصف بعد ذلك حالته ومدى ما أصابه من الحزن لفقد المذكور، ثم يختتم الأبيات بذكر صفاته ومناقبه.

يقول:

ظعنوا أحبائي وقلبي أودعوا	حرقاً ألا فابكوا لذلك أو دَعُوا
مافرة الأحباب سهل أمرها	بل هي أعظم محنة تتوقّع
عزموا على السفر الطويل وإنهم	يوماً إلى دار البقالن يرجعوا
فلذلك ادّخروا التقى وتزوّدوا	منها وساروا آمنين وأسرعوا
عن ساعة التوديع غبت لأنني	أصبحت مكلوماً فماذا أصنع
كيف المعاش يلذ لي من بعدهم	أم كيف عين لاتراهم تهجع
أبكي وأمسح عن دموعي كأنما	والعين إن ملئت تفيض وتدمع
ما أشتكي فقداهم عن خاطري	ولفقدتهم عن ناظري أتوجّع

(١) - سبقت ترجمته ص ١٣١

(٢) - هو علي بن عثمان بن عبدالله بن عبدالرحمن العادلي ، من بيت يقال لهم بيت أبي العزم، قال عنه الأنصاري (كان من أحسن الرجال أهل الكمال، وكان يقول الشعر بأحسن ما يسمع) توفي سنة ١١٩٤ هـ ، تحفة المحيين

أواه يا أسفاً عليهم مثل ما
 فلبعدهم يا وحشتي ولطالما
 لم لا يموت المستهام صابرة
 رزؤ به هدم السرور على الوري
 يوماً خدين الودّ عناقداً نأى
 نزل الحمام على حمام كان في
 هو أحمد الأفعال فينا مثل ما
 شبُّ نجيب كان أفنى عمره
 ألف الصباح وكان شيمته الوفا
 في ليله ونهاره متفرغ
 كتنا بهم في دهرنا نتمتع
 من بعدهم كأس العنا نتجرع
 وفؤاده يوم السنوى يتقطع
 ومصيبة عظمت وخطب مفتح
 واستوحشت مذ غاب عنها الأربع
 حرم بتلقيط الفوائد يولع
 هو أحمد الأسماء كان وأرفع
 في الباقيات الصالحات يجمع
 والحلم طبع فيه مذهب يرضع
 للعلم ما وقت عليه مضيع^(١)

ويذكر البيهقي في ديوانه رسالة كتبها لأحمد بن يحيى الأزهرى^(٢)
 معزياً في ابنه ومعتذراً عن ذنب توهمه منه، وبعثها إليه بمكة سنة
 ١١٥٣هـ حيث يبدوها بمقدمة نثرية ثم يذكر بعدها هذه الأبيات :

(١) - تحفة الدهر ٤٠

(٢) - هو أحمد بن يحيى الأزهرى ، ولد بالمدينة سنة ١١٠٣هـ ونشأ بها، طلب
 العلم فأخذ عن أحمد المدرس والشيخ عبدالله البصري وغيره، كان إماماً
 خطيباً بالمسجد النبوي، تولى نيابة القضاء سنة ١١٤٧هـ، توفي بالطائف
 سنة ١١٦٢هـ . تحفة المحبين ص ٦٧ تراجم أعيان المدينة ص ٧٠.

ولو لم يكن ذكر العزاء مجدداً
لقلدت أعناق الحمام مراثيا
إذا طرقت سمع البليد بكى لها
يوذّ وداداً لو يموت معجلاً
ولكنني أختار توفير ما بقي
من الرmq المكدود بالهمّ والبرح

ثم يرجع إلى النثر ليعتذر عن الذنب الذي أغضب الأزهري عليه ثم
يختتم الرسالة بقصيدة تقع في واحد وسبعين بيتاً بين الاعتذار والتعزية
والرثاء، نذكر منها ما يخصّ هذا المبحث وهو شعر الرثاء ، يقول في
مستهلّها:

خذ أسوة لك بالآباء في النوب
ثم ينتقل إلى الرثاء فيقول:

وبئس ما تحمل الركبان من نأ
غداة قيل سعيد الأزهريّ قضى
وقلما ينخب الأصل العريق فتى
استوهب الله رضواناً ومغفرة
وليس يعذل باك إن بكى حزنا
ومنها:

فمن مبلغ ما أمليه من حرق
تسري بهنّ مع الركبان والنجب

عن الصديق حديث الويل والحرب
وأسلمته يد الأقدار للعبط
وللمنايا تراه غير منتخب
له وجبراً لكسر غير منشعب
قسيمه عنصراً في دوحة النسب

إلى الأعزّ بن يحيى كي يطالع ما
تسلياً وعزاء من أخي ثقة
يقول إن جميل الصبر مكرمة
إذا لبست جميل الصبر مدرّعاً
فعاضك الله فيمن أنت فاقده
ولا خلا الدمع من دمع يساجله
حتى تعود الروابي روضة أنفأ^(٢)
وينزل الورق فيها لي أطارحه
فها كها من مراثي الود صادرة
شحنته في بطون الصحف والكتب
وقربة بين أيدي الود من قربي
يا ابن الكرام ووصف قط لم يعب
به لدهرك لم تحتج إلى اليلب^(١)
خيراً وبارك في الباقيين والعقب
سقياً لترب قصي الدار مغترب
من الأباطح غب الوبل والسحب
شجوي فيمليه في الأغصان والعذب
طبعاً وماصدرت بالكدّ والتعب

وهكذا يفتخر - كعادته - في نهاية أكثر قصائده بشاعريته، ثم يحتتم

القصيدة بطلب غفران الزلّة وعودة الودّ القديم .

خذها إليك على علاّتها فلها
مرثية قام قسّ في عكاظ بها
أحلى وأعذب للمحزون تطربه
ميدان جرول في الأرقال والخب^(٣)
يمليها خاطباً في مجمع العرب
نعوتها من نعوث الشجر والشنب

(١) - أنف : منبته . لسان العرب (أنف)

(٢) - اليلب: الدرّوع . لسان العرب (يلب)

(٣) - جرول: اسم الحطيئة الشاعر المعروف . والارقال: سرعة سير الإبل

والخب : السرعة . لسان العرب (رقل) ، (خب)

جاءتك من واردٍ منّي أرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد^(١) العرب
فاجعل فداءك عود الود ثانية واغفر لمقتحم الزلات مرتكب^(٢)
وننتقل من رثاء الآباء لأبنائهم إلى رثاء الأبناء لأبائهم ، فهذا حسن
بن عبدالكريم البرزنجي^(٣) يرثي والده عبدالكريم الذي قتل بجدّة وسماه
الناس -فيما بعد- بالمظلوم، والذي أكثر الشعراء في رثائه (منهم جعفر
البيتي كما أسلفنا) ، وحسن ابنه هذا رثاه وهو يتوقع أن ينتهي إلى
نفس المصير حيث أنه مات -فيما بعد- بالطاعون مختفياً بمصر، وذلك
بعد فتنة العهد سنة ١١٣٤هـ ، والقصيدة طويلة تقع في مائة وستة
عشر بيتاً، نختار مقاطعاً منها مما يتصل بالرثاء فهو يبحث عن رجل فهم
درّاك، ذي علم وحكمة ليخبره بموت والده الذي اصطفاه الله وأخذه
إلى جواره، ثم أنه سيكون جاراً للرسول ﷺ بعد مماته كما كان في
حياته.

يقول:

ألا فهم درّاك علم وحكمة يفكّر فيما انتحيه وينظر
ألا أذن تصغي إليّ سماعة لأملأ سرّاً في الخواتم يبهر
ألا إنما حال الختام مبين لسابق حكم في الغيوب ومظهر

(١) - الخريدة من النساء : البكر التي لم تمس قط . لسان العرب (خرد).

(٢) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٦٦ .

(٣) - سبقت ترجمته ص ٨١

تخص بما قد يصطفيه وتحصر
فذاك الذي يحظى ويرقى ويؤجر
تزف إليه بالهنا وتحبّر
وتهدى له خلع القبول وتنشر
قديماً له جاراً مجاراً يوفر

ألا إن ذاك السر محض عناية
ألا من غدا جار الإله بمحنة
وذاك الذي يلقي الأمانى عرائسا
وذاك الذي يلقي الكرامة والحبا
يكون غداً جار الحبيب كما مضى

ثم يبشر والده بالجنة ، ويعدّ صفاته ومناقبه فيقول:

فبشراك جنّات وحوار وأنهر
وأنت له عبد فنزلك تكثر
إلى مسجد فيه الأجور تكرر
تؤم بقوم للعبادة يسّروا
لوعظ بصدق قد تحلاه منبر
تمرّغ فيه وجنّة وتعفّر
فطبت وطابت مغرساً عنك تؤثر
ومسكنة تبدو عليك وتظهر
وحسن ظنون تقتفيها وتضمّر
وضاع له عرف من الروض أعطر

فيا ابن رسول جاءنا ببشائر
طرقت كريماً سيّداً خير منزل
لقد كنت مشاءً مدى العمر جاهداً
تبادر فيه بالهجير وبالمسا
وترتاح في يوم العروبة^(١) ناشطاً
وتسعى لباب مانع الجار والحمى
وكم منحة هنئت برد زلالها
فصفح وعفو في سلامة باطن
وصبر وتسليم تواضع جانب
إلى نسب ضاءت شمس جماله

(١) - يوم العروبة : يوم الجمعة . لسان العرب (عرب)

ثم يسترسل في ذكر مناقبه وينفي عنه اقترافه لذنوبه لئلا يوجب قتله
بجدّة مظلوماً، ثم يهنئ أهل جدّة بجوارهم لقبره ، فيقول:

تخاشيت عن هذا وذاك وإنّما	مراد إله العرش يمضي ويقهر
ليهلك جان عن بيان وحجّة	ويسعد فان بامتحان فيؤجر
ودونك مظلوماً شهيداً بجدّة	يضمّكها مجدداً عصام ومفخر
وأنت له رداء وردف حواكما	بأمكما حوا جواراً ومقبر
وكل غريب للغريب مناسب	وكل شريف بالشريف مؤزر ^(١)

هذا ، فبالرغم من محدودية شعر الرثاء في هذا القرن مقارنة
بالأغراض الأخرى، إلا إنه شعر صادق أصيل لم يتكلفه شعراؤه ، وهو
شعر انتجوه تحت وطأة الحزن والتأثر بفقد الأحبة، فتدفقت له المشاعر
المتأججة.

(١) - نفثة مصدر ٣٥

الفصل الخامس / المطولات الشعرية:

سبق وأن تحدثنا عن الفتن الواقعة في المدينة عند الحديث عن الحالة السياسية في القرن الثاني عشر الهجري، والتي لم يقف شعراء المدينة أمامها موقف المتفرج بل انبروا واصفين لهذه الحوادث والمصادمات الدامية وصفاً دقيقاً، ذاكرين أسبابها المباشرة وغير المباشرة، مسجلين بداية الفتنة وتطوراتها، مذكرين بجرمة هذا البلد الطاهر وخاصة مسجد المصطفى ﷺ الذي كانت روضته وجوار قبره ميداناً لهذه الحوادث في بعض الأحيان، فكان الرمي بالبنادق وترويع المصلين داخل المسجد وفوق منائره.

كان نتاج هؤلاء الشعراء في وصف هذه الفتن من الكثرة والتميز والوضوح وطول القصائد مكوناً ظاهرة فريدة ومتميزة في هذا القرن، مما حدا ببعض المؤرخين والدارسين للأدب في هذه الفترة بالكتابة عنه بصورة مستقلة.

فهذا الأديب المحقق عبيد مدني^(١) يجعل بعض هذه القصائد موضوعاً

(١) - هو عبيد الله بن عبدالله مدني، مؤرخ للمدينة المنورة، عاصر العهود الثلاثة العثمانية والهاشمي والسعودي، ولد في المدينة سنة ١٣٢٤هـ وتعلم فيها، تقلد وظائف حكومية وله شعر وهو أخو أمين مدني أول رئيس تحرير لجريدة المدينة، والذي سميت باسمه الجائزة السنوية المعروفة في مجال البحث في تاريخ

لبحثه الذي قدمه للمؤتمر الأول للأدباء السعوديين سنة ١٣٩٤هـ، حيث اعتبر هذه الظاهرة شعاعاً في الظلمة التي كانت تحيق بالبلاد العربية وأنها (تستحق الدراسة، فقد جنح هؤلاء الشعراء إلى تسجيل كبريات الأحداث التي كانت تقع في المدينة المنورة في قصائد مطولة يلتزمون فيها بجزراً واحداً وقافية واحدة، وتتسم بالإيضاح والشمول حتى إنك تستطيع بكل سهولة ويسر أن تلم بكل حادثة منها بعد قراءة القصيدة الموضوعية فيها كأنك تقرأ قصتها نثراً فتعلم دوافعها ومثيرها وتطوراتها وعقاييلها وتاريخ وقوعها بالسنة والشهر، ومدّة مكثها، فهي إذاً ملاحم قائمة بذاتها ولكل حادثة قصيدة مستقلة أو قصائد إذا تعدد الشعراء في وصفها)^(١)

وبعد أن وصف عبيد مدني هذا الشعر وسماه بالشعر الملحمي استعرض معنى كلمة (الملحمة) لمعرفة مدى انطباقها على هذا الشعر، فاستعرض المصطلح في معاجم اللغة بدءاً بابن فارس فابن منظور فالزبيدي، ثم انتقل إلى الحديث عن الملحمة في آداب الأمم الأخرى،

الجزيرة العربية، ولعبيد الله مدني عدّة مؤلفات في تاريخ المدينة ومعالمها وديوان شعر، توفي سنة ١٣٩٦هـ . ذيل الأعلام - أحمد العلاونة ص ٤٧، ١٣٦، ملحق الأربعاء في جريدة المدينة ٢٠/١١/١٤١٨هـ.

(١) - بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين (شعراء المدينة والشعر الملحمي - لعبيد مدني) المجلد الثاني ص ٧٢٤.

ثم إلى الحديث عن آراء المستشرقين والكتاب العرب في العصر الحديث، حيث ذكر أسماء بعض النماذج الشعرية والنثرية في الأدب العربي ليؤكد بها وجود الملحمة في الشعر العربي، ليقرر في نهاية حديثه أن دعوى خلو الأدب العربي القديم منظومه ومنثوره من الملحمة والقصص دعوى متداعية يقوِّضها الواقع.^(١)

ثم جاء الدكتور عاصم حمدان مؤيداً هذه التسمية عند عبيد مدني وذلك في كتابه (المدينة بين الأدب والتاريخ) حيث تحدث عن ثلاث قصائد للشاعر جعفر البيتي اختار إحداها كنموذج للدارسة الفنية على قصيدة الملحمة في القرن الثاني عشر.

وقد استعرض كذلك مصطلح الملحمة وبدايات استعماله في تاريخ الأدب العربي، وصلة هذا المصطلح بمفهوم الشعر الملحمي في ثقافات الأمم الأخرى وتعريف هذه الكلمة في معاجم اللغة، ثم ينتقل إلى استعراض آراء النقاد العرب والمستشرقين في وجود الملحمة في الأدب العربي من عدمه، ثم يخرج مؤيداً لوجودها في هذا الأدب كما يرى.^(٢) ولكن الدكتور محمد غنيمي هلال يرى أنه (لم يعرف العرب هذه الملاحم في لغتهم الأدبية، ولكن وجدت في لغة العامة ملاحم شعبية

(١) - بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين المجلد الثاني ص ٧٢٤ وما بعدها.

(٢) - المدينة بين الأدب والتاريخ د. عاصم حمدان ص ١٣ وما بعدها.

أخذت موضوعاتها عن العرب القدامى وسير أبطالهم، وصيغت مع ذلك باللغة العامية في العصور الوسطى، كملحمة (الزير سالم) وهي مأخوذة عن قصة (مهلهل بن ربيعة) في حرب البسوس، وملحمة (أبي زيد الهلالي) و (الظاهر بيبرس) ولكن الدكتور غنيمي يرى أن هذا النوع من الملاحم الشعبية لم يرق إلى المكانة الأدبية، ولذا لا تدرس بالرغم مما لدراستها من قيمة اجتماعية ودلالة شعبية.^(١)

ويعرف الدكتور محمد غنيمي هلال الملحمة بعد أن ذكر أنها من أجناس الشعر عند اليونان، فهي (قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التي تبوؤهم منزلة الخلود بين أبناء وطنهم، ويلعب الخيال دوراً كبيراً، إذ تحكى على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال، وما به سموا عن الناس، وعنصر القصة واضح في الملحمة، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التي يستلزمها تسلسل الأحداث، ولكل ملحمة أصل تاريخي صدرت عنه بعد أن حرفت تحريفاً يتفق وجو الخيال في الملحمة، وهي محيكة (?) لشعب يخلط بين الحقيقة والتاريخ ما يسيغ أن تحدث حوارات العادات، وأن يتراءى الإنس والجن والآلهة، والأبطال فيها يمثلون جنسهم وعصرهم

(١) - الأدب المقارن محمد غنيمي هلال ص ١٤٣

ومدنيتهم^(١)

وبهذا نرى أن هذه القصائد التي تصف الفتن في هذا القرن لا تدخل تحت هذا التعريف للملحمة، حيث أنه لا يوجد بطل يتحدث عنه القصيدة أو بطولات خارقة خيالية، بل إن هذه القصائد تتحدث بكل واقعية عن أحداث عايشها الناس، ولا يتعد الشاعر فيما يذكر من تفاصيل الأحداث عمّا حصل في الواقع.

وقصيدة الملحمة تتحدث عن صدام بين أمتين مختلفتين، أما هنا فاقتال لا يعدو كونه فتنة بين أبناء مدينة واحدة، تتحكم فيه -غالبا- مصالح شخصية.

وسنستعرض فيما يلي نماذج من هذه القصائد لكي نقرب منها بشكل أكبر، وسيكون لهذا الحديث عن هذه المطولات بقية بعد أن يقف القارئ على هذه النماذج.

أول ما واجهنا -حسب المصادر- من هذه القصائد من هذا النوع

(١) - النقد الأدبي الحديث محمد غنيمي هلال ص ٩٠.

- الأدب المقارن محمد غنيمي هلال ص ١٤٣

في هذا القرن قصيدة لجعفر البيتي يصف فيها فتنة العهد^(١) الواقعة سنة ١١٣٤هـ، وتقع في أكثر من تسعين بيتاً، يستهلها بمقدمة حماسية يتحدث فيها عن المجد والطرق الموصلة إليه، ويؤكد أن حياة الذل حياة لاخير فيها، بل إن العز هو الأجل والأليق بأولي النهى والشيم، ويظهر لنا في مقدمة القصيدة مدى انتشاء الشاعر بهذا النصر، حيث الأبيات القوية تعكس اعتداد الشاعر بهذا الفوز الذي انطقه بهذه الأبيات التي تظهر فيها روح الأصالة البعيدة عن التكلف والتقليد.

يقول الشاعر^(٢):

المجد تحت ظلال سمر الذبل^(٣) وظبا^(٤) القواضب والجياد القفل^(٥)
الموريات العاديات ضواجا الصافنات النافرات الجفل
والخوض في غمرات بطنان النوى يوم التصادم في القتام المسبل
وتواتر العزمات في طلب العلا والفوز في أقصى فيافي الهوجل^(٦)
والفخر ما ترك الأعادي خشعا رفل المحازم كالجبان الأعزل

(١) - سبق الحديث عنها ص ٣٢

(٢) - ديوان البيتي نسخة آل الصافي ١٣١ ، الفلك المشحون ١٧٤

(٣) - يقال : رمح ذابل : دقيق ، والجمع ذبّل . المعجم الوسيط (ذبّل) .

(٤) - ظبة السيف : حدّه . لسان العرب (ظبا)

(٥) - يقال: قفل الفرس أي: ضمّر. المعجم الوسيط (قفل)

(٦) - الهوجل: الأرض التي لا معالم بها. لسان العرب (هوجل)

بين القنا وورود أحواض الردى لقو العلاقم في تراقي الحوصل
لاعاش من ترضى المذلة نفسه طوعاً وعن شأو المفاخر يأتي
تعست حياة لاتشاب بعزة غرباء بين مهابة وتذل
العز أجمل ما اقتناه أولي النهي والذل بالأحرار ليس بمجمل

نلاحظ في الأبيات السابقة الصبغة الدينية والتأثر بالقرآن الكريم حيث
يستخدم الشاعر في وصفه للخيل بعض الصفات التي وردت في القرآن
الكريم (الموريات، العاديات، ضبحا، الصافنات)

ثم بعد الحديث عن المجد و حياة العز والافتخار بهذا النصر الجماعي،
ينتقل البيتي ليحصر هذه المعاني في رجل واحد رأى فيه النموذج الذي
قد يحقق للمدينة آمالها وتطلعاتها، وهو محمد أبو العزم^(١) الذي اختاره
أهل المدينة ليكون شيخاً لهم، وقد امتدحه البيتي فوصفه بالسيد المهام
صاحب الشرف والأخلاق التي تجعله قمينا بتولي هذه المشيخة. يقول:

من شاء إدراك المعاني فليكن مثل المهام الأجد بن الأفضل

(١) - هو محمد بن علي بن عبدالرحمن العادلي الحسيني من بيت يقال لهم بيت
أبي العزم، قال عنه الأنصاري (كان رجلاً مباركاً شَيْخَهُ أهل العهد الواقع
بالمدينة سنة ١١٣٤هـ، فصار له صيت عظيم، فورد الفرمان (الأمر
السلطاني) فيه وفي جماعة العهد الذين كانوا معه فستره الله بالموت قبل الأمر
بقليل، توفي سنة ١١٣٦هـ. تحفة المحبين ص ٣٥٧.

السيد الزين الشريف محمد ذو العزم سبط المصطفى والمرسل
وابن الكرام الطيبين أرومة أهل الكساء^(١) الطاهرين الكمّل
والحازم المقدام دحاض الردى دون العباد بسيفه والمقول
لاغرو فهي سحجية مودوعة فيه وشنشنة لأخزم من علي^(٢)

وبعد امتداح البيتي لأبي العزم ينتقل إلى ذكر فعاله وما كابده من أجل
لم الشمل والدفاع عن المدينة التي تغافل الحكام عنها وتركوها عرضة
للغارات والقتال، يقول:

ما زال ينكر في المدينة منكرًا من مرجف أو مفسد أو مخذل
وتغلب العربان في أطرافها من كل ناحية وبغي بني علي^(٣)

(١) - أهل الكساء هم علي وفاطمة والحسن والحسين، وذلك نسبة إلى الحديث

الذي يروى عن أم سلمة أن النبي ﷺ أدار كساءه عليهم لما نزلت الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً). مسند أحمد (٣٣١/١)، الترمذي رقم (٣٧٨٦، ٣٢٠٥)، مستدرک الحاكم (١٤٦/٣).

(٢) - الشنشنة: الطبيعة والسحجية، وفي المثل (شنشنة أعرفها من أخزم) أراد الشاعر هنا أن هذه الصفات الكريمة في الممدوح ليست بمستغربة حيث أنه استمدّها من جدّه الذي ينتسب إليه وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) - بنو علي، قسم من مسروح من قبيلة حرب، وقد انتقل معظمهم إلى نجد في أطرافه الشرقية، ولاتزال بطون عديدة منهم تسكن حول المدينة وهي

وتغافل الحكام عمّا أبصروا
حتى أتى الفرج القريب وساعدت
فاستنهضوا الأبطال من أنصاره
يهوى إلى نهب النفوس بهمة
فتعاهدوا في الدين أن يتناصروا
وحموا حماهم والديار عن العدا
فتذلت لهم البوادي عنوة
ولطالما قاسوا ليالي العسر من
يمسون في حفظ المنافق كمنا
فهم الرجال وما سواهم نسوة
لم يتركوا من زيهن سوى الحلي

ثم بعد ذكر الأحوال العامة للمدينة والمصاعب التي تواجه هذا
المدوح وجماعته يذكر الشاعر الأسباب الخاصة لهذه الفتنة وهو
نقض عهد أبرم - فيما سبق - للقضاء على هذه الخلافات
والمصادمات، فيقول:

فتشاور الفساق فيما بينهم
فجرت هنالك هدة يرقى إلى
أن ينقضوا ما أبرموه بمبطل
أفق السماء عجاجها بل يأتلي

ديارهم الأصلية. نسب حرب لعاتق بن غيب البلادي ص ٥٤.

(١) - الأجدل : الصقر، واسم فرس أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. لسان

العرب (جدل)

وطغت عليهم بعد ذلك عصابة ال
والأصل في ذا أنهم قد ركزوا
منعوه أرباب الوجاق^(٤) جميعهم
زعموا بأن له فساداً سابقاً
فترافعوا للشرع وانكشف الغطا
نزلوا وألقوا في المعادين الظبا
فتفازعت لهم الرجال أخف من
ورد السهام إلى وتين الكلكل^(٥)

وبعد أن حمل الأغوات المسؤولية كاملة عن قيام هذه الفتنة يبدأ في وصف أحداث هذه الفتنة حيث اطلاق النار الذي استمر طيلة اليوم وعدم استجابة الأغوات لدعوة أهل المدينة لهم ليتراجعوا عن ذلك، مما حدا بأهل المدينة إلى الاتفاق على اهدار دم هؤلاء المقاتلين، فزاد القتال حدة بين الفريقين وحمي

(١) - علي قنا رجل من توابع الأغوات أراد أن يدخل في العسكرية، فامتنع من ادخاله كبار العسكر، حيث أنه كان في العسكرية فوقعت منه خيانة وأخرج منها فلا يعاد، وقال أغوات الحرم لا بد من ادخاله، وطال النزاع واتسع الأمر حتى آل إلى الفتنة المذكورة. الأخبار الغربية ص ٩.

(٢) - الحسكل : الصغير من كل شيء ، أو الرديء من كل شيء . لسان العرب، القاموس المحيط (حسكل).

(٣) - الوجاق : كلمة تركية الأصل معناها (الموقد)، ثم أطلقت على الطائفة من الجند.

(٤) - الكلكل: الصدر . لسان العرب (كلل).

(٥) - الأغوات : جمع آغا، وهي كلمة تركية تعني في الأصل رئيس أو سيد.

الوطيس، وهنا تتصاعد انفعالات الشاعر وتشتد لهجته ويحاول أن يستمر جميع أدواته الشعرية لوصف تلك الواقعة الشديدة المرّة التي كأنها يوم من أيام البسوس، يقول:

ورموا على الناس الرصاص وما رعوا جاء النبي ولا الكتاب المنزل
وأقام ذلك إلى الغروب وأصبحوا متحصنين بحلية المستقبل
فدعوا إلى أن يرجعوا فتعصبوا وأتوا بفعل منكر لم يفعل
فقضي عليهم أن أن تباح دماؤهم هدراً لحد المرهفات الفصّل
وتوافق الجمهور قولاً واحداً والنص في طغيانهم نص جلي
فتبادرت لهم الرجال عوابساً من كل فحل بالثياب مسربل
ومشت إلى ذروان^(١) منهم فرقة فتحصنوا الحمام منه وما يلي
فهناك صبت للمنون صواعاً وتسعرت للموت نار القسطل^(٢)
يوماً أشد من الحديد قساوة وأمرّ طعماً من مذاق الحنظل
ترك النواصي شيئاً فكأنه وقعات جساس^(٣) بقوم مهلهل^(٤)

(١) - ذروان: اسم موضع جنوب المسجد النبوي . وفاء الوفاء ١٢١٤/٢ .

(٢) - القسطل: الغبار الساطع. لسان العرب (قسطل).

(٣) - هو جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل، وهو قاتل كليب بن ربيعة، وكان ذلك سبباً لنشوب حرب البسوس بين بكر وتغلب التي قُتل جساس في آخرها. الأغاني ١٦٧٨/٥، ١٧٠٥ .

(٤) - هو عدي بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ابن بكر ابن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، لقب مهلهل لطيب شعره ورقته، وقيل إنه أول من قصد القصائد وقال في الغزل، وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي،

نقبوا عليهم كل دار عنوة واستخرجوهم منزلاً عن منزل
وتداركوهم بالردى فتفجرت أحشاؤهم مثل انفجار الدممل

ثم يخفف الشاعر من تسارع أنفاسه ليصف هؤلاء القوم بعد هزيمتهم
واستسلامهم والقبض على رؤوسهم ليرفع فيهم عرضاً لشريف مكة
ليرى رأيه فيهم، والذي يتوقع أنه سيتأثر لهذا الأمر وتأخذه الحمية لما
أصاب مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يقول:

فتصاغرت أرواحهم لما رأوا وجرت دماؤهم كجري الجدول
وتحققوا الموت الزؤام^(١) وسلموا للأمر طوعاً خضغاً بتدلل
فأشار قاضي الشرع كفوا إنهم جنحوا لسلمكم بغير تفعل
فأطاع من منا جميعاً قوله إذ حيث كان أولاك عنه بمعزل
وتدراكوا الخطب الجليل بحبس من قد كان رأساً للفساد الأول
النائب الجاني ومسعود^(٢) الذي جعل المفاسد سنة لم تجعل
وبلال عنبر^(٣) رأس كل مصيبة حسبكت عليهم غمة لاتنجلي
وتلاههم عبداللطيف فاسجنوا وهووا إلى درك الجحيم الأسفل
ومشت عروض الناس فيهم جملة

ولما قتل حساس بن مرة كلياً ثار أخوه المهلهل فكانت وقائع بكر وتغلب.

الأغاني ١٦٧٨/٥، ١٧٠١.

(١) - الزؤام : العاجل. لسان العرب (زأم).

(٢)، (٣) - يظهر أنهم ممن كان لهم دور في الأحداث ، ولم أقف على تراجم لهم.

فاهتال منهم وابتغى احضارهم
 ليبين بالاجماع كل مغمم
 وتكون حجتهم هناك قوية
 تأتي إلى السلطان قولاً مثبثاً
 فاستمثلوا للأمر إذ هو واجب
 فإذا أتوه وحققوا ما أخبروا
 فلسوف تأخذه هناك حمية
 هم والخصوم مع الشهود العدل
 رغماً على أنف العدو المبطل
 غراء لم تدحض ولم تتزلزل
 أيضاً ويحملها بأحسن حمل
 ومشوا جميعاً نحوه بتدلل
 عنه وصح القول غير تقول
 فينا بغير تهاون وتمهل

وقبل أن يختم البيتي قصيدته يتوجه بالخطاب لشريف مكة ويطلب منه
 أن يهبّ لوضع حد لهذه الفتن، حيث أنه مسئول عن هذه الرعية التي
 سوف يسأله الله عنها، كما أنه ينتسب إلى الرسول ﷺ فمن الأولى أن
 يغار لمدينة جدّه.

ثم يختم القصيدة بطمأننة أهل المدينة بأن الله سيخزي من يريدهم
 بسوء، لينهي القصيدة بالصلاة على النبي وصحابته وأهل بيته.
 يقول:

يا أيها المولى تدارك كربنا
 فلك البلاد مع العباد وأمرهم
 تأتي ويسألك المهيمن عنهم
 فالغوث ثم الغوث إنك كهفنا
 إن المدينة حل فيها منكر
 فلأنت أولى الناس حقاً غيره
 بالغوث منك وغارة المستعجل
 وهم إليكم نسبة كالعيل
 عن كل فعل مجمل ومفصل
 نأوي له من كل أمر معضل
 لا يرتضى والجور فيها قد ملي
 فافعل إذا ما شئت أولاً تفعل

شرفاً وغيرك من مناقبه خلي
 رجفوه بالقول الفظيع المشكل
 متوجع من فعلهم يتململ
 مأوى البغاة وكل وغد مبطل
 تبدو لغير المبصر المتأمل
 إلا لمشي القانت المتبتل
 غضبا وطرف جامد لا يهمل
 في الله بالحق المسبين المنجلي
 شعواء لم تبرح ولم تتحول
 ولكن ذاك الأمر لم يتحصل
 للحق سَمَّال لعدو المبطل
 متسر بلين بنعمه لا تبذل
 حقاً وإن الله ليس بمهمل
 قول المعنف والجبان المفشل
 أو شدة أو بعض أمر معضل
 خير الورى المدثر المزمحل
 نشر العبير مع النسيم الشمال
 الطاهرين الراشدين الكمّل
 المجد تحت ظلال سمر الذبل

ولأنت من بيت تقلس سره
 لو تسأل القبر الشريف غداتنا
 فأجاب أن محمداً في طيه
 حاشا لمختلف الملائك أن يرى
 الله أكبر إنها لمصيبة
 تا الله ما جعل المساجد معلماً
 أف لقلب مؤمن لا يمتلي
 فاصدع فما تأخذك لومة لائم
 لولا النبي أقام فيهم غارة
 ما أوقعتهم في الوبال نفوسهم
 لازلتم يا أهل طيبة نصرة
 في ظل أعتاب النبي وجاهه
 إن النبي له عليكم غيرة
 فامضوا على صدق العزائم وارفضوا
 إننا إذا أحننا علينا حادث
 فلنا اعتصام بالنبي وآله
 صلى عليه الله ما نشأ الربا
 وعلى بنيه والصحابة كلهم
 ما رجّع الحادي يقول محرضاً

وبالرغم من حداثة سن البيتي عندما قال هذه القصيدة إلا أننا نجد فيها قوة الشاعرية والقدرة على تطويع أبياتها للوصول إلى الغرض من نظمها وصياغة مشاعره بصورة تعبيرية توحى بمدى الألم والمعاناة التي يحس بها الشاعر تجاه هذه الأحداث، وما يكنه للطرف الآخر في النزاع، وقد نلمس شيئاً من تحامل الشاعر على خصومه إلا أنه بذلك يصف عاطفته وإحساسه بكل صدق وأمانة، فهو يصفهم منطلقاً من رؤيته الخاصة بعيداً عن الموضوعية، وأظن أنه من الصعب أن نطالبه بهذه الموضوعية، وهو ينحاز لفريق يؤمن بأن الحق معه ليرى في الفريق الآخر خصماً معادياً باغياً يخرج عن جميع الأعراف.

نستطيع أيضاً من خلال هذه القصيدة أن نقف على سعة أفق البيتي، فهو لا ينظر لهذه الفتنة في محيطها المحلي المحدود، بل يتعدى نظره إلى ولاية الأمر، فيرى أن الوضع في المدينة سيظل على هذه الوتيرة من الخلافات والصدامات إذا لم يتدخل شريف مكة وحاكمها ليضرب بيد من حديد على مثيري هذا الشغب، وليثبت للجميع أنه أهل للمسئولية وأنه قادر على البطش بمن يحاول العبث بأمن هذه المنطقة.

وللبيتي قصيدة أخرى من هذا النوع يصف فيها الفتنة الواقعة في المدينة سنة ١١٤٨ هـ، وهي القصيدة التي مطلعها:

قفوا تنظروا آثار ما فعل الظلم وجوسوا خلال الدار تنبيكم الأكم
ويخاطب البيتي في مقدمتها الشريف مسعود بن سعيد حاكم مكة

ويطلب منه الوقوف للنظر في آثار الظلم، ومن ثم يشتكي إليه لرفع هذا الظلم.

وكذلك ينظم البيتي قصيدة أخرى تحت تأثير فتنة ١١٥٥ هـ وهي القصيدة التي مطلعها:

بكى على الدار لما غاب حاميتها وجر حكامها فيها أعاديها
ويغلب على مقدمة هذه القصيدة الحزن والبكاء على حال المدينة ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن حيثيات الفتنة ليرفع الأمر والشكوى بعد ذلك إلى دار الخلافة في أستا نبول فيوجه النداء إلى سلاطين آل عثمان ويطلب منهم اليقظة وعدم الغفلة عن الرعية التي ناموا عنها حتى تفجرت مثل هذه الفتن.

ثم يذكر أن آل عثمان هم السبب الحقيقي وراء هذه الفتن حيث أنهم يعضون الطرف عن أناس يرى الشاعر أنهم سبب هذه الفتن، كما أن آل عثمان لم يولّوا على المدينة من يستطيع حكمها وحمايتها بل إنهم يولون عليها غرباء لا يعرفون ظروفها، كما أن الشاعر يأخذ عليهم عدم إعطاء الصلاحيات اللازمة لحاكم مكة، فصلاحياته محدودة وهو تحت الأمر والنهي، بل إن الأمور التي يعرضها على الدولة لا يأتيه الرد عليها إلا بعد سنة وأكثر، وذلك بعد أن يحدث في الأمور أمور.

ووصف الشاعر محمد سعيد سفر^(١) هذه الفتنة الواقعة سنة ١١٥٦ هـ بقصيدة تقع في مائة وواحد وستين بيتاً، استهلها بالبكاء على بلدة المختار والشكوى إلى الله من عظيم هذا المصاب، ثم يؤرخ هذا الحدث ليصوّر بعد ذلك هول هذه الفتنة حيث يراها فريدة الفتن في تاريخ الإسلام والمدينة لأنها استمرت أكثر من سبعة أشهر، ولحق الناس من جرائها بلاء عظيم. يقول:

على بلدة المختار يبكى ويندب	ويشكى إلى الله العظيم ويرغب
ويحزن مما قد أتاه من البلا	ويرهب مما حلّ فيها ويرعب
ويرثي لها ممن عراها عدوها	ويأنف من تلك الخطوب ويغضب
ووالله لو أن الجبال تصدعت	لما راعها حقت بل الأمر أصعب
ففي مائة من بعد ألف وستة	وخمسين أبدى الدهر ما منه يعجب
بدت فتنة عمياء فيها فأدهشت	أولي العقل واحترار الطبيب المحرّب
تموج كموج البحر في ظلمة الدجى	تظن شرابا وهي نار تلهّب
وتخدع ذا اللب السليم بمكرها	وتعبث بالحبر العليم وتلعب
وما جاء في الإسلام قطعاً نظيرها	ولا في قديم الدهر مذ كان يثرب
وإن كان قتل الشيخ ^(٢) أعظم فتنة	وهتك يزيد ^(٣) للمحارم أغرب

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٢) - يريد قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) - يريد وقعة الحرّة التي أرسلها يزيد، واستبيحت فيها المدينة النبوية لأول مرّة بجيش المسلمين.

ولكن هذي فتنة مستمرة
أقامت علينا فوق سبعة أشهر
وعمت بأنواع البلاء فمالها
وأعياء فرار الناس فيها فكل من
فما هي إلا ردة جاهلية
فليس لها بعد المطالع مغرب
وليس يرجي بعد أن سوف تذهب
طريق يظن الخير فيه فيركب
أراد النجاة منها تجر وتجذب
تسير إلى سرّ القلوب وتثقب

ويتوجه بعد ذلك إلى المولى عزوجل ليستعيد من شر هذه الفتنة ثم إلى
الرسول ﷺ ليشفع عند الله - كعادة القوم وفهمهم الخاطيء لهذا
الاستشفاع - لكشف هذه الأزمة ثم إلى السلطان محمود العثماني^(١)
والأشراف حكام مكة لنصرة أهل المدينة وإخماد هذه الفتنة، ثم يصف
هذه الفتنة وما ألحقته بالبلدة الطاهرة من دمار وترويع.
يقول:

فنسأل مولانا الكريم يعيدنا
ونرفع شكوانا إلى باب جوده
وندعو رسول الله في كل أزمة
وننهي إلى سلطاننا دام عدله
ونستنصر الأشراف من آل أحمد
على حرب الطاغين مع من أعانهم
وكل منيب من لظاها ونطلب
فذاك لنا عند الشدائد مهرب
ليشفع عند الله فهو المقرب
أبي الفتح محمود ونبدي ونعرب
فنصرهم للمستغيث مجرب
على حرب جيران النبي وحزبوا

(١) - سبقت ترجمته ص ١٨

سعيد ومسعود ماذا التجنب^(١)
 فقد حرق الأعراب فيها وخرّبوا
 فشرّق عنها ساكنوها وغرّبوا
 وأرجف فيها المفسدون وأرعبوا
 يذاع به علم ولا القسط ينصب
 وأعداء دين الله منه تقرب
 فمن جاء يسعى بالبنادق يحجب
 فمن رامهم بالرمي للكفر أقرب
 إخافة جيران النبي وأرهبوا
 ومن رامهم بالسوء فهو معذب
 ولم يئتموا بطش الإله ويرقبوا
 من المسجد الأعلى أحق وأوجب

فيالسنمي يالزيد ويا بني
 أغيثوا أغيثوا بادروا دار جدكم
 وجاسوا خلال الدور ينتهبونها
 فصارت خلاء وحشة بعد أنسها
 وعطلّ منها مسجد المصطفى فلا
 ومن عجب منع المصلي دخوله
 وأعجب من هذا أذان مؤذن
 وأعجب من هذين رميهم به
 أيرضى رسول الله ما ارتكبه من
 أخاف رسول الله من قد أخافهم
 فكم قتلوا منها بريئاً موحّدا
 فإن دماء المسلمين وعرضهم

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف الأغا وجماعته ويبيّن خطرهم إن تركوا
 على هذه الحالة ولم يتخذ حيالهم ما يردعهم، ثم يفنّد حجّتهم
 ومطالبهم. يقول:

ویرضی بذاك المنکر المتعصب
 تنجّسه هلا تزاح وتضرب
 وقد خالفوا الشرع الشريف وكذبوا
 فإن تركوا يستأصلوا كل مؤمن
 فحكمهم حكم الكلاب بمسجد
 يقولون جهلاً قد أطعنا أميرنا

(١) - أبو نمي وزيد من أجداد حكام مكة الذين يستصرخهم الشاعر.

وهم لولي الأمر أعصى وأكذب
ومن رد هذا القول فهو مكذب
لصالوا عليهم بالسيوف ونصّبوا
فجدّوا على تنفيذها وتعصّبوا
وإن كان لا يرضى فهم قد تغلّبوا
لأغراضهم والعقل منه مغيب
فهاهو ذا في ورطة الجهل ينشب
ويفسد أضعافاً لما منه يرهب
وهم منه أولى بالصواب وأصوب
فأيّهم بالنفي أولى وأنسب

ويبدون في فرط الخداع نصيحة
وليس لوالي في المعاصي إطاعة
وأقسم لو أن الأغاة عصاهم
ولكن أغراضاً لهم قد تحكمت
فإن كان يرضى فعلهم فهو مثلهم
بلى صار رهناً في يديهم موافقاً
فخالف أمر الله واتباع الهوى
يخاف حساباً عاجلاً دون أجل
ويطلب بالفرمان إخراج ستّة
حموا بلدة المختار وهو أباحها

ويستمر في هذا الوصف للأغا وجماعته ويذكر أنهم لم يرضوا بحكم
الشرع بل أصرّوا على الحرب والفتنة وانشقاق العصا، ثم يصف بعد
ذلك استمرار الفتنة فيقول:

أحاطوا بهم من كل وجه ونقبوا
عن المحصنات المؤمنات فأوجبوا
على دخن والأمر فيه مذذب
ويوفوهم كل الحقوق ويحسبوا
إلى مدّة معلومة فتغيّبوا
وقد باء هزاع بما كان يكسب
نفوهم بظلمٍ بغي حرب فاغضبوا

وشنّوا عليهم غارة جاهلية
فأدرّكهم لطف الإله فدافعوا
وحاول بعض الناس بالصلح بينهم
بأن يخرجوا منهم ثماني عشرة
فإن لم يوفوهم فلا صح بينهم
فلما مضت لم يسلموهم حقوقهم
وعاين أصحاب الحصار الذين قد

فجاؤوا بليل تحت قلعتهم فما
 فلما علوها كبروا فتصاغرت
 ولما حوى أهل الحصار حصارهم
 سعى بينهم بالصلح من هو ناصح
 وصرح بالمنع الأغاء وجنده
 وأرضوه بالمال الكثير فجاءهم
 ووافقهم عيد^(١) فجاء بجنده

مضت ساعة حتى علوا وتغلبوا
 قلوب الأعداء واستكانوا وأرعبوا
 وقد يئس الأحزاب منهم وخيَّبوا
 فسارع أصحاب الحصار وقربوا
 ولاذوا بهزاع وأغروا وأتَّبوا
 بجيش كجيش الفيل والله أغلب
 معيناً له والشر للشر يجلب

(١) - هو عيد بن بدوي بن أحمد بن رحمة من أسرة ابن مضيان من الظواهر من
 المراوحة من بني سالم من حرب، ورد ذكره في حوادث قبيلة حرب مع
 شريف مكة سنة ١١٥٥هـ، ثم أصبح لهذا الشيخ شهرة عظيمة بعد ذلك،
 حيث تسميه بعض المصادر التاريخية شيخ الحربية كافة، وذلك بعد أن
 اجتمعت عليه قبائل حرب وصار له مكانة كبيرة وقوة عظيمة، قُتل في
 معركة خاضها ضد قوة عسكرية بقيادة عبدالله باشا والي الشام (سنة ١١٧١هـ)

وآذوا إمام المرسلين وأغضبوا
 يغير عليها بالعدو ويجلب
 عصاه جميع المؤمنين وأذنبوا
 دليل على قتل العصاة فيعرب
 أخيفوا ومن رمى المدافع أرهبوا
 رمت حملها والخوف للكل متعب
 وجدّد فيها للخوارج منصب
 وأبعد منها المسلمون وجنّبوا
 ومن يبع ذا بغي فذاك المخيب
 ينال لديه كل خير ويجلب
 ويعزل منه من يشا وينصّب
 ومسعود المرضي في العدل يرغب
 فنحن بحول الله نعلو ونغلب
 سوى أنهم في الكفر حزب محزب
 تطير من الرعب الشديد وتهرب
 سوى أكل من جاؤوا بهم وتسبوا

فعاثوا بأنواع الفساد بطيبة
 فهل سمعت أذن بجاكم بلدة
 وهب أن منهم ستة قد عصوه هل
 وهب أنهم جمعا عصوه فهل له
 وماذنب أطفال صغار ونسوة
 فكم مرأة ماتت برعب وحامل
 وما بال دار المصطفى حين أخربت
 وولّي هزاع وعيد أمورها
 بغي نصر هزاع وقد طالما بغي
 فهلا دعا مولاه مسعود الذي
 ومن هو في قطر الحجاز مفوض
 ولكن هزاعاً إلى الجور مسرع
 فإن كان هزاع أتى بجنوده
 ألوف ولكن ليس فيهم شجاعة
 إذا قيل جاؤوكم تكاد قلوبهم
 فلم يظفروا من طيبة بمرادهم

وأسواقهم والله يحصي ويحسب
وهدم وحفر في البيوت لينهبوا
لخارجها إلا قليلاً فاتعبوا
وهمة قاضي الشرع والحق يغلب
ولكن حماها كل شهم مجرب
وقائد مولانا الشريف المهذب
وجوه الأعداي في التراب وتسحب
وقد ملؤوه بالجنود ورتبوا
وهل يعجزن الأسد كلب وثعلب
تحصن فيها أهلها وتجنبوا
فداروا حواليتها ومنها تقربوا
وكرّ عليهم كل ليث مذبذب
لشدة ما يخشى على البعض يركب
ومن على بعض وجمع مصوب
وما النصر إلا منه وهو المقلب
حماهم من السودان والكل محرب
على الفتح والمقدور عنهم يحجب
ومن حارب الله العظيم سيغلب

ونهب حبوب المسلمين ودورهم
وحرق بنار سوف يصلونها غداً^(١)
وقد ترك الناس المدينة وانتهاوا
فلولا رسول الله فيها وصحبه
لما حام فيها الطير من عظم بغيهم
أولئك أصحاب الحصار وأهلها
فكم وقعة فيها تحرّ لوقعها
فمنها بيت الزنج في يوم جمعة
فكر عليهم بالسيوف حماتها
ويوم أتوا فيه إلى القلعة التي
وقد عزموا أن يفتحوها بزعمهم
فما راعهم إلا وقد فتحت لهم
ففروا جميعاً كالجراد وبعضهم
وذبح منهم بعض عشرة فاجراً
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا
ثلاثة آلاف من البدو غير من
يغيرون من خمسين من بعد عزمهم
فهذا وبال البغي والظلم والأذى

(١) هذه الأحكام لاتصح

ثم يمتدح عزم الشريف حاكم مكة وهمته وحمايته للحرمين،
ولكنه مع ذلك عامل معارضية في المدينة بالحلم الذي لم يزداهم إلا
نفورا، ثم أرسل جنده إلى المدينة فرداهم هزاع شيخ قبيلة حرب عن
مقصداهم، ويستغرب من جرأة هزاع وقومه على منع جنود حاكم
مكة، ويستنهض الشريف مسعود إلى حربهم حيث أنه لا ينفذ مع
مثلهم الحلم، حيث أن هذا الحلم هو الذي أطمعهم في البغي وجعلهم
يتمادون في طغيانهم وصداهم للحجاج واستهانتهم بالسلطان وتحديهم
له ويؤكد له أن هؤلاء الناس لا يفهمون إلا لغة القوة والحرب، يقول:

وذلك بأنفاس الشريف وعزمه	وهمته فهو المهاب المحبب
هو الملك المرضي في الناس حكمه	وسيرته في العدل تتلى وتكتب
يحوط رعاياه برفق ورأفة	فما مثله في الرفق أم ولا أب
حمى الحرمين الأعظمين بسيفه	فدانت له أم القرى وهي أرحب
وعارضه في طيبة كل ظالم	فعاملهم بالحلم كي يتهدبوا
فما زادهم إلا نفورا وجرأة	على الله حتى حاربوا وتصلبوا
فأنهوا لهزاع ببرد جنوده	وفيهم بنو الهيجا معد ويعرب
ويقدمهم من آل زيد عصابة	وكلهم في حومة الحرب أشهب
فرداهم عن قصداهم بعد معرك	تحطم فيه السم والبيض تحضب
وذلك من جور الزمان وقهره	يچار له لب اللبيب ويعجب
أتعدوا أسود من لؤي بن غالب	فيمنعها كلب من البدو أجرب

وكم حكمة في الكون عنا تغيب
 كأخذه عاد أو ثمود فيذهبوا
 أبي النصر مسعود ليصفو مشرب
 فقد حاربت حرب وصدّوا وأجلبوا
 فما لم يذوقوا السيف لن يتأوّبوا
 ولكن ذيل الجهل والبغي يسحب
 شواهم بنار الحكم حتى تعذبوا
 دروا أن شؤم البغي للقتل يوجب
 خصوصاً علينا فاستطالوا واتعبوا
 ونحن نرى أن يقتلوا أو يصبوا
 لجيران خير الخلق أن يتغربوا
 مصائب منها الحر في الموت يرغب
 بلينا بحكام لحرب تقرب
 وذلك عن معلومكم ليس يعزب
 يصدونه عنا فلسنا نعيّب
 من الإثم والعدوان مالم يسب
 يجيء إلى هذي الجبال ويقرب
 وإن تمهلوهم للخلافة يطلبوا
 لهم في قبيح الكفر دين ومذهب

ولاعجب فالحكم لله وحده
 ولا بدع أن يستدرجوا ثم يؤخذوا
 فترجو لهم قتلاً سريعاً على يدي
 فيا ابن سعيد جد بنصر معجّل
 وصرح هزاع بإبطال حكمكم
 وما حدّه حتى يعارض حكمكم
 وقد كان من خدامكم أحمد الددا
 ولكن برّد الحلم جرّاهم وما
 ولما تمادى حلمكم زاد بغيهم
 فإن قتلوا منا أُطِلّت دماؤنا
 إلى غير هذا من مظالم أوجبت
 فإن لم يطيقوا حالفوهم فيا لها
 وما ذاك عن جبن بنا غير أننا
 ويعطونهم أموالنا لقتالنا
 إذا كان جيش منكم جاء مصلحاً
 وكم قبله صدّوا الحجيج وكم أتوا
 يقولون ما السلطان لو كان قادراً
 فلم يبق إلا دعوة الملك فوقنا
 فبادر حماك الله في قتل عصابة

فمثلك من يدعى لكل ملمة
وسر بجنود النصر قاصد طيبة
فليس لها يا ابن الكرام سواكم
فلازلت مقصوداً لكل عظيمة
عليك صلاة الله في كل لحظة
ومثلك من يرجى إذا عزّ مطلب
فيلقاك بالإقبال سهل ومرحب
لفصل قضاء بيننا يترقب
ولازلت مسعوداً وفألك طيب
وإخوانك السادات ما انهلّ صيب^(١)

وتستمر الفتن في هذا القرن فيستمر الشعراء في نظم قصائدهم، فهذه فتنة سنة ١١٨٩هـ والمسمّاة بفتنة الدوس^(٢) لكثرة ما وقع فيها من الدوس والمهالك، حيث نجد الشاعر أحمد الجامي^(٣) ينظم قصيدة في وصف هذه الفتنة يغلب عليها التوسل والشكوى للرسول ﷺ (كشأن الشعراء والأدباء في إلف هذا التوسل الباطل في القرن الثاني عشر)، حيث يبدؤها بالتساؤل عن نهاية هذا الوضع السيء موجهاً الحديث للرسول ﷺ، ثم يتعجب من جرأة هؤلاء القوم على اقتراف هذه الأعمال في مدينة الرسول ﷺ :

إلام رسول الله يشدد ذا الخطب
وما بال أهل العلم والشرف الألى
وحتّام هذا الحال والطعن والضرب
لهم درجات فوق غيرهم تربو

(١) - الأخبار الغريبة ص ٢٨ وما بعدها

(٢) - سبق الحديث عنها ص ٣٩

(٣) - سبق ترجمته ص ١٢٦

أشأيرها مرفوعة مالها نصب
ومستمع في مسجد يشهر العضب
ولا يرتضي ذكره شهم ولانذب
لها حرمة فيهم وعنهما لهم ذبّ
على الله في ناديك واستسهل الصعب
لذات سمّت أين التخصع والحبّ
بنسبته أين المهابة والقرب
إذا كنت أنت الخصم والحكم الربّ
وسل تعطه قل يستمع قولك العذب
متون ذرى العلياء آلك والصحب
خطيئته والعين كالعين تنصب
إليه وفي تلك الشدائد ينكبّوا
تقول: أنا ، والعجم تسمع والعرب
وللنار نادى هؤلاء ولا عتب
يشيب لها الطفل الرضيع الذي يجبو
يعاملنا باللطف فالأمر ذا صعب
إذاً ماله عنها طريق ولا درب
ولا ضمّه ذاك الستار ولا الحجب

بها لم يقم وزن لهم وخيامهم
وكيف بمراًى منك يا سيد الورى
ويصدر فيه ما يمجّ سماعه
كنائس من لا يعبد الله وحده
فما لأناس مسلمين تجبروا
فأين حياهم منك أين احتشامهم
وأين احترام الستر أين افتخارهم
وكيف لهم وجه مع الله في غد
وقال لك ارفع إذ حررت لسجدة
وتعلق فيك الأنبياء ومن علوا
وكلهم نفسي يقول معدّدا
وما لهم إلا جنابك يهرعوا
وذلك في فصل القضاء إذا لها
ونادى المنادي هؤلاء لجنة
إلى غير هذا من أمور مهيلة
نعوذ به منها ونسأله بأن
فيا ويل من ساء الجوار وسحقه
ويا بعده ياليت في الكون لم يكن

ثم يصف حال المدينة والفتنة القائمة التي روعت أهل المدينة ويصف

حال المسجد النبوي الشريف.

ومن عجبي قوم به لم تهزهم
 يتيه بسعدى والعذيب وبارق
 وصوت المثاني والمثالث لم يزل
 وأهداب أطراف التماضي لهم بها
 وفوق الذي أحكيه عنهم فكيف ذا
 ومسجده السامي غدا جبّخانة
 وليس له أضحى مقام وإنما
 وقد حرم الجيران طيب منامهم
 فعتبا على حظ به غير مرّة
 قضايا وأحوال إذا ما تحققت
 يقهقه منها كل وغد ويختشي
 وحقك لولا الحق حف بلطفه

مروتهم في الدين حيث لهم قلب
 ولم تنزوي عنهم أثيلة والشعب^(١)
 حليفهم إن قام أو قعد الخطب
 مجاذبة أضحت فيا بئس ذا الجذب
 يسوغ لهم والحرب حبلى ولا طبّ
 وحصنا حصيناً عافه الفرض والندب
 ذمّامك فيه ليس ترعى ولا القرب
 وحرمة الإرجاف والعرب والرهب
 يشاهد توقيد الوغى حين يشتب
 لعمرى أوجالٍ مفرقة كَثْبُ^(٢)
 عواقبها من زانه العقل واللب
 لشاهدت طوفان المصائب ينصبّ

(١) - العذيب : ما بين القادسية والمغيثة، وقيل هو واد لبني تميم، وهو من منازل حاج الكوفة، معجم البلدان ١٠٣/٤، أثيلة : لم أجد موقعا بهذا الاسم، وإنما هناك الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء. معجم البلدان ١١٨/١، الشعب واد بين مكة والمدينة يصب في وادي الصفراء معجم البلدان ٣٩٤/٣.

(٢) - الكَثْبُ : الجمع والاجتماع . ق المحيط (الكثب).

ثم يتساءل بعد ذلك عن المبرر لقيام هذه الأحداث ويتمنى لو كانت
 قوة هذه الجموع المتقاتلة موجهة نحو الأعداء، ثم يعود إلى التوسل
 بالرسول ﷺ لانقاذ بلدته التي زاد خرابها، ولو رأى المسيبون لهذه
 الفتنة انتقاماً منهم لتوقفوا وامتنعوا عن تلك التصرفات، ولعادت المدينة
 إلى أمنها ولذهب عنها الحزن والأسى.

فياليت شعري هل لها في قيامها
 وهل هو هدم في الشريعة واقع
 وإلا فأغراض النفوس وحظها
 فياليت ذاك الحزم والعزم بينهم
 فواللهي أين الرجال بطيبة
 فلا حول فيما قد سعوا في انتهاكه
 ألا يارسول الله غارة غيرة
 فبلدتك الغراء زاد خرابها
 وقطعت الأسباب فيها وعطلت
 وصار يحل الأمر خوفاً وحالها
 وجرّد سيف البغي والمنكر الذي
 إذا كان في حال السجود لجمعة
 تدور رحي الهيحا لا درّ درّها
 فلم لا يعود الدين هذا كما بدا
 كقباض جمر في يديه كما به

على ساقها أصل فيصفي لها القلب
 فقام لتعمير له ذلك الحزب
 وشعبذة من دونها اللهو واللعب
 على من يعاديهم أقامت به النجب
 وأين الغيور الحر والحازم الخصب
 ولاقوة إلا به وهو الحسب
 يذوب لها الجلمود واليابس الصلب
 وقامت للدغ الناس حياتها الجرب
 وحق عليها الحزن والنوح والندب
 غدا حالكاً والخلق عمّهم الكرب
 به الله لا يرضى ولا أنت يا حب
 وبين يدي من لاسواه لنا ربّ
 وتطحن ذا ذنب ومن لا له ذنب
 غريباً ومن يقبض عليه وينكب
 لقد أخبرت عنه الرسائل والكتب

وما غرّ أهل البغي غير مقالة
فلو شاهدوا أمواج انتقامك فيهم
ولانثروا ذاك الرصاص وصيروا
ولاسبباً كانوا لخلق كثيرة
ولانقضوا تلك العهود وأرجفوا
بلادنك واستزاهم الشرق والغرب
بأنك بحر لا يكدرك الغرب
لأعمدت البيض البواتر والقضب
رزاياه من كل الجوانب تنصب
بوطئ ازدحام الناس ضمهم الترب
بلاذك واستزاهم الشرق والغرب

ثم يجتتم القصيدة بمدح الرسول ﷺ ، مغالياً في دعائه كعادة فهمهم
الخطأ في الغلو في شخصه عليه الصلاة والسلام:

فأنت الذي تدعى لكل كريهة
فبابك في الصفح الجميل وفي الرضا
عليك صلاة الله ثم يحوزها
وتابعهم ما لاذ بالباب لائذ
وما أحمد الجامي المقصر من رأى
وليس لها من ذاك حسن تخلص
بلا غاية في الكرب قال مؤرخاً
وأنت الذي ترجى إذا دهم الخطب
على مذنب لاشك في أنه رحب
هداة الورى الأنجاب آلك والصحب
وقابله الإقبال والسهل والرحب
بلادنك قد أخلت منازلها الحرب
وصار غراب الحزن فيها له لعب
ألا فاندبوا فيحاء طابة لاعتب^(١)

ونختم هذا المبحث بقصيدة للشاعر الناقد عمر بن

(١) - الأخبار الغربية ص ٥٣.

عبدالسلام^(١) الداغستاني يصف فيها الفتنة الواقعة سنة ١١٩٤ هـ^(٢) والمسماة فتنة الشريف سرور ، حيث يصف الشاعر هذه الفتنة بعد أن يستهل ملحمة بلوم الذين تولعوا بالتشيب والغزل وانصرفوا إلى اللهو والهوى، ويطلب منهم أن يذكروا قتلى طيبة.

يقول:

يا من تولع بالتشيب والغزل	وقد صبا في مليح الغنج والكحل
باهي الجمال الذي قد حاز مبسمه	عقداً من الدرّ أو خمراً من العسل
كم ذا التصابي إلى نحو الحسان وكم	تكون صباً وعنهم أنت لم تحل
تميل للغيد لاتنفك عن كلف	بأهيف القد ذاك الراجح الكفل
تهوى الرشاق الألى باللحظ قد فتنوا	تغدي بروحك أهل الأعين النجل
دع التغزل فيهم كم تغازلهم	وعن معاني الهوى واللهو فارتحل
واذكر لمن قتلوا في طيبة نظراً	ونح عليهم بدمع منك منهمل
في طيبة المصطفى دامت معظمة	بالعزّ من قبل والإكرام لم تنزل
كم جاءنا من حديث في فضائلها	عن النبي الشفيح الطاهر الكمل
وكم قد أوصى بلاريب لأمته	بحفظ جيرانه من كل منتحل
بشر لكائدها أو من أراد بها	سوءاً يذوب كذوب الملح في البلل ^(٣)

(١) - سبقت ترجمته ص ١٠

(٢) - سبق الحديث عنها ص ٤٠

(٣) - يقصد حديث رسول الله ﷺ : (لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه

ثم ينتقل إلى وصف الفتنة وذكر حيثياتها وتطوراتها:

أما سمعت بما قد صار في بلد الـ
من محدثات أمور أحدثت فتناً
جاء الشريف سرور ذوالشورور بها
فارتاعت الناس مما قد رأوا فزعاً
قالوا عسى تحصل الأفراح منه لنا
فأمن الناس تسكيناً لخاطرهم
وأظهر العدل والإحسان مقتصداً
فلم يرعنا سوى مسك الرأس وقد
فمنعوعها رجال الحرب جيرتها
فبعد ثلاثة لما هم غلبوا
لو أنهم طلبوا الكفار ما طلبوا
فصار ما صار من سفك الدماء ومن
ونهب أموال خلق الله وأسفاً
شنوا على القلعة الغرا اغارتها
وأخرجوا أهلها منها بظلمهم
كم قتلوا من صناديد مكرمة
كم هتكوا عرض ربات الخدور وقد
مختار طه المرجى سيد الرسل
والناس في شغل منها وفي شغل
في جحفل سائل قد سدّ للسبيل
وأسلموا الأمر للرحمن فهو ولي
ويصلح الأمر فينا غير مغتفل
من المخاوف من مكر ومن حيل
كأنه قاصد للخير في العمل
غدا لقلعتنا بالغدر في أمل
وقاوموه وليسوا منه في فشل
قالوا الأمان وأين الأمان من ختل
منه لأعطوهم التأمين بالعجل
هتك العيال مع الصبيان والخول
وا حسراتاه على ذا المنكر الجلل
بنهب أسبابها الباقي من الأول
بسوء حال وهتك معه متصل
كم قتلوا من شجاع باسل بطل
خرجن من فعلة الأوغاد والسفل

من بعد ما كنّ في الأثواب والحلل
وفي النفوس وهذا حكمة الأزل
عبيد تلك العبيد السود كالجعل
وأهلهم في عويل غير منفصل
به القلوب لهذا الأمر والخلل
عقولهم مثل عقل الشارب الثمل
أغلال كالسي تحت الذل والنجل
يحذر الناس أن كونوا على وجل
يفك عسرهم من فضله الهطل
وحرمة فعفى عن صاحب الزلل
قليل خير عديم العقل كالوعل
يحتاج يذكر في التاريخ والمثل
أمر عظيم على الإفساد مشتمل
قاموا عليه لما أبداه من دخل
يحصى مدى الدهر والأزمان والملل
وقد شفوا منهم للداء والغلل
وجاوزوا الحدّ في فحش وفي خطل
طعاننا رماً تحت القنا الذبل
كما أرادوا بهم في شرّ مقتل
وقام يجربنا بالجد لا الكسل

هلكى حفايا عراة في مكابدة
أصبن في المال والأهلين مع ولد
رجاهن غدوا أسرى كأنهم
مقدار خمسين في الأغلال قد أخذوا
فيا لذلك من يوم قد انفطرت
ترى الأنام حيارى من فعائلهم
فقيدوهم جميعاً في السلاسل وال
وحين راح وفي الأسواق مرّ بهم
فنسأل الله مولانا الكريم بأن
فليته لو رعى للمصطفى ذمما
هذا وولى وزيراً من جماعته
فذا لعمرى عجيب في الأنام غدا
فأظهر البغي والعدوان يظلم مع
لكن جزى الله أبطالاً بطيبة إذ
خيراً كثيراً عظيماً لا يعدّ ولا
فقتلوا فوق عشرين لعسكره
عتوا على الناس من جهل ومن سفه
قالوا سنتركم عن أهل طيبة من
فما مضت مدّة إلا وقد تركوا
فأغلق القلعة الغرا وزيهرهم

فحاصروه بها من بعد ما منعوا
 فحينما قد رأى عجزاً به طلب الـ
 فأخرجوهم بلا ضرر ولا نكد
 فحين أسمع ذي الأخبار سيدهم
 فأرسل الجردة^(٢) التعساء لاظفرت
 فقابلوهم رجال الحرب في دشم^(٣)
 كم أنزلوا فارساً بالعزم من فرس
 كروا عليهم ففروا حينما علموا
 عليه ماء وزادا وهو في ملل
 أمان منهم فأعطوه بلا مهل
 مع الأمان وأجلوهم بلا جدل
 أنغاظ^(١) حتى امتلا بالهم والعلل
 لأهل طيبة في جمع من الهمل
 في معرك من صياح الحرب في زجل
 كم قتلوا منهم يا صاح من رجل
 من أن قربهم يدني إلى الأجل

ثم يختتم القصيدة بتاريخ هذه الفتنة وانتهائها ومدح السلطان العثماني والدعاء له.

وذاك في عام ألف بعده مائة
 بذاك عن طيبة قد زال ملكهم
 لكن بحمد إله الخلق خالقنا
 من قبل أربع مع تسعين إن تسل
 فهل سمعت بملك غير منتقل
 جاءت لنا نجدة من مالك الدول

(١) - دشم : يظهر من حديث صاحب الأخبار الغربية أنه اسم يطلق على حرّة تقع شرق المدينة جهة العريض، ولم أجد له ذكراً عند غيره.

(٢) - الصحيح: اغتاط وتغيّظ، أما (انغاظ) فاستخدام عامي. لسان العرب (غيط)

(٣) - يقصد بالجردة الجيش الذي أرسله الشريف سرور، وفي القاموس: الجرودة

: خيل لارجاله فيها . القاموس المحيط (جرد)

سلطاننا الملك العالي ومالكننا
 منها القلوب لقد سرّت وقد فرحت
 هبت بناديه ريح النصر عاطرة
 ودام في الملك تأتينا بشائره
 عبد الحميد^(١) ملك الوقت خير وليّ
 والناس ملائنة بالأنس والجذل
 على الدوام مدى الأبرار والأصل
 ما أهطلت سحب دمعاً على طلل^(٢)

وبعد استعراض هذه النماذج نلاحظ أن هؤلاء الشعراء الذي نظموا مثل هذه القصائد المطولة نظموها بدافع خاص يختلف عن الدوافع التقليدية التي حدت بهم إلى النظم في الأغراض الأخرى والتي تتأرجح بين إثبات الشاعرية والسير على سنن الأقدمين، وبين التعبير عن تجربة حقيقية جعلت الشاعر ينظم في غرض من الأغراض التي سبقه إلى النظم فيها كثير من الشعراء.

فالمطولات الشعرية هذه كانت ناتجة عن عاطفة قويّة، وعن اهتزاز كيان الشاعر بسبب هذه الفتن والأحداث المتلاحقة، والتي ليس لدى الشاعر ما يساهم به في إخمادها سوى هذا النظم المعبر الذي يحاول أن يرسم عن طريقه صورة متكاملة واضحة المعالم لما يحصل في المدينة، تصل إلى أكبر جمهور من الناس، والأهم أن تصل إلى صانعي القرار سواءً في الحجاز أو في عاصمة الخلافة العثمانية.

(١) - سبقت ترجمته ص ١٨

(٢) - الأخبار الغريبة ص ٨١.

وبالطبع فإن قصيدة كل شاعر من هؤلاء الشعراء، تعكس نظرتهم ورؤيتهم الخاصة للأحداث، والتي قد لا تعني الحقيقة، فالوضع القائم لا يمكن أن يتحمل تبعاته طرف دون آخر فهو -وكما أسلفنا- وضع معقد له عدّة خلفيات غير واضحة المعالم، ولكن السبب الحقيقي -حسب رأينا- هو الازدواجية السياسية والفروق الاجتماعية والفكرية بين أبناء المدينة وما جاورها.

أكثر ما يميز هذه القصائد هو صدق العاطفة تجاه هذا البلد الطاهر الذي انتهكت حرمة، والغيرة الشديدة على سكانه الذين روعوا وشردوا، مما يعطينا صورة صادقة عن حب سكان طيبة لبلدتهم الطاهرة، وعمق ترابطهم والتحامهم مع بعضهم البعض، فهو بذلك شعر ابتعد عن التكلف والتصنع، واتجه إلى محاكاة الواقع الاجتماعي والذاتي.

وإذا ما حاولنا المقارنة بين هذه القصائد فإننا نلاحظ التشابه الشديد فيما بينها، فبالرغم من خصوصية كل شاعر وقاموسه الخاص به، إلا إننا نجد هذه القصائد كلها لا تخرج عن وصف الفتن وأحداثها، وتمجيد أصحاب المواقف المرضي عنها، وصب جام الغضب على الطرف الآخر.

وعلى أية حال فما يهمننا هنا هو رصد هذه الظاهرة، ظاهرة المطولات الشعرية التي وجدت في هذا القرن واستمرت حتى نهايته متزامنة مع تلك الفتن والحوادث المستمرة.

وهذه القصائد كما نلاحظ تبتعد جداً عن الملحمة اليونانية، قد جاءت في هذا القرن مشكّلة لونهاً خاصاً متميزاً في عصر وسم بالجمود والركود.

وقد كان الشعراء يعون هذا التميز حيث نجد البيتي يرى أن هناك نوعاً من التشابه بين هذه القصائد وملاحم شاعر متقدم هو شمس الدين بن دانيال، وذلك في قول البيتي:

حوادث ما رآها دانيال ولا قصت ملاحمة شيئاً يساويها
فالببتي عندما نظم قصيدته كان يعرف أنه يقوم بعمل متميز له علاقة
بالملاحم بل إنه يبالغ فيرى أن هذه الأحداث التي وصفها لا تقاربها
الأحداث التي تحدث عنها ابن دانيال في ملاحمه.

وبذلك نجد أن هذا اللون ينتج عن وعي من الشعراء حيث استثمروا هذه
الحوادث لإضافة شيء جديد إلى الشعر الذي أهمهم الرقي والتفوق في
نظمه وطرق كل أبوابه، ومن جانب آخر كان همهم توظيف هذا الشعر
لوضع حد لهذه الحوادث والفتن والتأثير به على صناع القرار.^(١)

(١) - للتوسع يمكن الرجوع لمقدمة سليمان البستاني لتعريب إلياذه هوميروس،
والشعر الملحمي تاريخه وأعلامه لجورج غريب، والملحمة في الشعر العربي
د. سعد الدين الجيزاوي، إلى جانب الكتب التي سبق ذكرها في هذا المبحث.

الفصل السادس / الإخوانيات :

شعر الإخوانيات هو شعر العلاقات الاجتماعية للشعراء مع غيرهم ممن يماثلهم أو يقاربهم اجتماعياً، فالحدود التي ترسم العلاقة بين الشاعر وصاحبه الذي يتحدث إليه ذات تأثير كبير جداً في الصورة الفنية التي يمكن أن تكون إطاراً لهذا النوع من الشعر.

إن شاعر الإخوانيات يدخل هذه الساحة على غير ما يدخل ساحة الأغراض التقليدية، إن موقفه ليس هو الموقف النفسي الذي يقفه المتنبى من سيف الدولة في معركة الحدث، أو أبوتام من المعتصم في عمورية ، أو البحري من المتوكل في عيد الفطر .^(١)

إن هذه المواقف الرسمية مختلفة في طبيعتها عن المواقف الإخوانية، فالشعر الإخواني يدور في دائرة هموم شاعره لا يتعداها إلى هموم اجتماعية إلا قليلاً، والإخوانيات تدور في معان اجتماعية كالشوق والتهنئة والعتاب والاعتذار وتقريظ الكتب واستعارتها وبث الهموم والشكوى وطلب الحاجات، ونحو ذلك مما يدور في حياة الأصدقاء والخلان^(٢).

(١) - انظر: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري شيخ أمين ص ٢٨٨.

(٢) - الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري للدكتور عايض الرادادي ص ٣٧١.

وتأتي أهمية هذا الشعر لدلالته المهمة على روح الشعر لدى شعراء هذا العصر، فلا شك أن هذا اللون الشعري يتعد فيه أصحابه عن التزلف والمداجاة، ويأتي الشعر فيه طبيعياً بعيداً عن التكلف والتعمل، مما يجعل الشاعر ينطلق فيه على سجيته، ليس له من دافع سوى نفسه التي تعبّر بصدق عما يدور في جوانحها أو عما بعثها وأثار دواعي القول لديها، ليس ثمة من رغبة ولا رهبة أو نحو ذلك مما قد يخاله المرء وراء هذا الشعر.

وفي كل هذا ما يدعو الباحث للاحتفاء بهذا الشعر ومتابعته، فضلاً عن إضافته لموضوعات شعر العصر الأخرى، والتي ربما ينتظمها أحياناً هذا اللون الشعري بصورة إجمالية تقريباً.

من أهم المصادر التي نقلت لنا هذا النوع من الشعر في هذا القرن كتاب (تحفة الدهر) للداغستاني^(١)، حيث ذكر في ترجمته الكثير من شعراء المدينة الذين تبادل هو معهم رسائل شعرية، أو ما تبادله هؤلاء الشعراء مع آخرين من المدنيين وغيرهم من خارجها.

يذكر الداغستاني أنه مدح الأديب خضر بن يحيى صحرة^(٢) - عندما زار المدينة المنورة - بقصيدة بدأها بمقدمة غزلية يستهلها بقوله:

(١) - سبق ترجمته ص ١٠

(٢) - سبق ترجمته ص ١٦٣

صنم من الكافور وشحّ عنبراً وحوى بصحن الخد مسكاً أذفراً
أبدى على محمّر أبيض صدغه شعر العذار حكى طرازاً أخضراً

إلى أن ينتقل للمدح فيقول :

نجل الأمائل والأفاضل من سما عالي الشمائل والفضائل والذرا
من سادة شم الأنوف أجلةً رفعوا لهم فوق الثريا منبرا
شيدت ربوع نجارهم^(١) سمكا على كيوان وامتطوا السماك الأنورا
شدوا مآزرهم إلى نيل العلا وتدرّعوا ثوب المجاد محبّراً^(٢)
لهم انتماء بالنبي وبنته وكذا الحسين وضم معهم حيدرا
فهو الذي ملك الضخامة والفخا مة والشهامة بالوراثة لا اشترى
ندب^(٣) غذي بلبان مجد ثابت تحذ الكمالة وهو طفل مغفرا
ونشا بميدان السيادة يافعاً وحوى صنوف الفضل كهلاً أفخرا
بحر من الآداب عذب ورده بالدرّ من عاداته أن يذخرا

(١) - النجار : الأصل والحسب. لسان العرب (نجر)

(٢) - مأخوذة من المجد، وفي القاموس: (ماجده مجاداً: عارضه بالمجد) لسان العرب
(مجد)

(٣) - رجل ندب: خفيف في الحاجة، سريع، ظريف، نجيب. لسان العرب
(ندب)

ويزين أجياد الكواغد بالقللا
 فكلامه أندى على الأكباد من
 تشفته أسماعنا فكأثما
 يا أيها المولى المعلّى العبد إذ
 عقدا غدا حلياً لجيد الدهر من
 جاءتك من خدن المحبة كاعب
 فأحلّها نادي القبول تفضّلا
 لازلت مرتديا رداء مكارم
 ما قهقه الرعد المسبح بكـرة
 ند كالحرائد حين يمسك مزبرا^(١)
 قطر الغمام على الكمام^(٢) مبكّرا
 تشتفّ من فيه الرحيق وسكّرا
 أهدي له عقد الجمان الأخطرا
 بعد التعطل فاستطال ليفخرا
 تختال في مرط بمدحك عطّرا
 لتزيد حسنا من بهاك وتبهرنا
 بل دمت تشتمل السعادة مئزرا
 وأنهلّ وسميّ السحاب وأمطرا^(٣)

فردّ عليه خضر بن يحيى صحرة بهذه الأبيات التي استهلها بمدح
 عمر الداغستاني حيث يصفه بأنه قدوته فهو المتقدّم عليه إلى المكارم
 وهو السابق إلى كل فخر وكل مجد يقول:

بكم اقتديت وخلفكم في ذا الورى
 والى علاكم دنت غير معجرف
 صلّيت مؤتمّما وقمت مكبّرا
 متأدّبا متهيّبا متقهقرا

(١) - الكاغد: القرطاس . المعجم الوسيط (الكاغد).

- الخريدة من النساء ، البكر التي لم تمس قط . لسان العرب (خرد)

- المزبر : القلم . لسان العرب (زبر)

(٢) - الكمام : وعاء طلع كل شجرة مثمرة . لسان العرب (كمم).

(٣) - تحفة الدهر ٤٦ .

لكم التقدم في الأنام فحق لي
 أنى لغيركم الفخار وهامهم
 من ذا يضا هيكم سنا وترفعا
 أنتم شمس الأرض والملح الذي
 والقادة الغر الذين شئوهم
 يا جيرة المختار إن لم أوفكم
 هو فوق وسع النفس بل من فوقه
 إني اجتأت على التغرب ناقلاً
 مدوا على الغرباء ذيل سماحكم
 فلقد تحقق في الوجود بأنكم
 أكرم بكم جمعاً وألف كرامة
 إلى أن يقول :

يا أيها الندب الكريم المنتحي
 فقلائد العقيان لولا كونها
 وسلافة الآباء لولا أنها
 مهلاً عليّ فما القريض بضاعتي
 فلأنت حسن الزمان فكن به
 واسلم لنا عمراً لملة قصدنا
 وامكث على مرّ الليالي ناشرا
 في القوم شنف مسمعي بما ترى
 من فيك تلقط ليس تنظم جوهرها
 بأكف بدعك عصرها لن تسكرا
 حتى أكون بسوق مجدك مكثرا
 بسما طباق الشعر بدرأ نيرا
 تحمي بسيف لانتقادك أخضرا
 للواء عزّ مثله لن ينشرا

ما أطلع الصبح المنير جبينه من بطن مقنعة الدجنة^(١) مسفرا^(٢)

فكتب له عمر الداغستاني في نفس البحر مع تعيّر القافية، يمتدح أبياته فيصفها بصفات عدّة ثم يصف تأثير هذه الأبيات على قلبه وعقله حتى أنها تفوّقت على ربّات الخدور.

يقول:

أم كؤوس ^(٣) اسفنت ^(٤) زهت بجبابها	أعقود درّ ذو الكمال حبابها
أم أنجم لم تخف تحت جنابها	أم لؤلؤ الأصداف لاح بسمطه
فحكى ثغورا فرقت برضاها	أم قطر طلّ بلّ أزهار الربا
وجنات معسول الشفاه عذابها	أم أنه خطّ العذار بدا على
أسنان لاحت من عقيق حجابها	أم شارب قد طرّ مخضراً ام ألـ
ترك الغصون تيمس في أثوابها	أم وشي أزهار الربيع منمنما
دارين ^(٥) أنشقتها الصبا فأتى بها	أم نسمة مسكّية النفحات من
ونضت عن الثغر الشهويّ نقابها	أم ذا محيّا غادة حيّت دجى
ولقد روى في الحسن عن أهدابها	أم حليها الباهي بدا في جيدها

(١) - الدجنة : الظلمة . لسان العرب (دجن)

(٢) - تحفة الدهر ٤٧ ، ٤٨

(٣) - جمع كأس : اكؤوس وكؤوس وكئاس ولم ترد كؤوس لسان العرب (كأس).

(٤) - الاسفنت : ضرب من الأشربة ، أو أعلى الخمر . القاموس المحيط (اسفنت)

(٥) - دارين : فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند معجم البلدان ٢/٤٩٢

أم عفص^(١) راحتها ونقش خصابها
وسقته كأساً من عتيق شرابها
هامت أولوا الألباب في عتابها^(٢)
حور الخدور العين مع أترابها
كالبدر لاحت من سما جلبابها
وتسرّ روعي من لذيذ خطابها
ضرغام ساحات العلا ورحابها
هة والكماله فهو من أربابها
وكذا المجادة فهو بدؤ كتابها

أم ذا غدائر شعرها مسترسلا
قد غازلت قلبي بلحظ جفونها
وسطت على لب الشجي بأنامل
فاقت بحسن شمالها وكمالها
يا حسننها من كاعب فتانة
وافت تهنييني بوصل هاني
وأنت بخير تحية كالمسك من
مولي إذا ذكروا السماحة والنبا
عنوان صحف العزّ والفخر السنّي

إلى أن يقول:

بقصيدة كالخود في جلبابها
تحسى المسامع من طلا أكوابها
تحيي الخواطر من شذى إطرابها
بطرائف لك أفردت في بابها
ألا ويعجز عن متين جوابها
إلا ويخطئ معلنا بصوابها

يا أيها المولى الذي قد خصني
أبيات فضل لاتزال نفيسة
باللطف تقطر رقة وطلاوة
لازال روض النظم مخضّل الربا
ما أن يعارضها عنيد جاهل
ما أن يجاريها حسود شامت

(١) - العفص : صيغ يؤخذ من الشجر. لسان العرب (عفص).

(٢) - العتاب : ثمر لشجرة شوكية حلو لذيق الطعم. المعجم الوسيط (عنب).

واسلم لنا خضراً تخضّر سوحنا . بمحاسن تسبي النهى بعجابها
 ما ناحت الورقا فحاكت نغمة عود المثاني أو شجيّ ربابها^(١)
 فأجابه خضر بن يحيى صحرة على نفس القافية مع اختلاف
 البحر، وحيث تدور أبياته على نفس المعاني في القصائد السابقة:
 يقول:

قرائح فكري ليس تصفو لما بها	فدعها أخوا الإبداع من قرع بابها
وخذ جانباً عنها فليست من التي	يناسب بيت المجد بيت انتسابها
ففي أي أسلوب أتتك فإنها	من السبك يقضي ذو النهى باستلابها
قواف ولكن أثر مالك من علا	قواف إلى ندواك حثّ ركابها
أتتك احتفالاً تلثم الأرض حرمة	لديك وتنهى ما حلا من خطابها
وتطرق باب الشكر وهي منيبة	وجانب جهدي شافع لجنابها
أخا الفضل حالي مثل نيلك رتبة	من المجد لو أسمو السها في طلابها
فيالك من أقمار عز ترفّعت	تنير من العلياء نهج صوابها
ويالك من آثار حمد يد الثنا	تدير رحي الإجلال حول رحابها
ألست إلى الآداب امرأ قيسها	وحسانها الموشي برود عجابها
فمن شعرك الشعري ترقع وجهها	حياءً فعادت في مصون حجابها
ومذ عاينت منشور درك نثره	أرت كلّ حسن آية في كتابها
فلا فضّ في الدنيا لمنشدها فم	ولا غافصته ^(٢) الحادثات بنابها

(١) - تحفة الدهر ٤٨

(٢) - غافص الرجل: أخذه على غرّة . لسان العرب (غفص)

وقادت له الآمال كل شرودة
 قدم يا ابن ودّي في الزمان مذلاً
 ولازلت للإحسان أهلاً وموضعاً
 وعشت ولا تنفك في خير حالة
 وطلت الذي تهوى وصاحبك الهدى
 وصافحك السعد المقيم براحة
 على غيره مأخوذة من رقابها
 لأهل المعاني ما عصى من صعابها
 وللسيرة الحسنى مزار قبابها
 تحلّ من التقوى أنيق هضابها
 دليلك في دنيك عند اكتسابها
 من البسط لم تقبض ولا لخضابها^(١)

وذكر البيطار في كتابة (حلية البشر) في ترجمته لعمر الداغستاني
 أنه أجاب الشاعر عابد السندي^(٢) على قصيدة طويلة لم يذكر منها إلا
 مطلعها وهو:

قد صحا الجوّ والربى قد تبسّم
 زهره والنسيم عنه تنسّم
 أمّا قصيدة الداغستاني فقد أوردتها البيطار كاملة، وهي قصيدة
 طويلة استهلها بوصف هطول الأمطار وما يعقبها من رياض غناء
 واكتساء الأغصان بالأزهار المختلفة الألوان.
 يقول:

جاد غيم السما لنا وتبسم
 عن سنا بارق له غير جهم

(١) - تحفة الدهر ٤٩ .

(٢) - عابد السندي: ممن ترجم لهم الداغستاني في تحفته، وقد أورد أشعاراً
 إخوانية وتشطيرات وتحميسات، ولم أقف له على ترجمة عند غيره. تحفة

وغدا في الهواء يسحب برداً
واحتفت تحت ذيله الشمس حتى
فتراه يجري ولرعد سوق
فكأنّ السماء غارت فغطّت
فانظروا الروض في حلاه تحلّى
وكأنّ الأغصان يا صاح أعطا
ذاك قد لاح أحمرًا وترى ذا
بطراز البروق أصبح معلم
أصبحت لاترى كمثّل المثلّم
خلفه كالحادي إذا ما ترنّم
وجهها حينما الربى قد تبسّم
لابساً سندساً عليه منمنم
ف عليها حدود الأزهار تلثم
أصفرًا فاقعاً وأخضر أدهم

ويسترسل في وصف الطبيعة لينتقل بعد ذلك إلى الغزل حيث ينتهي إلى
أن غزله من النوع الخفيف الذي لا يعيب قائله، ثم يتخلص بعد ذلك
لمدح عابد السندي .^(١)

ومدح أحمد البساطي المدني عمر الداغستاني بأبيات بدأها بإهداء
السلام، ويمتدحه بترجمته لشعراء المدينة. يقول:

أهدي السلام لعزير القدر
أعني ابن عبدالسلام من سما
سراجنا الفاضل ذا شمس هنا
مترجم الأعيان أهل طيبة
من ساد بالفضل أهالي العصر
بالعلم أسمى رتبة في الفخر
باهي المحيّا مخجلا للبر
في تحفة الدهر ونفح الزهر

(١) - حلية البشر ٢: ١١٢٢

شهماً أديباً راقياً أوج العلا
ونثره اللؤلؤ ضاء نوره
يظهر سرّه ومعناه لمن
إذا تأملت ترى في نظمه
له معان واستعارات كذا
ونظمه فاق عقود الدهر
إذا بدا كلامه في السطر
ينظر في ألفاظه بالفكر
قولاً بديعاً وكذا في النثر
علم بيان باهر كالسحر^(١)

فأجابه عمر الداغستاني بقصيدة قال عنها البيطار أنها طويلة

ولكنه لم يورد منها سوى هذه الأبيات :

بدر الدجى بان في الخمر
وهذه لآلي قد نظمت
وما أرى هل هو ورد ناضر
وهل فتور في الجفون قد بدا
أم وجه من رضابه كالخمر
أم أنها أسنان ذاك الشجر
أم حسن حدّ بالحيا محمر
أو الخمار أو ديب السحر^(٢)

وزار عمر الداغستاني عبدالقادر بن محمد سعيد^(٣) فلم يجده

فكتب له :

جئنا إلى سوحكم نرجو نفوز بكم
فلم نجدكم ولو أن كنتم ابداً
ونمتلي بالتلاقي معكم فرحا
في خاطر لم يزل بالذكر منشراحاً

(١) - حلية البشر ١ : ٢٨٢

(٢) - المصدر السابق : ١ : ٢٨٢

(٣) - عبدالقادر بن محمد سعيد بن طاهر من شعراء تحفة الدهر للداغستاني ذكر
الداغستاني أنه من بيت فضل وعلم . تحفة الدهر . ٧٠ .

وذاك من حظنا المقصور لیت لنا حظًا كما لكم يدني لنا المرحا
فكتب له عبدالقادر :

لما أتينا وجدنا في منازلنا آثار من يتلقى الصبح بالملح
فصار في القلب وجد لا يكاد له وصف من الشوق انشاه شجى الفرح
قد حفنا السعد مذ وافيت مجلسنا سراج بهجتنا لازلت في مـرح^(١)
وكتب عمر الداغستاني لعبيد الله كدك المدني^(٢) حينما قدم من
الطائف قصيدة بدأها بمقدمة غزليّة يقول في مستهلها:

زار عذيب الخد والمبسم عشاقه في الحلك المظلم
وشرف المجلس من وصله في غفلة الحراس واللوم

ثم ينتقل بعدها لمدح المذكور ويصف شوقه لهذا المدح، ويصف
المدح بالفاضل الشهم الأديب ذي المكانة الرفيعة، فيقول:

فانشرح الخاطر شوقاً إلى مدح أخي المجد العلي المحكم
غواص بحر الفضل بالفكر من يرفل في برد العلا المعلم
شهم إذا ما ذكرت رفعة تراه أسنى طالب مقدم

(١) - تحفة الدهر ٧٠

(٢) - ترجم له الداغستاني في كتابه (تحفة الدهر...) ، وابن البيطار في (حلية
البشر) حيث وصفه بأنه صاحب فصاحة ولسن ومكانة في الأدب، ولم
يذكر أي منهما سنة ولادته أو وفاته. تحفة الدهر ٨٧ ، حلية البشر ٢:

عبيد المشهور في نبله وذو النظام الباهر المفحم
يا أيها الماجد يامن له نظم إلى الدرّ غدا ينتمي
دونكم نظماً غدا فاترا من أحقر عن فضلكم معدم
يرجوكم نظماً لكي يفتدي وجه كتابي منه في مبسم
فعاملوه بالرضا إنه هدية الأدنى إلى المقرم^(١)
لازلتهم في رفعة دائماً ما أخفت الشمس سنا الأنجم
وما تجلت غادة في الحمى بين الصفا والحوض من زمزم^(٢)
وكتب عمر الداغستاني أيضاً إلى زين العابدين بن محمد زين

العابدين بقصيدة يمدحه فيها يستهلها بمقدمة غزلية يقول في أولها:

سلب العقول بتمّ حسن أنفس رشاً بسيف الجفن مردي الأنفس
ثم ينتقل بعد المقدمة إلى مدح المذكور وذلك بعد أن ذكر
وصاله لحبيبه تحت ظلام الليل، ولم ينبهه من ذلك إلا نور الصبح
المشرق المشابه لضياء الممدوح، ثم يسترسل بعد ذلك في تعداد صفاته
وذكر مناقبه.

فردّ عليه زين العابدين بقصيدة بدأها-أيضاً- بمقدمة غزلية حيث يقول:

لاحت كبدر لاح تحت الحندس وسرت بقدر بالغدائر مكتسي

(١) - المقرم: السيد الرئيس من الرجال. لسان العرب (قرم)

(٢) - تحفة الدهر ٨٧

ثم يتخلص بعد ذلك لمدح الداغستاني وذلك بعد أن سكر من سلافة محبوبته، حيث يصفه بشمس المعارف الفاضل الكريم الأديب.

وأبوح من سكري بسرّ قد سرى في سرّ سرّي للسرّي الأكيّس^(١)
شمس المعارف بدر كل فضيلة رب النهى الفهامة المتفرّس
نجم العوارف روض كل لطافة حاوي التحائف بل وخير مدرّس
أكرم به من فاضل متفتّن جمع البارعة واليراعة والقسي
شهم يفوق على الغمام نواله ويروق للرائين منظره الوسي^(٢)
فرع لأبرك دوحة محمودة زرع نما في سوح زاكي المغرس
غطريف أهل المجد بل خطريفهم جحجاج قوم السعد بدر الأطلّس^(٣)
شحشاح فتیان القريض سراجهم مصباح فتيات النثير الخنس
لازال للفضلاء يعذب مدحه ويطول شامخ فضله المتأسس
وعلى جميع ذويه يعلو قدره ويفيض نهر كماله المتبجس

(١) - السري : الرجل الرفيع. الكيّس : العاقل. ومعنى البيت أن الشاعر سكر حتى باح بسرّه الدفين، الذي هو سرّ السر لهذا الصديق الممدوح.

(٢) - كلمة (الوسي) فيها اكتفاء، حيث اكتفى بها دون الحرف الأخير وهو الميم، فشطرت البيت قبل الاكتفاء (ويروق للرائين منظره الوسيم) راجع ص ٥٠٨ من هذا البحث.

(٣) - الغطريف: السيد. لسان العرب (غظرف)، الخطريف : واسع الخلق. (خطرف) الجحجاج : السيد الكريم. لسان العرب (جحجاج) . الأطلّس: الأسود. لسان العرب (طلّس). الشحشاح: القوي . لسان العرب (شحح).

ما عاهد الغيداق^(١) نافح روضه صبـحاً فكللها بدر أنفس
 أو ثغر زهر الروض يرشف روضه ريق الغوادي الضاحكات النعس^(٢)
 ونمضي في اخوانيات الداغستاني حيث نجده يمدح محمد صالح
 حماد^(٣) حيث يبدأ أبياته بإهداء السلام الذي كأنه الروض المونق
 وأطيب من عرف النسيم العطر فيقول:

سلام كما وشي الرياض المؤتق وأطيب من عرف النسيم المعبّق
 وأبهج من راح تفاوح نشره وأسلس من قطر إذا انهلّ مغدق
 إلى الماجد المرفوع في فلك العلا فتى حلّ من هام السماك بمفرق
 أريب لأصناف المحامد صالح وقد صار حماداً له الحسب النقي
 فضائله منظومة كالآلئ شمائله كالزهر حيث تآلق
 وينتهي إليه العبد بعد ثنائه اشتياقاً لنظم منه كالبدر مشرق
 يرجيه من بعد التلطف والحياء وفاء لوعده من سنا الصبح أصدق
 فأنشق بريّاه أخا الفضل مهجتي واطف لظي قلب لسبيك شيق

(١) - في القاموس غيث غيداق أي كثير الماء . لسان العرب (غدق).

(٢) - حلية البشر ٢: ٦٤٣.

(٣) - هو محمد صالح بن محمد سعيد بن عبدالحفيظ بن حماد السندي، قال عنه الأنصاري أنه (رجل صالح نشأ نشأة حسنة، وطلب العلم الشريف، وصار خطيباً وإماماً بالمسجد النبوي، سافر إلى الروم (تركيا) سنة ١١٨٩ هـ ورجع منها ببلوغ المرام). تحفة المحبين ١٩٣، تحفة الدهر ٦٣.

فرد عليه محمد صالح حماد بمقدمة كأنها مقدمة غزلية بينما هي
وصف لأبيات الداغستاني. يقول:

تجلت لنا ذات السنا المتألق تميد بقدّ بالملاحة مشرق
بأبهي محيّا زانه درّ مبسم تحيّي باشهى من حميّا مروق

ثم ينتقل لمدح الداغستاني حيث يذكر أنه قبل القصيدة والتي
استرسل في التغزل بها سابقاً لأنها من نظم الداغستاني جامع المناقب
والمحاسن الأريب الأديب.
يقول:

وقبلتها حبّاً لها وقبلتها وأمهرتها روعي وجسمي وما بقي
ولم لا ومهديها السراج ضياؤنا أخو الفضل بل رب الكمال المحقق
مجيد لأفراد المناقب جامع مجيد إلى أعلى المراقب مرتقي
همام له الباع الطويل تفضلاً يفيض به من بحره المتدفق
أريب أديب لايجارى بجلبة الـ سديع وفي الإبداع أبرع معلق
فيا بارعاً وشى الطروس بنثره ونظم كما الدر النضيد المنسق
ومن سخرت عصم المعاني له متى دعاها أجابته بغير تعوق
أت بكر فكر منك تخطب خطة يضيق نطاقي عن نداها ومنطقي
ولولا الحيا من وجه جاهك سيدي مطلّت بها فالمطل حيلة مملق

فدونكها خجلاء عطلا فجلاها تحلى قبول بالفضل أليق
 ودم وابق واسلم في هناء وغبطة برغم حسود لا يغيظك أحقق^(١)
 ومن إخوانيات الداغستاني ومما أورده في تحفته أن السراج عمر
 بن محمود حيدر^(٢) قد أجابه على قصيدة أرسلها الداغستاني لبعض
 أصدقائه، ولم يذكر الداغستاني تلك القصيدة بل ذكر قصيدة عمر
 حيدر والتي بدأها بالثناء على قصيدة الداغستاني ووصفها بالخريذة
 العروس التي تسبي عقول العاشقين، ثم يمدح الداغستاني حيث يصفه
 بأنه خلاصة أهل العلم، الكريم صاحب الفضل والمجد. فيقول:

لقد صغت يارب المعارف والمجد	خريذة فكر تحجل الشمس من بعد
وتسبي عقول العاشقين بحسنها	عروس بديع نسمة البان والرنند
عليها حلى الإقبال من كل جانب	غدت في كتاب الشعر يا صاح كالحمد
إذا رددت تحلو ترد معارضا	بحسن بيان كي يعود إلى الرشد
بدائع آي النظم فيها تكاملت	تجلت من الاتقان عن وصمة النقد
تميس دلالاً مذ أتتني وسلّمت	ويصحبها بيت لتاريخها يبدي
غدا درة في وسط عقد منضد	وأبدت من الأشواق ما مثله عندي
فقلت لها أهلاً وسهلاً ومرحبا	فنعم الذي تبدي ويا نعم ما تهدي

(١) - تحفة الدهر : ٦٣

(٢) - هو عمر بن محمود بن حيدر البغدادي ، ولد سنة ١١٤٤ هـ ، قال عنه
 الأنصاري (إنه رجل حاذق أديب ذو لسن ، له نظم ونثر بديع حسن، وهو
 الآن موجود) أي وقت تأليف كتاب الأنصاري . تحفة المحبين ص ١٩٥ .

رعى الله منشيها وناسج بردها
 خلاصة أهل العلم والحلم والحجى
 سراج الوفا بجر البلاغة والتقى
 ومن شأنه يبدئ لآلي حكمة
 فلا زالت الأيام تخدم قدره
 ولا برحت أوقاته في مسرّة
 كريم السجايا والكمال من المهد
 نتيجة أرباب الفضائل والمجد
 أبا الفضل والمعروف والحلم والود
 ومن عادة الغواص للدرّ يستهدي
 وساعده الإقبال بالعزّ والسعد
 مدى الدهر ماهبّ النسيم على الورد

فأجابه الداغستاني بقصيدة مطلعها :

بدت في نحر الطرس تزهو كالعقد
 وصال على الألباب بالحل والعقد
 ولاحت بافق النظم كالنجم حسنها
 وأبهى لأن النجم يُنظر من بعد^(١)

وأورد جعفر البيتي في ديوانه قصيدة قالها مجيباً لعبدالباقي بن أحمد
 الشعّاب المدني^(٢) على قصيدة بعث بها إليه.

(١) - تحفة الدهر ٨٢.

(٢) - هو عبدالباقي بن أحمد بن محمد الشعّاب ، وصفه الأنصاري بأنه (رجل كامل ، طلب العلم وصار له نظم ونثر، وكان لانظير له في الكتابة ، وضبط الحساب، وصار كاتب الجراية، وتولى كتابة الشريف، وسافر إلى مصر لأجل محاسبة غلال أهالي المدينة المنورة، فتوفي بها سنة ١١٤٨ هـ . تحفة

وقد استهلها بمقدمة غزلية حيث يخاطب حمامة ذكرته بأحبته، فيقول:

سجوعك تيم القلب الحزينا وحرّك في الحشا داءً دفيناً
ونبه ما شرحت من التصابي هوى مرّت عليه يد السنينا

ثمّ يتخلّص بعد ذلك إلى ذكر الممدوح فيصفه بأنه عريق المنبت

والشاعر الأديب. يقول:

عريق المنبت الشعاب فضلاً وممن هو أهله ومن الذين
فجاء يمس في برد المعاني بعيد الصيت قد حاز الفنونا
من السحر الحلال وأيّ سحر يكون لمثل معجزه قرينا
وأصبح بحره في الشعر عذبا فراتاً من معانيه معينا
فلو رضيت قوافيه الثريا تكون لها عقوداً ما رضينا
وكيف لها ولا تعلو وتغلو وقدر القول مثل القائلينا
كريم أصبحت نفس المعالي تراه عندها العين اليمينا
وحاز مناقباً جمعت لديه وأعظمها به ورعاً وديناً
أرى الدنيا وقد بخلت بمثل له في الفضل قد حلفت يمينا
فكان بها وليس له نظير وأصبح للعلا فيها خدينا
ألا يا أيهذا الحبر عذرا فما التقصير غير لنا وفينا
فلو أعطيت قدرك في مديح لكنّا بالركاكة قد هجينا
ولو سجد القريض إلى زعيم

ولكنّا نقول على يقين مقامك فوق وصف الواصفينا
فخذها من بنات الفكر عذرا إلى عليك قد ركنت ركونا
ووارِ عوارها إن كان فيها وكانت لاهجان ولاهجيننا
ودم ولك السلامة حيث كانت عليك من الردى حصنا حصينا
مشيداً للمكارم والمعالي عزيز الجاه بين العالمينا^(١)

ومن شعر الإخوانيات التهاني للأصدقاء ومشاركتهم
أفراحهم، ومن ذلك تهنئة أحمد إبراهيم بن أحمد البري^(٢) للخطيب خير
الدين الياس^(٣) بولاية القضاء سنة ١١١٣هـ حيث يقول :

ملبوس عز وفخار وإن أتت عليك قبله بالفخار
وحلية خصتك لكتّها عمّت محبّيك بكل المسار
فاهناً بها وطر برغم العدا وابشر بما فيه زوال المضار

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) - هو أحمد إبراهيم بن أحمد البري ، ولد سنة ١٠٥٠هـ ، كان فاضلاً ، عالماً
أديباً متكلماً، انتهت إليه رئاسة الخطباء والأئمة في وقته، تولّى إفتاء الحنفية
سنة ١١٠٤هـ ، ونيابة القضاء مراراً ، توفي سنة ١١٣٠هـ . تحفة المحبين ص
٩٤ ، تراجم أعيان ص ٣٥ .

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٠٨

واعذر فتى أقعده حظّه
لكن تقادير الإله اقتضت
بقيت ما لاح هلال النهى
ودمت ما صاح فصيح الهزار
من غير ما قصد ولا إختيار
وليس للعبد عليها اقتدار

فأجابه خير الدين الياس بقوله:

يامن عليه في العلوم المدار
يا كعبة الفضل الذي يّمت
يا ابن الألى سادوا الملا بالعلا
بعثت يا فرد الزمان الذي
منظومك العذب الذي قد حكى
شرّف عبد الله كاتبته
هنيئته بملبس بشره
لازلم للفصل أهلاً ودم
وما تغنى فوق أيك العـلا
بربوة المجد هزار الفخار^(١)
ومن إلى علياه يعزى الفخار
تلقاءها الوفا^(٢) من كل دار
إرثا وشادوا المجد عن إختيار
أضحيت فيه بهجة وافتخار
برقة اللفظ حوالي العذار
على الوفا بالصدق والانتصار
يتم لو عنكم برفع المضار
تم ما بدت شمس وضاء النهار
بربوة المجد هزار الفخار^(٢)

وبمناسبة العيد يهنئ الشاعر أحمد الجامي^(٣) محمد أسعد^(٤) وأيضاً

(١) - الوفد تجمع على وفود وأوفاد وليست على الوفا . لسان العرب (وفد).

(٢) - تراجم أعيان المدينة ص ٣٥

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٧٢

بمناسبة ارتقاء ابنه عبدالقادر أسعد^(١) المنبر خطيباً لعيد الفطر . فيقول:

وساجع يمنه غنى وغرد	أدر كأس الهنا فالدهر أسعد
لوامع حسننها في كل معهد	وأنوار القبول لقد تجلّت
وفتوى عقد جوهره محمد	فحق بأن نهني بيت فضل
علاه عن أب وكذاك عن جد	خطيب المنبر المكّي من قد
أثيلاً في المقام به تفرّد	ومن بين الأئمة حاز مجداً
مكانته وسؤدده وأبّد	أدام الله رفعتة وأعلى
بقرّة عينه النجل الممجّد	وألّبسه جلايب التهاني
بعيد الفطر فايق كل مشهد	ومرقاه بمنبرهم خطيباً
يريه جماله في كل معبد	ولا زال الإله الفرد فيه
رئيساً مفرد العلماء أوحّد	وبين أولي العلوم يراه صدرا
من الجامي والمدني أحمد	وهاك أخوا المكارم در نظم
بديعاً فائقاً في الحسن مفرد	على قدر البضاعة لو تراه
كما أبدوه في العذر الممهّد	على مقدار مهديها الهدايا
فدونك صاح سكره المبرّد	دعا في محض ودك للتهاني
عن التاريخ لما عنه تنشد	وقل يا ابن الكرام برفع حس

(١) - هو عبدالقادر بن محمد أسعد. انظر ترجمة والده ص ١٧٢ أما هو فلم

أعثر له على ترجمة.

مجيئاً هاكموه بشرط بيت خطيب العيد عبدالقادر أسعد^(١)

ومن شعر الإخوانيات ما يرسل به الشاعر إلى صديقه معاتباً له،
فصفو العلاقة لا يستمر على حال بل غالباً ما يشوبه ما يعكّره، وممن
أكثر في هذا الجانب من شعراء هذه الفترة الشاعر جعفر البيتي، حيث
تعدّدت علاقاته وكثرت صداقاته، وبالتالي كثرت قصائده ورسائله إلى
هؤلاء الأصدقاء، فتارةً يطلب مالاً وتارةً أخرى يطلب وظيفة، وكان
عدم إجابة مطالبه مدعاة لنظم شعر الشكوى والعتاب.

فمن ذلك قصيدة كتبها إلى أبي طاهر محمد بن إبراهيم
الكوراني^(٢) سنة ١١٥٨ هـ يمدحه ويطلب منه أن يعطيه ثم يعاتبه لأنه
طال انتظاره لهذا العطاء.

يقول:

أيها الحبر لا عدمنك بجرأ	سائغاً في الورود للآمال
قدوة للكرام في كرم الأخلا	ق داع إلى سبيل المعالي
لِمَ يا غيث ما أغثت عموماً	فهني سيما للوابل الهطال
كان ظني بك الجميل وأهل	أنت للخير يا حميد الفعال
أنت يا كامل الخلال مديد ال	أيد في الجود وافر الأفضال

(١) - نوافع الزهور ٩٧

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢١٣

فستفقد مواتنا بولي من عطاياك دائماً مهلال
 إن كيسي من البحور خفيف فيه طي عن فاعل وفعال
 ورجائي عن بال سيدنا الشيب سيخ عجت ما كان يوماً ببالي
 لا تكفوا طويل رجواي فيكم فقيح كف البحور الطوال

إلى أن يقول :

عز جاه الدينار قدرا وبئس ال حظ حظ خلا من الأموال
 قد وصلنا في ظاهر وحذفنا باطنا مثل همزة الاتصال
 وبقينا كما علمتم قديماً نرتعي بالرجا هشيم الحال
 لوغدا الحال عندكم نصب عين ما رضيتم إلا انتصاب الحال
 غير أنا نرجو بديع التفات ولكم شكرنا على كل حال^(١)

وهناك قصيدة للبيتي في مدح إسماعيل أفندي^(٢) جلبي زاده وقد
 ترددت في موضع إيرادها بين شعر المدح وشعر الإخوانيات، ولكنها
 إلى الإخوانيات أقرب حيث أنها تحتوي على عتاب أخوي، وقد قال
 عنها البيتي (وكتبت إلى أخي إسماعيل سنة ١١٥٨ هـ).

يستهلها بمقدمة غزلية طليّة حيث يطلب من صحبه أن يقفوا به

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ١١.

(٢) - سبق التعريف به ص ١٣٦.

في طول السقم الذي أنهكه حتى جعله أقرب إلى الأطلال الدراسة ،
وسبب هذا السقم الذي أضناه ظباء نجد .

يقول :

قفوا في طول السقم منّي واندبوا
قفوا طالعوا في نسخة السقم إنها
لنا معكمو يا معشر السفر حاجة
إلى أرض نجد يا سقى نجداً الحيا
وما حاجتي في نجد لولا ظباؤه
فإني من الأطلال أولى وأقرب
تنص حديثي والمدامع تكتب
رسائل شوق تحملون وتصحبوا
وساجله من مزن عينيّ صبب
ولا في الظبا لولا مع السرب زينب

إلى أن يتخلص لوصف ودّه لإسماعيل أفندي ومدحه ، حيث

يقول :

وودّي لإسماعيل عاصم عاصمي
وشرح وجيزي بل نهاية غنيبي
إمام الهدى صدر الشريعة عينها
هو الكنز لكن رحمت مسكينه أنا
فإن يك قاضي خان من قبله فذا
نشرت صنوف الفضل فينا بطيبة
وحزت فنونا من ضروب مدائح
إذا فقد الأيتام مثلك قاضياً
ينازعني شوقي إليك وليتني
على الدهر لي منه أليّ وموكب
وبجري الذي في الود يصفو ويعذب
وينبوعها الوافي المحيط المهذب
فأشرحه طوراً وطوراً أبوّب
حقيق به ما قط خان التنصّب
ورحت ولكن نشر طيبك طيب
لها في حمى عليك مثوى ومضرب
فلا أمّ للأيتام يوماً ولا أب
ومن لي بأنيّ في حماك أطنّب

أروح على صدع الزمان مشعباً ولم يجد في عرقوب أني أشعب
كداعٍ أبحّ للأصمّ وملمع لأعشى لقد جدّيت والدهر يلعب

ومن هنا يبدأ في عتاب إسماعيل أفندي الذي يبعث الرسائل إلى
بعض أصدقائه ويطلب منهم أن يبلغوا البيتي سلامه، فهو يعتب عليه أنه
لم يرسل له السلام مباشرةً ولم يخصه برسالة ، فيقول:

ومن شوم سوء الحظ أنك عارفي وتعرض عمّا قد عرفت وتضرب
وترسل أوراقا إلى الغير ملحقا سلامي بها في ذيل طرسك تكتب
أظن جرى في أرضكم قحط كاغد وقحط على الأقلام والخير مسهب
فأرسلت عتي سائلاً متطفلاً ولولا الهوى والود ما كنت أعتب
عذرتك لاتاجي ولي فروة ولالي شخشير ولالي جورب^(١)
ولكن قفا نبكي وأشباهها معي أصرّ بها ليلا كأنني جنذب

ثم يسهب بعد ذلك في ذكر حاجته وفقره، وإن ثروته هي
شعره وعلمه، ولكن كنزه هو ممدوحه اسماعيل أفندي ، فيقول:

ولاتركونا بين قالٍ وشامت ومغرور مغتاب ولاح يؤنسب
فأنتم لنا بقراط حكم وحكمة مريض الأماني عندكم يتطبّب
وإني متى ما دمت لي وبقيت لي فذيلي على هام السحاب يسحب

(١) - الفروة : ما يخلعه الأتراك على من يولونه منصب . الشخشير : يظهر أنه
لباس تركي رسمي لأولي المناصب.

على كل حال أنت كنزي وقنيبي
 مناط ودادي والمحبة والهوى
 وهذا أنا البيتي لامتشيع
 عليك سلامي والتحيات والثنا
 ودمت فداك الدهر من كل حاسد
 مكمل نادي الفضل مُستبطن الندى
 على خير حال في نعيم وغبطة
 مدى الدهر ما أنشى الرواة وأنشدوا
 لغيرك لا أبغي ولا أتطلب
 فمن شاء لي يرضى ومن شاء يغضب
 لغيرك في دهري ولا متنصب
 وفرض دعاء يُستحب ويُندب
 وعشت لنعمى بينها تتقلب
 لسوقك أصناف المدائح تجلب
 لسعدك في أوج السعادة منصب
 قفوا في طول السقم مني وأنذبوا^(١)

ويستهل البيتي ديوانه بقصيدة لم يذكر من وجهت إليه ولكنه
 يذكر إسماعيل في أثناء القصيدة ، ولعله إسماعيل أفندي السابق الذكر
 حيث تتكرر نفس المعاني في القصيدة السابقة فهو يذكر حبه الكبير
 لإسماعيل وعتبه عليه.

ثم يصف حالته ويذكر أن الدهر لم يعطه حقه ولم ينزله المنزلة
 التي تليق به ويستحقها، فيقول :

تعاور الدهر عني مع تصاممه
 لولا تغافل أهل الفضل عن خبري
 وجئت من جهة الصماء والعمور
 ماعدت في ينبع من كاتبي العشر
 صناعة لست من أكفائها فرشت
 فوق الأسنة لي ضيما على الأبر
 ولم يكن وعداك الذم يلحقني
 وحدي فأحزاب ذلك الصف في زمري
 قد كنت أعذركم في دولة خلعت
 بالأمس مشبورة ولّت إلى سقر

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٤٥

واليوم رأية أهل العلم قد رفعت بشرى عرابتها بالفتح والظفر
فليهنكم نفحات الدهر قد نفحت لله فيكم ولازال الهسيء مري
واليوم عذرکم إن كنت أعذرکم فذاك من عجري معكم ومن بجري
فانهض بخرقة فضل بيننا اشتركت بغيره منك واغسلها من الغير

ثم يحتتم القصيدة بوصفه لكثرة ما كتبه حتى أنه تطير من شعره
الذي يكتبه لأنه لم يجلب له الحظ، فيقول:

وقد كتبت وأحفيت اليراع وأظميت الدواة بشمّ الرقّ بالخبر
حتى تطيرت مما نمتته يدي فيه وأصبحت منه آخذاً حذري
فكم عرائس اهدينا لحضرتكم وغيرها طلقت كرها بلا مهر
أرى نصيباً قد استوفى شماتته على هشام مع الآصال والبكر
رضيت منك بأن تبقى وتمطلني وأن تؤدّي الليالي نحوكم غرري
ودمت تهدي مواعيدي وانظرها وعشت ما بين مهدي ومنتظر^(١)

وللبيتي قصيدة يعاتب فيها الشريف مساعد^(٢) شريف مكة عندما
عزل أخاه عن الوزارة سنة ١١٦٩هـ، ويتحدث البيتي في القصيدة
وكأن المعزول جعفر البيتي نفسه، ولولا ما كتب قبل القصيدة لقلت إنه

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٢.

(٢) - سبق ترجمته ص ٢٤

هو الذي عُزل عن الوزارة^(١) يقول:

سقى سارياً صوب الغمام وغاديا
سقاها ولولا الربع زاد ملوحة
قفنا نودع الركبان شكوى ولوعة
إلى دارنا بين العقيق وحيّنا
سلاني أو لاتسألاً عن قضيتي
لي الله يا لمياء بين وغربة
فؤادي معكم بالمدينة شاميا
وكنّا حمدنا من لقاكم لياليا
هنيئكم ماء العذيب وعيشكم
لقد أوثقت أيدي المقادير همّي
استرّ سقمي بالثياب عن الوري
رويدك يا برق الغوير فلم تزد
سلامي على بعد الديار عن الغضا
ملاعب من وادي الشظا وملاهيها
من الحزن ما اخترنا سوى الدمع ساقيا
عسى الركب عنّا يحملون التشاكي
سقى الله حيي بالعقيق وداريا
فإن الهوى لما ابتلاني سلانيا
لمن اشتكي لا أسرتي لاحماتيها
وجسمي ما بين الحجون يمانيا
فابعدتم حتى ذمنا اللياليا
ولاتسألوا عن حال عيشي ومائيا
إلى الله أدعو أن يحلّ وثاقيها
ويبكونني لو كان يبدو سقاميا
شجوني ولا ذكرت من كان ناسيا
لعل الغضا يلقاه مني سلاميا

(١) - ذكر الأنصاري في ترجمته للبيتي أنه تقلد وزارة شريف مكة في المدينة، والبيتي في هذه القصيدة يتحدث عن ذاته ومعاناته وما أصابه من جراء هذا العزل عن الوزارة، فلم يكن ثم ما يشير إلى عزل أخيه الذي تولّى الوزارة هو الآخر، ولكننا هنا نثبت القصيدة ونذكر هذه المقدمة التي وردت في ديوانه نسخة مكتبة آل الصافي، حيث أن هذه القصيدة لم ترد في ديوانه نسخة مكتبة عارف حكمت.

ولولا الغواني ما ذكرت المغانينا
وعادت رعونات الشباب كما هيا
على أنه ما زاد إلا تماديا
بنيت لها فوق السماء مكانيا
وكان لنا المولى وكنا مواليا
وأنكرت يا لمياء ما قد بداليا
وما حيلتي إن كان دهري جفانيا
وإن سرت بين الناس نكست رأسيا
تخطّر قدّامي وكان ورائيا
رضيت به إن كنت عتي راضيا
عيون العدا عتّا وتحزي الشوانيا
وضاعفت أخرى غربة عنك ثانيا
فليتك لم تسلب ولم تك كاسيا
رمينا بسهم فرّق الدرع خاطيا
وما أحسن الاعداء تكون مراميا
بلا سبب أشمتّ فينا الأعـاديا
ويجري لنا بالأمس ما كان جاريا
إذا كنت بحرا ما تمل المساقيا
وما أقرب التعويض إن كنت ناويا
إلينا وإن كنّا جميعاً مساويا
فكيف ومن عشرين عاماً وداديا

مغاني الغضا لا أبعد الله دارها
إذا عاودت لمياء عادت عهدها
لعينيك يا لميا صبرنا على الجفا
وقد عاضنا عنكم مساعد رتبة
قضينا زمانا خدمة ونصيحة
ولكن عدا عمّا بدا سابق القضا
جفانا ورحنا لاهنالك ولاهنا
أظل قعيد البيت يومي وليلي
ولم يبكني فيما جرى غير شامت
فرأيك يا ابن الأكرمين موفق
ولكن نرجي منك تكسر ظاهرا
وكنت غريباً واحداً فجفوتني
كسوت برود العز ثم سلبتها
بأية ذنب يا لؤي بن غالب
وكان العدا أولى به من صديقكم
صدودك عتّا ياله من وجيعة
لعلّ التفاتاً منك يوجه الرضى
وما أنا وحدي لي عليك معول
قضى ما قضى الباري وفيك معوض
وما أحسن الإحسان إن كنت محسنا
لصحبة يوم في المودّة حرمة

سنين مضت أبغي لك الملك داعيا
 فلما استجاب الله في ذاك دعوتي
 وأرجوك في ترميم حالي وشانيا
 بقيت على ما كنت حالي حاليا
 عسى الحظ يا لمياء قد كان غازيا
 فيرجع يوم من مساعد آتيا
 يقولون خذ فال الرجال من اسمهم
 مساعد فالي نعم ذا الفال فاليا^(١)

ومن شعر البيتي في العتاب ما كتبه إلى عبدالله جليي بالي^(٢)،
 حيث يعاتبه على هجره له بلا سبب يوجب هذا الهجران، ويتهمه بأنه
 أساء الظن فيه ويرجع ذلك إلى الوشاة. فيقول:

أبا عليّ حمّاك الله كيف ترى
 أشكوك للودّ ما بيني وبينك في
 هجري بلا موجب منّي ولا سبب
 هذا التنكّر والإعراض والغضب
 أثمت فيّ بسوء الظن واعجبا
 من ذاك مع حسن ظني غاية العجب
 الله أكبر ما بالعهد من قدم
 تسري الظنون به في ظلمة الريب
 فيالزرع ودادي من أبي لهب
 واشيك وامراته حمّالة الحطب

(١) - ديوان البيتي نسخة م آل الصافي ص ١٠٠

(٢) - هو عبدالله بن محمد بن عبدالله بالي زاده، ولد سنة ١٠٩٧ هـ، وصفه
 الأنصاري بأنه كان عاقلاً كاملاً، وكان كتحدا نوبجتيان (كبير عسكر
 المناوبة) قديم سنة ١١٤٨ هـ، وكانت في أيامه فتن كثيرة بين العسكر ثم
 عزل وأقام بوادي الصفراء مدة ثم رجع إلى المدينة إلى أن قتل سنة ١١٥٦
 هـ. تحفة المحبين ص ٩٩.

إن خمر سقف جفاكم فوق ألفتنا
 قد بعتمونا زمان العسر وأتضحت
 فأنتم من كثير الأصدقا سعة
 وأين للودّ من واف بضائقة
 فإلوم يلحق آوي المنزل الخرب
 لينا المزايا فحق الحمد للنبوب
 لا في الخطوب نرجيكم ولا الخطب
 ما هم شاهد هيجاها على الهرب
 حالاً تميّز بين الجد واللعب^(١)

وكتب حسين بن يحيى هاشم^(٢) إلى جعفر البيتي معاتباً له على
 عدم زيارته في مرض ألمّ به ، فلمّا وصل حسين إلى البيت الثاني عشر
 أرتج عليه عند قوله (يوم الخميس) فأرسلها إلى البيتي فأكملها على
 لسانه، ثم أجابه بالقصيدة التي تليها. يقول حسين هاشم :

أحمّامة الوادي أطلت توجّعي
 واستدركي منّي بقايا مهجة
 في حبّ من سكن الحشا واختاره
 أعني العزيز بن العزيز أخا الوفا
 إن كان أقصاني وأنكر صحبتي
 لا أرعوي عن حبه لا أنتهي
 إن كنت مسعدة الكئيب فرجّعي
 ذابت أسى وصبابة بتوجّع
 داراً له بين النقا والأجرع
 الكامل الشهم الزكي الألمع
 فأننا المواصل حبله لم أقطع
 إن كنت أصدق في الهوى أو أدّعي

(١) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٢٥.

(٢) - حسين بن يحيى بن حسين الموسوي الحسيني، شاعر، ذكر الانصاري انه كان
 كثير الاسفار، توفي بالمدينة سنة ١١٦٧. تحفة المحبين ٤٩٠.

إن كان يا مولاي هجري واجب
أو ما سمعت حديث جدك قال : لا
إنّ المحب من المحب يسيره
لاتبلي بقلا على بعد فلم
هب أني جلد فأية صخرة
فانعم وجد بزيارة فلعل أن
وأهنأ بما قد نلت يا رب الحجى

فالعفو طبع في الكريم الأورع
تهجر أخاك ثلاثة بتتبع
يرضيه فارغب في الصنعة واصنع
تَرَ ثاني الاثنين إلا مصرعي
عبث السقام بها فلم تتصدع
أشفي بها من سقم حرّ المضجع
يوم الخميس مع الغزال الأتلع

ثم يكمل البيتي القصيدة بعد ذلك مصدقاً لظن حسين هاشم
بانشغاله عن زيارته بقصة حب وغرام، حيث يصف له البيتي معاناته
الغرامية وحواره مع الحبيبة، ويذكر أن خبر هذه القصة الغرامية قد
كشفتها الحمامة التي يخاطبها البيتي على لسان حسين هاشم في معظم
الآيات. يقول:

غبتم وأبعدتم وصدتكم مـعاً
وغنمتمو يوماً تخلستم به
فظللت مشغوف الفؤاد لأجلكم
وأصابع العطار أساله دوا
وأنت إلينا في الصباح حمامة
طيري إليهم واقعدي عند الجلا

عن مغرم بكم معنى مولع
من دوننا سرّاً بذاك الموضع
وحدي ولاصبري ولاجلدي معي
قلب تغشاه الغرام فلا يعي
قلنا لها روعي هنالك واسمعي
وترنمي لهم وغنى واسجعي

وتأملي ذاك المقام وبادري بالعود قبل الظهر نحوي واسرعي
 فغدت وغابت ساعة وأتت بما قد كان بينكم بذاك المجمع^(١)
 وهكذا إلى آخر الأبيات حيث تدور حول هذا المعنى .

وقد أجابه البيهقي بقصيدة استهلها بمقدمة غزلية يذكر فيها الأيام
 الخوالي ثم يلوم الحمامة على نقلها الخبر لحسين هاشم حيث زادته على
 مابه من مرض، وأمرها أن تعود إليه لتكذب هذا الخبر.

يقول في مطلع القصيدة :

يا يومنا بحمى النقا والأجرع حيا الحيا وسقاك فائض أدمعي
 يوم غنمت به السرور وزارني فيه الرشا الفتان بعد تمنع

ثم يقول في لوم الحمامة :

ما كان طبعك يا حمامة هكذا لو كنت أعلم كنت غطيت الجلا
 حتى نقلت للشريف حديثنا فتحررت أشجاناه بتولع
 كانت به الحمى فزدت به هوى لم تفعلي الإنصاف معه ولا معي
 عودي إليه فأصلحي ما أفسدت أيديك واعتذري لنا وتشفعي
 واخفض جناحك يا حمام تجاهه واسجد وصل له اعتذاراً وارقع

(١) - مساجلات شعرية جمع جعفر هاشم ص ٣ ، ديوان البيهقي ٧٧ ، ٧٨

قل سيدي إني كذبت عليكم ما كنت فيما قلت إلا مدعي
ما ثم ظبي ما رأيت مهفهفا كالبدر يطلع في سماء السرّقع

ثم يقول على لسان الحمّامة تخاطب حسين هاشم:

إن قلت يلزمني الطلاق وإنما كذبت عيوني يا شريف ومسمعي
في الحول لي يوم أجنّ به وهو يوم الخميس فلا أفيق ولا أعي
أتصدق المجنون في الأخوان أم تصغي لمسلوب الفؤاد مضيع
وأقلّ أفعال الجنون حكايتي هذي وفعلي للفظيع الأشنع
فاغفر وإلا هاك ريشي قصّه هذا الحشا عدّبه هذي أضلعي

ثم يطلب من الحمّامة أن تبالغ في الاعتذار له فيقول:

بالله ربك يا حمّامة بالغي في العذر عنا عنده وتصّعي
قولي وجدّي في المقالة واحلفي وتذللي وابكي له وتخضعي

ثم يقول حسين هاشم بأنه وإن فرح يوماً واحداً فإن حسين
فرح أيّاماً أخرى فكيف يلومه على هذا اليوم .

يقول:

ما يفرح المحزون يوماً واحداً وفرحت أنت بأربعين أجمع
وركضت ألفاً في الخلاعة والصبا وحسدت صنوك في ثلاثة أذرع

ثم يذكره ببعض ما جرى في تلك الأيام، فيقرره على ذلك فيقول:

هذا جرى يا صنو أم أنا مدّع زوراً تفضّل بالجواب وأسرع
 لكن ما نظر البعير سنامه ورأى سنامي وهو عرض الأصبع
 هب قد جرى ذاك الحديث ولا جرى فاسمح بفضلك عن مقرّ مقلع

ثم يختتم القصيدة بقوله:

أنا في رضى مولاي يا مولاي إن ترضى فحقّ ذي المقالة واقطع
 ومتى تتب فأخوك بعدك تائب وإذا رجعت إلى الغواية نرجع
 واسلم ودم ما قال صبّ مغرم يا يومنا بجمى النقا والأجرع^(١)

(١) - مساجلات شعريّة ص ٣.

- ديوان البيّتي نسخة عارف حكمت ٨٧

ويعاتب علي الفرضي^(١) عمر الداغستاني في عدم تحقيق أمر
قصده من أجله ، ويذكر أن الداغستاني هجره من غير ذنب .
يقول:

ألا يا سراج الدين يا كهف ملجأ ويا غوث ملهوف دهته النوائب
ويا حبر جود فاض من فيضه الندى فمن أمّة حفت لديه المطالب
فيا سيّدي ما بال قصدي لديكم غدا لم يساعف حين تقضى المآرب
فهل ذاك من ذنب من العبد قد بدا فلا توجبوا الهجران فالعبد تائب
أقبلوا عثاري إن أسأت فإنكم لمن أهل مجد هم خيار أطايب
ولاتشمتوا فينا عدوّاً معاديا فصابون أحشاء الصحاب التعائب
وهنيمتوا بالحلم والفضل والنهي وعند إله العرش تعطى المواهب^(٢)

فأجابه الداغستاني بقصيدة يعتذر فيها، وينفي ما زعمه الفرضي

من سلوّ الداغستاني عنه. فيقول:
أبا الحسن اعذرني فإني آيب وسامح محبباً للسماح يراقب
فإنك أهل الحلم والفضل والنهي وذو همم تحكي نذاك السحاب
بعثت بأبيات لنحوي كأنّها من الحسن في أفق البيان كواكب
زعمت بها أني سلوت الوداد إذ تأخّرت عنكم، لا ومن هو واهب

(١) - سبقت ترجمته ص ١٦٢ .

(٢) - تحفة الدهر ٨٦ .

فكيف معاذ الله أصبح ساليا
ولكن صروف الدهر أضحت تعوقني
وإنني لمشتاق إليكم ومهجتي
وما كان تأخيري من الهجر والقلا
وكل الذي أبصرتم من تأخري
وهذي الدنى ليست تجئ على الهوى
تكدر ما بين الأحبة إن رأيت
فسامح ولو أخطأت ياخير صاحب
فإني خجول منك أقوى خجالة
فلازلت أهلاً للسماحة والعلا

لخدني الذي لي معه تصفو المشارب
بأن ألتقي معكم وتقضى المآرب
وحق إلهي للوصال تطالب
أولا القلب في إخلاصه الرد كاذب
لأمر به عقلي من المهم غائب
ولاتشتهي أن قد تنال المطالب
على راح صفو قد تصافت حبايب
فذلك عند الأكرمين مناقب
وفي مهجتي من شدة الشوق ضارب
وأهل البها والعز ما حنّ صاحب^(١)

ومن شعر الإخوانيات شعر الاعتذار والشكوى ، حيث يعتذر
الشاعر لصاحبه عندما يبلغه عتب هذاالصاحب ، وكذلك يشتكي
لصاحبه ما يعانيه في حياته ويث إليه أحزانه وهمومه .
فمن ذلك قصيدة للبيتي مجيباً بها على كتاب وصله من يحيى البدين
يتقاضى دينا على والد البيتي سنة ١١٣٩ ولا تخلو هذه القصيدة من
سخرية وتعريض بالمتقاضي ، وقد استهل القصيدة بمطلع غزلي حيث
يتذكر الأيام الخوالي ، فيقول:
يا زمان الهوى وعهد التصابي إنما أنت من شجون الشباب

(١) - تحفة الدهر ٨٥.

ووقوع المشيب في الرأس واش
فسقى الجزع والكثيب وبان الـ
ورعى الله معهداً راجعتنا
ودواعي الوصال وافرة الأسباب
من لطاف الخصور فلج الثنايا
في خلال الحباب والأحباب
منحنى والعقيق ساري السحاب^(١)
فيه أيام زينب والرباب
ب إذ ذاك بالحسان الكعباب
أعين العين فتنة الألباب

وينتقل بعد ذلك إلى مدح يحيى البدين، ثم يعتذر منه عن سداد الدين حيث أنه ليس في ذمته كما أن حالته المادية لا تمكّنه من سداده، فيقول:

ما بعثنا السلام يهدى إلى حضـ
الأعزّ الأجلّ عندي قديم الـ
من أتانا منه على وفق ظن الصدـ
زاعماً بالولاء منه ولا بأـ
ياله من ولاء صدق منوط
يقتضيـني الوفاء في دين مال
وهو في ذمّة الذي قد توفّي
فبأيّ الوجوه يا أيها الشـ
رة يحيى البدين عالي الجناب
عهد وداً خلاصة الأصحاب
صدق ود ينصّه في كتاب
س من ولاء بأمر مشاب
بادعاء في غاية الاضطراب
برئت منه ذمّي في الطلاب
وقديماً قد آذنت بخراب
يخ تقاضيني بغير الصواب

(١) - المنحنى : موضع له ذكر في الغزل بأماكن المدينة ، بقرب المصلى شرقي

بطحان. وفاء الوفاء ٤/١٣١٤.

أعمال رأيته فاض عندي من تراث أدركت أم باكتساب
كون أن الشريف يصبح بالما ل غنياً أمر عجيب العجاب
فدعاء الكفاف يأبى عليه سعة الارتزاق من كل باب
فلتكن عاذراً إذا أنا أعرض ت ولم التفت لذلك الخطاب
لم أجد للذي سألت محلاً فرأيت الجواب ترك الجواب
ثم لما كررت في ذاك قولاً في كتاب حوى جزيل العتاب
وترآى لك الغنى فيّ حتى قد تلقيت ذاك من ميزاب
فتعجبت كيف ساغ لك الجز م بأمر ما خلته في حسابي
غير أنني رأيته منك بشرى تُرتجى من خزائن الوهاب
فال خير لعله نظر الشيد سخ إليه هناك في إسطراب
وعلى جملة المقال فأرجو ذاك من غير هذه الأسباب^(١)

وكتب البيتي إلى الشيخ محمد بن إبراهيم الكوراني^(٢) عندما بلغه
عتاب الشيخ لاستصحابه كتب الوقف المحبوسة على المدينة خاصة إلى
ينبع، وقد استهل البيتي قصيدته بمقدمة غزلية استهلها بقوله:

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ١٤ .

(٢) - هو أبو الطاهر محمد بن إبراهيم بن حسن الكوراني، ولد بالمدينة سنة
١٠٨١هـ، فقيه ، ولي إفتاء الشافعية مدّة، توفي سنة ١١٤٥هـ . تراجم أعيان

المدينة ص ١٠٤ ، سلك الدرر ٤ : ٢٧ ، الأعلام ٥ : ٣٠٤ .

أشجى صدوحك في الرياض فرجعي واروي لنا خير اللوى والأجرع
وترثمي بحدِيث من سكن الغضا وحدث أشجاني به وأبكي معي

ثم ينتقل بعد المقدمة إلى مدح الشيخ فيقول:

بحر العلوم الشيخ طاهر من رقى رتب الكمال فحلّ أشرف موضع
شيخه وأستاذي إمامي قدوتي في الفضل معتمدي ملاذي مرجعي
علم الهدى إنسان عين زمانه الكامل الحبر التقي المتورع
محيي علوم الدين حافظ سرّه الـ مكنون جابر شعبه المتصدع
جمع الحديث مع القديم درايةً في قلب يقظان ذكي لودعي
وصفات فضل لاتقوم بحملها الـ ألقاظ وهي كمثل حبر المعى
وعلى كلا الحالين فهو حقيقة فوق المديح وفوق دعوى المدّعي
يامن به يزهو القريض وينثني عجباً به في المنتهى والمطلع
حزت الفضائل يا بديع زمانه سبحان خالقك الحكيم المبدع
ابداً أخصّك بالثناء مودّة منّي بغير تكلف وتطبيع
ولك اليد الطولى بفيض معارف وقعت من المملوك أحسن موقع
وكذاك أسباب الوداد قديمة عندي ولست لحقّها بمضيع
وبها تساقطنا الغبون فلم تكن تقفو العثار معي ولم تتبع
ونما إليّ اليوم أنك واجد عتياً عليّ لأجل أخذ المجمع
فأردت أوضح وجه عذري والذي أجا إلى ذاك الفظيع الأشنع

وأجلّ عذر لي هنالك أني
 خلّاً أنيساً للغريب لعله
 أصحبه ثقةً بفضلك لي معي
 ينجو به من هول وحشة ينبع
 والبوس فيها في شهر أربع
 في بلدة كابدت أنواع العنا

ثم يسترسل بعد ذلك في وصف سوء حاله في ينبع وصعوبة
 العيش هناك، حيث يتخذ ذلك ذريعة لأخذ الكتب لأنها هي الخِلاّ
 الوحيد الذي يؤنسه في وحشته.

إلى أن يقول:

بين الرجا والياس لم يك بينه
 كيف السبيل إلى الخلاص فقد وهي
 والموت إلا قدر عرض الإصبع
 جلدي وما أجدى عليّ تشجّعي
 لا بد من فرج قريب ها أنا
 أدعو له المولى القريب إذا دُعي
 طاف البداوة فوق ظهر الأصمعي
 إلا بمعنى من مديحك مترع
 بك عند فضلك في خلال تضرّع
 وحواشياً من نسجها بشفاعـة
 واصلم ودم وابق عزيزاً منعما
 بتمام قصد الضارع المتشفّع^(١)

وكتب البيّتي - أيضاً - رسالة إلى أحمد بن يحيى الأزهري^(٢) معزّيّاً

في ابنه ومعتذراً عن ذنب توهمه - كما قال - منه سنة ١١٥٣هـ ، وقد

(١) - ديوان البيّتي ، نسخة عارف حكمت ٢٣

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٤٣

بدأ الرسالة بالنثر وبعض الأبيات ثم اختتمها بقصيدة طويلة استهلها
 بالتعزية للمذكور، ثم انتقل إلى الاعتذار، حيث يقول:

واستر على هفوة ظنيتها عجلا
 تخرصا وأحاديثا ملفقه
 الله أكبر ما بالعهد من قدم
 ولم يكن بيننا في العذر سابقة
 فكيف ترتاب في ودي وتغرم في
 إن كان أخطأ ظني إنَّ مالك من
 فإن ملزوم ذاك الود من جهتي
 فلمْ أو اعذر وافعل ما تشاء فلا
 وقد يجوز إنقلاب الود عن سبب
 وتلك دعوى وإنَّ الله شاهدها
 إن كان أمسى لنا ترك الوفا لقبا
 وكيف يرضى بوصف النقص ذو حسب
 ونسبة الغدر بأباها اللئيم فما
 كتنا نرجي آتانا في ظنونكم
 واليوم نحن كما ظنَّ العدو بنا
 فلا سؤال ولا علم ولا خير
 وقد فعلتم من الإعراض غايته
 دمتم على كل حال عندنا لكم
 جاءتك من مخطئ في القول لم يصب
 ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
 تسري الظنون به في ظلمة الريب
 تلجى إلى العمل الملجى إلى الغضب
 قطعي وتسرف في لومي وفي عتي
 مالي وحالك حالي أو أباك أبي
 والانفكاك إذا انصفت لم يجب
 عدوى وإني عن ذا الذنب لم أتب
 لكن ودي ببرج غير منقلب
 والله يعلم ما بين الضلوع خبي
 فبئس والله بين الناس من لقب
 وليس يرضاه غير الساقط الوشب
 تظن في هاشمي الجد مطلي
 عين الصديق وأنا نخبة النخب
 لا في الخطوب ترجونا ولا الخطب
 تجنبا منكم من غير محتنب
 مثل السليم توقى موضع الجرب
 فرض الدعا وعسانا فيه لم نجب

ولا برحتم بخير ناعمين به مع السلامة مقرون ومصطحب^(١)

ومن شعر الإخوانيات تقرّظ الكتب والشعر، فمن ذلك تقرّظ
للخطيب عبدالكريم الخليلي^(٢) على رسالة للخطيب أبي الخير
مغلباي^(٣) في مناقب الإمام^(٤):

جمع يفوق شقائق النعمان	حسناً بذكر مناقب النعمان
نظمت فرائده أنامل كامل	أضحى له ذكر عظيم الشأن
أعنى أبا الخير المضارع أمره	من قد مضى وعلا على كيوان
الفاضل السامي بحسن صفاته	أبدأ على الأشكال والأقران
فرع نشأ من دوحة المجد التي	سقيت بماء الفضل والتبيان
هو أحمد الحاوي لوزن الفضل مع	علمية جمعت شريف معان
عين الأفاضل مبتدأ خير الثنا	عن كل نذب من بني الأزمان

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٦٥

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٨

(٣) - هو أبو الخير بن أحمد بن أبي الغيث مغلباي الحنفي، الأديب والخطيب،
ولد بالمدينة سنة ١١١٥ هـ ، ونشأ بها، وأخذ عن الشيخ أبي الطيب
السندي ومحمد المغربي، ومحمد الدقاق وغيرهم. توفي بالمدينة سنة ١١٦٤ هـ
تحفة المحبين ص ٤٣٤ . تراجم أعيان ص ٨٠ .

(٤) - يقصد الإمام أبا حنيفة النعمان .

خَطْبَتُهُ أَبْكَارَ الْعَلَا فَأَجَابَهَا وبه استقلت عن حبيب ثان
لازال ذا الفرع العزيز وأصله في عز فخر عامر الأركان
ماقال من نظر الرسالة مادحاً جمع يفوق شقائق النعمان^(١)

وكتب أحمد الجامي^(٢) على سفينة أشعار لعمر الداغستاني:

لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى سَفِينَتِكَ الْنَفِيءِ سة يا سراج وذقت حلو جناها
وَرَأَيْتُ فِيهَا كُلَّ مَعْنَى يَشْتَهَى والفكر في باحاتها قد تاهها
حَوَّطَتْ خَرْدَهَا الْحَسَانَ بِمَا أَتَى بتبارك الفرقان ثم بطه
فَأَجَابَهُ عَمْرُ الدَّاعِغِيسْتَانِيِّ :

آيَاتِ حَسَنِ ذُو الْغَرَامِ تَلَاهَا وبطيب وصفك من جواه تلاها
هَلْ ذِي خُدُودٍ قَدْ صَلَّانِي جَمْرَهَا يا من يروى القلب برد لماها
أَمْ وَرَدَ أَكْمَامُ الرِّيَاضِ مَفْتَحَ تطفى أوار الوجد من رياها
أُولَى بِشَمْسِ الصَّدْعِ تَسْعُرُ بِالضَّحَى والليل من فرع إذا يغشاها^(٣)

ولعمر الداغستاني قصيدة قرّظ بها نظم قصيدة لزين العابدين بن

جمل الليل^(٤) :

(١) - تراجم أعيان المدينة ص ٧٣ .

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٣) - تحفة الدهر ٦٦

(٤) - هو زين العابدين بن علوي باحسن جمل الليل باعلوي ولد سنة ١١٧٠

قد أحجل الدر بحسن البيان
ويسكر السمع كبتت الدنان
كعقد أجياد الغواني الحسان
منظومة في سلك حسن المعان
بل إنه الزهر بوسط الجنان
أصداف أفكار بديع الزمان
الكامل الندب الفضيل المصان
فاز من السعد بأعلى مكان

لله ما أحسن هذا الجمال
نظم بديع قد حلا لفظه
له قواف راق إبداعها
مسبوكة في قالب اللطف بل
كالأنجم الزهر بأفق البها
بل درر أبرزها الخدق من
الفاصل الجحجاح مولى النداء
مولى سما في أفق المجد بل

إلى أن يقول:

يضوع مثل المسك بالزعفران
نظماً حكى الطل على الأحقوان
إذ هبّ فارتاح إليه الجنان
ممتعاً في ظلّ دوح التهان^(١)

يا أيها المولى الذي وصفه
اقبل بعذر من محب وفي
أو حبّ مزن أو نسيم الصبا
ودم بعون الله في عزّة

وقيل ١١٧٤، نشأ نشأة صالحة، أخذ عن علماء المدينة ودخل مصر وزيد
والعراق، فروى عن أجلة علماء بغداد، مات سنة ١٢١١ وقيل ١٢٣٥ هـ .
تحفة المحبين ١٢١، ١٢٢ تحفة الدهر ٢: ٦٣٩ الأعلام ٣: ٦٥ .

(١) - حلية البشر ٢: ٦٤٢

فأجابه زين العابدين على هذه القصيدة بقوله:

أغادة من خود حور الجنان	تتية إن ماست فتسبي الجنان
أم بكر فكر من خدور النهي	زفت بقينات بديع المعان
فاقت على أترابها مذ غدت	فريدة الحسن رداحاً حصان
أم راح ألفاظ حلا رشفها	من كف ممشوق رطيب البنان
راقت ورقّت فرقى هامها	تاج حباب فاق حب الجمان
ختامها مسك ومزوجة	بشهاد ريق من رحيق اللسان
فتارة يسقيك خمير اللمى	وتارة يعطيك بنت الدنان
حبابها مع لونها شاكلاً	وجنته مع درّ فيه المصان

إلى أن يقول:

تحكي لنا باللفظ أخلاق من	حاز المعاني فرد هذا الأوان
الكامل الشهم سراج الهدى	خدين فخر العلم رب البيان
أنواره مذ سطعت أحجلت	زهر الربا وانكسف النيران
نجل ذوي الفضل الألى شيّدوا	بيوت عزّ دونها الفرقدان

ثم يختمها بقوله:

فيا رفيع القدر عفواً فما	أحصى الثنا لوقلت طول الزمان
زففت لي مثرية ^(٢) قد حوت	حر القوافي ورقيق المعان

ولست كفوّاً أن أرى عبدها
فهاك من خلّ قصيدة أتى
ودم سليماً راقياً رافلاً
ما ميل الأعطاف نشر الصبا

إذ هي بلقيس الغواني الحسان
شتيت نظم بسناك استعان
في ثوب عزّ مائساً في أمان
وهينمت ورق على غصن بان^(١)

ولعابد السندي^(٢) مقرّضاً على نظم لعمر الداغستاني:

لله در قريض في المقام عليّ
حلّت معانيه أنواراً ونور شذى
رقّت شمائله من ذا يماثله
وفي جزالة ألفاظ حماسيتها
قد نظمت زهرة أسلاك رونقها
حوى بياناً لو أن السحر مثل لي
أدار فيه من الآداب راح هنا
فيها لها أدبيّات لعين بنا
أما ترانا سكارى من بدائعها
أبدى لنا عمر فيه نظام علي
فاسْتَجَلِّ واستنّش فيه الشمس في الحمل
في اللطف في الظرف في التشبيب في الغزل
تستنزل الفلك الأعلى على مهل
والنسر طار إليها وهو في زجل
لخلت ذا هو ذا في العلم والعمل
من السرور أسالت أدمع المقل
لعب الشمول بعطف الشارب الثمل
ولم تكن سكارى قبل ذا العلل

إلى أن يقول:

فالله يبقى سراج الفضل في أفق الـ
أفضال يجلو دجى الأشكال في عجل

(١) - حلية البشر ٢: ٦٤٠ ، ٦٤١

(٢) - في القاموس، (تريّ بذلك) إذا فرّح وسُرّ وقولهم: ما بيني وبين فلان مُثْرٍ

أي أنه لم ينقطع. لسان العرب (ثرا)

(٣) - سبق الحديث عنه ص ٢٩٤

هذا ولازلت تبدي كل آونة خوداً ترى من بديع الحسن في حلل
لها البيان أكاليل بمفرقتها تزف فيه علينا والبديع حلي
ما رنحت نسمات الشعر غصن فتى يصبو إليه ويمسي منه في جذل^(١)

ومن شعر الإخوانيات ما يرسله الشاعر إلى صديقه من نظم
يطلب فيه شيئاً قد يكون استعارة كتاب أو طلب مال أو نجدة وقد مرّ
بنا بعض القصائد التي نظمت في الشوق والصدقة والعتاب والتي
تتضمّن - إضافةً لما أسلفنا - طلب النوال.

فمن ذلك أبيات لخير الدين الياس^(٢) أرسلها لإبراهيم البرّي^(٣) يستعير
منه كتاب (ضمانات البغدادي)، يقول:

يا أيها المولى الذي أوصافه جلّت عن الإحصاء والتعداد
مازلت أرجو من عزيز نواله فيضاً عليه السحب في إرعاد
فعسى يمنّ بفك أسر تشوّقي بضمانة العلامة البغدادي^(٤)

(١) - تحفة الدهر ٧٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٠٨

(٣) - هو إبراهيم بن أحمد بن عبدالله البرّي، ذكر الأنصاري أنه تولى نيابة القضاء
سنة ١١٠٢ هـ، وتولى إفتاء الحنفية، وكان صاحب ثروة، توفي سنة ١١٣٠
هـ. تحفة المحبين ص ٩٤.

(٤) - تراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر ص ٣٠

ومنها ما كتبه البيهقي لمحمد بن إبراهيم الكوراني^(١) يستعير تذكرة داود^(٢)، حيث يقول:

ويا فريد الدهر بل جوهره	مولاي يا روح النهى والعللا
ظاهرة عندي وكم مضمرة	كم لك من أيد إلى حاجتي
من بعد ما قد فر من قسورة	فقد حويت الكنز من جودكم
وشرحه المحشو بالمخبرة	كذا أبا الطيب ديوانه
الفيه أغازها مشهرة	وبؤت بالمقصود من نعمة
لكني أحتاج للتذكرة ^(٣)	ولست أنسى كل ما حزته

أما ما كُتب لطلب حاجة فمنه ما كتبه عمر دفتردار^(٤) لعمر

(١) - سبقت ترجمته ص ٢١٣

(٢) - هو داود بن عمر الأنطاكي، ولد في أنطاكية عام ٩٥٠ هـ، وقام برحلات إلى دمشق وغيرها من بلاد الشام، ثم استقر به المقام في القاهرة، كان شغوفاً بالعلم محباً للقراءة، ولكن الطب استأثر باهتمامه، فأخذ من المراجع لأساطين الطب في كل الأمم، حتى صار من أعظم حكماء عصره في علوم العطاراة والصيدلة والعلاج، له عدة مؤلفات أشهرها (تذكرة داود) وهي كتاب ضخيم يقع في ٦٤٨ صفحة، توفي بمكة سنة ١٠٠٨ هـ. تذكرة داود تلخيص سامي محمود ص ١٣، الأعلام ٢: ٣٣٣.

(٣) - ديوان البيهقي، نسخة عارف حكمت ١١

(٤) - هو عمر بن علي أفندي بن عبدالرحمن، وصفه الأنصاري بأنه رجل كامل

حيدر^(١) يستقرضه مالا.

إلى حضرة الشهم الكريم أخي الندى
وكهف إذا ما الناس يوماً زمانهم
فثمّ هناك الورد صاف شرابه
ومن دونه كوس التهاني قد انجلت
وساقيه ساق لا عدمت حياته
يجود بعشر إن رأى النصف كافيا
فيا ربّ باكر حي محيا جماله

سراج ذوي الحاجات في ظلمة الردى
أدار بهم من فاقة الوجد مورداً
يخال به المرتاب صرحاً ممرّداً
كجمر الدنانير الشعال توقّدا
له الجود أمسى يستمد به يدا
جعلت له روعي معاملة فدا
بعرف شذيّ يفضح الند والندى

فأجابه عمر حيدر مع تلبية طلبه :

أخي عمدتي هذي الدنانير قد بدا
تجول بميدان الأيادي وتارة
لها همة في وصل غيد وبعده
وإن دمت كل الوصف لا تستطيعه
فواصلكم منها مع العبد عشرة

ضيا شمسها يعلو مدى الدهر أجردا
تفرّ كما فرّ الحمام من الحدى
وقرب صديق ثم قطع مؤبّدا
وناهيك ما قال الحريريّ منشدا^(٢)
تكون لديكم قرضة تلثم اليدا

مؤدب وهمام فاضل، صار إماماً في المحراب النبوي، وتوفي سنة ١١٩٤ هـ .

تحفة المحبين ص ٢٦٧ .

(١) - سبقت ترجمته ص ٣٠٢

(٢) - لعله يقصد الأبيات التي بثها الحريري صاحب المقامات في ثنايا مقاماته
المعروفة.

إلى سح سحب الحج يا صاح عسجدا ودم في أمان الله ما الطير غرّدا

ولما حان موعد السداد أرسل عمر دفتر دار المبلغ مع هذه

الآيات مع تغيير القافية:

على العبد حق فهو لاشك فاعله وإن عظم المولى وجلّت فضائله
ألم تـرنا نهدي إلى الله ماله وإن لم نجد في وسعنا ما يشاكله
فلو كان يهدي للخليل بقدره لقصّر ماء البحر عنه مناهله
ولكننا نهدي إلى من نحبه وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله^(١)

وفي نهاية هذا المبحث أحب أن ألفت نظر القارئ إلى أن هذا القدر من شعر الإخوانيات والذي هو عبارة عن نماذج ومقتطفات يظهر لنا مدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربط أدباء هذا العصر، وكأن الشاعر عندما ينظم قصيدة اخوانية ويوجهها إلى أديب آخر يريد أن يوجه الشعر إلى من يتذوقه ويقدره، إذ ربما أن الشاعر لا يجد الجمهور الذي يرضي طموحه في استجابته لهذا الشعر.

(١) - تحفة الدهر ٧١ .

الفصل السابع / أغراض أخرى :

١ - الوصف :

ما نقصده من شعر الوصف هنا هو ما قيل في وصف مظاهر الطبيعة، وخاصة في الربيع حيث الرياض والزهور والنسيم العليل والأمطار، وكذلك الشعر الذي يصف الحياة المادية مثل القصور والمجالس وما يتصل بها ويدور فيها، كما أن طبيعة المدينة لم تخل من مظاهر جمال، حيث تكثر بها العيون الجارية والبساتين الغناء والمروج الخضراء وأشجار الفاكهة والرياحين، ولاشك أن لذلك أكبر الأثر على الشعراء الذين تفاعلوا مع هذه المناظر البهيجة، وترجموا مشاعرهم تجاهها.

فهذا الخطيب تاج الدين بن محمد الياس زاده^(١) الذي كان بمكة في جماعة من أصحابه في زمن الربيع، يتأثر بمنظر الروض وقد اكتست الأرض بالخضرة حتى بدت وكأنها فرشت ببساط جميل، فيقول:

هذ البساط بساط الأرض من نسجه

(١) - هو الخطيب تاج الدين بن محمد الياس زاده ولد سنة ١٠٥٢ هـ ، كان فاضلاً أديباً ، تلوى نيابة القضاء بالمدينة المنورة مراراً ، وله نظم ونثر ، توفي سنة ١١٢٦ هـ . تراجم أعيان المدينة ص ٢٧ .

فيجيز ذلك القاضي عبدالرحمن بن أبي كثير^(١) فيقول:

وذا النسيم نسيم المسك من نَفَجَةٍ^(٢)

فيقول الخطيب المذكور :

وذي زهور الربا تفت زاحكة كأنها من ثغور الدهر منبلجة

والطير تغريده يشجي ومنشدنا يشدو لنا بلحون عذبة غنجه^(٣)

واليوم يوم انبساط لانقباض والوقت وقت اعتدال لم نخف غوجه^(٤)

ولعمر الداغستاني قصيدة يجب بها عابد السندي^(٥) عن قصيدة

اخوانية بعثها إليه، حيث يستهلها بمقدمة يصف فيها الربيع فيصف

هطول المطر والروض والأزهار وصدح الحمام، يقول:

جاد غيث السما لنا وتبسم عن سنا بارق له غير جهّم^(٦)

وغدا في الهواء يسحب برداً بطراز البروق أصبح معلم

واختفت تحت ذيله الشمس حتى أصبحت لا ترى كمثل المثلث

(١) - لم أقف له على ترجمة .

(٢) - نفج : ثار . لسان العرب (نفج) والشاعر هنا يتساءل عمّن أثار المسك .

(٣) - الغنج: الدلال . المعجم الوسيط (غنج)

(٤) - في القاموس، رجل غوج: مسترخ من النعاس، ولعله استعارها هنا للوقت .

لسان العرب (غوج)

(٥) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٦) - الجهام : السحاب لاماء فيه . لسان العرب (جهم)

خلفه كالحادي إذا ما ترنم
 وجهها حينما الربا قد تبسم
 لابساً سندساً عليه منمنم
 فـ عليها حدود الأزهار تلثم
 أصفراً فاقعاً وأخضر أدهم
 عقد ودق من غير سلك منظم^(١)
 ها بأخبار كل عطف منعم
 كقـدود ببعضها تتلزم
 إن بدا شادياً بعوْدٍ^(٢) وزمزم^(٣)
 قـي سـجوع منه القلوب تهيم
 مع صـحب له يزيلون لهم
 باكياً والدموع كالسحب تسجم
 هل رجوع لعهد أنس تقدم
 أي ورب بحق عليها يقسم

فتراه يجري وللرعد سوق
 فكأن السماء غارت فغطت
 فانظر الروض في حلاه تحلى
 وكأن الأغصان يا صاح أعطا
 ذاك قد لاح أحمرًا وترى ذا
 أو كمثل الأجياد يبدو عليها
 فتهب الصبا عليها فتأتى
 فتري ذا يميل شوقاً لهذا
 ولصدح الحمام في القلب صدع
 وخصوصاً إذا تغنى بترقيـ
 يذكر الصب عهد ما كان منه
 فإذا ما بكى الحمام تراني
 قائلاً آه يا حمام أفدني
 ما أظن الرجوع إلا محالاً

(١) - الجيد : العنق . لسان العرب (جيد)

- الودق : المطر . لسان العرب (ودق)

(٢) - العوْد : تثنية الأمر عوداً بعد بدء. لسان العرب (عود)

(٣) - زمزم : صوت من بعيد تصويماً له دوي غير واضح ، وصوت تصويماً

متتابعاً. المعجم الوسيط (زمزم).

فانهضن بي يا صاح نحو عقيق ماؤه يذهب الأسى مثل مرهم^(١)
 أمـلأن لي من مائه كل كأس إنه مخجل العتيق المختم^(٢)
 ثم يتخلص بعد ذلك للغزل لينتهي أخيراً لغرضه من القصيدة وهو
 مدح عابد السندي.

ولأحمد الجامي^(٣) أبيات يصف بها جنة لأحد أصحابه كانت بمثابة
 منتدى يجتمع فيه الأصدقاء والأحباب ، يقول:

إن ملت شوقاً لنعيم الجنان فروح النفس بهذا المكان
 أما ترى بلبل أغصانه قد ملأت الحانة كل حان
 وهذه الجنة قد فتحت أبوابها مفتحة الأحيوان
 ووجنة الأغصان فيها زهت والروح والريحان والورد قان^(٤)
 والباسقات النخل قد ذلت قطوفها ما بين قاصٍ ودان
 فيها لعمري كل ما تشتهي نفسك والعين ويهوى اللسان
 وزهرة الحسنى لقد أزهرت والماء والخضرة موجودتان

(١) - المرهم: هو ألين ما يكون من الدواء. لسان العرب (مرهم) .

- العقيق: وادٍ يمر بذي الحليفة غربي المدينة (وهو المقصود هنا) ، معجم
 البلدان ١٥٦/٤ .

(٢) - حلية البشر ١١٢٣/٢

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٤) - الورد قان: أي ورد شديد الحمرة . لسان العرب (قنا)

وفُرصة اللذات قد أمكنت فلا تحُلْ عن مثلها يا فلان^(١)

أما وصف المظاهر المادية الجميلة فأشهرها البيوت والمجالس في شعر العصر، فقد حظيت المجالس بصفة خاصة بالكثير من اهتمام الشعراء حيث اجتماعهم وأنسهم، والتفنن في عمارتها وتزيينها، فهذا جعفر البيتي يصف مجلساً لحسين هاشم^(٢) فيستهل القصيدة بمدح آل هاشم ثم ينتقل إلى وصف المجلس بطريقة يزاوج فيها بين الوصف الحسي للمجلس وسمو ورفعة ساكنيه الذين عمروه وزادوا على حسنه حسناً بالمعارف والآداب، يقول:

معالم سادات الوري آل هاشم	وحقك سادات لكل المعالم
تبدت إلى الحس المعالي فييتهم	قوالب معنى من بيوت الفواطم
وقام بهم إيوان عز مجسم	لروح المعالي ماله من مقاوم ^(٣)
علا صاعداً فوق الثوابت ثابتاً	قواعده الجوزاء سامي الدعائم
وخاف عيون الزهر ثم تصيبه	فوشح بالآداب مثل التمام
فأنعم به مثوى نعيم أساسه	هناك على الأجرام فوق النعائم

(١) - نوافح الزهور ٩٨.

(٢) - سبقت ترجمته ص ٣١٧.

(٣) - الإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفَّة واسعة لها سقف محمول من الإمام على

عقد، يجلس فيها كبار القوم. المعجم الوسيط (آن).

كجلدة بين العين والأنف سالم
 ودع لسنمار الخورنق بعده
 وبيت قصيد في البيوت كمثل ذا
 عليه رياضيات شعر الصنوبري
 معلقة ما لامرئ القيس مثلها
 لدى مجلس في الشكل وفق مربع
 بأنواع وشي تنقش الغيد مثله
 تقابله من جانب الشام روضة
 كأن أكف الزيزفون تحملت
 شقيق وآس أقحوان ونرجس

وأحب به للقلب من كل سالم^(١)
 فكم تركوا من جنة في العوالم^(٢)
 يمس اختيلاً ماله من مزاحم
 يدبجها باللطف شعر كشاجم^(٣)
 سوى وصفه في دارس الرسم طاسم
 لكل بديع للأوائل خاتم
 إذا مسن في أجسامهن النواعم
 سقتها المعالي قبل سقي الغمام
 لطائم مسك عززت بلطائم^(٤)
 كأحداق أحوى أزهر الخد باسم^(٥)

(١) - لفظة سالم تطلق على اللحمية التي بين العين والأنف، وقد غاب هذا المعنى عن

الحجاج عندما كتب له عبد الملك بن مروان كتاباً قال فيه (أنت مني كسالم).

(٢) - سنمار: بناء رومي الأصل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصر الخورنق بقرب الكوفة. الأعلام ٣/١٤٢.

(٣) - هو أحمد بن محمد الضبي الأنطاكي المعروف بالصنوبري، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار، توفي سنة ٣٣٤هـ. الأعلام ١/٢٠٧.

- هو محمود بن الحسين المعروف بكشاجم، شاعر متفنن، أديب، من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، توفي سنة ٣٦٠هـ. الأعلام ٧/١٦٧.

(٤) - لطائم المسك: أوعيته. لسان العرب (لطم)

(٥) - الشقيق: مفرد شقائق النعمان وهو نور أحمر. لسان العرب (شقق)

- الحوّة: سمرة الشفة، ويقال: رجل أحوى وامرأة حوّا. لسان العرب (حوا)

فأطرق كالعشاق بين اللوائم
ومسمعه مصغ لصوت الحمام
مواسم لذات وأي مواسم
يداك الثرياً قاعداً غير قائم
كأن التراقي وشّحت بالمباسم
ينابيع كالنشاب أو كالصوارم
على وجهه منه فصوص الدراهم
مُلاً^(١) فوّقت كالنقش فوق المعاصم
فيصحبها من نقطه بدراهم
لغيرك نظم المدح من كل ناظم
فما ضرّني أني بجرّة واقم^(٢)
وغمدان^(٣) فاغل^(٤) في علاه وحاكم

رأى البان عين النرجس التفتت له
يلاحظه مثل المحبّ بعينه
ومن ذاك مالا يدخل الوصف تحته
فقل في رياض إن تزرها تناولت
ونخل يروق العين طالع طلعه
تري بينها ماء الحياة ملاعبا
إذا فاض فوق الماء ولّد صائغاً
وينسج في منواله بارح الصبا
وتنشي الدنانير الرياض بخده
فيا منزلاً للأنس حوشيت أن يرى
إذا اعتضت عن بوّان شعباً يفوقه
لقد نزل الأهرام من دون قدره

(١) - جمع ملاءة وهي الملحفة. المعجم الوسيط (ملاء)

(٢) - بوّان: شعب بوّان من أرض فارس، وهو أحد متنزهات الدنيا. معجم

البلدان ٥٩٧/١

- حرّة واقم: إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق

اسمه واقم. معجم البلدان ٢/٢٨٧.

(٣) - غمدان: اسم قصر باليمن بناه أحد ملوك اليمن، هدم في أيام عثمان بن

عفان رضي الله عنه. معجم البلدان ٤/٢٨٣.

(٤) - فاغل: أي غالي في مدحه ووصفه.

وارتخه في بيت أتك مترجما له بالمزايا وافراً في التراجم
سقاها الحيا إيوان مجد معزز بناه وعلاه حسين بن هاشم^(١)

ويصف أحمد قصاره^(٢) دكة بناها بعض الأعيان في سفح جبل سلع
فيصفها بسموها على الثريا وإيوان كسرى، وهي جامعة للإخوان
أصحاب المنطق، الفضلاء ذوي الهيئات الجميلة والصفات النبيلة.
فيقول:

يا حسن دكة أنس بالخطيب سمت على الثريا وإيوان ابن شروان^(٣)
أعنى به سيدي الياس أوجدنا عبدالإله عظيم القدر والشان^(٤)
مع حسن هندسة أيضاً وفلسفة للفخر صوفينا استاذنا الفاني
بسفح سلع بناها راجياً منناً من فيض خير البرايا فخر عدنان^(٥)

(١) - ديوان البيهقي نسخة عارفت حكمت ٨٠، ٨١.

(٢) - هو أحمد بن عبدالسلام المغربي الفاسي الأصل، قدم والده عبدالسلام إلى
المدينة سنة ١١٤٠هـ، وصفه الأنصاري في تحفة المحبين بأنه رجل ظريف
ومؤدب لطيف، وذكر أنه موجود عند تأليف كتابه (تحفة المحبين) سنة
١١٩٦. تحفة المحبين ص ٣٣٩

(٣) - الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه. المعجم الوسيط (دكّه)

(٤) - يظهر أنه الخطيب تاج الدين الياس المولود سنة ١١٤٤هـ، خطيب وإمام
ومدرس بالمسجد النبوي، وله أدب وشعر. تراجم أعيان ص ٣٢.

(٥) - سلع: جبل معروف بالمدينة. معجم البلدان ٢٦٨/٣، وفاء الوفاء ١٢٣٥/٤.

تريك أنواره كالشمس طالعة
 أكرم بهادكة للأنس جامعة
 كالبدر صورته كالدرّ منطقه
 مامثلها صورة ما مثلها بنيت
 الله يجرسهم من كل حادثة
 تجلو الهموم وتنفي كل أحزان
 مع كل شهيم حوى حسناً بإحسان
 كالغصن قامته يهتز كالبان
 ما مثلها جمعت أنساً لإخوان
 أيضاً ويكلؤهم من كل شيطان^(١)

ويصف أحمد الجامي مجلساً فيتحيّر في تشبيهه بإيوان كسرى ، أو
 قصر قيصر أو سر من رأى أو قصور الجنة الفيحاء
 يقول الشاعر :

إيوان كسرى ما يراه الرائي
 أم سرّ مرّاً حلّ فيه الجعفري
 أم قصر قيصر مجلس الأمراء
 أم ذي قصور الجنة الفيحاء^(٢)
 يفتر عن نزه وطيب هواء
 لا عيب فيه سوى الكرامة والقرى
 للضيف والترحيب بالنزلاء
 جلبت محاسنة البديعه فانجلي
 بجلاء طلعتها صدى الأحشاء
 وبدت لنا أشكاله اللاتي كست
 منه الجمال ملابس الأضواء
 وغدت مساحته مشرفة بيـا
 هر هندسات خلاصة الحكماء^(٣)

(١) - تحفة الدهر ٨٩ .

(٢) - هي مدينة سر من رأى عاصمة المعتصم ، والجعفري قصر المعتصم بها ،
 والفيحاء مدينة دمشق .

(٣) - تحفة الدهر ٦٦ .

ولللجامي - أيضاً - في وصف مجلس :

يا حسن مجمع أنس فاح عاطره
حوى غرائب أشكال وهندسة
وبات يسجع في أفنان روضته
وطالع السعد في أفلاك دارته
وزهرة الحسن أكليل لبهجتته
فانهض إليه أخوا اللذات مقتطفاً
واغنم زمان التهاني وانتهاز فرصاً
من حسن نزهته المخضل زاهره^(٢)
لم يلق فيه سوى الإكرام زائره
تزرى الخورنق إن وافى يناظره
مبشراً بدوام العز طائره
أضحى مقيماً فلم تبرح تسائره
وصبح غرته لاحت بشائره
من البهاء بهاراً^(١) حل باهره
وهكذا نجد أن الشعراء اهتموا بمظاهر الحسن والجمال في طبيعتهم
فأولوها جزءاً من شعرهم، جاء ليظهر لنا مدى تأثير هؤلاء الشعراء
بواقع الحياة المحيطة بهم، مما يؤكد على أصالتهم وتميزهم .

٢ - الهجاء والسخرية :

اتجه الهجاء في هذا القرن نحو السخرية حيث تصوير الشخص
المهجو تصويراً يبعث على الضحك والسخرية منه، ويصدر عن طاقة
مبدعة وذهنية ساخرة، وفي هذا اللون نقلة واضحة عن شهر الهجاء

(١) - البهار : كل شيء حسن منير والباهر : نبت طيب الريح . لسان العرب

(بهر)

(٢) - تحفة الدهر : ٦٦

الصرف وتجاوز له وإن لم يخل منه.

يبتعد هذا الهجاء أحياناً عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة، ولكنه يسخط في أحيان أخرى ليكون بذئياً فاحشاً لا يترفع عن الألفاظ النابية المخجلة بتعبير صريح مستهجن. (١)

وقد كان البيهقي^(٢) رائد هذا الفن بلا منازع، حتى إن النماذج التي سنوردها كلها له، حيث لم تسعفنا المصادر بذكر شيء من شعر هذه الفترة في هذا الفن لغيره وقد يكون المستوى العلمي والاجتماعي لبعضهم يحول بينه وبين السقوط إلى مثل هذا الموضوع وقد يكون هناك شعراً أحجم المدونون عن إيراده.

كان أكثر هجاء البيهقي موجهاً لأدعياء العلم والأدب، بل نجده يشمل بهجائه جميع الأدباء المعاصرين له، فهو يرى أنهم بله يدعون النباهة ويتعاضمون نفوسهم بينما شعرهم ركيك بارد. يقول:

أدباء هذا الوقت بلد	ة في جلود الأذكياء
يتعاضمون نفوسهم	وهم أدق من الهباء
لو صُورت أشعارهم	ما جئن إلا كالنساء
فعقولهم فصل الخريد	ف وشعرهم فصل الشتاء

(١) - انظر كتاب مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين ص

(٢) - سبقت ترجمته ص ٩

جمع الركافة والبرو دة في نسيب كالعزاء
مرضُ المسامع والفؤا د كأنه زمن الوباء
تحشى على الممدوح يق ضي منه من برد الثناء
يا غربة الآداب ضا عت بين أظهر هؤلاء^(١)

ثم يتجه في قصيدة أخرى لهجاء شخص حيث يذكر أنه جلس
للتدريس مع أنه جاهل ولئيم، فيصب جام غضبه عليه ويجعل عيوب
البشر كلها فيه.

يقول:

يا ذا الذي قد أقام درساً لمثله ليس بالحقيق
ويل لوجه عليك صلدٍ أشد من جُرّة^(٢) الطريق
يا قبة الكبر ما رأينا أوقح من وجهك الصفيق
قصدت تروي العلوم جهلاً في زيّ طبل وصوت بوق
تكفر فيما تقول جهراً بين المعادين^(٣) والصديق

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٩٧ .

(٢) - الجُرّة : الأثر في الطريق ، ومراد الشاعر تشبيه وجه الرجل بجرة الطريق

لصلادتها كناية عن قلة حياته .

(٣) - المعادين : يريد الأعداء .

زلّ حمار العلوم لَمَّا
 فاستر على الجهل لاتدّلس
 واسمك بادره قبل هذا
 واقنع من الناس أن يلفّوا
 إذا تبديت قيل جاءت
 يوّد كل الأنام جمعاً
 إلى لظى لاسلمت منها
 لؤمك يا كلب فيك طبع
 عشقت قرص الطعام حتى
 كم ساقط قد علا قديماً
 حقك في الفضل غير خاف
 حبست يا وحل^(١) في الطريق
 وتخلط الفحم بالدقيق
 وامسحه من دفتر العلق^(٢)
 وجوههم عنك بالخروق
 حمالة الكذب والفسوق
 قذفك من رأس منجنيق^(٣)
 تنحطّ من موضع سحيق
 يجرى مع الدم في العروق
 سجدت للشمس في الشروق
 وأنت من ذلك الفريق
 والشتم من جملة الحقوق^(٤)

(١) - الوحل : الطين الرقيق ترتطم فيه الناس والدواب . لسان العرب (وحل)

الوسيط (الوحل)

(٢) - العلق: ما تعلقه الإبل أي ترعاه، وقيل هو نبت . لسان العرب (علق)

وهو هنا يشبه المهجو بالحيوان.

(٣) - المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة.

المعجم الوسيط (المنجنيق)

(٤) - ديوان البيهقي ، نسخة عارف حكمت ٩٤ .

وقال في شخص يرى أنه وضع نفسه في موضع لا يستحقه، فيذكر أن جلوسه بين أناس أفضل منه هو لدفع العين عنهم، كما يوضع الشيء المستكره أمام ما يخاف عليه من الحسد. يقول:

إن زاحم الأقران هذا البليد وقام في صدر المقام النضيد
فهو لدفع العين جاءوا به كرجل بغل فوق بيت جديد
وإن تراه خالعاً للحميا يمس عجباً بيننا أو يمد
فبئر عينيه لقد عطلت وأصبح الفاجر قصراً مشيد^(١)

ويستمر البيتي في هجائه المقذع الساخر حيث نجده يهجو شخصاً
فيتخذ من زيّه ومن شكله مادّة لهذا الهجاء .
يقول:

انظر لوجه عجرده قبحاً له ما أبرده
ذو صورة قبيحة تنفر عنها المردة
وعمة عريضة طويلة ممهّدة
يأنفها السمان كب راً أن يراها مقعده
وبزة بالية كعيشة منكدّة

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ص ٤٣ ، وفي البيت إشارة إلى الآية
"فكأين من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة
وقصر مشيد" الحج الآية ٤٥

والقمل في لحيته	قلائد منضّدة
كأنها أعماله	وصحفه المسوّدة
وبجر جهل قد طمى	على البرايا زبده
راسلني برقعة	لجهله مؤكّدة
وقد حوت في طيها	قوافيا مرّده
شعراً ركيكاً بارداً	يمجّه من أنشده
يخشى على سامعه	من فالج أن يقعه
تعساً لمن يأتي به	إذا أتاني أوبده ^(١)
تراه في دكانه	من جهله على حدة
فلو رآه راشداً	أضاع حالاً رشده
إن لم يكن للعجل نس	لّ فهو ممّن عبده
وقد نفاه آدم	من نسله وأبعده
كذاك ابليس اللعي	ين المستهان طرده ^(٢)

^١ - الوبد : العيب . لسان العرب (وبد).

^(٢) - ديوان البيهتي ، نسخة آل الصافي ١٣٩ .

وقال منتصراً لمفتي مكة الشيخ عبدالقادر الحنفي^(١)، وذلك لما اطلع على قصيدة ليوسف الأنصاري^(٢) تعرّض فيها لفتوى الشيخ وقد جعل القصيدة على لسان رجل مجهول، فردّ عليه البيتي بقصيدة جعلها على لسان رجل من أهل صنعاء.

استهل البيتي قصيدته بمخاطبة الشيخ المذكور حيث يصفه بالعلو عمّن تعرضوا له ويصفهم بالكلاب التي من شأنها نبح الناس في الطرقات . يقول:

وقد علوت على الأنذال والسفل	عليّ شأنك معلوم وأنت علي
فذاك طبعهم في الطرق والسبل	إن ينبحوك كلاب الحيّ يا قمراً
فقد رزي قبل كل منهما وبلي	خذ أسوة في أبي بكر وعائشة
(أصالة الرأي صانتني عن الخطل)	والجاهلون إذا خاضوا فقل لهم

(١) - هو عبدالقادر بن يحيى بن عبدالقادر الحنفي المكي، عالم فقيه وأديب ناظم نائر، ولد بمكة وقرأ العلوم على جماعة من شيوخها منهم عمه العلامة المفتي علي حيث لازمه وصار أمين الفتوى عنده، ولما توفي عمه تقلّد الفتوى من بعده، توفي بمكة سنة ١١٩١هـ . نشر النور والزهر ص ٢٧٦.

(٢) - هو يوسف بن عبدالركيم الأنصاري ولد سنة ١١٢١هـ، نشأ على طلب العلم والأدب، ألف ونظم ونثر، وجّه له منصب الإفتاء بالمدينة، ولكنه رفع عنه قبل تقلده، توفي بالمدينة سنة ١١٧٧هـ. تراجم أعيان ص ٥٢، سلك الدرر ٤ : ٢٤٧، تحفة المحبين ٢٣.

فداكم يا بني الصديق كل دن
 فعرضكم أملس من كل ناحية
 قل للمجلّي عليه الخزي أجمعه
 جاءت لنا عدمتك اليوم قافية
 كشفت عورتك السوأى وجئت بها
 وقمت تنبح تحمي عن أخيك لقد
 جهدت تمدح من ناسبته صفة
 ظلمت نفسك في ذا العجل تعبه
 رميت نفسك من خوف على أسد
 بشرى لك الشؤم والادبار من رجل
 مازاده البغي إلا الكبير يحمله
 عشرين عاماً قضاها ذلةً وعناً

خال من الخير معمور من الخلل
 يزول عنه قراد الذم والزلل
 مخيم بذراه غير منتقل
 أنشئ كمثلك في التفصيل والجمل
 مشقوقة الجيب من دبر ومن قبل
 أخزيته وقرنت الثور بالبغل
 كما تناسب جسم الضب والورل
 فارجع لنفسك فاقتلها على عجل
 والغير يفعل ذا من شدة الوجل
 أعمى أصمّ عديم الرأي مختبل
 وزراً على الرأس بل ثقلاً على ثقل
 مطرداً في البوادي خائب الأمل^(١)

وقال يهجو ترجمان القاضي على لسان من ظلمه هذا الترجمان :

نتف الله شارب الترجمان
 ويله لاجزي من الله خيراً
 فاجراً طال عمره في المخازي
 حاشَ لله ليس هذا من التنا

فانثنى بالوبال والخسران
 وثوى في الجحيم والنيران
 والمعاصي لطاعة الشيطان
 س ولكننه من الحيوان

(١) - ديوان البيهقي نسخة آل الصافي ١٦٧.

كَلِمَا لَاحَ لِلبَرِيَّةِ جَهْرًا شَتَمُوا شَخْصَهُ بِكُلِّ لِسَانٍ
ضَائِعَ الدِّينِ وَالتَّقَى عَبْدَ شَرِّ لَإِيهُودِي الشَّقِي وَلَا نَصْرَانِي^(١)

٣ - الغربة والحنين إلى المدينة :

سبق وأن ذكرنا في حديثنا عن الشعر الديني نماذج من الشعر الذي قيل في الحنين إلى المدينة المنورة تحت عنوان (حب المدينة والحنين إليها)^(٢) ونوهنا على أن ذلك الشعر كان مبعثه دينياً ، وهو التعلق بالمدينة النبوية وسكناها نظراً لما ورد في فضلها والترغيب في سكناها عن الرسول الكريم ﷺ .^(٣)

أما تحت هذا العنوان فتحدث عن الشعر الذي نظمه أبناء المدينة الشعراء يشكون فيه غربتهم وبعدهم عن المدينة ويضمنونه عواطفهم الجياشة التي تظهر مدى حنينهم إلى المدينة وأهلها، وهم بذلك يتحدثون عن المدينة الوطن، حيث ذكريات حياتهم منذ الطفولة، وأهلهم وأصدقائهم وأحبّتهم، وهم بذلك يشتركون مع غيرهم من الشعراء في أي مكان في الحنين إلى الوطن والذي يزخر به أدبنا على مرّ

(١) - الفلك المشحون ١٤١ .

(٢) - انظر ص ١١٣ من هذا البحث .

(٣) - انظر كتاب وفاء الوفاء ٢٨/١ وما بعدها .

العصور.

فمن ذلك ما قاله حسن بن عبدالكريم البرزنجي^(١) الذي هرب إلى مصر ولبث فيها متخفياً إلى أن مات ، وذلك بعد الفتنة الواقعة في المدينة سنة ١١٣٤هـ^(٢) ، حيث افتتح أبياته بالحنين إلى نجد والتي هي رمز لأرض الجزيرة كلها، وقد تغنى كثير من الشعراء بالحنين إليها، حتى اكتسبت مع الزمن خاصية ارتبطت بالحنين والشوق عند الشعراء، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ذكر الأراك والحمام وأشجار السرح والأرطى والبشام والعرعر، وطربه من ذكر زرود^(٣) ولعلع^(٤)، ثم يظهر شوقه إلى جيران سلع^(٥) ورامه^(٦). يقول:

أحن إلى نجد وأصبو إلى الصبا سحيراً وقد وافت تيمس وتخطر
وأهفو إلى تلك المعالم باللوى وأهوى حماماً بالأراك يسبكر^(٧)
وأحنو على أفياء سرح بذى الغضا تكنف أرطاهما بشام وعرعر^(٨)

(١) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٢) - انظر ص ٣٢ من هذا البحث .

(٣) - زرود: اسم موضع يقع على طريق الحاج من الكوفة . معجم البلدان ١٥٦/٣ .

(٤) - لعلع: موضع بين البصرة والكوفة . معجم البلدان ٣٣٩/٥

(٥) - سلع : اسم جبل بالمدينة . معجم البلدان ٢٦٨/٣ .

(٦) - رامه : اسم موضع في طريق البصرة إلى مكة .

(٧) - اللوى : وادي من أودية بني سليم . معجم البلدان ٢٧/٥

(٨) - ذو الغضا : واد بنجد . معجم البلدان : ٢٣٢/٤ .

وأطرب من ذكرى زرود ولعلع
وأعترض الركبان من كل جانب
وأشتاق جيراناً بسلع وراممة
وأنشد عن بان البقيع ورنده
وأنشق أرواح الرياح تناوحت
وأرتاح للقبر المقدس وادياً
وقد شاقني من سفح نعمان^(١) منظر
لعلي على وادي النقيع^(٢) أخبّر
غيوث ليوث إن دهي الخطب ترأر
أقامت به الأنواء تهمي وتمطر^(٣)
لعل بها عرفاً بطيبة ينشر
وللقبة الفيحاء أرنو وأنظر^(٤)
ولأحمد الجامي قصيدة أرسلها أثناء سفره للبلاد التركية يظهر فيها
مدى حنينه إلى المدينة واشتياقه إلى ربه وأحبته ومدى إحساسه
بالغربة، يقول:

ما لذي بعدكم يا عرب ذي سلم
ولا جرى ذكر ذيك العقيق وما
ولا سرت نسما من دياركم
استودع الله أحباباً ألفت بهم
ربع ومن بعدكم جفني القريح دمي^(٥)
والاه إلا جرى مني عقيق دمي
إلا أهاجت بقلبي لاعج الألم
حيا الحيا وسقى سفحا بسلعهم

(١) - نعمان: واد بالمدينة . وفاء الوفاء ج ٢ ١٣٢١ ، واسم وادي بين مكة والطائف . معجم البلدان ٣٣٩/٥ .

(٢) - وادي النقيع: من أودية الحجاز يصب في وادي العقيق . معجم البلدان ٢/٣٤٨

(٣) - البقيع : مقبرة أهل المدينة . معجم البلدان ٥٦٠/١

(٤) - نفثة مصدر ٤٩ .

(٥) - ذو سلم : واد على طريق البصرة إلى مكة . ٢٧٢/٣

أبناء فضل وآداب وليس سوى
 لأعيب فيهم سوى أن النزيل بهم
 ياليت شعري هل الأقدار تسعفني
 لأدرّ درُّ الصفا لأذرّ شارقه
 إن لم يكن معهم والشمل منتظم
 يا حادي العيس قم عني بواجبهم
 وقل لهم بعد ابلاغ التحية من
 قربان قربانكم والمنحني وقبا
 لهفي على نسمة من جزع عالية
 رضيع ثدي العلا والعلم والحكم
 بالروح يفدونه والمال والحشم
 يوماً وأحظى برياهم ووصلهم
 ولاهمي برباه سائح الديم
 بقاع تلك البقاع الفيح والأكم
 إذا نزلت بواديهم وربعهم
 مملوكهم وفدا أعتاب نعلهم
 وجرفكم والنقا والبان والعلم^(١)
 وظل ذلك الظليل البارد الشبم^(٢)

(١) - قربان: يطلق على المنطقة الواقعة بين قباء والعوالي . الجواهر الثمينة تحقيق د. عائض الرادادي.

- المنحني : موضع له ذكر في الغزل بأماكن المدينة. وفاء الوفاء ج ٢ : ١٣١٤ .
 - قبا : قرية على ميلين من المدينة ، بها مسجد التقوى المعروف بمسجد قباء. معجم البلدان ٣٤٢/٤
 - الجرف: موضع شمال المدينة ، يعرف إلى الآن بهذا الاسم .
 - النقا : موضع غربي المصلى يفصل بينه وبين المصلى وادي بطحان . وفاء الوفاء ج ٢ : ١٣٢٢ :

- البان: موضع بالحجاز . معجم البلدان ٣٩٥/١
 - العلم : في اللغة الجبل، ويطلق على عدّة أماكن في الحجاز. معجم البلدان ١٦٦/٤ .
 (٢) - العالية : مكان في جهة قبلة المدينة على ميل أو ميلين فأكثر من المسجد النبوي. وفاء الوفاء ج ٢ : ١٢٦

لهفي على علّة أظفي بها لهبي
مع ما حوته النخيل الباسقات وما
لهفي على الروضة الفيحا ومنبرها
لهفي على تلكم الآثار قاطبة
لهفي عليكم وناديكم وتربكم
ما آن أن تنشلوا هذا الغريق أما
ما آن يا سادتي أن تشفقوا كرماً
الله في مهجة من فقدكم تلفت
فإنني مذ توارت شمس طلعتكم
من عين زرقائكم^(١) في الدورق الحرمي
من النعيم بذاك الجمع والنعيم
ووقفه بمصلى سيّد الأمم
وما حوته من الأوصاف والشيم
وسائق الطعن والألحان والنعيم
آن التواصل يا جيران ذي سلم
على الغريب الذي عنه الزمان عمي
تداركوا رمقي يا ساكني إضم^(٢)
في الحجب أمسيت ذا لحم على وضم^(٣)

ونلاحظ أن الشاعر عدّد في هذه الأبيات أغلب المناطق في المدينة
وما جاورها، فكأنه يتلذذ بذكرها، ليتسلى بها في غربته.

ومن شعر الحنين المشوب بالغزل ما سبق أن ذكرنا - وهو ما
أورده الداغستاني في كتابه (تحفة الدهر) - في فصل الغزل وذلك تشطير

(١) - العين الزرقاء : هي عين الأزرق نسبة إلى مروان بن الحكم، وأصلها من
بئر كبيرة غربي مسجد قباء . وفاء الوفاء ج ٢ : ٩٨٥ .

(٢) - إضم : اسم واد تجتمع فيه أدوية المدينة . وفاء ج ٢ : ١١٢٧

(٣) - تحفة الدهر ص ٦٨ .

الشاعر عابد السندي^(١) لقصيدة يحيى الجامي^(٢) التي أرسلها من البلاد
التركيّة إلى الشاعر بالمدينة وكان الشاعر عابد السندي - حينئذ - في
مكة ، فأرسلت القصيدة إلى الشاعر في مكة فشطرت القصيدة المذكورة
بعد أن قدّم لها بمقدّمة نثرية وقد وفق في تشطيرها حتى صارت الأبيات
متلاحمة فكأنها لشاعر واحد. يقول :

على وادي النفاق لي صباحاً	فثمّ شويدن ^(٣) لدمي أباحا
فمرّ كما الصبا وتمشّ فيه	وحيّ الريم والغرر الصباحا
وعانق لي بسحّ الدمع بانا	عليه بلبل الأشواق ناحا
ومهما رمت رامة سح فروحي	بسوح من العقيق لديه ساحا
ومرغ لي الخدود على تراب	فكم بجلاه غين العين زاحا
ثراه تراه من عدن لهذا	تشم به عبير المسك فاحا
وغض الطرف في نجواك واحفض	بواديه المقدس منك راحا
ولا تجنح لرفعك فيه واكسر	جناح الذل منك عسى نجاحا
وأم الجانب الغربي منه	فإن بطور سينا انشراحا

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٩ والقصيدة وردت في حلية البشر ٣/١٥٨٤

(٣) - شويدن : تصغير شادن والشادن من أولاد الأطباء الذي قد قوي وطلع

قرناه واستغنى عن أمه. لسان العرب (شدن)

وكن متشوقاً مثلي ونادي سقى الله رباه والبطاحا
 وسل عن جيرة في سفح سلع تجدد للروح إن ذكروا ارتياحا
 وقم عني بحضرتهم وسلهم وقبل القول قبل لي المراحا
 ثم ينتقل - بعد ذلك - إلى التغزل بمحبوبته التي تسكن في سفح جبل
 سلع، ويلقن صاحبه الرسالة التي يريد أن يوصلها لهذه المحبوبة، ثم يختتم
 القصيدة (التشطير) فيطلب من صاحبه أن يبلغ سلامه لأصحابه ويطلب منه
 أيضاً أن يكرّر السلام على العقيق الذي يتحدث عنه وكأنه من جملة هؤلاء
 الأصحاب.

يقول:

وجمع الصحب بلغهم سلامي وقم وانشدهم مني امتداحا
 وسلهم دعوة لي في اجتماع لعل الله يجمعنا صحاحا
 وكرر لي السلام على عقيق جرى مني له في الروح راحا
 فذكرى فيه مرّ على لساني كذوب مكرّر يسقي الأقاحا
 وتعرف يا عقيق الروح مني من المعنيّ ختماً وافتتاحا
 وإن تغزلي ورقيق شعري لمن في لحن قولي القصد لاحا^(١)

وأرسل الشاعر أحمد ما نسترلي^(٢) قصيدة من البلاد التركيّة

(١) - تحفة الدهر ٧٥

(٢) - هو أحمد بن مصطفى بن أحمد المناستري نسبة إلى بلدة مناستر، ذكر

يضمنها عواطفه الجياشة التي تبين حبه الشديد للمدينة وأهلها وتظهر مدى تأثره بالغرابة والبعد عن الأهل والوطن. يقول:

ويا نور أعياني ويا برؤ علي	سلام عليكم يا أحبة مهجتي
وناح حمام في رياض أنيقة	سلام عليكم كلما لاح بارق
يريد بتنفيساته دفع كربتي	سلام عليكم ما تنفس واله
ويتم مشتاق إلى أرض طيبة	سلام عليكم كلما لاح عاشق
معطرة في ضمنها شرح قصتي	وتم تحيات عليكم زكية
دياركم ماذقت عيشاً بلدة	أخبركم عن حالتي مذ نأيت عن
ولا ارتاح قلبي بالرياض الأنيقة	ولا التذت الأجفان مني بالكري
مخيلتي رؤياكم يا أحبتي	وتبرد أطرافي إذا ما تشخصت
إليكم فتأبى كل ذاك لمحنتي	أتوه أفكارني إذا ما توجهت
أنت خؤون عهد أهل مودتي	أسلي فؤادي عنكم فيجيبني
قواعد بنياني بهم في المحبة	تريد سلوا عن أناس تأسست
وسر كلام شاع في كل ذرة	فلا وقديم العهد من قبل آدم
ولم أنس الفا كان لي بالمدينة	لما ملت يوماً عن هوى من أحبهم
بشوقي فقد حملتها بعض زفرتي	سلوا نسما الشام إن لم تصدقوا
إذا ما أجن الليل وهي سميرتي	سلوا النجمة الزهرا فإني رقيبها
أحبة قلبي ألف ألف تحية	أقول لها بالله عني بلّغي

فتومي بطرف أنها قد أتتكم
 فياليت شعري هل تؤدي أمانة
 لأثني عليها الشكر في كل محفل
 ألا يا إلهي قد سألتك ضارعاً
 بأن ترفع الباس الذي قد أصابني
 من البعد واجمعني بقرب الأحبة^(١)

ومن الشعر الذي قيل في الشوق إلى المدينة وأهلها ما أرسله عمر
 الداغستاني من الصعيد بمصر إلى والده في المدينة، حيث يذكر معاناته
 وسهره مشتاقاً إلى أحبائه، متسائلاً هل بهؤلاء الأحباب من شدة
 الشوق مثل مابه منه، وهل عندهم من الغرام واللوعة مثل ما عنده، ثم
 يدعو لهم بالسقيا بعد ذلك.

يقول:

سهرت على الأحباب شوقاً لياليا
 وهل عندهم مثلي غرام ولوعة
 وهل هم كمثلي في الظلام تدرعوا
 سقى الله جيران العقيق ولعلع
 وحيًا مغاني الأانس أوفى تحية
 سقى ورعى أيامنا ولياليا
 فهل بهم من شدة الشوق ما بيا
 ووجد ببحر القلب قد صار طافيا
 ثياب سهاد غادر النوم جافيا
 ملث^(٢) سحاب هامع القطر هاميا
 تدوم لهم مادام شوقي وافيا
 تمضت بوصل في حماها حواليا

(١) - تحفة الدهر ٩١

(٢) - ألت المطر إلثائاً أي دام أياماً لا يقلع. لسان العرب (لث).

كما هاجت الأرواح ورقاً شواديا
بحسرة شوق تترك الصب باكيا
وإلا كجسمي صار بالبين باليا
أدام إلهي منزل الأنس عاليا
لأنني أراه من هيامي شافيا
أشم ثرى يغدو به العقل صاحيا

تقر بقرب يترك العيش هانيا
يظل كنيران الغضالي صاليا
ويطفي لظى شوق لقلبي كاويا
كذاك أسألوا عني سهيل اليمانيا
سماكاً سلوا عني النجوم الدراريا
وأرقبها في طول ليالي مراعيها
وأشهد أن العهد مازال باقيها
كوامض برق في الدجى كان ساريا
فقد صرت عنهم بالتباعد نائيا
وبالبعد عنهم بعد ما كنت دانيا
يقصّر أيام النوى واللياليا
سميع مجيب للذي بات داعيا

لقد هاجني التذكار نحو ربوعها
تبيت على الأغصان تصدح سحرة
فهل منزل الأحباب بعدي عامر
والا كصبوي شفه الافتراق بل
فإني لمشتاق إلى لثم سوحه
متى أكمل الأجنان من تره متى

متى عيني السكرى بدمع وحرقة
إذا هب من أرض الحجاز نسيمها
وقد كنت أرجوه يبرد لوعتي
سلوا الفرقدن النيرين سلوا السهى
سلوا أنجم الجوزا سلوا القطب بل سلوا
أردد فيها الطرف في غسق الدجى
وأشكو إليها ما بقلبي من جوى
وأذكر ساعات اللقا ومضيها
وأذكر قربي من ديار أحبتي
رمانى زمانى بالتفرق والنوى
لعلّ الذي قد دبّر الكون أمره
ويجمع كلاً عن قريب فإنه
فلا تقطعوا عنه دعاكم فإنه

فلا تقطعوا عني دعاكم فإنه
وحيّاكم المولى بأزكى تحية
لإكسير سعد يترك العبد واليا
تفوق من العرف الشذي غواليا^(١)

ونختم شعر الغربية والحنين إلى المدينة بقصيدة لعمر الداغستاني -
أيضاً- تبين لنا مدى لهفته وتشوقه لأهله وأحبته وشدة تأثره ببعده
وانقطاع أخبارهم عنه.
يقول:

يا ساكني وادي الأجارع^(١) جودوا
جودا عليّ مع الصبا برسائل
بلقاكم فتصبري مفقود
تطفي فؤاداً في حشاه وقود
فلعله يأتي يشنّف أدمعاً
بلّت بواكفها الهميّ حدود
وعساه أن يظفي لهيب أضالع
نحلت فشابهها انتحالاً عود
لأشم منها نفحة عطرية
بشميم أزهار الحجاز تجود
كيف اصطباري عن تنشق عرفكم
أظننتم أن الحشا جلمود
أم تحسبوني بالسوى متبدلاً
لا والذي بحقيقة معبود
أم غير ذكركم ثوى في خاطري

^(١) - الأجارع : جمع أجرع وهي الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل، ولم أجد
واديّاً بهذا الاسم، فربما تعمّد الشاعر عدم ذكر الاسم المشهور للوادي، وذكر
وادي الأجارع التي ربما تطلق على أكثر من مكان، وربما هذا الوادي ليس
من الأودية المشهورة.

انظر: معجم البلدان ١٤٨/٢، لسان العرب (جرع)

أم غير حب لقائكم أهوى مني
 إني إذا جنّ الظلام يزورني
 ومسامري وجد مقيم مقعد
 وقريحة الأجنان تبكي حسرة
 وتقول أين النوم قلت لها سرى
 فتجيب ما هذا السرى جنح الدجى
 إني مريض هواكم هل طيفكم
 ليكون للنوم الهنيّ وسيلة
 كيف الهناء لمن رمته يد النوى
 والبين أبعده وبين مرامه
 لكنني أرجو المهيمن عودتي
 لأفوز في يوم اللقاء بجيرتي
 يا منيتي إلا اللقاء فجدوا
 وجد وسهد للسها مشهود
 وله حديث من جوى مسرود
 إذ فرّ عنها النوم فهو شرود
 ليرى حيباً قد حوته زرود
 في الصبح قد قيل السرى محمود
 يأتي إليّ يعودني ويعود
 كيف الهناء لمن جواه شديد
 عن ربه المأنوس وهو بعيد
 لجج بحار بل مفاوز بيد
 فهو الكريم وبابه مقصود
 فيكون عيداً كملته سعود^(١)

ونلاحظ أن هذا الشعر الذي نظمه شعراء المدينة لاظهار مشاعرهم
 والتعبير عنها تجاه مدينتهم الحبيبة ينبض بالعاطفة الصادقة، وهو شعر
 نظمه الشاعر ودافعه الوحيد هو حبه وشوقه للمدينة هذه البقعة
 المباركة.

(١) - حلية البشر ٢: ١١٢٨

٤- شعر الفكاهة :

هو ذلك الشعر الذي خرج في مضمونه عن إطار الجدّية لينتقل الشاعر فيه إلى منطقة فيها ترويح للقلوب بعد كللها، ولكي يضحك الشاعر ويضحك غيره عن طريق هذا الشعر الهزلي الساخر، وأحب أن يتنبّه القارئ إلى أن هذا اللون مختلف عن شعر الهجاء والسخرية.

وهو فن قديم يزخر به الشعر العربي على مر عصوره، قلما يخلو منه كتاب من كتب الأدب.

والذي وصلنا من شعر الفكاهة في هذا القرن هو من شعر جعفر البيتي الذي تكاد روح الفكاهة تطفئ على شعره كله في شتى الأغراض.

أما بقية الشعراء فليس من المستبعد أن يكونوا قد نظموا شعراً فكاهياً ولكننا لم نعثر على شيء من هذا، لأن شعرهم وصلنا عن طريق مختارات من شعرهم في كتب التراجم والتي كان أشهرها كتاب (تحفة الدهر) للداغستاني والتي قد لا يحفل مؤلفوها بهذا النوع من الشعر، ولم تصلنا دواوين هؤلاء الشعراء بعكس البيتي الذي وصلنا عدّة نسخ من ديوانه كتبت في حياته وبعد وفاته جمع فيها شعر البيتي في جميع الأغراض والفنون.

فمن أشهر فكاهيات البيتي قصيدة يعارض فيها قصيدة لفتح الله

ابن النحاس^(١) التي مطلعها :

رأى اللوم من كل الجهات فراعهُ
ولاتسألوني عن فؤادي فإنني
فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
علمت يقيناً أنه قد أضعاعه^(٢)

يصف البيتي في هذه المعارضة معاناته الحياتية في ينبع البحر بطريقة
فكاهية ساخرة يحاول أن ينفّس بها عن نفسه ويخفف بها من آلامه.
يقول:

رأى البق من كل الجهات فراعهُ
ولاتسألوني كيف بتّ فإنني
فلاتنكروا إعراضه وامتناعه
لقيت عذاباً لا أطيق دفاعه
نزلنا بمرسى ينبع البحر مرّة
نقارع من جند البعوض كتائباً
على غير رأي ما علمنا طباعه
وفرسان ناموس عدمنا قراعهُ
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه
رأيت جريّ القلب فيه شجاعه

(١) - هو فتح الله بن عبدالله الشهير بابن النحاس الحلبي ثم المدني، ولد بحلب سنة ٩٨٠هـ ونشأ بها، قام برحلة طويلة تنقل فيها بين دمشق والقاهرة والحجاز، عاش آخر حياته في المدينة وتوفي بها سنة ١٠٥٢هـ، ديوان الشاعر تحقيق الدكتور الخطراوي ص ٧، الأعلام ٥: ١٣٥، خلاصة الأثر ٣: ٢٥٧

(٢) - ديوان ابن النحاس ص ١١٧

(٣) - حطّ: وضع. لسان العرب (حطط).

(٤) - الجراب: وعاء من إهاب الشاء. لسان العرب (جرب).

(٥) - البطّة: الدبّة بلغة أهل مكة وهي إناء كالقارورة. لسان العرب (بطط).

متى وجدوا خرقاً أحبوا اتساعه
فما رام عند الفسار إلا ضياعه
خفافاً إلى مصّ الدماء سراعاه
رضي بتلافي واكتفينا نزاعه
من الصخر درعاً لاستخار ادّراعاه
إذا ضمّه الملتاع زاد التياغه
أقيت له أيتامه وجياغاه
ثيابي فلا أحيأ الإله شباعاه

ولم تر عيني مكره وخداعه
علمت يقيناً أنه قد أضاعه
أخاف عليه يا فلان انقشاعه
وسبب للآتي إليه انصراعه
أحاط به واشي الهوى فأذاعه
لودّ الذي يأتي الكنيف انجداعه
لآثر بين العالمين انقطاعه
وفساراً بلعنا رجله وكراعاه
شربناه كرهاً وادخرنا زلاعه

وجنداً من الفئران في البيت كمنا
ومن حط^(٣) شيئاً في جراب^(٤) وبطة^(٥)
وسربة قمل تنبري إثر سربة
ينازعها البرغوث لحمي فليته
فلو يجد الملسوع من عظم مابه
فرب قميص كان شرا من العرا
كأنني وصيٌّ للبراغيث قائماً
إذا شبع الملعون محّ دماً على

فما رشنا بالدم إلا لسانه
سلوا عن دمي ساري البعوض فإنني
فله جلد صار بالحك أجربا
بخار كنيف^(١) ربّما جلب العمى
ونتن كنيف كلما هان عرفه^(٢)
فلو كان يجدي المرء تجديع أنفه
ولو كان قطع الأكل والشرب نافعاً
وكم قد أكلنا نملة وذبابة
وماء زلاع^(٣) صار معجون علة

(١) - الكنيف : في الأصل الستر ، وهنا بمعنى الخلاء . لسان العرب (كنف)

(٢) - عرفه : العرف : الريح ، طيبة أو خبيثة . لسان العرب (عرف)

(٣) - الزلعة : خابية للماء . تاج العروس (زلع).

ونرجو من الله العظيم ارتفاعه
وأظهر من جور الزمان انفجاعه
ووطأ فوق النائبات اضطجاعه
وصيرت صبري والتأسي ذراعاه
وكشّف عن وجه اصطباري قناعه
وصدّع قلبي بالسجوع وراعاه
إلى فائت منه أرجي ارتجاعه

فما كان أشنى سجعه وابتداعه
وأضعف منه من يرجي اصطناعه
ولو كنت بالحسنى طلبت اندفاعه
فقد مدّ نحوي مفسد البقّ باعه

وباء وسقم لاحالة كلّه
فلا تعذّلوا المسكين إن عيل صبره
فقد مارس الأهوال في أرض ينبع
ذرعت العنا فيه يمينا ويسره
فأعدمني طول المقام تجلّدي
إذا رثم الناموس حولي أعلّني
وإن مصّ من دمي وطار تبعته
عدمّت غناء مثل أنغام سجعه
ضعيف قوى لا يستقر من الأذى
وقد نفدت في دفعه كل حيلة
فيا لأصيحابي اقتلونني ومالكاً

ويستمر في الوصف فيصف معاناته مع بعض سكان المنطقة وما
جاورها ويرى أن هذا الوضع لا يناسبه فهو الأديب الفاضل الذي وضع
في وظيفة لا تناسب مكانته، ومن يريد مغنماً من هذه الوظيفة
فليجربها.

لدى الناس إلا قوله وسماعه
وملّ وألقى في التراب يراعاه
ومزّق ما بين الأنام رقاعه

وما اعتضت من كوني أديباً وفاضلاً
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة
وكم بدوي داسه فوق بطنه

ومن جاءكم منّا مع الليل شاردًا فذاك لهول واقع قد أراعه
ومن يمتنع عن خدمة مثل هذه فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
فما يكسب الكيّال إلا غباره ولا الكاتب المسكين إلا صداعه^(١)

ويذكر البيتي في ديوانه أنه كان له صاحب في ينبع، أخذ منه
أحدهم ديكاً عزيزاً عنده، ووعد به عوض عنه، ثم سافر ولم يعوّضه عن
الديك، فتأثر من ذلك صاحب الديك وغضب وحزن حيث مكر به،
وبلغ الخبر البيتي وهو إذ ذاك بالمدينة، فكتب إليه على سبيل المباشطة
يعزيه في ديكه العزيز ويصفه بأجمل الأوصاف فهو الجميل المتضلع في
علم الفلك. يقول:

نهدي السلام وجزيل الأدعية مع التحيّات وفرض الأثنية
ووافرات من صنوف التسلية للشيخ مسعود رثا وتعزية
مما جرى لديكه العشاري^(٢)

أبيض ياقوي العيون أفرق^(٣) مثل الحمام صادح مطوّق

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٢٣

(٢) - العشاري: لعله نوع من الديكة، وفي القاموس: عشر الغراب أي نعق
عشر نعقات، فلعل هذا الديك من صفته أنه يصيح عشر صيحات: تاج
العروس (عشر).

(٣) - ديك أفرق: الذي عرفه مفروق. لسان العرب (فرق)

يعرف عرف الفجر قبل يطرق يشمّه بأنفه وينشق

ويعرف الأوقات في النهار

له اطلاع بدقيقات الفلك وسير كل كوكب أتى سلك

ما قط خلّى واجباً ولا ترك يصطاد أوقات الزمان في شرك

حرصاً على خدمة أهل الدار

أكرم به من أبلج المحيّا ظامي التوالي والصدور ريباً

كأنما في رجله الثريّا كأنما في عينه الحميّا^(١)

كأنه بالتيه في خمّار

كأنما في صوته مزمار كأنما في لحنه أوتار

كأن ذاك العرف جلنار^(٢) أو وردة أو أنه بهار^(٣)

أو الشقيق راق للأبصار

إذا تغنى بالجنّاح يضرب يمدّه طوراً وطوراً يجذب

(١) - الحميا : الخمر . المعجم الوسيط (حمّ)

(٢) - الجلنار : زهر الرمان . المعجم الوسيط (الجلنار).

(٣) - البّهار : نبت طيب الريح . لسان العرب (بهر) .

فيصدع القلب هوى ويطرب فهو فقيه شاعر ومعرب

وصدره سفينة الأشعار

ويل لمن في ينبع يـؤذن من بعده من ذا تراه يحسن

ويل على الجيران إن لم يحزنوا يحق أن تبكى عليه الأعين

وتصبح الأكباد في انفطار

بكى له القلب ولوعاً وانتحب واستعرت نار الهموم والكرب

واحرَباً لو كان أغناني الحرب فلا سقيت الغيث يا ريس حطب

ودمت طول الدهر في بوار

أخذت ديكاً ما تساوي نعله ولاتوازي ظفره ورجله

ولا رأيت في الطيور مثله بل أنت أعمى بعده وقبله

تخوض في بحر الظلال الجاري

كم من صنوف حيل أحكمتها ومن حبال خدعة برمتها

كم من دجاج بعده أيّمتها وكم فراخ عندنا يتّمتها

طارت من الحزن على الأوكار

يا ابن صبيح لا عداك الأجر اصبر فما يصبر إلا الحرّ

قد شقّ والله عليّ الأمر في وسط قلبي لاعج وجمر

ولا البكا أراه يطفى ناري

كيف وأنت قدوة العساكر وشيخهم في الجمع والمحاضر
يميل بك كيد حسين ناصر ويخطف الديك ولم تبادر

له بماضي سيفك البتار

والله ما في الديك قط من عورٍ كمثل ما قالوا عليه واشتهر
ولم يكن أدرك نوحا في الكبر لكن حسين قد تعاطى فعقر
تباً له من ماكر غدار

لو أنه قبلك كان ديكي ما كنت أهديه إلى الملوك
فضلاً عن الفقير والصعلوك ولا رضيت فيه باللكوك
ولا سمعت سومة التجار

ولو غدا يؤخذ مني غضبا لكنت شبيبت عليه حربا
أهز رحماً وأسل عضبا في كل يوم غارة ونهبا
وأركب البلق لأخذ الثار

ثم يعاتبه البيتي على تقصيره في أخذ حقه ، وعلى عدم استنجاهه
بأهل المدينة ولو فعل لجاءته النجدة التي تدحض خصمه وتعاقبه على
فعلته، ولكن كل شيء انتهى ومضى ولقي خصمه جزاءه فلا يجيق المكر

السيء إلا بأهله.

ثم يرجع بعد ذلك ليصف تأثره لفقد الديك الذي كان أمّة . فيقول:

وكل شيء قد تقضى ومضى ولا نسيت الديك حيّاه الرضى
من بعده ما قط جفني غمضا وكلمـا موهن برق ومضا

بكيته في وهنة الأسحار

أسأل عنه آيأ وذاهبأ وأنشد الشمال والجنائبأ
وأسأل الركبان والركائبأ أقول من يعرف منكم غائبأ

طارت به أجنحة الأسفار

ديك أخ كان له يسلي يدفع عنه همه ويجلي
يقرن بالواجب ندب النفل مؤذن مرجع مصلي

مصدر في صحف الأبرار

وروى لنا عنه مزايا جمه وقال ديكي ذاك كان أمه
قد أوحيت اليه كل حكمه فاق على النحل عطا وقسمه

ويحفظ الصحيح والبخاري

من بعده صار العشا في المغرب والشمس قد عادت كمثل الكوكب
وشوشت أوضاع كل الرتب أعجب ويا لله كل العجب

تجرت في سيرها الدراري

وما قطعنا اليأس منه مرّة لأننا نرجو الزمان كرّه
تكون منه للعيون قرّه وتبدل الأحزان بالمسرّه
وتنجلي سحابة الأكدار^(١)

ومن مدح الديك وتقديم فروض العزاء لصاحبه، ننتقل مع البيتي إلى حوار مع الحوت حيث يعدد كلاً منهما مثالب الآخر ليلتجي البيتي أخيراً لشخص يدعى حماد ليعطيه من المال ما يصلح به حاله التي جعلت مثل هذا الحوت يتجرأ عليه وينال من قدره .
يقول:

يا أيها المرتجى يا من ألوذ به إذا تجرّأ عليّ الحوت والزوم^(٢)
جئناك نرفع دعوانا وتعربها فبعضها واضح والبعض مفهوم
إني وحتي هذا بيننا صدرت مشاجرات بهن العرض مثلوم
يقول لي حاقد إذ صدته بيدي من أين للحوت أن يصطاده الشوم
يا أيها النحس أخربت البلاد على تحصيلك الرزق والمحروم محروم

(١) - ديوان البيتي . نسخة عارف حكمت ص ١٠٢ .

(٢) - الزوم (بفتح الزاي المشددة) في القاموس المحيط: طعام لأهل اليمن من اللبن لذيد، والزويم : المجتمع من كل شيء، وفي المعجم الوسيط الزام : الربع من كل شيء، وزام - زوما: مات، ونظر متغضباً مغمغماً بكلام لايبين.
القاموس المحيط (الزوم) المعجم الوسيط (زام).

بالحفر فيه زماناً وهو مكظوم
 فأس كبير ومسحات وقدوم
 تحفيره وهو بالخيرات موهوم
 أدمك بالضرب تكسير وتحطيم
 للجنّ مرقى يرى من بطنه الروم
 بالخسف ثم تولى أنت مهزوم
 لكنّه بك مهموم ومغموم
 وجئت للبحر فارجع فهو معصوم
 إلا لأظفارك العوجاء تقليم
 لأنك الحوت مأكول ومذموم
 عند العطا طير مشهور ومعلوم
 وإنني بالذي قد قلت مظلوم
 فاسأل إذا شئت عنه فهو مطعوم
 فلحمهم في فم البهتان مسموم
 حتى أرى أنا من فحواك مشتوم
 وكم بخار بأقصى الرأس ملموم
 وأنت في الحكم غسلين وزقوم
 يروح وهو ضعيف الجسم محموم
 واذهب فإنك مدحور ومذموم
 داء دواه عسير أوّه معدوم

وكم تجرّع منه السيح من غصص
 تأتيه معك سلاح الحق تحمله
 لولا الخليفة عبدالله ذبّك عن
 وصدّ نفسك عن ما خيلته وقد
 لكنت تحفر سرداباً وتجعله
 وكنت تغرق خلق الله قاطبة
 يا غصة خلقت للدهر يحملها
 أفسدت في البرّ حتى علت مفسدة
 وما جزاك على ما أنت فاعله
 فقلت مهلاً فقد جرعتني كمداً
 أنا سعيد عطا العطار لي نسب
 لقد جهلت مقامي حاسداً حسبي
 أبي عطا كان ذا علم ومعرفة
 ولا تذق صوغك البهتان في العلما
 من أنت يا شرّ مأكول وأعفنه
 كم فيك من فضلات جمّة جمعت
 ولست تجمع مع لحم لعزته
 وإن تغدّك من يضطر مع لبن
 فبئس أنت وما تحويه من كرب
 والجوع أفضل من أكل عواقبه

يأتيك منِّي تعذيب وتحرير
وصح إنك قرنان ومطعموم
فيك الخساسة والحرمان واللوم
وأنت من أرذل المجموع مقسوم
طعام مثلك إلا البقل والثوم
وأم قارصوا وأم لحوحو منه مبشوم
تعقل كأنك مهبول ومغروم
حيوان نحس بجبل الفقر مشكوم
فالعيب في الناس موجود ومعدوم
فكلما قد بنيت الآن مهدموم
عنوان ذلك في خديك مرقوم
دعوى فما كل قول فيه تسليم
عيناه لي بغنى والرزق مقسوم
طاب الخصام وأنت اليوم مخصوم
وأنت حاكمنا والكل محكوم
شبتت هما وحالي فيه تعليم
بقصد حكم من الرحمن محتوم
للذم وهو دعوي الأب مذموم
وامطر عليه عقاباً منك مسجوم

وسوف إن أسعفتني فيك ساعة
فقال سحراً لما قد قلت مفترياً
أنت المعنى قصير الذيل قد جمعت
فالناس شتى وطبع الكل منقسم
لاشك إنك مصري البلاد فما
لكن أبوك يماني وقلقلة
فكيف يا نذل لم تتبع أباك ولم
أنت الذي لايداوى من حماقته
والحوت إن كان فيه بعض عائبة
لكن له مصلح والحلو يصلحني
وأنت كلك نجس ثابت أبداً
وإن تقل لا فأوضح مصلحا لذي الد
فقلت يصلحني حماد إن نظرت
فقال هيّا له جمعاً فقلت لقد
فقد أتيناك نروي كل حجتنا
ولي عن البحر أياماً معددة
لولا الزمان تجرّاً في مقاطعتي
ماكان هذا الخسيس الوغد ينسبني
فامنن عليّ بجود منك يكمدته

واسجنه في برمة التعذيب إن له قباوة وله في الفخر تفهيم
حتى يرى بعد صعر الخدّ منخفضاً ولا له قط إلا الأكل تكريماً^(١)
وفي قصيدة أخرى للبيتي يضمنها نصائح وفوائد ويلبسها ثوباً فكاهاً
هزلياً على طريقة الشاعر أبو الحسين بن سودون^(٢).

وهي قصيدة طويلة نختار بعض أبياتها :

يا قومنا عندي لكم فوائد	تنفع من كان لها اليوم وعى
من لم يكن لله كل سعيه	فإنما حياته ضاعت سدى
ومن يرد حلاوة مسمومة	يأكل من لحم الأنام بالهجا
وإن يكن ما كان أصحاب التقى	يغلبهم بالمكر أولاد الزنا
من خنق الخصم وشق زيقه	فإنه بالغ معه في الزرا
ومن مشى عريان فهو خبل	لو كان من أهل العقول لاستحي
ومن نسي نعاله في بيته	فإنه يذكرها عند الحفا
ومن تمنى نصف صاع ذهباً	وجاءه وسق فقد نال المنى
من باع ديناراً بنصف درهم	كأنما قد باع تمراً بالنوى
ومن رأى في نومه مائدة	فإنه نام ولا ذاق العشا

(١) - ديوان البيتي، نسخة آل الصافي ١٣٤

(٢) - هو أبو الحسين بن سودون، شاعر فكه تميّز بمؤلفات بديعة منها "نزعة النفوس ومضحك العبوس" و "قرّة الناظر ونزهة الخاطر"، ولد في القاهرة وتوفي بها سنة ٨٦٨هـ . مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٢٨٣.

لا يشرب الماء إلى وقت المساء
والصفع لا يكون إلا في القفا
والبرد لا يكون إلا في الشتا
حاولته يمشي معي فما مشى
لكنها غالية وقت الغلا
والدلو لا ينفع إلا بالرشا
إذا ثنيت الحبل والخيط اثنتي
أكثر ذرعاً من منى إلى الصفا
بأنه يذوب في قنطار ما
والسخن من يشربه ينسى الثنا
ومن يشا العقل يماشي العقلا
صدقه إن أقسم ما ذاق الكرى
وطينة ولبنة فهو البنا
فلا تقل قد مات أصحاب الذكا
فقل نهنيك على طول السقا
يكثر من ذكر صلاة المصطفى^(١)

من صام يوماً كاملاً فإنه
واللطم في الوجه يكون دائماً
والحر في الصيف يكون دائماً
وكم رأيت في طريقي جبلا
ما أرخص الأسعار أيام الرخا
والنعل لا تصحب إلا باختها
فائدة أخرى أنا تجربتها
من مشرق الأرض إلى مغربها
وجربوا عشرين رطل سكر
من شرب البارد يشكر ربه
من يرد الحمق يماشي أحمقا
ومن يبت وشوكة في عينه
وإن جعلت طينة ولبنة
ومن يقل نصف الثمان أربع
ومن يقل إنني أنا ابن آدم
ومن يكن يبغي الرضا من ربه

(١) - ديوان البيهقي نسخة آل الصافي ١٣٨ .

وبهذا الشعر الفكاهي الهزلي الساخر وهو الغرض الأخير من هذه الأغراض المتفرقة من أغراض الشعر التي نظم فيها شعراء المدينة نصل إلى نهاية استعراضنا لبعض ما وجدناه من نماذج شعرية لشعراء هذا القرن، لنتقل بعد ذلك إلى الدراسة الفنية لهذا الشعر.

الباب الثاني

الدراسة الفنية

الفصل الأول

ملاحم ومميزات فنية

أ - حول نقد هذا الشعر :

استعرضنا - فيما سبق - قدرًا من النتاج الشعري لشعراء المدينة الذي وصلنا من شعر هذا القرن، وقد كان من الكثرة وتعدد الأغراض وعدد الشعراء ممثلاً لتيار أدبي واضح، وظاهرة أدبية ملفتة للنظر والتأمل، وحرية بالبحث والتناول والدراسة. وقد كانت كثرة النماذج الشعرية في أكثر موضوعات الشعر تجبرنا على الانتقاء الذي يأخذ أحياناً وقتاً ليس باليسير، وإذا كان هذا حال الشعر في بيئة واحدة هي المدينة في القرن الثاني عشر، فماذا عسى أن تكون بيئات الشعر وحواضره الأخرى فيما عداها، أليست الحجاز - بما عرفنا من أحوالها السياسية والاجتماعية المضطربة - من أقل حواضر الإسلام حفاوة بالأدب وازدهاره؟ ومع ذلك رأينا حياة أدبية في جزء من أجزائه. ألا يبعث هذا إلى الظن بأن حال الأدب العربي في هذا القرن شيء آخر غير ما يقوله أكثر دارسي الأدب ومؤرخيه، عندما يعدون هذا القرن - الثاني عشر - وغيره عصور ضعف وتدهور الأدب! لعل في هذه المحاولة التي حاولتها هذه الدراسة ما يعزز ضعف هذه المقولة الذائعة، ويعيد النظر في حواضر أدبية أخرى، ربما يكون الأدب فيها أكثر ازدهاراً وأسعد حظاً، وكل ذلك ما يغري بمزيد من الدراسات

والبحوث في جوانب هذه الفترة الرحبة.

وبعد استعراض هذه النماذج الشعرية آن الأوان لإخضاعها للدراسة الفنية التي تكشف عن قيمة هذا الشعر، حيث يمكننا وضعه في المكان المناسب من تراثنا الأدبي الكبير.

ولكن من الواجب علينا قبل البدء في مباحث ناقدة لهذه النصوص ودراستها التنبه إلى أنها قيلت في عصر غير عصرنا، عصر يختلف من حيث الظروف، ومن حيث نظرة الناس للشعر وجمالياته، فما هو مستساغ في ذلك العصر قد يكون مستهجناً في عصرنا.

في دراستنا لهذا الشعر يتحتم علينا قبل دراسة هذه النصوص معرفة ظروف العصر الذي قيلت فيه والآراء النقدية تجاه هذا الشعر، فهناك من يرى أنه (علينا النفاذ إلى عقلية الأحقاب الماضية واتجاهاتها، وأن نتقبل مستوياتها، وأن يتم ذلك عن عمد مع استبعاد أي تدخل من مفاهيمنا السابقة)^(١)، (ويتطلب هذا الفهم.. إعمالاً للخيال واندماجاً تاماً وتجاوباً عظيماً مع عصر قد مضى أو ذوق قد انقضى)^(٢)

وقبل أن أدلي بأية ملاحظة حول هذا الشعر في هذه البيئة المحددة (المدينة) أحب أن أنبه إلى أن نقاد الشعر لهذه الحقبة تركوا ومضات

(١) - نظرية الأدب رنيه وليك ص ٦٠.

(٢) - المرجع السابق ص ٦١.

نقدية، لكنها لا تعدو لمحات بسيطة عارضة ، مبعثرة وغير منظمة ، مع أنها تنطوي على قدرٍ من الذكاء والشفافية، ولذلك لا يصح أن نتجاوزها دون أن نعرضها ، ففيها نظرات لحال الشعر ومستواه، وفيها ملاحظات عليه ومؤاخذات، ومن ذا الذي يزعم أنه أولى بالحكم على عصر ما من أهله؟ وأدرى به ممن عاش فيه وسير أغواره، وعاش في جنباته؟

ولعل مما يعطي هذه الملاحظات النقدية أهمية - في تقديري - أنها صدرت من ألمع شعراء هذه البيئة، فهي لا تأتي من فراغ أو من مجهولي الحال أو ممن لم يتصلوا بالحياة الأدبية، بل أتت من أشخاص هم أبرز من ظهر في الساحة الأدبية يومئذ، فهل كان هذا النقد - البسيط - الذي وصلنا عنهم هو إسهام منهم في بلورة وازدهار الأدب؟ ربما يكون ذلك صحيحاً، وربما يكون هناك وجهة أخرى لهم، ولكن حسبنا أن نرى هذا النقد على أي مستوى كان .

هذا أحدهم ، وهو عمر الداغستاني^(١) الذي ألف كتابه (تحفة الدهر) وجمع فيه نماذج لكثير من الشعراء المدنيين، وترجم لهم بتراجم تكاد تكون متشابهة، فهي عبارة عن قطع من الإطراء والثناء على صفات الشخص وأسرته وشاعريته، بصورة يتحكم فيها البديع إلى حد كبير،

(١) - سبقت ترجمته ص ٦١

لدرجة أن القارئ ربما يستطيع أن يضع ترجمة شاعر لشاعر آخر دون أن يحدث خلل كبير بذلك، وهذه الطريقة التي اتخذها الداغستاني هي طريقة مترجمي عصرهم كما هي عند ابن معصوم في (سلافة العصر) أو المحبي في (نفحة الريحانة) وإن كانا سابقين له، وهي أوضح ما تكون في كتاب المرادي (سلك الدرر في تراجم أعيان القرن الثاني عشر)، لكن هذا لا يعني عند التدقيق في هذه التراجم أننا لا نجد شيئاً، رغم اعترافنا بذلك العموم والشيوع الذي يطلقونه في أحكامهم، ولعل في هذا عذراً لهم وحسبهم ذلك.

ربما يكون اللوم هنا وارداً في حق الداغستاني لأنه شاعر أديب، فكان المنتظر منه شيئاً آخر، لكن هل يحق لي أن ألوم فهماً سائداً في العصر، ربما يبدو لي الحق في هذه المؤاخذة لأننا نجد عنده رأياً كما سنرى.

إننا نجد يتحدث عن كساد سوق الأدب في هذا العصر وانصراف الناس عنه فيقول: (فإن الأدب من قديم الأزمان، من أحسن ما يتحلى به الإنسان، وأبهى ما يتشبع به اللبيب، وأزهى ما يقترح به كل أريب، فإنه لو كسد سوقه وأضحت بضاعته مزجاء، له حلاوة طلاوة^(١) مستعذبة تذوقها الطباع السليمة لا الأفواه، وتشرب راحها الأرواح لكؤس المسامع، فتدب نشوتها من القلوب في الجماع، وتنشق أرجحها

(١) - هكذا في المخطوط، ولعلها (حلاوة وطلاوة)

النفوس، وتقول لاعطر بعد عروس، نعم عرفه كالعبير ضايع، لكن
مقداره في النفير ضايع (١).

ثم يستشهد بعد ذلك بالبيتين:

مضى الزمن الذي قد كان فيه لأهل الشعر عز وارتفاع
فإن الشعر في ذا العصر أضحى قليل الحظ ملفوظاً يضاع

وليت الداغستاني أمعن النظر في هذا الشعر ليبحث عن سبب
انصراف الناس عنه، ولكنه يرد العيب كله واللوم على أذواق الناس،
بينما الأدب - كما يراه - له حلاوة وطلاوة عذب لا يعاب.

ولانجد في كتابه تقيماً دقيقاً سوى ما أورده من أبيات لأخيه أبي
بكر الداغستاني يظهر أنه معجب بها، مع أنه لم يكن راضياً عن هذا
الأخ، وكانت ترجمته له تنبي بذلك، حيث بدأها بقوله (أخ بلا فائدة،
ماعنده لصلة الرحم من المبرة عائدة، ضميره مبني على جميع الحركات
الفاسدة..)^(٢)، فيظهر أن عمر الداغستاني لم يكن دافعه لإيراد هذه
الآبيات مجاملة أخيه، بعد هذا الكلام عنه، وإنما كان الدافع هو
الإعجاب بها حيث قال قبل الآبيات: (فمن نظمه الذي وقع منه فلتة

(١) - تحفة الدهر ١

(٢) - تحفة الدهر ٨٤

وبدت له به تحفة ونكته^(١)، وهذا يدل على إعجابه بالشعر بالرغم من تحامله وعدم رضاه عن قائله.

كما نجد عمر الداغستاني يذكر رأيه صريحاً في شعر آخر لأحد شعراء تحفته وهو خضر بن يحيى خضر، حيث يقول عنه: (شاعر له في الأدب نصيب، إلا أنه يخطئ في شعره ولكنه قد يصيب، رأيت له بخطه أبياتاً لم تحز مع ركاكتها إلا معاني أشتاتاً، خلا كلمات له أخذت من الإجادة طرفاً، وشعراً رضي من الحسن بالقليل واكتفى)^(٢)، وهذا رأي صريح من الداغستاني الذي غلب على تراجمه وذكره الشعراء وشعرهم الإطراء والمجاملة والتعميم.

ويتناول ناقد آخر هو الشاعر أحمد الجامي - وذلك في كتابه نوافح الزهور^(٣) - يتناول العلاقة بين الناس والأدب فينظر لها من جانب آخر،

(١) - تحفة الدهر ٨٤

(٢) - تحفة الدهر ١٠٠

(٣) - هو كتاب (نوافح الزهور فيما جرى به القلم من منظوم ومنتثور) لأحمد زين العابدين الجامي، وهو مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة يقع في ١٠٣ ورقات، تحدث في أوله عن فضل الأدب وأورد نواذر وطرائف أدبية من عصور مختلفة تبين مدى قدرة الأديب على التأثير في نفوس الآخرين بأدبه، ثم تحدث بعد ذلك عن العروض وبعض أقوال الشعراء فيها، ثم تحدث عن التاريخ الشعري ونواذره، أما ثلث الكتاب الأخير فهو من شعر

فهو يعترف بأن الأدب ليس كما ينبغي، ولكنه يرجع ذلك لأذواق الناس في هذا الزمن فيقول بعد أن تحدث عن تدمير بعض الشعراء السابقين وشكواهم من كساد الأدب: (... فما بالك بهذا الزمن الذي صار لا يقبل ولا يسوغ فيه (أي الشعر) ، ولا تلحظ في سوق الأدب قوافيه، خصوصاً عند أهالي الحرمين الشريفين صانهما الله تعالى عن الخطل والخطا المفرطين إلا مثل التشطير^(١) والحمينيات^(٢) والتخاميس^(٣) والمشجرات^(٤)).

ثم يجيب بعد ذلك على سؤال يطرح نفسه وهو ماجدوى عمله هذا واهتمامه بتدوين الشعر الجيد الراقي الخالي من العيوب المتقدمة؟ يقول: (فإذا تقرر ذلك وظهر التقاصر والفرق الفاحش بين هذا الزمن وبين ما هنالك فما يصنع بهذا التدوين الذي اتعبت نفسك في عقل شوارده وتنسيق جواهره وفرائده، قلت: دعواهم فيما ذكروه من هذه القضايا والتوجهات غير مسلمة، لأن ذلك منهم مبالغة في عدم الاعتناء بهم

العصر، وجله من نظم الجامي نفسه وهو عبارة عن تشطيرات وتخميسات ومشجرات وحمينيات.

(١) - انظر تعريف التشطير ص ٤٢٥

(٢) - انظر تعريف الحميني ص ٥٤٤

(٣) - انظر تعريف التخاميس ص ٤١٣

(٤) - انظر تعريف المشجر ص ٥١٩

والالتفاتات إليهم بالنسبة إلى ماسمِع وشوهد من أحوال الأمم المتقدمة، وقد قالوا: إن النادر لاحكم له، خصوصاً مع من اتخذ ذلك ذريعة إلى الجوائز الدنية وابتذله كما قال من قال في شاهد الحال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تهيماً^(١)

والجامي في مقولته الأولى يتهم أهالي الحرمين بالانصراف عن الشعر الجزل الراقى والإقبال على المشجرات والتشطيرات والتخاميس والحمينيات، والواقع لا يؤيد هذا الحكم من الجامي، والدليل على ذلك ما رأيناه في هذا البحث من أشعار، وكذلك ما نجد في الدواوين والمختارات الشعرية وكتب التراجم في القرن الثاني عشر والقرن الذي قبله، حيث نجد شعراً رصيناً ما كان له أن يوجد لولا الشعراء الكبار والجمهور الذي يقبل على هذا الشعر ويتذوقه.

إلا إن هذه الشكوى من انصراف الناس عن الأدب، والشكوى من كساده، لاتعني الإطلاق، فهي دعوى موجودة في كل زمان ومكان، وهناك من كان يعد شعر جرير والفرزدق لايساوي شعر القدماء حتى إنه لم يحفل به وقال: لقد حسن هذا المولد حتى هممت

(١) - نوافح الزهور للجامي ٤

أن أمر صبياننا بروايته ، ثم أعرض عنه^(١).

أما في المقولة الثانية فيرجع الجامي هذا الانصراف عن الشعراء إلى اتخاذ بعض الشعراء شعرهم وسيلة لكسب المال، وهذا الكلام مردود على الجامي، فظاهرة التكسب بالشعر ظاهرة عامة في أدبنا العربي منذ العصر الجاهلي، ولعل من روائع الأدب العربي تلك القصائد التي صاغها الشعراء في مدح الملوك والحكام طمعاً في جوائزهم.

ويتحدث البيهقي في أبيات له عن علاقة الشاعر بجمهوره فيؤكد أن تقبل الناس لشعره له تأثير كبير في مستواه، فيقول:

فلاتنكر جمودي إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان
يصدُّ المرء يوماً عن حديثي فتدخلني البلادة والتوان
ويُقْبِلُ لاستماع القولِ خَلِّي فأصدعُ بالبراعة والبيان^(٢)

ثم يتحدث عن الأدباء المعاصرين له ، فيصب جام غضبه عليهم، حيث يصفهم بالبلاهة وعدم المعرفة بالشعر ، ومع ذلك فهم يتعاضمون نفوسهم ويظهرون بمظهر الذكي الحاذق، فيقول:

أدباءُ هذا الوقتِ بلدٌ في جلودِ الأذكياءِ
يتعاضمون نفوسَهم وهم أدقُّ من الهبَاءِ

(١) — هذا القول لأبي عمرو بن العلاء ، العمدة ١/٩٠ .

(٢) — ديوان البيهقي نسخة عارف حكمت ٥

لو صوّرت أشعارهم ما جئنا إلا كالنساء
 فعقولهم فصل الخريد ف وشعرهم فصل الشتاء
 جمع الركابة والبرود في نسيب كالعزاء
 مرض المسامع والفؤاد كأنه زمن الوباء
 تخشى على المدوح يقضي منه من برد الثناء
 يا غربة الآداب ضاعت بين أظهر هؤلاء^(١)

فالبيتي هنا يذكر ملمحاً نقدياً وإن لم يفصله فهو يصف هذا الشعر
 بالبرودة وقصور العاطفة والركابة، لأن هذا الشعر - في نظره - يصدر
 عن أناس لا يملكون أدوات قول الشعر، وقد صرفهم عن ذلك غرورهم
 بأنفسهم وتعاضمهم. هذا التعاضم والغرور والتحللق الذي ذكره البيتي
 كان من الممكن أن يتحطم على صخرة النقد الواعي الموضوعي،
 فالمشكلة إذاً مشتركة بين الشاعر وبين الناس الذين يتقبلون شعره، دون
 تمييز بين الغث والسمين والجيد والردئ.

وإن يكن البيتي مصيباً بعض الشيء في حكمه هذا على الشعراء، إلا
 أننا يجب أن لانتقبله على إطلاقه، فما وصلنا من شعر هذا العصر
 يدحض هذه المقولة ويدل على أن الشعراء لم يكونوا بهذه الدرجة من

(١) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ٩٨

البلاهة والخواء، ولعل البيتي قصد شعراء بعينهم كانوا ينافسونه فأراد النيل منهم، ولكن لشدة انفعاله عم جميع شعراء عصره، وخاصة أن البيتي كان من الشعراء المعجبين بشعرهم، حيث نجد في جل قصائده في ديوانه - وخاصة المدح - يطري أبياته وينعتها بنعوت الكمال.

ويتحدث الشاعر يحيى هاشم عن كساد الشعر هذا وانصراف الناس عنه، فيدعو الشاعر إلى قصر شعره على نفسه، فليمدح الراح والساقية، وليقض زمانه بين الطبيعة والشعر ويتجنب الناس لأنهم لا يستحقون المدح، وجميعهم يستحق الهجاء، فيقول:

الشعرُ في غابرِ الأزمانِ قيمتهُ والآن لا يُشترى والله بالمدْرِ^(١)
 إن كنتَ تمدحَ لأتُعطيَ جوائزُهُ وكنت تهجو فمَن تهجو من البشرِ
 فاجعل مديحك في راحٍ وساقيةٍ واقضِ الزمانَ على الروضاتِ والزهرِ

وهذا النوع من النقد عبارة عن ملاحظات عامة وانطباعية حول ما سماه هؤلاء الشعراء النقاد فساد الزمان وكساد سوق الأدب، مما يترتب عليه سقوط الأديب وضعف مكانته وعدم تقديره.

وهناك نقد من لون آخر حيث نجد من تعرض لبيت أو قصيدة، وذكر رأيه بموضوعية وصدق، فمن ذلك نجد الشيخ عبدالغني النابلسي

(١) - المدر: قطع الطين اليابس المتماسك، أو الذي لارمل فيه. تاج العروس

في كتابه (الحقيقة والمجاز) يذكر قصيدة لأحمد بن إبراهيم الخياري في مدح سيدنا حمزة رضي الله عنه، فيأخذ عليه كثرة مدّه للمقصور في شعره ويذكر أنه (وإن جاز لضرورة الشعر^(١) لكنه نوع من القصور)، ومن هذه الأبيات التي مد فيها الشاعر المقصور:

نحن في سَوْحِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ وَحِمَاهُ أَعْظَمُ بِهِ مِنْ حِمَائِ
ومنها :

فاكفنا سوءها وكفّ المعاصي واجلّينها بنورِ شمسِ الهداءِ
أيها الليثُ والهزبرُ المفدى ومنيل العُفَاةِ كلُّ مُنَاءِ^(٢)
كما نجد الداغستاني في كتابه (تحفة الدهر)^(٣) يعلق على بيت لعلوي بن علي البيتي^(٤)، وهو البيت الثاني من قوله :

أَلَا مَن لِعَيْنٍ كَحُلْهَا السَّهْدُ لَا الْكِرَى وَقَلْبٍ مَشُوقٍ لَا يَقْرُ خَفُوقَهُ

(١) - مدّ المقصور أجازه الكوفيون ومنعه البصريون، انظر كتاب (ما يحتمل الشعر من الضرورة) لأبي سعيد السيرافي تحقيق د. القوزي ص ١٠٩ .

(٢) - الحقيقة والمجاز للنابلسي ص ٣٩٦ .

(٣) - تحفة الدهر ٢٢

(٤) - هو علوي بن علي بن محمد البيتي باعلوي، وهو ابن أخ جعفر البيتي الشاعر المشهور، ذكر الأنصاري أنه (نشأ على طلب العلم، وهو حاذق في غاية الفهم، وصار له ملكة في علم الطب أحسن من غيره بكثير حتى لربما لا يوجد له بالمدينة نظير). تحفة المحبين ص ١٢٤ تحفة الدهر ٢١ .

ومهجة مكلومٍ بأدعجٍ ناظِرٍ
غدا حارساً فوق الخديدِ بريقه

فيذكر أنه كقول الشاعر :

يحمي بنرجسِه أقاحيَ ثغَرِه
ويصون وردَ الخدِّ بالمرسين^(١)
ثم يذكر قول الملك الناصر^(٢) :

قد حمى خدّه بسورِ عذارٍ
مقلتاه أضححت عليه مَرَامِي

وقول مهجة القرطبية^(٣) :

لئن قد حمى عن ثغرها كلَّ هائمٍ
فما زال يحمي عن مطالبه الثغرُ

وقول الداغستاني نفسه :

(١) - يقصد كأن عينيه سلاح يحمي به ثغره الجميل، وكأن زمامه الذي يزين به أنفه سلاح يصون به خدّه المتورد.

(٢) - لعله الملك الناصر يوسف بن محمد بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، آخر ملوك بني أيوب، ولد بحلب سنة ٦٢٧هـ، تولى الملك بعد وفاة والده، ضم إلى ولاية حلب كثير من بلاد الشام حتى استقر في دمشق إلى أن أغار التتار عليها فأسروه ثم قتلوه، كان من المهتمين بالشعر والشعراء وكان يقول الشعر ويحيز عليه وله ديوان شعر في عشرة أبواب. الأعلام ٢٤٩/٨.

(٣) - مهجة القرطبية: كانت من أجمل نساء زمانها ومن أخف الناس روحاً، علفت بها ولادة ولازمت تأديبها، قال بعضهم في بعض شعرها: لو سمعه ابن الرومي لأقر لها بالتقدم. أعلام النساء لكحالة ١١٩/٥

حمى خدّه الوردِيّ مرهفٌ لحظِه فطلت حوالبه العيونُ تطوفُ

وقال: وهو قريب من قول الشهاب الخفاجي^(١):

صقيلٌ خدوده مرآةٌ قلبي وماءُ الحسنِ رقٌّ به وراقا

تحيطُ به العيونُ إذا تبدى وهل طرفٌ يطيقُ له فراقا

فخالوا صورةَ الأهدابِ فيه عذاراً قد كسا بدراً محاقا^(٢)

وظلنا بنحتلي منه محيّا (كأن عليه من حدقٍ نطاقا)^(٣)

قال الداغستاني: (والمصرع الأخير من أبيات الخفاجي مضمّن من

قول المتنبي:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقا^(٤)

(١) - هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، ولد سنة ٩٧٧ هـ،

عالم شاعر من أبرز علماء وشعراء القرن الحادي عشر بمصر، له

رحلات إلى الحرمين والروم، ودمشق، وهو صاحب كتاب (ريحانة الألبا)

الذي بنى المحبي كتابه (نفحة الريحانة) عليه. توفي سنة ١٠٦٩ هـ. نفحة

الريحانة ٣٩٥/٤، خلاصة الأثر ٣٣١/١، ريحانة الألبا ٣٢٧/٢.

(٢) - يقصد أن الخدود لشدة بياضها كأنها مرآة تعكس صورة أهداب الناس

الناظرة إليه، وهذه الصورة المنعكسة تشبه البدر وقد كساه العذار، والعذار

هو أول نبت شعر الرجل في لحيته.

(٣) - الأبيات في (ريحانة الألبا) للخفاجي ٣٣٨/١

(٤) - ديوان المتنبي (شرح العكبري) ٢٩٦/٢

وقال السيد ابن معصوم: وأما تضمينه فليس من الحسن في شيء، فإن النطاق إنما هو للخصر، أقول: بل دخله (يقصد ابن معصوم) ليس من الإصابة في شيء فإن الخفاجي جعل العذار المحيط بمحيا المليح البهي الإشراق الذي كأنه نطاق من شاخصات الأحداق كالنطاق الذي يحيط بخصره، فيكون استعار النطاق للعذار في شعره، وأيضاً خرج عن معنى الناظم، فإن المتنبي أوردته في الخصر والخفاجي أوردته في الخد المطرز بالشعر، مشبهاً النطاق بالعذار^(١)، حيثما أحاط بالوجه ودار، وهو في نهاية البلاغة لما كان النطاق من سواد الحدق ناسب أن يكون العذار الذي هو مشاكلها، فانظر قوله (تحيط به العيون) يظهر لك حسن التشبيه المكنون، ثم رأيت المحيي قال في نفحة الريحانة^(٢):
(و كثير يظنون أن المتنبي هو المخترع لهذا المعنى ولم يدروا أنه من أبيات لعلي بن يحيى^(٣) يتغنى بها، ومنها:

وجه كأن البدر ليلة تمه منه استعار النور والإشراقا
وأرى عليه حديقة أضحى لها حدقي وأحداق الأنام نطاقا

(١) - الصواب (مشبهاً العذار بالنطاق) ، ولعل هذا من تحريف الناسخ.

(٢) - نفحة الريحانة ١/١٩٧.

(٣) - هو أبو الحسن علي بن يحيى المنجم، كان شاعراً راوية علامة إخبارياً، من خواص وندماء المتوكل العباسي، توفي بسر من رأى سنة ٢٧٥هـ. معجم

وذكر أبياتاً للخفاجي في تضمين المصراع المذكور غير ما ذكر

وهي قوله:

عذار خط في الوجنات خطأً حوى كل الأنام به وفاقا
تري الأبصار شاخصةً إليه وماء الحسن في خديه راقا
تصورت العيون به فأمسى (كأن عليه من حدق نطاقا)

فله دره فإنه قد جعل في التضمين الأول خد حبيبه مرآة، وفي الثاني ماءً، فيظهر بما ذكر المحيي أن تضمين الخفاجي حسن، وتعرض السيد ابن معصوم ليس بمستحسن.

ويظهر لنا نحن من تناول الداغستاني هذا ومناقشته لرأي ابن معصوم أن لديه قدرة نقدية ليته عامل بها كثيراً من الشعر الذي أورده في تحفته، ولكنه استعملها هنا لدفع المآخذ عن بيت الشهاب الخفاجي آنف الذكر.

وهناك تعليقات للداغستاني على بعض الشعر في تحفته، حيث يعقب بقوله: ما أجمل قول فلان، أو أخذه من قول فلان، أو هو قريب من قول فلان، أو وقال فلان في نفس هذا المعنى كذا، وهي ملاحظات -على قلتها- تذكر وتشكر للداغستاني ولعلها توحى فيما توحى به في الجملة إلى حفاوة الشاعر بشعره، إذ كان في عصره من سيؤاخذه

وينقده، مما يوحي بإدراك الشعراء لإجادة شعرهم وإتقانه.

ثانياً : نقد مؤرخي الأدب :

لأننسى أن نلحق نقد شعراء هذا العصر لشعرهم في القرن الثاني عشر - كما مر بك - بنقد آخر لا يقل عنه أهمية، بل يكاد هو المعروف، أو قل الحكم السائد عن شعر هذا القرن، كما ينسحب على قرون أخرى قبله، كما يذهب إليه أكثر مؤرخي هذا العصر ودارسيه. فقد اصطلح كثير من الباحثين على تسمية عصور معينة من عصور الأدب العربي عصور الانحطاط من بينها هذا العصر موضوع دراستنا. وقد أدى هذا الحكم المتسرع إلى إنصراف الباحثين عن دراسة هذه الفترة واهمالهم لها بدعوى أن إنتاجها لا يستحق الدراسة والاهتمام. لم يكلف أغلبهم نفسه بالوقوف على شيء من شعر هذه الفترة والذي لم يزل جلّه مخطوطاً، وإن اطلع أحد منهم على بعضه نقده بالمفاهيم السائدة الآن دون النظر لروح العصر الذي قيلت فيه هذه النصوص.

يتحدث الدكتور عائض الرادادي في كتابه (الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري) حول هذه القضية فيقول: (بقيت فترة متردداً في دراسة الموضوع لما رسخ في ذهني من أن ما بعد العصور العباسية يعتبر عصر انحطاط أدبي وأنه سينظر لعملي بهذا المنظار) ولكن الرادادي يعقد العزم على المضي في الدراسة ويقطع التردد في ذلك

فيقول: (وعسى أن يكون في هذه الدراسة مايزيل شيئاً من الظلم الذي أصدره بعض مؤرخي الأدب على العصور الأدبية التي تلت العصر العباسي، فوصفوها بعصور الانحطاط احتذاءً لأحكام أطلقها الغربيون، وأيدها إهمال الدارسين لتلك العصور، فهي لم تكن عصور انحطاط فكري، ...، وإن هذا الحكم لاينبغي أن يقف حاجزاً في وجه الدارسين، لأنه حكم بني على أسس غير سليمة، فتراثنا لم يعرف الانحطاط الفكري، وكلما أغرقت ثروة فكرية أو دمرت أنجبت عقول مفكرينا خلفاً لها، ولكنه يحتاج إلى جهد وتضحية في بعض عصوره ليرز ما هو مجهول من التراث عند بعض الباحثين الذين أصدروا تلك الأحكام إن كانت النية حسنة والمقاصد سليمة)^(١)

ويرى الدكتور بكري شيخ أمين هذا الرأي في كتابه (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني) كما يرى أن هناك أيد خفية وراء هذه التسمية وهذا الصرف للباحثين عن دراسة هذه الفترة فيقول: (ويخيل إلينا أنه مامن عصر من عصورنا الأدبية أصابه من الظلم في الأحكام والإهمال في الدراسات، ما أصاب هذا العصر وناله، وأكثر من هذا اعتقادنا الجازم أن هناك عملية خفية تهدف إلى صرف الباحثين عن

(١) - الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ص ١٠، ٩

دراسة هذه الحقبة والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها..^(١) وعلى أية حال فنحن لاندعي لشعر هذا العصر كله التفوق والروعة، ولكننا لانستسلم لهذا الحكم العام المتسرع، وندعو إلى البحث والدراسة للوقوف على حقيقة هذا الشعر والاقتراب من لبه وجوهره، فهو بلاشك لا يخلو من جوانب ضعف كما شهد بذلك النقاد المعاصرون له، ومع ذلك فقد أظهر لنا البحث الموضوعي المتأنى كثيراً من النصوص الجيدة الجديرة بالإشادة.

فبهذا نحن لانتفق مع من ينادي باطراح هذا الشعر كلياً لأنه - في نظره - لا يستحق أن نهدر في سبيله شيئاً من وقتنا، وهو بذلك يريد أن نتجاهل جزءاً من تاريخنا وأن نغمض أعيننا عن بعض تراثنا.^(٢)

يقول الأستاذ لانسون في حديثه عن منهج البحث في الأدب: (.. فعيون المؤلفات (روائعها) هي محور دراستنا أو بعبارة أخرى أن كلاً منها مركز من مراكز دراستنا، ولكن لا ينبغي أن نعطي كلمة (عيون المؤلفات) معناها الحاضر أو الشخصي، إذ لا يجوز أن نقصر دراستنا على ما نعتبره اليوم نحن ومعاصرونا (عيوناً) بل كل ما كان

(١) - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٥.

(٢) - لمزيد من الآراء التي تتهم أدب العصر يراجع كتاب (أدب السيوطي) د. قرشي عباس دندراري، ففيه جمع لعدد ممن قالوا هذا الرأي، وهو لم يرد عليهم وإنما اكتفى بأن في أدب السيوطي ما يكفي للرد عليهم فعلاً لا قولاً.

يعتبر كذلك في يوم ما^(١)، ومعنى هذا أن الروائع والنماذج العليا تتباين من عصر إلى عصر ومن مصر إلى آخر.

ويمكننا أن نتساءل عن عملنا هذا وتعاملنا مع هذه النصوص بالمزاووجه بين نظرة العصر المدروس إلى هذا الشعر وبين نظرنا إليه في هذا القرن، هل نسمي هذا العمل تاريخاً للأدب أم نقداً أدبياً.

يقول رينيه ويلك في كتابه (نظرية الأدب) : (كل عمل فني له وجوده الفعلي الآن وقابل للدراسة المباشرة، وهو حل لمشاكل فنية بعينها، سواءً كان هذا العمل قد كتب بالأمس، أو منذ ألف سنة مضت ولا يمكن تحليله، ووصفه أو تقويمه دون الرجوع دائماً للمبادئ النقدية، فالمؤرخ للأدب ينبغي أن يكون ناقداً، حتى في سبيل أن يكون مؤرخاً.

وبالمقابل تاريخ الأدب أيضاً ذو أهمية كبرى للنقد الأدبي وذلك بمجرد أن يرتفع النقد عن الأحكام الذاتية المبنية على الهوى، فالناقد الذي يغمض عينه عن العلاقات التاريخية ستكون أحكامه دائماً مضللة، فهو لن يدرك العمل الأصيل من العمل المشتق، وينتج عن جهله بالأحوال التاريخية أن يخطئ دائماً في فهم أعمال فنية بعينها، والناقد الذي يعرف القليل من التاريخ أو أقل، سيميل دائماً إلى التخرص

(١) - منهج البحث في اللغة والأدب للانسون ومايه ص ٣٠.

الأخرق أو إلى كتابة الانطباعات الشخصية).^(١)

هذه آراء وأحكام نقدية على شعر العصر وأدبه، من أهل القرن الثاني عشر ومن شعراء المدينة أنفسهم في هذا القرن، اتبعناها برأي مؤرخي الأدب في تقييم هذا الشعر، ومع إفادتنا من هذه الآراء، واحترامنا الكبير لأصحابها، إلا أننا لانتكفي بها فهي حتى الآن لم تقل الفصل -فيما أرى- في تقييم هذا الشعر على وجه أكمل، ولعل فيما نأتي إليه بعد هذا بداية هذا الطريق الذي يأخذ به شعر هذا العصر حظه من النقد الموضوعي والرؤية الفاحصة دون تجنُّ عليه ولا محاباة لأصحابه، وعسانا أن نوفق إلى ذلك بحول الله ومعونته .

-إذن -بعونه تعالى- سنمضي في دراستنا على هذا المنهج الذي يدرس هذا الشعر في سياقه الزمني والأدبي لمنطقة تعتبر عاصمة من عواصم الثقافة الإسلامية والعربية، في كثير من العصور الإسلامية.

(١) - نظرية الأدب ص ٦٥-٦٦.

ب - المعارضات :

يرجع بعض مؤرخي الأدب العربي المعارضات الشعرية إلى العصر الجاهلي، ولكن المعارضات برزت بشكل أوضح في القرن الهجري الأول خلال العهد الأموي، ولم يجد فحول شعرائه غضاضة في معارضة من سبقهم من الفحول، فهذا الأخطل وهو شاعر نصراني يعارض قصيدة (بانث سعاد)، لكعب بن زهير، كما عارض قصيدة زهير بن أبي سلمى (صحا القلب عن سلمى)، كما اقتفى عمر بن أبي ربيعة أثر جميل بثينة في بعض غزلياته.

وفي القرنين الثاني والثالث كثرت المعارضات واتجه كثير من رواد الشعراء إلى معارضة من سبقهم من الشعراء.

وقد استمرت المعارضات في العهد العباسي وأصبحت ذا شأن كبير لدى الشعراء المتأخرين حين قل الإبداع الشعري وضعفت الملكة وتغلبت الصنعة. وقد أحس كثير من الشعراء بالضعف أمام القصيدة القديمة فاتجهوا إليها محاكين مقلدين، يعيدون ما سبق أن قاله غيرهم بصيغ أخرى دون إضافة جديدة في المعنى أو زيادة في الصور، كما وجدوها سهلة ممهدة فصبوا على قوالها مبتعدين بذلك عن الأصالة والإبداع فأصبحت المعارضة سبباً من أسباب تقهقر الشعر بعد أن كانت باباً من أبواب التحدي وإبراز القدرات الشعرية والتفوق على

القدماء. (١)

ومن أشهر القصائد التي عارضها الشعراء في هذا القرن والذي سبقه قصيدة فتح الله بن النحاس الحلبي (٢) المتوفي بالمدينة سنة ١٠٥٢هـ، وهي حائية من بحر الرمل قالها في مدح الأمير محمد بن فروخ (٣) أمير الحاج الشامي المتوفي سنة ١٠٤٨هـ، وتقع في واحد وأربعين بيتاً.

استهل ابن النحاس قصيدته بمطلع غزلي يشكو فيه من سهره وسهاده حيث إلهام الشوق تحت وطأة الليل الذي لا يكاد ينقضي، فكلما ذهب ظلام حل مكانه ظلام آخر، فهو ليل سرمدية، ثم يقرر أن هذه الحال هي حال أصحاب الهوى الذين يزينهم البكاء، يقول (٤):

باتَ ساجي الطرفِ والشوقُ يلحُ والدجى إن يمضِ جُنْحُ يأتِ جنْحُ

(١) - مأخوذ بتصرف من كتاب (المعارضات الشعرية) د. عبدالرحمن إسماعيل ص ٤٤، وللتوسع في الموضوع يرجع إلى: المعارضة الشعرية د. عبدالله التطاوي، (الموازنة بين الشعراء) زكي مبارك.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٨٠

(٣) - هو محمد بن فروخ النابلسي، أمير الحاج الشامي، شهر بالشجاعة والكرم، تولى إمارة الحاج سنة ١٠٣١هـ، وأرهب العربان، وكبر صيته، بقي في الإمارة ثمان عشرة سنة، توفي بنابلس سنة ١٠٤٨هـ. خلاصة الأثر ١٠٨/٤، نفحة الريحانة ١٧٤/٤.

(٤) - ديوان ابن النحاس ص ١١١.

وكانَّ الشرقَ بابٌ للُدجى
 يقدحُ النجمُ لعيني شرراً
 لاتسلُّ عن حالِ أربابِ الهوى
 لستُ أشكو حربَ جفني والكرى
 إنما حَلِّي المحبين البكا
 يا ندامايَ وأيامَ الصبا
 ماله خوفَ هجومِ الصبحِ فتحُ
 ولزندِ الشوقِ في الأحشاءِ قدحُ
 يا ابنَ وديٍّ مالذاك الحالِ شرحُ
 لم يكن بيني وبين النومِ صلحُ
 أيّ فضلٍ لسحابٍ لايسحُ
 هل لها رجوعٌ؟ وهل للعمرِ فسحُ؟

ثم ينتقل للدعاء لدار اللوى^(١) بالسقيا لأن فيها ذكريات لقياه بهذه المحبوبة ثم يذكر ذات الطلح^(٢) وعالج^(٣) حيث التقى ركه بركب المحبوبة وكان اللقاء بينهما، ثم يشكر للعيس سعيها في هذا اللقاء ثم يعود للشكوى من البعد وألم الفراق وقلة المعين، حيث أنه يدعو فلا مجيب. يقول:

صَبَّحْتُكَ الْمَزْنَ يَا دَارَ اللّوَى كان لي فيها خلاعاتٌ وشطحُ

(١) - اللوى : وادٍ من أودية بني سليم . معجم البلدان ٢٧/٥ ، عمدة الأخبار

(٢) - ذات الطلح : موضع بين المدينة وبدر، وأيضاً موضع بين اليمامة ومكة .

(٣) - عالج : رمال بين فيد والقريات، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة .

ولقبي مرهمٌ منها وجرحُ
 معٌ مليحٌ مالذاك العيشِ ملحُ
 وقفةٌ أذكرُها ما أخضرٌ طلحُ
 وقضى حاجته الشوقُ الملحُ
 في تلاقينا وللأسفارِ نجحُ
 واعتنقنا فالتقى كشحٌ وكشحُ
 بفمي منه إلى ذا اليومِ نفحُ
 أني مادمت حياً لستُ أصحو
 أن عيشي بعدهم كدٌّ وكدحُ
 من مشيبي كربة أخرى وقدح
 كلما داويت جرحاً سال جرح
 فكأنني عندما أدعو أبُحُ

حيث لي شغلٌ بأجفانِ الطبا
 كلّ عيشٍ ينقضي ما لم يكن
 وبذاتِ الطلحِ لي من عاجِ
 يومَ منّا الركبُ بالركبِ التقى
 لا أذمُّ العيسَ للعيس يد
 قربت منّا فمأً نحوفم
 وتزودتُ شذى من مرشفِ
 وتعاهدنا على كأسِ اللَّمى
 يا ترى هل عند من قد ظعنوا
 كنتُ في قرحِ النوى فانتبذت
 كم أداوي القلبَ قلتُ حيلتي
 ولكمُ أدعو ومالي سامع

ثم بعد أن بح صوته وعجز عن مداواة جروح القلب وقلت حيلته
 يتخذ ذلك وسيلة للتخلص لمدح ابن فروخ الذي يؤمن الخائف الذي
 أسهره الرعب وأنهكه التعب، فهو ابن الشجاع الذي مامات حتى قام
 مقامه هذا الممدوح فصار كأبيه شجاعة وحزماً، فهم شجعان بالسليقة،
 حتى أن أطفال الأعداء يولدون والرعب يملؤهم من ذكره، بل إنهم
 يسقطون من الخوف وإن كان ذلك الخبر غير صحيح.

يقول:

كأبن فروخ فتى لم يشكُّ برحُ	أشتكي برحَ الجوى إذ لم أرَ
نومُه اليوم بظلِّ السيفِ سدحُ	كلَّ من أسهره من رعبه
ماله إلا بأعلى القرن مسحُ	ابن من كان لعابُ سيفه
لهباً قبل مساس الجلد يلحو	مامضى حتى لقوا من نسله
وعليه من نقيع الرعب نضحُ	يولد الطفلُ لهم أو ينتشي
سقطوا لو أن ذاك القول مزحُ	فإذا قيل ابن فروخ أتى

ثم يسترسل بعد ذلك في ذكر مناقب هذا الممدوح فيعود ليدكر لنا عدوّه اللدود الذي ذكره في مطلع القصيدة وهو الدجى الذي استعصى عليه، فيصف ابن فروخ بالبطل الذي يستطيع هزيمة هذا العدو لأنه لو شاء ذلك لأتاه نصير من عمود الصبح فهو بذلك شجاع مؤيد منصور، وهو إلى جانب شجاعته يتصف بالسماحة والكرم. يقول:

بطل لو شاء تمزيق الدجى	لأتاه من عمود الصبح رمح
كم سطور بالقنا يكتبها	وسطور بلسان السيف يحو
بأبي أفدي أميري إنه	صادق الطعن جرى القلب سمح
كل ماقد قيل من ترجيحه	في الوغى أوفي الندى فهو الأصح

ثم يستنجد بعد ذلك بابن فروخ فيطلب منه أن يضع السيف في

حظه الردئ لكي يبدأ حياة جديدة، وهي أن يتخذه الأمير شاعراً له
يصدح بين يديه بمدائح جميلة كأنها صدح البلابل، فهو الشاعر الذي
لا تستعصي عليه القوافي، بل هي طوع يده.

يقول:

هو كالدهر يمّني ويشح	حط سيف الجود في حظي الذي
إن يكن من كوكب الإقبال لمح	طالع الإدبار مالي وله
تعطب الحر وما للحر جنح	آه من جور النوى لاسقيت
إنما الغربة للأحرار ذبح	حسنوا القول وقالوا : غربة
صدحه بين يدي عليك مدح	فانتقدني واتخذني بلبلأ
أنها من وجنات الغيد رشح	بقواف كسقيط الطل أو
لا كمن يتبعها وهي تشح	خلقت طوع يدي عما ترى
من نفيس الدر والياقوت صرح	كل بيت في العلا كلله
إن يبارَ فله في الفوز قدح	ناطق عني بالفضل الذي

عارض هذه القصيدة في القرن الحادي عشر الهجري الشاعر المكي
سالم بن أحمد الشماع^(١) بقصيدة تقع في ثمانية وأربعين بيتاً يمدح فيها

(١) - هو سالم بن أحمد الصفدي الشماع ترجم له الموسوي فوصفه أنه أديب
العصر بالإجماع ذكر له مدائح في أمراء مكة ووجهائها، ولم يذكر شيئاً عن
تاريخ ولادته ووفاته. (نزهة الجليس) ١ : ٢٧٩

الشريف عمرو بن محمد بن بركات يقول في مطلعها:

لفؤادي من لحاظ الغيد جرح ولأجفاني من التسهيد قرح
ولقلمي من لظى زند الجوى شرر يذكيه إضرام وقدح
ولعيني من جفاذات الوفا وتنائها بسفح الخد سفح

كما عارضه الشاعر علي بن معصوم^(١) المدني بقصيدة يمدح فيها

النبي ﷺ وتقع في واحد وأربعين بيتاً، يقول في مطلعها:

لمن العيس لها في البيد نفح شفها التأويب والشوق الملح
ضمّر تمرح شوقاً في البرى وبها من لاعج الأشواق برح^(٢)

كما عارضها من معاصري ابن النحاس الشاعر محمد بن حجازي
الرقباوي الأنبائي^(٣) بقصيدة يمدح فيها الشريف زيد بن محسن^(٤) شريف

(١) - علي بن احمد بن محمد معصوم الحسيني المدني، عالم بالادب والشعر

والتراجم، ولد بالمدينة سنة ١٠٥٢، توفي سنة ١١١٩. الاعلام ٤/٢٥٨.

(٢) - ديوان ابن معصوم ص ١٠٩

(٣) - هو محمد بن حجازي الأنبائي ولد بأنبابه بمصر ونشأ بها واشتغل بعلوم

الأدب ثم رحل إلى الحرمين وتوطنها مدة ومدح الشريف زيد بن محسن

ونال عطايه، توفي سنة ١٠٧٨. بمدينة أبي عريش. (خلاصة الأثر ٣: ٤٥١).

(٤) - زيد بن محسن بن حسين من أشهر أمراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري.

مكة، وتقع في أربعة وخمسين بيتاً، يقول في مطلعها :

كل صب ماله في الخد سفح لم يرق في عينه نجد وسفح
ومتى يعلو بشأن في الهوى وله شأن به فيه يشح^(١)

أما من شعراء القرن الثاني عشر فقد عارضها العباس بن علي الموسوي المكي^(٢) صاحب كتاب (نزهة الجليس)، فقد قال بعد أن أورد قصيدة ابن النحاس عن ترجمته في نفس الكتاب: (رأيت كثيراً من أهل الفصاحة قد جالوا في هذا المضمار، وعارضوا هذه القصيدة، لكنهم لم يلحقوا منها ولا الغبار، فدعتني نفسي إلى الجولان والمبارزة معهم في هذا الميدان، فإنه لا يبرز إليه إلا الشجاع لا الجبان، وإن لم يكن لي في هذا الميدان مع هؤلاء الفرسان ثباتاً ولا مجالاً، فقلت مادحاً بها سيدنا أحمد بن إمام اليمن المتوكل على رب العالمين بمدينة تعز المحمية وذلك في عام ألف ومائة وأربعة وأربعين)^(٣) ثم يذكر بعد ذلك القصيدة والتي تقع في تسعة وثلاثين بيتاً والتي يستهلها بقوله:

جاءكم نصر من الله وفتح وسعادات وإقبال ونجح
فاحمد التواب واستغفر تجد لطفه يأتيك كالغيث يسح^(٤)

(١) - خلاصة الأثر (٣ : ٤١٥)

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٨

(٣) - نزهة الجليس ١ : ٤٨٧

(٤) - نزهة الجليس ١ : ٤٨٨

أما من شعراء المدينة في هذا القرن فقد عارضها جعفر البيتي بقصيدة تقع في تسعة وثلاثين بيتاً يجيب بها عما كتبه إليه بعض المكيين.

يحاول البيتي أن يقتفي في هذه القصيدة حائية ابن النحاس بكل دقة بالرغم من اختلاف الغرض فهو عند ابن النحاس المدح وطلب المساعدة من الممدوح، وعند البيتي الاعتذار والمدح والعتاب، إلا أنهما يتفقان في المقدمة الغزلية.

يفتح البيتي قصيدته بوصف الدموع التي تذرّفها عيناه ويذكر موضعين في المدينة أثارا لديه كوامن الغرام وهي (السفح) و (السيح) ويظهر أنه اجتلبهما بالذات لغرض الجناس مع (سَفْح ، تسحّ) ، يقول:

أدمعي (بالسّفح)^(١) من عينيّ سَفْحُ كم (بجزع السّيح^(٢)) أجفاني تسحّ
كم ولوعٍ كم غرامٍ كم ضنى عمّت البلوى وزاد الجُرْحُ جُرْح

(١) - السفح: اسم موضع . معجم البلدان ٣ : ٢٥٣ .

(٢) - السّيح: اسم لما حول مساجد الفتح غربي المدينة ، وجزع المنحنى أو الوسط ، ولعل الشاعر يخص مكاناً وسط السّيح . وفاء الوفاء ٤ / ١٢٤٠ ، عمدة الأخبار ص ٣٤٥ .

ثم ينتقل بعد ذلك لذكر صفات المحبوبة ليتحدث عن ظلام الليل ولكنه ظلام من نوع آخر، فهو هنا شعر المحبوبة ثم يتحدث عن الصباح وهو هنا وجه محبوبته، فكأنه يريد أن يقتفي ابن النحاس في معانيه خطوة خطوة .

يقول بعد البيتين السابقين:

في هوى أحوى رشيقٍ قده	في فؤادي يالقومي منه رمح
أدعج العين مشلاً أفلج	جعده ليلي وذاك الوجه صبح
مثل ما فيه من الحسن الذي	ضلّ عقلي فيه للعاذل قبح
إن يكن صحّ الضنى من طرفه	ليّ فالصحة أمر لا يصح
بدر تمّ طالع من حوله	شعره (إن يمض جنح يأت جنح)
غصنٌ ويّلي من تعديله	صح لي من ذلك التعديل جرح

ثم يصف بعد ذلك تمنع المحبوب القاسي، ومعاناته مع اللاحين في حبه، ثم يطلب منه النظر في أمره فيعرض عليه أخذ جميع ماله ومهجته ويحاول في هذه الأبيات أن يتلاعب بالألفاظ ويستخدم بعض المحسنات البديعية، ثم يذكر الطلح والبان^(١) ويدعو لهما بالسقيا. يقول:

دائماً تغزو رناه مهجتي ولمغزاه لباب النصر فتح

(١) - الطلح: موضع بين المدينة وبدر، البان: موضع بالحجاز. معجم البلدان:

٣٩٥ وأيضاً بين اليمامة ومكة معجم البلدان ٤: ٤٤.

ودموعي كلما شحت يشح
والعدا تلحو وأشواقي تلح
جدّ بي منك من البارح برح
ليس لي في متنها غيرك شرح
مع لواحيّ ومع عشقك صلح
ربما أني من السكره أصحو
ماجزائي منك يا سكر ملح
هل لعيني منك يا عيني لمح
إن خسراني على ذا الوجه ربح
فيّ من عشقك يا تفاح نفح
ولإنساني ببحر الدمع سبح
يا سقى لي بالحمى بان وطلح

كلما رقيت في الحب قسا
كيف ترجون سلووي بعده
يا سميري ليلة السبت لقد
يا أمير الحسن طالع قصتي
لي على ساقك حرب قائم
إن صحا طرفك من سكرته
كفّ يا حالي مرارات النوى
يا ضيا عيني ويا روح الحشا
خذ جميع المال حتى مهجتي
شمّ عشقي من ثيابي شمّي
فكرتي تسبح بي في (هل أتى)
أذكر الطلح وبانات الحمى

ثم يتخلص بعد ذلك لغرضه بصورة خفية حيث يبحث عن سفير
يحمل له رسائله ليوصلها إلى من هجره، وهو هنا يتحول عن المحبوبة
ليبعث الرسائل الى صديقه المكي ليعتذر منه. يقول:

من سفيري برسالات الهوى
يسأل الجافل عني ، لم نأى؟
أبدأ أكتبها والدمع يمحو
ولم يعرض عن نحوي وينحو
بعد ذاك الجمع والألفة طرح
هكذا قسمة حظي عنده

ثم يبين بعد ذلك مدى ثبات حبه لهؤلاء القوم حيث أخفق
العذول في التأثير عليه، ثم يطلب قبول العذر عمّا جاءهم من كلام
نسب إليه، يقول:

يا بني بدر فداكم عاشق	عربيّ من بني عذرة قحّ
خلع العذر وولّى جامعاً	في الخلاعات له مرح وشطح
أخفق المسعى عذولي فيكم	وأنا قد صح لي والحمد بنجح
نشرت أعلام سعدي باللقا	فانطوى من جانب الكاشح كشح
وغدا البدر بمدحي نازلاً	بالثريا حبذا بدر ومدح
يا زناداً بالذكا يقده لي	مدحة أورت ولا في المدح قدح
كل أبنائك روض سرحه	مثمر حسناً وأفكاري سرح
صرحت عنك بفضل فاضل	إذ لها في قبة الأفلاك صرح
من مروج كنت فيها لاتلم	إن يكن أصبح لي في المرج مرح
كل شعري معك غفل قدحه	ومعلاك له يافذ قدح
طفح اليم وزاد النيل إذ	زاد في بحر القوافي فيك طفح
أنت قد جدت في القول فجد	بقبول العذر إن جاءك مزح
في فمي الماء وفكري جامد	غض عن شحّي فالخاطر سمح

ثم يختتم القصيدة بالدعاء باليمن ودوام الفضل لصاحبه بعدد وقدر

من أنشد قصيدته هذه، يقول:

لاخلا طيرك ميموناً وفي
دوحة الفضل له صدع وصدح
كلما أنشد أو أنشا شج
أدمعي بالسفح من عيني سفح^(١)

وقد اجتهد البيتي في معارضته ليصل بها إلى مستوى قصيدة ابن النحاس إلا أنها كانت دون ذلك حيث أضعفها احتفاله بالجناس في المطلع ، حيث أتى - كما أسلفنا - بأسماء موضعين وهما (السفح) و(السيح) مما أجبره على الإتيان بكلمتي (سفح) و(تسح) أو العكس. كما أضعفها بعض الصور البلاغية المبتذلة والتي حاول بها الشاعر أن يزيد على ابن النحاس، فمثلاً نجده يصف محبوبته بالغصن الذي يأبى الاعتدال ، فيقول:

غصن ويلي من تعديله صحّ لي من ذلك التعديل جرح

ويذكر في بيت آخر سهره في ليلة السبت، فلماذا ليلة السبت بالذات، أمن أجل حرف السين الذي تكرر كثيراً في أبيات القصيدة:

ياسميري ليلة السبت لقد جدّ بي منك من البارح برح

ويشبهه المحبوبة بالسكر وموقفها منه بالملح، وقد أجبرته القافية على الإتيان بهذه الكلمة:

(١) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٤

كيف يا حالي مرارات النوى ماجزائي منك يا سكر ملح

ثم يطلب من المحبوبة أن تشمه لتجد رائحة عشقه لها، وهذا معنى مبتدل:

شم عشقي من ثيابي شمّي في من عشقك يا تفاح نفع
إضافةً إلى إتيانه بكلمة (تفاح) فلماذا هذه الكلمة بالذات، أمن أجل
حرف الحاء؟ فإن كلمة (نوّار) مثلاً تصلح مكانها.
ولذلك فبالرغم من اجتهاد البيهقي ومحاولته اختراع معاني جديدة إلا أنه
أخفق في الوصول إلى مستوى قصيدة ابن النحاس.

كما تعرض لهذه القصيدة حسن بن عبدالكريم البرزنجي^(١) فقد
ذكرها في رسالته (نفثة مصدور بين يدي صدر الصدور) فقال: (ولقد
قلت أبياتاً مهدت بها للدخول على أبيات الفتح النحاس التي صارت
أسرى من مثل وأضواً من نبراس)^(٢).

عمد البرزنجي إلى قصيدة ابن النحاس وانتقى منها أبياتاً توافق حالته
ثم قدم لها بثلاثة أبيات من تأليفه . يقول:
يا وزيراً قد صفالي وده فعراني من ولاه اليوم شطح

(١) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٢) - نفثة مصدور ص ٦٦

ونما شوقي إلى عليائه
وسما حظي وقدحي عنده
(حط سيف الجود في حظي الذي
وانتقدني و اتخذني بلبلا
بقوا ف كسقيط الطل أو
غربة الأوطان أودت كبدي
حسنوا القول وقالوا غربة
كم أداوي القلب قلت حيلتي
ولكم أدعو ومالي سامع

فغدت لي منه راحات ومرح
فانتفى عن ساحتي ثلب وقدح
هو كالدهر يمني ويشح
صدحه بين يدي عليك مدح
أنها من وجنات الغيد رشح
واعتراني ألم منها وكدح
إنما الغربة للأحرار ذبح
كلما داويت جرحا سال جرح
فكأنني عندما أدعو أبح^(١)

ولابن النحاس أيضاً قصيدة عينية من البحر الطويل قالها كما ذكر
في ديوانه (بعد خروجه من حلب لأمر اقتضى ذلك)^(٢) وتقع في ثلاثة
وأربعين بيتاً، وهي غزلية في ظاهرها بينما يظهر لتأملها أنه يعاتب فيها
أناساً قريبين منه من أهل بلدته ويشكو جفاءهم وإيثارهم فراقه مما
أجبره على الخروج من حلب على غير رغبة منه.

يستهل ابن النحاس قصيدته بالحديث عن الحبيب الذي أطاع العذال
مما جعل الشاعر عرضة لشماتة الأعداء، ومما اضطره لمغادرة البلاد مع

(١) - المرجع السابق ٦٦.

(٢) - ديوان ابن النحاس ص ١١٧.

أنه يرجي العودة، فخروجه يعني ضياعه وحرمانه.

ثم يصف بعد ذلك حالة الإحباط واليأس من عودة الود إلى سابق عهده، ولكنه مع ذلك يريد أن يقال للحبيب ما يرضيه وإن كان في ذلك شتم الشاعر وانتقاص قدره، بل حتى أنه يسمح لهم بسبه سبباً بليغاً إن أراد الحبيب ذلك وأحب سماعه. وهكذا يسترسل إلى آخر القصيدة ليقرر أن هذا هو حال المحبين ومصيرهم. يقول:

رأى اللوم من كل الجهات فراعَهُ
ولا تسألوني عن فؤادي فإنني
له الله ظيباً كل شيء يروعه
وياليت لو كان من أول الهوى
فما را شنا بالسوء إلا لسانه
أشاع الذي أغرى بنا ألسن العدا
وأصبح من أهوى على فيه قفله
وآلى على أن لا أقيم بأرضه
فرحت وسيري خطوة والتفاتة
ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لأجله
فلم يبق بر ما طويت بساطه
كأني ضمير كنت في خاطر النوى

وأحاط به واشي السرى فأذاعه
ومد إليها صالح الغيث باعه
أحلامي من دار الهوى زارها الحيا

وحيوه عني ثم حيوا رباعه
وما كان أحلى شعره وابتداعه
فليتك بالحسنى طلبت اندفاعه
متى وجدوا خرقاً أحبوا اتساعه
تجنى بلا ذنب عليه فباعه
فلا تلم الواشي ولم من أطاعه
فدع كل ذي عدل يبيع فقاعه
ولم ترنا من لم تدم اجتماعه
لمن رام ييلوا ضره وانتفاعه
فملّ وألقى في التراب يراعه
فقولوا لقد ألقى إليكم سماعه
فحسب الأمانى أن تروني رقاغه
إذا ضمّه المهجور أطفى التياغه
رقيق حواشي الطبع أخشى انصراغه
فما حبه من كان يأبى اتباعه
فإياكم مما يناني اتباعه
ملول وأخشى أن تثيروا صداعه
فإن حبيبي لا أحب صداعه

بعيشكم عوجوا على من أضاعني
وقولوا فلان أوحشتنا نكاته
فتى كان كالبنيان حولك واقفاً
أبحت العدا خرقاً فلا كانت العدا
فكنت كذي عبد هو الرجل والعصا
لكل هوى واش فإن ضعضع الهوى
إذا كنت تسقى الشهد ممن تحبه
وقولوا رأينا من حمدت فراقه
وأين الذي كالسيف حدا وجوهرا
ولا كنتما إلا يراعا وكاتبنا
فإن أطرق الغضبان أو خط في الثرى
عسى يذكر العشاق في طي رقعة
فرب كتاب كان أشجى من المنى
وبالله كفوا إن تمادى فإنه
وإياكم تعصوا هواه إذا قسا
وإن تعرفوا في لحظه نظرة القلى
وبالله كفوا عن حديثي فإنه
ولا تجلبوا ذكرى له بحياتكم

وإن نصب الشكوى عليّ فسابقوا
وإن تنظروا في وجهه شاهد القلى
وإن رام سبّي فاحدثوا لي معائباً
ولا تختشوا إثمياً فإني أجرتكم
وميلوا إلى من مال لو كان واثياً
وهتّوا رقيبى بالرقاد فطالما
ولا تحسدوا ودّ ابن يومين عنده
ودوروا على حكم الغرام فإنه
ضعيف الهوى من بات يشكو زمانه
ولو علم المشتاق عقبى اتصاله
ومن طلب الأحباب حرصاً على البقا
وكل اتحاد للهوى فيه سورة

وقولوا: نعم، نشكو إليك طباعه
فحلوا اتباعي واستخبروا اتباعه
وسباً بليغاً تحسنون اختراعه
إذا كان من أهواه يهوى استماعه
وخلوا له أوضاعه وخراعه
جعلت على جمر السهاد اضطجاعه
فإن حبيبي تعلمون خداعه
قضى لظباه أن تهين سباعه
وأضعف منه من يرجي اصطناعه
لآثر بين العاشقين انقطاعه
فما رام بين الناس إلا ضياعه
ولم يكسب المخمور إلا صداعه^(١)

عارض عينية ابن النحاس هذه الشاعر المكي العباس ابن علي
الموسوي^(٢) حيث أورد معارضته في كتابه (نزهة الجليس) في ترجمة ابن
النحاس فقال: (وقد قلت أنا معارضاً ومتطفلاً على واسع فضله
ومادحاً من غمرني بجميل فعاله)^(٣)

(١) - ديوان ابن النحاس ص ١١٧

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٨

(٣) - نزهة الجليس ١: ٤٩١

وتقع قصيدة الموسوي في اثني عشر بيتاً ومطلعها:

خليلي ما بالي أرى حبل همتي إذا رمت وصلأً فيه أبدى انقطاعه
وما ذاك إلا أن دهري أضاعني وكم من عزيز النفس مثلي أضاعه

كما عارض عينية ابن النحاس جعفر البيتي، حيث عارضها بقصيدة تقع في اثنين وخمسين بيتاً والتي سبق وأن أوردناها ومطلعها:

رأى البق من كل الجهات فراعته فلاتنكروا إعراضه وامتناعه
ولاتسألوني كيف بت فإنني لقيت عذاباً لا أطيع دفاعه^(١)

يصف فيها بأسلوب ساخر سوء معيشته في مدينة ينبع البحر، وينتقد الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة.

أخذ البيتي معاني ابن النحاس وقلبها لكي تحكي حالته الصعبة، فحبيب ابن النحاس رأى اللوم من كل الجهات فراعته أما البيتي فقد رأى البق..، وابن النحاس يشتكي من الجفاء والعدول والواشين، والبيتي يشتكي من البعوض والفئران والبراغيث ورائحة الكنيف وانعدام النظافة في الطعام والشراب، ويستمر في شكواه على هذا المنوال ليصف بعد ذلك معاناته مع الأعراب وجلافتهم وليصف تسلط المسؤولين على الناس واستعبادهم فيطلب من ولاة الأمر انقاذ الموقف، ثم يختم

(١) - انظر مبحث (موضوعات أخرى) من هذا البحث ص ٣٦٩ وديوان البيتي

نسخة عارف حكمت ص ٢٣.

القصيدة بندب حظه حيث لم يستفد من أدبه وفضله شيئاً، ويلمح بتركه لوظيفة الكتابة التي لم يحصل من ورائها على طائل، بل ولم تحفظ له كرامته.

وبالرغم من اختلاف الطابع العام للقصيدتين إلا أن ثمة ما يجمع بينهما، فكلا الشاعرين يتحدثان عن وضع قلق يجبرهما على الرحيل، إلا أن ابن النحاس عبر عن ذلك في ثوب غزلي ومعاني غزلية، أما البيتي فقد تحدث عنه بأسلوب هزلي ساخر، ولكنه يظهر مدى صدق عاطفته، ويبين مقدار الألم الذي عايشه، فحياته في ينبع البحر لاتطاق سواءً من الناحية المادية المعيشية أو من الناحية الاجتماعية والمعنوية، فهو لم يطب بذلك العيش لا جسماً ولا نفساً.

وألحظ بأن البيتي من حيث موضوع القصيدة خرج على النسق التقليدي ونحا إلى الواقع وعايشه والتصق به، وإن مزج بشيء من السخرية والدعابة، وهذه النزعة تعتبر في ذاتها بادرة نحو الصدق في وصف الإحساس، والغوص وراء المشاعر وترجمتها بالطريقة الفنية التي تلهم الوجدانات، وتوقظ القرائح وتنعش قراء الشعر للحياة، وهو المدخل الذي أُلح عليه في نقاد الشعر في مطلع العصر الحديث ليقبلوا الشعر من عشرته.

وبهذا فالبيتي في هذه القصيدة أجاد في تعبيره ومعارضته لابن النحاس
أكثر من معارضته للقصيدة الحائية الأولى، ولعل ذلك يرجع إلى أسلوب
البيتي الشعري وميله الدائم إلى السخرية والفكاهة.

ج - التشطير والتخميس :

التشطير :

وهو أن يعمد الشاعر إلى بعض الأبيات فينظم لصدر كل بيت عجزاً وللعجز صدرًا من عنده.

وقد شغف الشعراء في المدينة في هذا العصر - كما هو الحال عند غيرهم في بيئات وعصور أخرى - بالتشطير حيث نجده عند معظم الشعراء لأنهم يعتبرونه مهارة شعرية يتبارون فيها، فهم إذ يأخذون البيت أو الأبيات المشهورة من الشعر ليشاركون هؤلاء الشعراء الفحول الذين سار بشعرهم الركبان، فيرون أن من الإبداع والتفوق مزج شعرهم بشعر مشاهير السابقين عن طريق هذا التشطير ليثبتوا لأنفسهم بأنهم بهذا المزج يصلون بقدراتهم الشعرية إلى مستوى هؤلاء الشعراء الأعلام.

من ذلك تشطير حسين بن عبد الشكور المدني^(١) لبيت سلم الخاسر^(٢)

(١) - حسين بن عبد الشكور، ولد سنة ١١٠٠، وصفه البيطار بكثرة البحث

والمذاكرة، مات في زبيد سنة ١٢٠٠ هـ. حلية البشر ١/٥٥٥

(٢) - هو سلم بن عمرو بن حماد، مولى بني تيم بن مرة، شاعر مطبوع من

شعراء الدولة العباسية، كان منقطعاً إلى البرامكة، وكان يلقب بالخاسر لأن

أباه خلف له مالا فأنفقه على الأدب، سكن بغداد، له مدائح في المهدي

والرشيد. معجم الأدباء ٣: ١٣٨٢.

المشهور:

من راقب الناس مات هماً
وفاز باللذة الجسور
حيث قال:

من راقب الناس مات هماً
ومن تحلى عنهم تحلى
وحظه الويل والثبور
وفاز باللذة الجسور

ويذكر أحمد الجامي^(١) في كتابه (نوافح الزهور) أنه شطر البيتين التاليين
بناءً على طلب أحدهم وهما:

خذو بدمي هذا الغزال فإنه
ولا تقتلوه إنني أنا عبده
رمانى بسهمي مقلتيه على عمد
وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

شطرهما بقوله:

خذوا بدمي هذا الغزال فإنه
ولما أمدته سرايا جفونه
أغار على قتلي برمح من القد
ولا تقتلوه إنني أنا عبده
ومملوكه في عالم الأخذ للعهد
ومع ذلك في شرع الهوى أنا شافعي
وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

وأحمد الجامي ممن أولع بالتشطير حيث أورد في كتابه (نوافح الزهور)
كثيراً من هذه التشطيرات، فمن ذلك تشطيره لبيتين من شعر أمية بن

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢٦ ، والبيتين لم أعرف قائلهما .

أبي الصلت:

أذكر حاجتي أم قد كفاني
إذا أثنى عليك المرء يوماً
حياؤك إن شيمتك الحياء
كفاه من تعرضك الثناء

شطرهما بقوله:

أذكر حاجتي أم قد كفاني لها في النفس علمك ما أشاء
نعم أنت العليم بها وحسبي حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً وقابله قبولك والرضاء
فيا طوبى له وبخٍ بخٍ إذ كفاه من تعرضك الثناء^(١)

ولللحامي أيضاً تشطير لبيتين مشهورين لابن الخياط ، سنورد لهما
تخاميس كثيرة للحامي وغيره من الشعراء وذلك عند الحديث عن
التخميسات، وتشطير البيتين هو:

يا محرقاً بالنار خد محبه عمداً فنيران الجفا تكفيه
لا تحسب الإطفاء عنقا مغرب مهلاً فإن مدامعي تطفية
أحرق بها جسدي وكل جوارحي تفديك واسمح بعد هذا التيه
فإذا سمحت بذاك فافعل ما تشا واحذر على قلبي فإنك فيه^(٢)

(١) - نوافح الزهور للحامي ٧٠

(٢) - المرجع السابق ٧٣

ومن التشطيرات القصيرة تشطير البيتي للبيتين المنسوبين لعبدالله بن المعتز، وهما:

وقفت في الروض أبكي فقد مشبهه حتى بكت بدموعي أعين الزهر
ولم أعرها دموع العين تسفحها لرحمتي لاستعارتها من المطر

شطرها بقوله:

وقفت في الروض أبكي فقد مشبهه ميمزاً بين شأن العين والأثر
من أعين رق حالي في محاجرها حتى بكت بدموعي أعين الزهر
ولم أعرها دموع العين تسفحها لصب يعقوب حزني دمعة الفكر
فيا سقاها دموع العشق لو فئت لرحمتي لاستعارتها من المطر

وإلى جانب تشطير البيتين والثلاثة هناك من الشعراء من شطر قصيدة بكاملها، فهذا عابد السندي^(١) يشطر قصيدة يحيى الجامي^(٢) التي قالها وهو في القسطنطينية متشوقاً إلى المدينة، وسنكتفي بجزء من القصيدة بعد تشطيرها تجنباً للإطالة، حيث سبق ذكرها:

(على وادي النقا قف لي صباحاً) فثم شويدن لدمي أباحا
فمر كما الصبا وتمش فيه (وحي الريم والغرر الصباحا)

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٩

(وعانق لي بسح الدمع باناً) عليل بلبل الأشواق ناحا
 ومهما رمت رامة سح فروحي (بسوح من العقيق لديه ساحا)
 (ومرغ لي الخدود على تراب) فكم يجلاه غين العين زاحا
 ثراه تراه من عدن لهذا (تشم به عبير المسك فاحاً)^(١)

ولأحمد الجامي تشطير لأبيات محمد أفندي زللي^(٢) فيها موعظة
 بمناسبة عيد الفطر، يقول بعد تشطيرها:

(هذا أمير العيد قد نشر اللوا) وعنانه بيد التهاني قد لوى
 وبدت تباشير السرور وأقبلت (وبساط أيام الصيام قد انطوى)
 (فتيقظوا وآتوا فعال الخير في) أرحامكم وارعوا فيالمن ارعوى
 هذا وإن فاتتكم فتداركوا (ما قد بقي فلكل شخص مانوى)
 (واسعوا إلى سبل النجاة فمن يجد) فلقد هوى من حيث ميله الهوى
 وكذلك نفس المرء إن هو صدها (عن ذلك النهج القويم فقد غوى)

(١) - تحفة الدهر ص ٧٥ وقد سبق ذكر في مبحث (الغربة والحنين إلى المدينة ص

وما بين القوسين هي قصيدة يحيى الجامي.

(٢) - هو محمد أمين بن حسين الزللي ولد بالمدينة سنة ١١٨٣هـ، كانت حياته

عامرة بالأدب والعلم والترحال والتأليف والتدريس وقول الشعر وإمامة

المسجد النبوي والخطابة فيه توفي بالمدينة سنة ١٢٤١هـ. حلية البشر ٣/

١١٩٥، ديوانه تحقيق الخطراوي ص ٥.

(وتضرعوا لله في جنح الدجى)
وتطيبوا بلذيد نجوى ربكم
(فلعلكم تحظون منه بنظرة)
لا تعرضوا أو تعرضوا فلعلها
(وتمسكوا بعري النبي محمد)
(صلى عليه الله ربي دائماً)
وسرى له ركب الحجاز تشوقاً

بخلوص قلب عن سواه قد انزوى
(وسلوه يا مرضى القلوب لكم دوا)
تطفي أوام القلب من حرّ النوى
(تمحو جرائمكم وتلحظنا سوى)
الصادق المصدق فيما قد روى
ما أنشد الحادي وردد في النوى
(والآل والأصحاب ما نجم هوى)^(١)

(١) - نوافح الزهور ص ٧١.

التخميس :

وهو أن يعمد الشاعر إلى الأبيات من شعر غيره فيأخذ كل بيت ويسبقه بثلاثة أشطر يبني كلاً منها على قافية صدر البيت الأصلي الخمس.

وقد كان نصيب التخميس من الاهتمام عند شعراء هذا القرن أكبر من نصيب التشطير حيث نجد عدداً من الشعراء قد اشتركوا في تخميس بيتين مشهورين، وكأنهم بذلك يتبارون في إبراز المقدرة الشعرية في التعامل مع هذه الأبيات.

وقد أورد الداغستاني في تحفته بيتين لمجير الدين الخياط^(١) الدمشقي

(١) -نسبهما الداغستاني لمجير الدين الخياط الدمشقي وقال (ولهما قصة لطيفة وهو أنه كان يهوى غلاماً من أولاد الجند، فسكر في بعض لياليه ووقع في الطريق ونام، فمر الغلام وراه فوقف عليه ويده شمعة، فنزلت من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينه ورأى محبوبه فأنشد البيتين (تحفة الدهر ٩٥)، ولم أقف على ترجمة شاعر بهذا الاسم (مجير الدين الخياط) إلا أنني وجدت ثلاثة أبيات قريبة من البيتين المذكورين في ديوان محمد بن علي الخياط الدمشقي المتوفي سنة ٥١٧هـ، ص ١٢٧، وهي :

يا مؤذياً بالنار جسم محبه نار الجوى أحرى بأن تؤذيه
ولحرها بردٌ على كبدي إذا أيقنت أن تحرقني يرضيه
عدّب بها جسدي فذاك معذباً واحذر على قلبي فإنك فيه

وذكر عدة تخميسات لهما، والبيتين هما:

يا محرقاً بالنار خد محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه
أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحذر على قلبي لأنك فيه

خمسهما عبدالله الطيار^(١) فقال:

يا منشياً من هجر غارة حربه سمر الرماح من المحب بقلبه
اسمخ بوصلٍ يا حبيبَ وجدٍ به
يا محرقاً بالنار خد محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه
يا من غدا يسطو بلحظ جارح ويشب نار البعد بين جوانحي
وإذا حرقت وكنت غير مسامح
أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحذر على قلبي لأنك فيه

ولعل البيتين لمجير الدين بن تميم المتوفي سنة ٦٨٤هـ ويكون قد أخذهما من قول ابن الخياط السابق، مما أدى إلى خلط الداغستاني بين الشاعرين، وقد اطلعت على بعض شعر مجير الدين بن تميم فوجدت أن البيتين مجانسة له. الأدب في العصر المملوكي ١٩١/٢، عصر الدول والامارات لشوقي ضيف ص ٢٦٧، الأعلام ١٤٥/٧.

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٢٩

وخمسهما محمد سعيد الحمادي^(١) فقال:

قمر تلاً في الدجى من حجه يزهو على الغيد الحسان بعجبه
يا محرقاً بالنار قلب محبه رفقا بصب قد أقر بذنبه
مهلاً فإن مدامعي تطفيه

من أجل من أهوى تركت مصالحي أعرضت عن قول العذول الناصح
إن شئت تقتلني وأنت مساحي أحرق بها جسدي وكل جوارحي
واحذر على قلبي لأنك فيه

كما خمسهما أحمد الجامي^(٢) فقال:

قل للذي فتكت أسنة هدبه في قلب عاشقه ومهجة صبه
كم ذا ترؤع آمناً في سربه
يا محرقاً بالنار خد محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه
فبمن حباك سهام لحظ جارح لاتوقدنّ النار بين جوانحي
فإذا أبيت وكنت غير مسامح

(١) - هو محمد بن حماد الحمادي المدني ترجم له البيطار في (حلية البشر) وأثنى على أسرته وذكر أن له في الأدب محاورات، لم يذكر تاريخ ولادته وإنما ذكر أنه توفي في أوائل القرن الثالث عشر ودفن في المدينة. وعلى هذا أرجح نسبه لشعراء القرن الثاني عشر. حلية البشر ١٢١٨/٣.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحذر على قلبي لأنك فيه

كما أورد الداغستاني كذلك تخاميس لكثير من الشعراء للبيتين الآتين:
بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حلبي والمنام عصي جفني
وقبل حجلي أخصي فاستمالي وشاحي وبات القرط يدوي على أذني

فممن خمسهما عابد السندي^(١) حيث قال:

لقد قام حظي في الهوى يستحني إلى وصل من بالمطل كانت تعلني
فلما تحيلت اجتماعاً لتأتني

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حلبي والمنام عصي جفني
وخيل لي شعري أساود هالي بها جمر تبر حرها قد أسالني
وميل رأسي سالفي فأمالي

وقبل حجلي أخصي فاستمالي وشاحي وبات القرط يدوي على أذني

وخمسهما عبدالله الطيار^(٢) بقوله :

رمانى الهوى العذري عن أضلني وأسهر جفني بالبعاد وعلني
فلما قران السعد قارن موطني

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ٢٢٩

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حليبي والمنام عصى جفني
ومن عنده علم الكتاب أزالني من الملك والتقدير نحوك قادني
وعرشي لقد شاهدته وأهالي

وقبل حجلي أخصي فاستمالي وشاحي وبات القرط يدوي على أذني

وقد خمسهما أحمد الجامي بقوله:

لقد لذ لي التشبيب فيمن أعلي هواها وجادت لي بموردها الهني
فيا سعد قل فيها إذا ما نعتني

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حليبي والمنام عصى جفني
ولولا الذي شاهدته وأهالي لما أشرقت بالوصل شمس محاسني
ولكنما في السحر حظك غالي

وقبل حجلي أخصي فاستمالي وشاحي وبات القرط يدوي على أذني

كما خمسهما عمر حيدر^(١) بقوله:

أردد فكري في الذي قد أعلي وأرقب وصلاً في المنام بأعيني
فغرد قمري الوصال يهنني

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حليبي والمنام عصى جفني
وهاروت سحر العين بالغزل هالي ونافت نفاث العقود أملني

(١) سبقت ترجمته ص ٣٠٢

إلى وصل من أهوى وحالي أحالي

وقبل حجلي أخصي فاستمالي * وشاحي وبات القرط يدوي على أذني

ثم يَحْتَم الداغستاني هذه التخميسات بتخميس لهذين البيتين، وهو قوله:

أيا سعد قم هات الكؤس وحثني وانعش فؤادي باللحون وغني

فمحبوبي جاءت بموردها المهني

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حلبي والمنام عصي جفني

خيال جمالي في فراشي هالي وفرط اشتياقي عن حجاي أزالني

تخيلت بي سحراً من اللحظ نالي

وقبل حجلي أخصي فاستمالي * وشاحي وبات القرط يدوي على أذني^(١)

وكان الدغستاني قد ذكر تخميساً لهذين البيتين في موضع آخر وهو

لعمر بن أبي القاسم بن إبراهيم المفتي حيث يقول:

لقد لا طفنتني إذ بها الصبر قد فني وهزت قواماً مثلما الغصن ينثني

فشبهتها للبدر قالت ظلمتني

بلا موعد زارت وقالت سحرتني ووسوس حلبي والمنام عصي جفني

(١) - تحفة الدهر ص ٧٨

فيا سعد من يحظى بطيب محاسني جمالي بديع والإله أنالني

وكملني للعاشقين وصانني

وقبل حجلي أخصي فاستمالي* وشاحي وبات القرط يدوي على أذني^(١)
ونلاحظ في التخميسات السابقة أن حظ الشعراء من الإجادة متفاوت
في تخميسهم، حيث نجد التكلف ظاهر عند بعضهم وكذلك تنافر
الأشطر التي يؤلفها الشاعر مع البيت الأصلي.

ومن أجمل التخميسات القصيرة نجد تخميساً لعبدالقادر كدك^(٢) للبيتين
المشهورين:

خافت على يدها من نبل مقلتها فالبست كفها درعاً من الزرد
واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد
خمسهما بقوله :

عوذتها بالضحي من شمس وجنتها وأعين سحرها روّت برمشتها

لما رأت في الورى تأثير نظرتها

خافت على يدها من نبل مقلتها فألبست كفها درعاً من الزرد
وأوقعت أسهماً من أعين فتكت سبت فؤادي وشكّت مهجتي وشكّت

طلبتها الوصل واستضحكتها فبكت

واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

(١) - تحفة الدهر ص ١٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٨٧ .

ولم يقتصر الشعراء على تخميس البيت والبيتين فمنهم من خمس أكثر من ذلك فمن ذلك تخميس لجعفر البيتي خمس فيه قصيدة كاملة لابن معصوم^(١) ذيلها على ثلاثة أبيات لحسين بن مطير، فالأبيات الثلاثة الأولى الخمسة لابن مطير^(٢) تذييل علي بن معصوم^(٣)، وهي :

إلى كم عدولي بالمام يروعي وقلبي على السلوى أبى ما يطيعني
ودمعي في أهل الغرام يشيعني ولي كبد مقروحة من ييعني

بها كبد ليست بذات قروح

ولي نفس حر عنكمو لن أصونها وليس يطيب العيش حتى أهينها
ولي مهجة خليتها وحينها أباهها جميع الناس ما يشترونها

ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

وجرحت يالمياء كل جوارحي وعاصيت لوامي عليك وناصحي
وبرح بي وجدي ولست ببارح أئن من الشوق الذي في جوانحي

(١) - سبقت ترجمته ص ٤١٠

(٢) - هو الحسين بن مطير بن مكمل مولى بني أسد، شاعر متقدم في القصيد والرجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، توفي سنة ١٧٠هـ ، ومعجم الأدباء ٣/١١٥٧ ، ديوانه ص ١٣ وقد ذكر جامع ديوانه حسين عطوان أن البيتين المذكورين في التشطير (ولم يذكر الثالث) ينسبان لابن مطير والصحيح أنهما لابن الدمينه.

(٣) - قصيدة ابن معصوم وردت في ديوانه ص ١٢٢

أنين غصيص بالشراب قريح

لئن كانت الأيام قد مرّ طيبها وشط نوى لميا وطال مغيبها
فإني سأشوي مهجتي وأذيبها وأبكي بعين ما تكف غروبها

وأصبو بقلب بالغرام جريح

أمر على تلك المربع والرّبـا وأسألها عنكم عسى عندها نبا
ولم أنس أيام الوصال ولا الصبا وألتاع وجداً كلما هبت الصبا

بنشر خزامى أو بنفحة شيخ

فلا سقي الواشي ولا من ترّقبا ولا من سعى في هجرنا وتسببا
لقد أحرق الأحشاء وجداً وألبها إلى الله قلباً ما يزال معذبها

بتأنيب لاح أو بهجر مليح

لك الله عيشي بعد لمياء ما حلا ولا انزاح حزني عن فؤادي ولا انجلا
حديث جنوني شاع في جملة الملا فيا عصرنا بالرقمتين الذي خلا

لك الله جد بالقرب بعد نزوح

لقد ساعدت لمياء دهري على القسا وماذا عليها لو تدانت وما عسى
نهاري مع أهلي وإن جنني المسا أرقّت وقد نام الخلي من الأسي

يجفن على تلك السفوح سفوح

فله كم دمع على السيح سائح وباك على تلك الربوع ونائح
وكم من هوى طاف عليّ وطافح يهيج أشجاني ترنم صادح

ويوقظ أحزاني تنسم ريح

ولم أنس لي بالسيح حيًّا وددتهم وشاهدتهم دهرًا به وشهدتهم
فقدت حياتي بعدهم وفقدتهم فله بالجرعاء حي عهدتهم
يحلون منها في معاهد فيح
سقى الله كم لي بالحمى من حباب وساقى هوى بين الربوع وشارب
وكم قد قضينا في الحمى من مآرب ليالي ليلي من بهيم ذوائب
وصبحي من وجه أغر صبيح
وكم طيب لي بالنقا وأطايب وكم من خليل قد عهدنا وصاحب
لئن غيبوا فالذكر ليس بغائب هم نيل آمالي ونجح مآربي
وصحة أسقامي وراحة روحي
وما ودع الأحباب قلبي وما قلا ولانسى العهد القديم ولاسلا
ولانقض الميثاق والعهد والولا لئن مر دهر بالتنائي فقد حلا
غبوقي بهم فيما مضى وصبوحي^(١)

وقد أورد البيهقي في ديوانه أيضاً تخميساً قال إنه لغزلية ابن زيلاق^(٢)،
ولكننا نكتفي بالقصيدة السابقة تجنباً للإطالة.

ولم يكتب الشعراء بالتشطير والتخميس بل عمدوا إلى التسييع، ومن
المفارقات إننا نجد هذا كله عند الشاعر أحمد الجامي الذي -وكما

(١) - ديوان البيهقي (حكمت) ص ١٠٥

(٢) - هو محي الدين يوسف بن يوسف بن سلام الموصلي العباسي، المتوفى سنة
٦٦٠ هـ. ديوان ابن زيلاق تحقيق د. محمود عبدالرزاق وأدهم حمادي ص ٢٧.

أشرنا في بداية هذا المبحث ^(١) ينتقد ذوق الناس ويأخذ عليهم احتفالهم بالتشطير والتخميس بالرغم أنه لم يصلنا مثل مقدار ما نظمه من هذين النوعين والذي ضمنه كتابه (نوافح الزهور) وزاد عليه بهذا التسبيح، حيث عمد إلى بيتي أمية ابن الصلت ^(٢) واللذين سبق ذكرنا تشطيره لهما، وسبعهما بقوله :

أيا من أنزل السبع المثاني على من بعده ما ثم ثاني
إليك الالتجا في كل آن أمرت الخلق من قاص ودان
وقلت أجيب دعوة من دعاني أذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك إن شيمتك الحياء

وحقك يا عليم بكل مرمى لو انقلب الجن ومثّ كظما
بغير القلب لم أذكر لها اسما وما ذكري لها نثرا ونظما
وأنت بكل ذاك أحطت علما إذا أثنى عليك المرء يوما
كفاه من تعرضك الثناء ^(٣)

(١) - انظر ص ٣٢٧ من هذه الدراسة .

(٢) - هو أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر وعبادة الأوثان، ولكنه لم يسلم، توفي سنة ٥٥هـ. الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٥٩، طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠١.

(٣) - نوافح الزهور للجامي ص ٧٦.

كل من المعارضات والتشطير والتخميس، أو ما يعرف عند بعض النقاد بالتناس^(١) أي تداخل النصوص، يجمع بين كل منها شيء واحد هو الانجذاب للتراث ومحاولة الركض في مضماره، وهذا يدل على مدى تعلق الشاعر بتراته وانبهاره به، إلى أن يسوقه هذا التعلق والانبهار إلى التفاعل مع هذا التراث حيث يحاول أن يحاكي ويشارك من سبقوه في إنتاجهم الراقى.

ويختلف حظ هؤلاء الشعراء المنجذبين إلى التراث من التوفيق في اندماج شعرهم مع شعر من سبقوهم وانسجامه معه، فبينما ينجح بعضهم في تداخل أبياته مع شعر غيره أو يوفق في معارضته، يكون نصيب البعض الآخر الاخفاق في هذه المحاولة حيث نجد التنافر وعدم

(١) - قصد به بعض النقاد "الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس أو يضمن الفاظاً وأفكاراً كان التهمها في وقت سابق ما ، دون وعي صريح بهذا الأخذ المتصلت عليه من مجاهل ذاكرته ومتاهات وعيه" ، وقيل عن التناس أنه "فسيفساء من نصوص أخرى أدجت في النص بتقنيات مختلفة" ، وقد ألحقوا بالتناس ما يسمى بالسرقات الشعرية والمعارضات والتشطير والتخميس . انظر : علامات في النقد الأدبي ، النادي الأدبي بجدة ، (فكرة السرقات الأدبية، د.عبدالمك مرتاض ، ص ٨٧)، والاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية، د.مسعد بن عيد العطوي ، ص ٥٤٧، وهناك مراجع للتناس .

التمازج والاختلاف في المستوى بين السابق واللاحق.
و مهما كان توفيق الشاعر وحظه في الوصول بمدخلته الأدبية إلى
مستوى النصوص التي يحاكيها، إلا أن ذلك يدل دلالة كبيرة على ان
اهتمام الشاعر كان ينصب في المقام الأول على اكتساب لقب
الشاعرية، والحرص على تخليد اسمه في سجل الشعراء، مع إغفال الشاعر
لماهية الشعر و كينونته وهي الإحساس الصادق والتعبير الدقيق عن
خوارج النفس وعن الانطباعات العاطفية تجاه التجارب الحياتية المختلفة.

د- التاريخ الشعري :

يعتمد التاريخ الشعري على حساب الجمل^(١) الذي يعطي قيمة رقمية لكل حرف من الحروف الأبجدية حيث يأتي الشاعر في آخر أبياته بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التي يريد الشاعر التاريخ لها.

وقد جعله بعضهم ضمن فنون البديع فألحقه البعض بالتعمية والإلغاز وجعله البعض الآخر فناً مستقلاً .

والحق أن التاريخ الشعري ليس من البديع في شيء فليس فيه أي تحسين للكلام لامن جهة المعنى ولا اللفظ، وهو لا يعدو كونه ظاهرة

(١) - حساب الجمل الذي يحسب به التاريخ الشعري هو إعطاء قيمة رقمية لكل حرف من الحروف الأبجدية (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت ، ثخذ، ضطع) كالاتي : (أ=١ ، ب=٢ ، ج=٣ ، د=٤ ، ه=٥ ، و=٦ ، ز=٧ ، ح=٨ ، ط=٩ ، ي=١٠ ، ك=٢٠ ، ل=٣٠ ، م=٤٠ ، ن=٥٠ ، س=٦٠ ، ع=٧٠ ، ف=٨٠ ، ص=٩٠ ، ق=١٠٠ ، ر=٢٠٠ ، ش=٣٠٠ ، ت=٤٠٠ ، ث=٥٠٠ ، خ=٦٠٠ ، ذ=٧٠٠ ، ض=٨٠٠ ، ظ=٩٠٠ ، غ=١٠٠٠ ، وقد اشترط في التاريخ الشعري أن يسبق بكلمة أرخ أو أرخوا أو ما شابههما. الشعر الحجازي للردادي ص ٨٥٤ ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ١٦٧ ، التاريخ بحساب الجمل / مجلة دار الملك عبدالعزيز رمضان ١٤١٦ هـ ص ٣٠ .

أدبية تبارى الشعراء فيها وحرصوا على أن يشتملها شعرهم.
وقد افتتن شعراء المدينة في هذا العصر بالتاريخ الشعري حيث حرصوا
أن يختموا كثيراً من القصائد ببيت يؤرخ للغرض الذي قيلت القصيدة
من أجله .

تحدث عبدالغني النابلسي^(١) عن نظم شعراء المدينة للتواريخ فقد كتب
إليه الشاعر عبدالرحمن جليبي عابدي^(٢) يسأله عن صحة تاريخ له
اعترض عليه بعض الناس وهو تاريخ دار للشاعر المذكور يقول فيه:
جاء تاريخها على عجل
حين لا بد (نعم هذي الدار)

عقب النابلسي على هذا البيت بقوله (إنه جاري على عادة أهل المدينة
في نظم التواريخ) أنهم يزيدون بعد لفظة (أرخ) أو (أرخوا) أو
(تاريخه) ما ليس محسوباً من التاريخ، والتاريخ هنا قوله (نعم هذي
الدار) وأما قوله (على عجل حين لا بد) فحشو لا دخل فيه لحساب
التاريخ، وهو معيب عندنا، فكتبنا له نحن الجواب عن ذلك..، غير أن
في التاريخ المذكور خلاف الأمر المعهود المشهور، فما يكاد أن يكون
الاحتراز عنه أمراً لازماً، ولا زال كل شاعر مهتماً به وعليه عازماً
وذلك إيراد كلام خارج عن التاريخ بعد لفظ (أرخ) مثلاً بطريق

(١) - سبقت ترجمته ص ١٥ وانظر نفحات الأزهار ص ٣٣٦.

(٢) - لم أعثر له على ترجمة.

الفصل ، فإن ذلك يوهم أنه من التاريخ. فلو كان البيت هكذا:
حين لا بد مذ على عجل جاء أرخت (نعم هذي الدار)
لسلم من النقد^(١)

فالنابلسي بذلك يعيب على شعراء المدينة فصلهم بين كلمة (أرّخ) أو ما شابهها، وبين الجملة التي تحوي حساب الجمل بكلمات لا تحتسب من التاريخ.

وقد أدخل الشعراء التاريخ الشعري في قصائدهم التي تتحدث عن مناسبة معينة مثل تعمير دار أو تولية منصب أو وفاة شخص أو أي حادثة أخرى.

فمن ذلك ما قاله البيهقي مؤرخاً لبناء دار الشيخ زين العابدين المنوفي^(٢) بالمدينة:

فله بيت جاورته سعادة له صار خير الخلق أقرب جيران
مؤرخه حيّا الحيا بيت سؤدد من السعد زين العابدين له باني^(٣)
(سنة ١١٤١هـ)

وللملا علي الشرواني^(٤) في تاريخ باب :

(١) - الحقيقة والمجاز للنابلسي ص ٤٣١. والتاريخ ١١٠٥ هـ .

٢ - سبقت ترجمته ص ١٥٩

٣ - ديوان البيهقي (حكمت) ص ١٤

٤ - سبقت ترجمته ص ١٢٤

إن رمت تاريخاً لتركيبه فقد أتى في مفرد زانه
باب العلا صاحبه دائماً في كنف الفتاح سبحانه^(١)
(سنة ١١٨٤هـ)

وللبيتي قصيدة يهنئ فيها عبدالله أسعد زاده^(٢) لما ولي نيابة القضاء
ويؤرخ ذلك بقوله:

نلت من كل قرب غاية في معالي الأكرمين الأول
عدداً صح به تاريخه دام عبدالله قاض وولي^(٣)
(سنة ١١٥٤هـ)

ويرثي الشيخ محمد سعيد سفر^(٤) جعفر البرزنجي^(٥) ويؤرخ سنة وفاته
بقوله:

خمسين عاماً سنّه معلن بالدرس والفتوى لها يعمر
مقامه الأعلى به أرخن بشر فقد حاز المنى جعفر^(٦)
(سنة ١١٧٧هـ)

(١) - تحفة الدهر ص ٥١

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٢

(٣) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت . ٩

(٤) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٥) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٦) - تحفة الدهر ص ٥٣

الفصل الثاني

الخصائص المعنوية

١- ثقافة الشاعر:

الأدب وغيره من الفنون فطرة من الفِطْر التي طبع عليها بعض الناس، أو ملكة من الملكات التي تصدر عنها في عالم الفنون تلك النماذج الفنية التي تثير أو تؤثر في غيرهم من جماعات الناس من الذين لم يطبعوا عليها، ولم يستطيعوا التعبير عن مشاعرهم ومكونات عواطفهم، لأنهم حرّموا تلك المواهب التي تمكنهم من التعبير، فإن الأديب في حاجة إلى ألوان من الثقافات التي تتصل بفنّه، ولا يستطيع بدون تلك الثقافات أن يبدع، فالموهبة وحدها لا تكفي، كما أن الثقافة وحدها لا تكفي، أي أن الثقافة وإن أمكن تحصيلها لا تستطيع أن تخلق أديباً من إنسان لم يخلق وفي طبعه القدرة على مزاوله الفن الأدبي، كما أن الطبع وحده لا يستطيع أن يؤتي ثمراته من غير ثقافة، ومن غير تحصيل لما تجود به الملكة، ويفتح أمامها سبيل البوح والانطلاق لتؤدي غايتها، ذلك أن الفنيّة كامنة في نفس صاحبها، لا يستطيع أن تبوح بمكوناتها إلا إذا وجدت ما يستثيرها من الأحاسيس والمشاعر، أو الانفعالات والعواطف، وإلا إذا وجدت الأداة التي تعينها على الأداء، أو نقل التجارب وتوصيلها إلى مستقبلي أعمالها الأدبية.

والأدوات في هذا الفن الأدبي هي ألوان الثقافات التي ينبغي أن يكون

الأديب متمتعاً بطاقة كبيرة منها، وليس من المفروض أن يولد الأديب وهو مزود بتلك الطاقات التي تتيح له التحليق في سماء الإبداع والإبداع، وإنما هو في حاجة دائمة إلى روافد تمد موهبته، وإلى ثقافات تأخذ بيدها وتنمّيها.^(١)

وثقافة شعراء المدينة في هذا القرن ثقافة إسلامية عربيّة بحتة فالشاعر يستمد معانيه من القرآن الكريم الذي تفتحت عيناه على قراءته وحفظه حيث كانت انطلاقته العلمية تبدأ من تدارسه، والذي يلازمه طيلة رحلته العلمية إلى جانب علوم الدين واللغة، الخاصة والعامة، والأساس الذي تدور حوله جوانب المعرفة.

كذلك استمد الشاعر معانيه من سنة النبي ﷺ وآثار صحابته من بعده، فهي صنو القرآن، والمصدر الثاني لتشريع الإسلام. كما استمد الشاعر معانيه من التراث العربي الضخم الذي تركه العلماء والرواد في شتى فروع المعرفة من أدب ولغة وتاريخ، وغيرها من سائر العلوم الأخرى، والذي يمتد من هذا القرن إلى ما قبل الإسلام بعشرات السنين.

(١) - بتصرف من كتاب (في أصول الأدب والنقد) للدكتور بدوي طبانه ص

وقد لعبت المكتبات^(١) المنتشرة في المدينة في هذا العصر دوراً كبيراً وهاماً في إثراء ثقافة الشاعر ومدّه بالعلوم المختلفة الإسلامية والعربية، فقد كانت الكتب ترسل إلى المدينة من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث يحرص أصحابها على إرسال نسخ من كتبهم إلى المدينة النبوية طلباً للأجر والتماساً للبركة، ورغبةً في اشتهار كتبهم، واطلاع أكبر عدد ممكن من طالبي العلم عليها، حيث اجتمع العلماء وتوافدهم من الأمصار إلى المدينة في رحلتهم للحج والزيارة.

كما أثرى ثقافة الشاعر المدني التقاؤه بالشعراء الذين يقدمون إلى المدينة من شتى الأقطار، حيث يستمع إلى إبداعاتهم أو مروياتهم، مما يسهم في زيادة مخزونه من الشعر الذي ينعكس بمعانيه وأساليبه على شعره. وقد ضمن الشعراء شعرهم معاني القرآن الكريم واقتبسوا من آياته، فهذا الشاعر يحيى الجامي - مثلاً - يقول في التشوق إلى المدينة:

وازداد شوقي حيث هبت وانقضى

صبري وذبت جوى وضاق المذهب

خوف انقطاعي عنه قطع مهجتي

وغدا فؤادي فارغاً يتلهّب

(١) - انظر الحياة العلمية ص ٥٤ من هذا البحث.

كفؤاد أم من أنزلت فيها (فأصد

بح في المدينة خائفاً يترقب)^(١)

فهو بذلك يشير إلى قوله تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)^(٢)، وقوله تعالى عن حال نبيه موسى عليه السلام بعدما وكز الرجل الذي من قوم فرعون فمات (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب)^(٣) واقتبس كذلك جعفر البيهقي من قوله تعالى: (وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً)^(٤)، حيث قال:

وإذا ما رأيت ثم من المحـد مقاماً رأيت ملكاً كبيراً^(٥)

وتأثر الشعراء كذلك بالقصص القرآني، ومثال ذلك مدح يحيى هاشم لمصطفى باشا والي القاهرة، حيث يقول في صورة لا تخلو من الطرافة ومجال التوظيف:

فما النيل إلا من سحائب كفه
له سر موسى والعصا في يمينه
وإن حلّ في أرض ترى مصرها مصرا
فلم يبق فرعوناً وقد أبطل السحرا^(١)

(١) - تحفة الدهر ٨٤

(٢) - سورة القصص ، الآية (١٠).

(٣) - سورة القصص ، الآية (١٨).

(٤) - سورة الإنسان ، الآية (٢٠).

(٥) - ديوان البيهقي، نسخة عارف حكمت ١٠

كما ضمن الشعراء شعرهم بعض شعر السابقين مما يوحي بوقوف شاعر العصر أمام كمّ لا يستهان به من شعر الشعراء العرب قبله، واطلاع الشاعر على شعر السابقين له أهمية لا تخفى في ملكة الشعر وصناعته.

من ذلك تضمن جعفر البيتي قصيدته في مدح الشريف مسعود بن سعيد بعض أشطر قصيدة المتنبي الميمية المشهورة، مثل قوله في المقدمة:

فتّان ما لشج في عدله طمع وردفه جائر والخصر منهضم
أشكو إليه لظى قلبي وييسم لي (واحر قلباه ممن قلبه شبم)^(٢)

وتضمن عمر الداغستاني في قوله:

وعيون ضعيفة في انكسار وفتور الحاظها بابلية
ولها قوة الطبا حين ترنو (فاعجبوا من ضعيفة وقويّة)

ضمن الشطر الأخير من قول السرقسطي^(٣):

(١) - مساجلات شعرية ص ١٤

(٢) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت (٢٨).

(٣) - لعله محمد بن يوسف بن عبدالله التميمي السرقسطي الأندلسي، وزير، من الكتاب الأدباء، له شعر جيد، مولده بسرقسطه ووفاته بقرطبه سنة ٥٣٨.

هاتها عسجدية كوثرية بنت كرم رحيقة عطرية

كلما شفها النحول تقوت فاعجبوا من ضعيفة وقوية^(١)

وقد حرص جعفر البيتي وهو الذي أخذ من كل علم بطرف أن يظهر ثقافته في شعره، فهو إلى جانب تضلّعه في اللغة والأدب على معرفة بالتاريخ وله كتاب فيه وهو كتاب (مواسم الأدب وآثار العجم والعرب)، وقد ظهر أثر هذه الثقافة التاريخية في مواضع كثيرة في شعره، حيث نجد -مثلاً- في قصيدته في وصف فتنة سنة ١١٥٥ هـ يظهر معرفته بالحوادث والحروب التي وقعت في الأزمنة الماضية، يقول:

عادت لنا سيرة التيمور في حلب أيام صيانها شابت نواصيها
ويومه وهو في بغداد يهتكها ويوم جنكيز بالتاتار^(١) يرميها
وبخت نصّر من قبل الذي ذكروا في مصر والقدس تغريباً وتشبيها
ويوم تهماز^(٢) ما أدراك ما صنعت في شاهجهان^(٣) الموالي مع مواليها^(٤)

وللبيتي معرفة بالطب ونجد ذلك واضحاً في شعره، وذلك مثل قوله

(١) - تحفة الدهر ٣٢ .

(٢) - تهماز أو طهماز أحد ملوك الفرس.

(٣) - شاه جهان: مدينة هندية شمال غربي لكانا . المنجد (الأعلام) ص ٣٢٨ .

(٤) - ديوان البيتي ، نسخة عارف حكمت ٧٢ .

(٥) - أي التتار.

متغزلاً :

يا جيرة السيح أنتم للعيون جلا وللجروح التي بي مرهم وطلا
وفي البيتین التالین نری تأثره بثقافته التاریخیة والطبیة، حیث یقول:
أیوب عمری محتاج إلى عمر کعمر نوح یقضی العسر بالیسر
فامنن بحقه معجون النجاح لنا وابعث بها عوضاً عن علبة الصبر^(١)
ومما أكثر منه البیتی فی شعره إظهار ثقافته العروسیة مثل قوله مادحاً:
وبعد فشوقی والسؤال کلاهما طویل مدید والبسیط ووافر
ومنسرح وودی لکم متقارب قوافیه فی إخلاصه متواتر
ومجزوء شغلی عن سواکم مرفلٌ وصبری قد دارت علیه الدوائر^(٢)
نکتفی بهذا القدر من هذه النماذج التي تسلط الضوء علی جوانب
من ثقافة الشاعر لأن هذه النماذج قد وردت فی المباحث الأخری،
وعلی ذلك فضلنا الاختصار تجنّباً للإطالة والتکرار.

(١) - حقة : علبة ، معجون النجاح : ترکیبة دوائیة معروفة فی الطب القدیـم

(تذکرة داوود الأنطاکی ص ٣٤٥) ، الصبر: اسم دواء مر الطعم (تذکرة

داوود الأنطاکی ص ٢٥٣) . دیوان البیتی ، نسخة عارف حکمت ٧٢

(٢) - المصدر السابق ٥٩

٢- استلهام التراث:

استلهم الشعراء في هذا القرن التراث الشعري العربي، الذي ينظرون إليه بإكبار وتقديس، إلا أن بعض الشعراء لم يوظفوا هذا الاستلهام للارتقاء بشعرهم، ولم يحاولوا الإضافة إلى ما أنتجه من سبقهم من الشعراء، حتى قيد بعضهم شعره بأمور جعلته مقلدا لمن سبقه أكثر منه متأثراً أو محاكياً، ولدرجة أن بعضهم تأثر بقصائد معينة، نظموا على نفس وزنها وقافيتها، كما كرر بعضهم معانٍ بعينها فضمنوها قصائدهم دون تغيير يذكر.

حيث وقف الشعراء على الأطلال ولا أطلال، وتغزلوا بالأسماء العربية القديمة مثل ليلي وأسماء وزينب ولبنى والرباب بينما نجد الأسماء التي اشتهرت في عصرهم في المدينة مثل فاطمة ومريم وشريفة وصالحة، كما ذكروا نجداً لأن الشعراء الأقدمين تردد في شعرهم ذكر نجد، حيث الحنين والشوق إلى الأهل والديار، بينما أظن أن بعض شعرائنا لم تطأ قدمه نجداً، كما ذكروا أشجار الغضا تلك الأشجار التي تكثر في نجد والتي ارتبطت عند شعرائه بمجاورة منازل الأحبة، وبمرافقة الركب في سفرهم إن بعداً عن الديار أو قريباً منها، بينما نجد أشهر أشجار بوادي الحجاز السلم والطلح والسدر.

كل ذلك يعد مظهراً للاستلهام المقلد للتراث إلى جانب تكرار الشعراء أيضاً للتشبيهات والمعاني القديمة.

لأنني بهذا أننا نطالب الشاعر بالانسلاخ عن هذا التراث الشعري الكبير وقطع كل صلة به والاتيان بشيء من العدم، فالأدب كبقية فروع النشاط الإنساني يبنى الحاضر فيه على أساس الماضي، وينتفع الخالف بتراث السالف، فيتكون من ذلك كل متصل، أو قل كل متسلسل متعاون يتولد بعضه من بعض في صور متعاقبة، لا يمكن لللاحق فيها أن يتقدم على سابق، ولا لسابق أن يتأخر عن لاحق.^(١)

وليس يعني ذلك أن تتشابه أجزاء هذا الكل تشابهاً يفقدها كيانها الخاص، فتلك صفة إن حدثت في بعض الأجزاء لم تحقق لها وجوداً مشخصاً مستقلاً، إنما هو تشابه حي، تشابه يعطي الجزء استقلاله وحريته، وإن ظل ارتباطه بالكل وسياقه العام، وما السياق في الأدب إلا النظام الذي يطوي في تقاليد، فلا بد أن يعرف الأديب هذا النظام وتلك التقاليد، ويحسهما إحساساً دقيقاً، وهو إحساس لا يصح أن ينتهي إلى إلغاء شخصيته، إنما هو إحساس ينمي هذه الشخصية حتى تثبت وجودها، فلها كيانها المستقل الخاص، كيان لا ينتهي إلى التقليد والمعيشة في حدود القديم، وإنما ينتهي إلى الابتكار والمعيشة في حدود الجديد، فهو جديد تضرب جذوره في أعماق الماضي، ولكنه يأتينا بثمر شهوي، ثم لاعهد لنا به من قبل، قد ثقف صاحبه براعات الأدباء الذين سبقوه

(١) - انظر النقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ١٧٦.

ولكنه لم يفن شخصيته فيهم ولا نسي غايته من الخلق والابتكار.^(١)
 وفي شعر هذا القرن نجد نماذج فني أصحابها فيمن سبقهم وانجذبوا
 إليهم انجذاباً أفقدهم أصالتهم وتميزهم وقدرتهم على الابداع.
 من هذه النماذج أبيات من قصيدة لجعفر البيتي يمدح فيها الشريف
 مسعود بن سعيد وهي على نفس وزن وقافية قصيدتين ميميتين للمتنبى
 في سيف الدولة.^(٢)

يستهل البيتي قصيدته بمقدمة غزلية حيث يذكر فيها بكاءه على
 الأطلال فيقول :

منازلاً قمت فيها بعد ساكنها أبكي لها وثغور البرق تبتسم

وقد قال المتنبى في مدح سيف الدولة:

ولاح برقك لي من عارضي ملك ما يسقط الغيث إلا حيث يتسم
 ويقول البيتي في بيت آخر:

أشكو إليه لظى قلبي ويسم لي واحر قلباه ممن قلبه شبم

وفي ذلك تضمن لمطلع قصيدة المتنبى المشهور:

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن لساني وحالي عنده عدم

ويقول البيتي :

(١) - انظر النقد الأدبي، شوقي ضيف ١٧٦.

(٢) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٢٨

- ديوان المتنبى شرح العكبري ٣: ص ٣٧٥، ٣٦٢

لي فيك معرفة القربى أمت بها
وفيه تضمين من بيت المتنبي :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
إن المعارف في أهل النهى ذمم

وبهذا نلمس الانجذاب للتراث في قصيدة البيتي هذه في أكثر من
موضع، فكأن البيتي عندما نظم قصيدته كان يستحضر شعر المتنبي مما
أظهر روح التقليد في قصيدته بالرغم من براعته وشاعريته.

وكذلك نجد عمرو بن حيدر البغدادي^(١) يصف حالته أثناء بعده عن

المدينة، فيقول:

وأحزان قلبي انحلت جسمي الذي
تراه خيالاً شاهداً منك رؤيتي

ولولا أنيني لاتراني من الجوى
ولولا حنيني لاضمحت حقيقي^(٢)

وهو تائر واضح بقول المتنبي :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل
لولا مخاطبتي إياك لم ترني^(٣)

أما التغزل بالأسماء المتغزل بها في التراث فنجده في مثل أبيات لزين
العابدين بن محمد بن زين العابدين الذي يذكر ليلي ولبنى وزينب وهند
حيث يقول:

أرى القلب مغرى مغرم بالتغزل
حليف جوى يصبو إلى كل عيطل

(١) - سبقت ترجمته ص ٣٠٢

(٢) - تحفة الدهر ١٠٠

(٣) - ديوان المتنبي شرح العكبري ٤ : ١٨٦

يسامر زهر الليل يشكو لها الذي يقاسيه في ذاك الجمال المكمل
وينشد عن ليلي ولبنى وزينب وينعم مع هند ويصبو لمنزل
وكذلك يتغزل شاهين الشدقي^(١) فيذكر ليلي وزينب، فيقول:
أبـارق لاح لي يا جيرة العلم أم تلك ليلي بذات الشيخ والسلم
أم زينب ابتسمت عن لؤلؤ فحككت لأدمعي فجرت تنهل كالديم^(٢)
ويتشوق الشيخ حمزة بن محمد^(٣) لأحبه فيسأل عن البرق الذي لمح من
ناحية نجد وكأنه بذلك يتبع الشعراء السابقين الذين ورد ذكر نجد
كثيراً في شعرهم. فيقول:

أبرق بدا من نحو نجد لمقلتي أم افترّ ثغر القرب بعد التشتت
خليلي خبرني فإنك عمدتي خبير بما قد بان من غير مريّة
أهذا الذي قد لاح برق حقيقة أم السعد قد وافى بعود أحبتي^(٤)
ويحمّل جعفر البيتي الركب رسائل شوقه إلى نجد وطلباء نجد ويدعو له

(١) - سبقت ترجمته ص ١٨٦

(٢) - تحفة الدهر ٣٦

(٣) - هو ممن ذكرهم الداغستاني في تحفته ولم أعثر له على ترجمة عند غيره،
ويظهر أنه قد توفي قبل تأليف الداغستاني لتحفته حيث قال عنه (المرحوم
الشيخ حمزة بن الشيخ محمد بن عبدالله) وذكر أنه قد مات شاباً في حياة
أبيه. تحفة الدهر ٩٧.

(٤) - تحفة الدهر ٩٨

بالسقىا ثم يذكر حبيبته زينب وتأثير نسيمات الصبا في نفسه ، وهو بذلك يؤكد انجذابه للتراث فما نجد وصابها وزينب إلا مظهر لذلك فهذا كله قد تردد كثيراً في أشعار السابقين. يقول البيتي :

لنا معكم يا معشر السفر حاجة رسائل شوق تحملون وتصحبوا
إلى أرض نجد يا سقى نجداً الحيا وساجله من مزن عيني صيبُ
وما حاجتي في نجد لولا ظباؤه ولا في الظبا لولا مع السرب زينب
لأمر وجدنا الوجد في نسمة الصبا وإلا فسيان الشمال وأزيب^(١)
وفي قصيدة أخرى للبيتي نجده يحنّ إلى نجد بالرغم من أنه ابتداءً بذكر
العقيق والمنحنى وهي من الأماكن المحيطة بالمدينة والتي لا يستبعد أن
يكون له ذكريات حقيقية بها، ولا يكتفي بالحنين إلى نجد بل يخاطب أم
عمرو مما يذكرنا بحبيبة جرير التي خاطبها في عينيته المشهورة ، يقول:

كم بوادي العقيق أجريت دمعي وعلى المنحنى حنيت ضلوعي
وبفرش اللوى فرشت خدودي ولسكانه وهبت جميعي
وسجدنا إلى الحمى وركعنا آه لو دام لي سجودي ركوعي
كلما ينحل الصباية مني هو قربان للجنان الرفيع
ذاك نجد سقى لنا الله نجداً ومشتاي بينه وربيعي
ذاك بيت القصيد يا أم عمرو واحنوني لأهله واولوعي

(١) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٤٥ ، والأزيب هي الريح الجنوبية. لسان

العرب (زيب).

كم بنجد من شائق ومشوق وقتيل في حبه وصرير^(١)

وإلى جانب التغزل بالأسماء المأخوذة من التراث وذكر نجد وصابها
وأم عمرو نجد التغني بالغضا والذي تحدثنا عنه فذكرنا أنه من الأشجار
التي تكثر في نجد وإن ذكر شعراء المدينة له إنما هو انجذاب إلى شعر
سابقهم، من ذلك قول البيتي :

أشجى صدودك في الرياض فرجعي واروي لنا خير اللوى والأجرع
وترنمي بحديث من سكن الغضا وحديث أشجاني به وأبكي معي^(٢)
وكذلك قول يحيى الجامي^(٣) :

باتت تسامرني حمامة روضة فوق الغضا بين الغدير وزرعه^(٤)

وليس معنى هذا أن الشعر في هذا القرن قد جنح كله إلى تقليد
التراث ولم يبدع الشعراء شيئاً، فهناك شعر أصيل هو ما استحدثت عن
نماذج منه في المبحث القادم، وقد سبق وأن تحدثنا عن معارضات شعراء
القرن لشعراء سابقين، والمعارضات تعتبر من أقوى مظاهر استلهام
التراث.

(١) - ديوان البيتي نسخة آل هاشم ص ١٩٩

(٢) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٢٤

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٣٩

(٤) - حلية البشر ٣ : ١٥٨٥

٣- الأصالة :

أكثر الكتاب أصالة هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة، وبؤرة للتيارات المعاصرة، وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته، فلكي نميزه لابد أن نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة.

يجب أن نعرف ذلك الماضي الممتد فيه وذلك الحاضر الذي تسرب إليه، فعندئذ نستطيع أن نستخلص أصالته الحقيقية، وأن نقدرها ونحددها ومع ذلك فلن نعرفه عند تلك المرحلة إلا معرفة احتمالية.^(١)

ليس مدار الإبداع أن يأتي الشاعر بشيء جديد لم يسبق إليه، شيء يخرجه من العدم، فالوجود لا يتكون فيه شيء من عدم، وما يأتي من العدم يذهب إلى العدم ولا يتحقق له وجود صحيح.^(٢)

والشعر الأصيل لا يعني أن الشاعر أوجده من لا شيء، فالشاعر يستمد شعره من عناصر الحياة التي خبرها غيره، كما أنه قد خبر شيئاً منها، ولكن له طريقته في الخلق والابتكار، حيث يعطي لهذه العناصر حياة جديدة وروحاً جديدة، فالمهم ليس جدّة الموضوع، ولكن جدّة الروح والمعاني.

ليس منبع الأصالة أن يكون الأثر الأدبي غريباً عنا، فغرابته لاتفيدنا

(١) - انظر منهج البحث في الأدب واللغة للانسون ومايه ص ٣٣

(٢) - انظر في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ١٨٠

شيئاً سوى المفاجأة، وما لم تكن المفاجأة مصحوبة بإثارات وانفعالات وجدانية، فإنها تكون عديمة القيمة، وربما جاءت بنتائج مضادة، ولا بد أن نعتزف بأن العمل الأدبي الأصيل نادر في كل زمان ومكان، إذ لا يستطيع النهوض به سوى الصفوة ممن يجاهدون ويناضلون في سبيل إنشائه، وهو جهاد يرتبطون فيه بكل ما ظفر به عالمهم الأدبي من تراث رائع، بحيث يغدون جزءاً متداخلاً فيه، جزءاً له حيويته وما يجري فيه دم حار. (١)

وليس مدار الابداع والأصالة عظم الفكرة التي يتناولها الشاعر في شعره، فمهما كانت الفكرة التي يطرحها الشاعر غير المطبوع عميقة وصادقة ومقدسة، فلن يكون عمله إلا ضحلاً ومختلقاً ومزيفاً ومشوهاً وميتاً، ولن يستطيع اقناع أحد، بل إنه سينفر الجميع من الفكرة التي يعبر عنها على الرغم من صدقها كله، لأن ما يستولي على الشاعر ويصبح غرسات حية للأعمال الابداعية الحية ليس هذه الأفكار ولا يتم بهذه الطريقة، فالابداع ليس تسلية والعمل الفني ليس ثمرة فراغ أو نزوة، إنه يكلف الفنان عملاً، وهو نفسه لا يعرف كيف تنشأ في روحه غرسة العمل الفني الجديد، إنه يحضنها، يحمل في ذاته بذرة الفكرة الشعرية كما تحضن الأم جنينها وتحملها في رحمها، وعملية الإبداع

(١) - في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ١٨٣

تشبه عملية الولادة، ولا تخلو من الآلام -الروحية طبعاً- التي ترافق هذه العملية، ولذا فإن الشاعر إذا أقدم على العمل والإبداع، فإن ذلك يعني أن قوة جسارة ورغبة لا تقهر تدفعانه إلى ذلك وتسيرانه نحوه، هذه القوة وهذه الرغبة هي روح العمل الشعري.

كل عمل شعري، إذن، يجب أن يكون ثمرة روح ويجب أن يكون مشبعاً بها، فمن دون روح العمل الفني لا يمكننا أن نفهم ما الذي أرغم الشاعر على أن يمسك بالريشة وأعطاه القوة والقدرة على بدء عمله وإنهائه، وهو عمل يكون كبيراً في بعض الأحيان.

إن لكل عمل من أعمال الشاعر -مهما تعددت وتنوعت- حياته الخاصة، ولذا فهو يمتلك روحاً خاصة به، ومع ذلك فإن لمجمل عالم الشاعر الإبداعي، وللمجمل نشاطه الشعري روحه الموحدة التي تنتسب إليها روح كل عمل منفرد انتساب الجزء إلى الكل، باعتبارها لوناً من ألوان الفكرة الرئيسية، وجانباً من جوانبها المتعددة.^(١)

والشعر الأصيل على امتداد تاريخ الشعر العربي يختلف نصيب الشعراء منه من شاعر إلى آخر ومن مصر إلى مصر، يحكمه نظرة الناس إلى الشعر ونظرة الشعراء أنفسهم إلى الشعر، كان الشعر تغلب عليه الأصالة في أزهى عصوره، عندما كان الناس يتذوقون الشعر الأصيل

(١) - انظر الممارسة النقدية لبيلنسكي ص ٢٦

وينقدونه فكان حصول الشاعر على الاعتراف بشعره صعباً للغاية، وكذلك عندما كان الشعراء أنفسهم يرون أنه صعب وطويل سلّمه وأن قلع الضرس في بعض الأحيان أهون من قول البيت الواحد.

وفي هذا العصر وكغيره من العصور نجد نماذج من الشعر الأصيل عند بعض الشعراء دون غيرهم، بل في بعض شعر الشاعر بل في بعض أبيات القصيدة أو المقطوعة الواحدة في بعض الأحيان، حيث يحرص بعض الشعراء أحياناً على الإطالة لإثبات الشاعرية ويكون ذلك مدعاة للتكلف والتكرار والتقليد على حساب الجودة والأصالة.

من الشعر الأصيل - كما أرى - في هذا القرن ما نجده في بعض الشعر الديني مثل الالهيات والمدائح النبوية والحنين إلى المدينة وأهلها، هذا الشعر هو مظنة الأصالة، ولا يعني هذا أننا نفتقدتها تماماً في غيره، ولكنه لما غلب على الشعر الديني الحنين والرتاء فإني آثرت الاختيار منها لظهورها على عامة شعر هذه الموضوعات.

مثال ذلك ما نجده عند جعفر البيهقي من مناجاة لربه يرجو أن يجيبه وأن لا يتركه إلى حوله، كما يطلب منه الرحمة والتوبة والمغفرة فهو نعم المولى ونعم النصير، يقول:

رب إنني قصدت بابك فاشهد	بمقامي وما إليه بصير
يا عظيم يُرجى لكل عظيم	وعلى ما يشاء حقاً قدير
يا مجيب المضطر مهما دعاه	يا إلهي أنت اللطيف الخبير

لاتكلمي إلى احتيالي وحولي فهما دون ماتريد غرور
وترحم بنظرة منك تمحو سيأتي بها فأنت غفور

ومتاب إليك من كل ذنب منتهى فعله اللظى والسعير
حسبي الله في الأمور جميعاً وهو نعم المولى ونعم النصير^(١)

نلاحظ في الأبيات العاطفة الجياشة الصادقة التي تفيض بها روح الشاعر الذي يملأه الإيمان والثقة بالله وهي عاطفة جعلته ينصرف عن النظر إلى شعر غيره ، فيحاول أن يعبر عن مكنون نفسه، وإن تبسّط في مناجاته واعترافه.

أما الحنين إلى الديار فقد كان مدار إبداع الشعراء منذ العصر الجاهلي. فمن أكثر الأشياء تأثيراً على المرء بعده عن أهله ووطنه، حيث يفيض الشعر المعبر الصادق الذي ينفس الشاعر من خلاله آهاته وزفراته الحرى بعيداً عن التكلف والتقليد.

ممن تشوق إلى المدينة في هذا القرن الشاعر علي البرزنجي^(٢) حيث يقول:

(١) - ديوان البيتي نسخة حكمت ١٠

(٢) - سبقت ترجمته ص ٩٨

ما الحب والسلوان واحد
يا أهل كاظمة هوا
لي بالصباة فيكموا
طاب السبعاد أحبتي
ولهي تزايد والجوى
أما اصطباري فانقضى
بل ما خلّي هوى كواجد
كم في سويدا القلب خالد
دمع من الآماق شاهد
فمتى أرى تلك المعاهد
مذ غبت عن تلك المشاهد
مني وأما الشوق زائد

واها لقلبي والجوا
ها زفرتي من مهجة
لولا رجال قياكم
نح والحشامما أكابد
ذابت لها صم الجلامد
لغدا لها الجثمان خامد^(١)

إلى آخر الأبيات التي تظهر مدى الحرقلة التي يعانيتها الشاعر من هذا
البعد عن المدينة وأهلها.

ومثاله كذلك مطلع قصيدة لمحمود بن حيدر البغدادي^(٢) في الحنين إلى
المدينة منها:

رعى الله داراً بالحبيب تشرفت
نأت دارهم عني وأصبحت موثقاً
بها أهل ودي سادتي وأحبتي
بحبهم والقلب ثاو بطيبة

(١) - تحفة الدهر ص ٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٠

رمانى بسهم البعد دهري فليته يجود بوصل بعد بعدي وغربتي
أحن إليهم والدموع هواطل فمن زفرتي سالت على الخد دمعتي
ونفسي قد ذابت أسىً وتشوقاً ودمعي قرّح جفن عيني ووجنتي^(١)

وفي القصائد التي نظمها أصحابها تحت تأثير الفتن المتلاحقة الواقعة في المدينة في هذا القرن نجد العاطفة المتأججة حزناً على ما أصاب المدينة وأهلها، مما يجعل الأبيات تتدفق بانسيابية تحكمها روح الشاعر المتأثرة، فلا مجال للتقليد أو التكلف، فهو شعر أصيل تفجر كالينبوع العذب النмир.

من هذا الشعر الأبيات التالية لأحمد الجامي والتي سبق ذكرها ضمن قصيدة طويلة^(٢)، ولكن نورد هنا للاستشهاد:
إلام رسول الله يشدّ ذا الخطب وحتّام هذا الحال والطعن والضرب^(٣)

(١) - تحفة الدهر ٩٩

(٢) - انظر ص ٢٧٥

(٣) - الشكوى إلى رسول الله بعد مماته من المزالق التي وقع فيها بعض شعراء العصر وكما رأوها عند من قبلهم، حيث كانوا يدعونه ويستغيثون به - صلى الله عليه وسلم - وخاصة عند قبره، وهذا منافاة للتوحيد. انظر: كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء من النهي فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح..، وباب حكم الاستغاثة بغير الله.

وما بال أهل العلم والشرف الألى لهم درجات فوق غيرهم تربو
 بها لم يقيم وزن لهم وخيامهم أشايرهم مرفوعة مالها نصب
 وكيف بمراى منك يا سيد الورى ومستمع في مسجد يشهر العضب
 ويصدر منه ما يمج سماعه ولا يرتضي ذكره شهم ولانذب
 كنائس من لا يعبد الله وحده لها حرمة فيهم وعنهما لهم ذب
 فيا ويل من ساء الجوار وسحقه إذا ماله عنها طريق ولادرب

ويا بعده ياليت في الكون لم يكن ولاضمه ذاك الستار ولا الحجب
 ومن عجبى قوم به لم تهزهم مروتهم في الدين حيث لهم قلب
 فوا لهفي أين الرجال بطيبة وأين الغيور الحر والحازم الحضب
 فلا حول فيما قد سعوا في انتهاكه ولاقوة إلا به وهو الحسب
 ألا يا رسول الله غارة غيرة يزوب لها الجلمود واليابس الصلب^(١)
 فبلدتك الغراء زاد خرابها وقامت للذغ الناس حياتها الحرب
 وقطعت الأسباب فيها وعطّلت وحق عليها الحزن والنوح والندب
 وصار يحل الأمر خوفاً وحالها غدا حالكا والخلق عمهم الكرب^(٢)

ولعل من أكثر الشعر أصالة على مر تاريخ الشعر العربي هو شعر
 الرثاء، وخاصة رثاء الآباء لأبنائهم، ذلك الشعر الذي يصطبغ بروح

(١) - الذي يدبر الأمر ويعاقب المسيء على إساءته هو الله سبحانه وتعالى.

(٢) - الأخبار الغريبة ٥٣

الشاعر الشكلى الحزينة.

من ذلك ما يطالعنا به الشاعر محمد سعيد سفر^(١) الذي فقد ابنين له في ظروف مؤثرة حيث توفي الأول واسمه أحمد والذي يذكر والده أنه أفضل أولاده وأنه بلغ من العلم والفضل حتى صار وكأنه أبوه وقد رثاه بأبيات منها:

النار في كبدي والدمع منهمل لعظم خطب له الأحزان تتصل
لا الدمع يظفي نار الحزن من كبدي ولا حرّ لظاها ينشف البلل
مصيبة عظمت حتى لقد صدعت قلبي فأصبح عقلي وهو منذهل
وفاة أحمد أولادي وأسعدهم من كان لله بالأسحار يتهل
نجل يفوق أباه في معارفه بل كل أقرانه عن فضله نزلوا^(٢)

أما الابن الثاني فقد مات غريقاً في بئر بأطراف المدينة تسمى (بئر الضعيني)^(٣) حيث يتألم الشاعر من موت ابنه، ومما زاد ألمه هذه الميتة المفجعة المؤثرة، ويذكر الشاعر أنه كان يرجو أن تتأخر وفاة هذا الابن حتى يدعو له ويؤدي عنه دينه ولكنه تقدم للكرامة، ومن رثائه له قوله:

يا وجيهاً ثوى ببئر الضعيني إن مثواك ثمّ قرّح عيني
بئر جبر لمن أصيب وظعن لمريد الوصول للجنيتين

(١) سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٢) - تحفة الدهر ٥٢

(٣) - بئر الضعيني: بئر تقع شمال المدينة على طريق الحاج. مرآة الحرمين ١٠٩/٢

متَّ ظمآن في القفار وحيداً فسقاك الإله تسنيم عين
ياحبيبي قد كنت خير أنيس لي وفخري بين الأنام وزيني
كنت أرجوك أن تقوم بديني داعياً لي وأن تؤدي ديني
فتقدمت للكرامة عني جمع الله شملنا بعد بين^(١)

أما شعر الغزل في هذا القرن والذي يشكل نسبة كبيرة منه، فقد كان جلّه يفتقر إلى الذاتية التي تجعل الشاعر يعبر عن عواطفه بصدق واقتدار دون تكلف أو تقليد، فالمعاني الغزلية التي تطالعنا غالباً ما يغلب عليها التكرار والتكلف فكأن الشاعر بذلك يستعير من شعر غيره ما يصف به تجربته التي تبقى حبيسة نفسه حيث يجرمها الشاعر بذلك من ترجمتها شعراً، إلا أننا مع ذلك نجد شعراً أصيلاً حيث يحكم احساس الشاعر المبدع تأثيره ومعاناته فيؤثر فينا هذا الشعر بدوره ويأسرنا من حيث لاندري.

من ذلك مقطوعات للبيتي غالباً ما نظمها في البحور المجزوءة التي تتلاءم مع لهات الشاعر وتسارع أنفاسه للتعبير عن عواطفه الحرى.
من ذلك أبيات يتذكر فيها زمان الهوى وعهد الشباب منها:

يا زمان الهوى وعهد التصابي إنما أنت من شجون الشباب
ووقوع المشيب في الرأس واش في خلال الحباب والأحباب

فسقى الجزع والكثيب وبان الـ
ورعى الله معهداً راجعتنا
ودواعي الوصال وافرة الـ
من لطاف الخصور فلج الثنايا
غانيات الجمال كاملة الأو
حبذاهن من مها وغصون
بين بان النقا وماضمن البا
لاخلا سربها وحيّاه منا
تتوالى عهدوه ويغادي

منحنى والعقيق ساري السحاب
فيه أيام زينب والرباب
أسباب إذ ذاك بالحسان الكعاب
أعين العين فتنة الألباب
صاف في الحسن واضعات النقاب
تثنى في عقبى ساري الثياب
ن بسفح النقا ونزل القباب
صيّب الدمع دائم التسكاب
ه نسيم الصبا بتلك الرحاب^(١)

ومن غزليات البيتي الأصيله قوله في مجزوء الكامل:

لانال جسمك من ضنا
يا تاركى بفراقه
سهران مبلى قد يئس
يقرا عليك السقم من
يا رحمتاه لواله الـ
متخلفاً بعد الظعا

ي ولاعنناي ولا ولوعى
لهفان أكرع في دموعى
ت من الكرى ومن الهجوع
جسمى بما كنت ضلوعى
أكباد والقلب المروع
ئن باكياً بين الربوع

(١) - ديوان البيتي حكمت ١٥

وأنا الذي هجت الحمائم على البكا وعلى السجوع^(١)

وكذلك نجد لجعفر البيهقي قصيدة رائعة أبدعها تحت تأثير رفع الوزارة عنه أو عن أخيه، حيث أحس من جراء ذلك بالمرارة والمهانة التي لحقته وجعلته عرضة لشماتة الأعداء، مما جعله يتمنى لو أنه لم يتقلد هذه الوزارة أصلاً.

في هذه القصيدة نجد الذاتية التي تفيض بها الأبيات حيث يحاول الشاعر أن يصف إحساسه بالانكسار والإحباط لعله بذلك ينفس من خلالها عن معاناته، أو لعل فيها ما يجعل أمير مكة يغير رأيه، فيعوض البيهقي عن ذلك بما يحفظ له كرامته ومكانته.

والقصيدة متوسطة الطول، نجتزئ منها ببعض الأبيات حيث وردت في موضع آخر من هذا البحث^(٢).

يقول البيهقي:

لقد أوثقت أيدي المقادير همتي إلى الله أدعو أن يحل وثاقياً
أستز سقمي بالشباب عن الوري ويبكونني لو كان تبدو سقامياً
سقامي ولا أبغي من السقم لي شفا ودائي ومن لي أن أموت بدائياً
رويدك يا برق الغوير فلم تزد شجونني ولا ذكرت من كان ناسياً

(١) - ديوان البيهقي حكمت ٨٩

(٢) - انظر ص ٣١٤ من هذا البحث .

ولسنا سوى يا برق تخفق مرة
 لعينيك يا لميا صبرنا على الجفا
 وقد عاضنا عنكم مساعد رتبه
 قضينا زماناً خدمة ونصيحة
 ولكن عدا عن ما بدا سابق القضا
 جفانا ورحنا لاهناك ولاهنا
 أظل قعيد البيت يومي وليلي
 ولم يبكني فيما جرى مثل شامت
 فرأيك يا ابن الأكرمين موفق
 ولكن نرجي منك تكسر ظاهرا
 وكنت غريباً واحداً فجوفستي
 كسوت برود العز ثم سلبتها
 ويخفق قلبي كل حين ثمانيا
 على أنه ما زاد إلا تماديا
 بنيت لها فوق السماك مكانيا
 وكان لنا المولى وكنا مواليا
 وأنكرت يا لمياء ما قد بداليا
 وما حيلتي إن كان دهري جفانيا
 وإن سرت بين الناس نكست راسيا
 تخطّر قدامي وكان ورائيا
 رضيت به إن كنت عني راضيا
 عيون العدا عنا وتخزي الشوانيا
 وضاعفت أخرى غربة عنك ثانيا
 فليتك لم تسلب ولم تك كاسيا^(١)

إلى آخر الأبيات التي تتأرجح بين العتاب والاستعطاف حيث يلمح
 من خلالها الشاعر مكابداً شأنه مجسداً - في وضوح - حالته التي يفرح
 بها الشامتون، وفي ذلك ما يقلق الشاعر ويمضّه، ويدفعه لبسط حالته
 البائسة، ويتراوح بين الأمل واليأس اللذان يضربان بعواطفه وأحاسيسه
 أي مضرب.

(١) - ديوان البيتي نسخة آل هاشم ص ١٩١

الفصل الثالث

الخصائص الأسلوبية واللغوية

١- بناء القصيدة :

تراوح نتاج الشعراء في هذه الفترة بين الطول والقصر فمن البيتين والثلاثة إلى القصائد المطولة التي قد تتجاوز المائة وستين بيتاً في بعض الأحيان.

وقد نظمت أطول هذه القصائد في وصف الفتن الواقعة في المدينة والتي سبق وأن تحدثنا عنها.^(١)

أطول هذه القصائد التي قيلت في وصف الفتن قصيدة البيتي التي يصف فيها فتنة سنة ١١٥٥هـ^(٢) والتي مطلعها:

بكى على الدار لما غاب حاميتها وجر حكامها فيها أعاديها^(٣)
وتقع في مائة وثلاثة وستين بيتاً.

ومنها قصيدة محمد سعيد سفر^(٤) في وصف الفتنة ذاتها والتي مطلعها:
على بلدة المختار يبكى ويندب ويشكى إلى الله العظيم ويرغب^(٥)

(١) - انظر ص ٣٠

(٢) - انظر ص ٣٤

(٣) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ص ٧١.

(٤) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

(٥) - الأخبار الغربية مخطوط ص ٧١

وتقع في مائة وواحد وستين بيتاً.

ومنها قصيدة أحمد الجامي^(١) التي مطلعها:

يهنيك يا بلدة المختار من مضر قدوم تاج العلا بالنصر والظفر^(٢)

والتي تقع في مائة بيت يهنئ فيها المدينة بوصول الأوامر السلطانية
التي صدرت لتضع حداً لفتنة ١١٨٩ هـ^(٣).

فيما عدا هذه القصائد ، نجد البيتي يتفرد بالنصيب الأكبر من
القصائد الطويلة، حيث نجد في ديوانه مطولات في المديح والرتاء
والتهنئة والغزل والإخوانيات.

من مطولاته تلك قصيدة رائعة يمدح بها إسماعيل أفندي وتقع في
سبعة وسبعين بيتاً وهي القصيدة التي افتتح بها ديوانه ومطلعها :
حيي بكأسك لي مع نسمة السحر وسلسلي الراح من نحري إلى سحري^(٤)
وقصيدته التي قالها على لسان أحد سكان جدّة يصف فيها حال
الطريق من جدّة إلى المدينة وما يلاقه المسافر من مشقة وخطر على
ماله وروحه. ومطلعها:

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٢) - الأخبار الغريبة ص ٦٢

(٣) - انظر ص ٣٩

(٤) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٢، والسحر: الرثة. لسان العرب (سحر)

خليليّ عن حالي سلا وتفقدنا
وتقع في مائة وأربعين بيتاً.^(١)

ولعل تفرد البيتي بأغلب القصائد الطوال يرجع إلى وصول ديوانه إلينا كاملاً، أما شعر الآخرين فقد وصلنا عن مصادر أخرى غلب عليها الاختيار والتي من أهمها كتاب (تحفة الدهر) للداغستاني، والذي يبدو أنه ألزم نفسه فيه بالاختصار، فلم يورد إلا مقطعات وقصائد اجتزأ ببعض أبيات منها.

فعلى سبيل المثال، عند مقارنتنا لما أورده من بعض شعر البيتي، لما في ديوان البيتي نجده يحذف كثيراً من الأبيات، فقصيدة البيتي في مدح الشريف مسعود بن سعيد التي مطلعها:

حيا مغانيك ساري المزن يا إضم وأورقت في حماك البان والسلام
تقع في ثمانية وخمسين بيتاً في الديوان بينما أورد الداغستاني منها خمسة عشر بيتاً.^(٢)

وكذلك قصيدة البيتي في مدح زين العابدين المنوفي^(٣) التي مطلعها:
حي بالأبرق والخبث دياراً وأبك للربع خضوعاً وانكساراً
تقع في تسعة وخمسين بيتاً في الديوان، بينما أورد منها الداغستاني سبعة

(١) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٥١.

(٢) - القصيدة في الديوان نسخة عارف حكمت ٢٨، وفي تحفة الدهر ١٦.

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٩

عشر بيتاً.^(١)

وأطول ما أورده الداغستاني في تحفته هو من اخوانياته، ولعله لم يحذف منها شيئاً، ولا يمكننا الجزم بذلك لأنه لا يوجد مصدر آخر لها، من ذلك القصيدة التي مطلعها:

صنم من الكافور وشح عنبراً وحوى بصحن الخد مسكاً أذفراً^(٢)

وهي قصيدة يمدح بها يحيى صحرة^(٣)، وتقع في خمسين بيتاً، وكذلك القصيدة التي يمدح بها زين العابدين بن محمد^(٤) والتي مطلعها:

سلب العقول بتم حسن أنفس رشأ بسيف الجفن مردي الأنفس^(٥)
وتقع في ثلاثين بيتاً.

وقد اقتصر الشعراء في المقطعات والقصائد القصيرة على موضوع واحد، بينما تعددت الموضوعات في القصائد الطويلة، حيث سار الشعراء على سنن الأقدمين في بناء القصيدة، حيث المطلع الغزلي والبكاء على الأطلال ووصف الرحلة والراحلة، وقد استهل بعضهم قصيدته بمطلع خمري وكأنه يستجيب بذلك لدعوة أبي نواس، حيث

(١) - القصيدة في الديوان ١١٨، وفي تحفة الدهر ١٦.

(٢) - تحفة الدهر ٤٦

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٦٣

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٥) - تحفة الدهر ١١٢.

بدأ في قصائد له بوصف الخمر، وشجع وناصح عن هذا الاتجاه.^(١)
 في شعر هذا العصر نرى من لم يلتزم من الشعراء في بعض قصائدهم
 بالمطلع الغزلي، بل ولجوا إلى الغرض مباشرة وغلب ذلك في قصائد
 الملاحم التي تصف الفتن الواقعة في المدينة^(٢)، وكأن الشاعر حال
 استغنائه عن هذه المقدمة الغزلية يرى أن المقام لا يحتمل هذه المقدمة،
 وقد صرح عمر الداغستاني عن إعراضه عن المقدمة الغزلية، بل طلب
 من الشعراء ترك هذه المقدمة والتفرغ للحديث عن مصاب أهل المدينة
 من جراء هذه الفتن، وذلك قوله:

يا من تولع بالتشبيب والغزل وقد صبا في مليح الغنج والكحل
 باهي الجمال الذي قد حاز مبسمه عقداً من الدرّ أو خمراً من العسل

إلى أن يقول:

دع التغزل فيهم كم تغازلهم وعن مغاني الهوى واللهو فارتحل
 واذكر لمن قتلوا في طيبة بطراً ونح عليهم بدمع منك منهمل^(٣)

(١) - انظر قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم د. وليد قصاب ص ٤٢.

(٢) - انظر ص ٢٤٩ من هذا البحث.

(٣) - الأخبار الغريبة ص ٨١.

أطال بعض الشعراء في المقدمة الغزلية، فقد قدم الداغستاني
لقصيدته الإخوانية في مدح يحيى صحرة بمقدمة غزلية بلغت ثلاثة
وعشرين بيتاً، وهي القصيدة الرائية التي مطلعها:
صنم من الكافور وشح عنبراً وحوى بصحن الخد مسكاً أذفراً^(١)
وكذلك قدم البيهقي لقصيدته الرائية في مدح إسماعيل أفندي^(٢) بمقدمة
غزلية تقع في ثمانية عشر بيتاً، وهي التي مطلعها:
حيي بكأسك لي مع نسمة السحر وسلسلي الراح من نحري إلى سحري^(٣)
وقد استغرقت المقدمة الغزلية نصف قصيدة لخير الدين الياس^(٤) في
مدح حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، حيث بلغت هذه المقدمة ثمانية
عشر بيتاً، وهي القصيدة التي مطلعها:
بدر أفق يفوق شمس ضحاء قد تبدى بلبلة ضحياء^(٥)

ولعل حرص بعض الشعراء على إطالة هذه المقدمة نابع من رغبتهم
في إطالة القصيدة ككل، حيث يرون أن الشاعر عندما ينظم قصيدة

(١) - تحفة الدهر ٤٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٦

(٣) - ديوان البيهقي نسخة عارف حكمت ٢

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٠٨

(٥) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٨، ولبلة ضحياء: مضيئة لاغيم فيها، وقيل: مقمرة،

لسان العرب (ضحاً).

طويلة يبرهن على طول باعه في قول الشعر، وامتلاكه للموهبة الشعرية التي يتفوق بها على غيره من الشعراء كماً وكيفاً، ولعل من أسباب إطالة هذه المقدمة أنها تقع في أول القصيدة حيث يكون الشاعر في أوج حماسه ونشاطه الشعري ولم يستفرغ جهده بعد، إضافةً إلى أن موضوعها وهو الغزل والنسيب موضوع محبب إلى نفس الشاعر، وهو غرض مطروق يحوي قدرًا كبيراً من شعر الشعراء واهتمامهم.

وقد تفاوتت هذه المقدمات الغزلية من حيث جودتها، فبينما نجد بعضاً منها قد استفرغ الشاعر فيها كل جهده وأظهر شاعريته وأصالته، نجد قسماً منها غلب عليه التكلف، حيث أراد بها أصحابها ملء فراغ يرون في ملئه تقليداً يصعب تجاوزه.

ولعل من أجمل المقدمات الغزلية مقدمة قصيدة لجعفر البيتي يجب فيها على شخص يتقاضاه في دين على والده، حيث يقول:

يا زمان الهوى وعهد التصابي إنما أنت من شجون الشباب
ووقوع المشيب في الرأس واش في خلال الحباب والأحباب
فسقى الجزع^(٢) والكثيب^(٣) وبان المند حنى والعقيق^(١) ساري السحب

(١) - العقيق: واد مشهور معروف بالمدينة. وفاء الوفاء ١٠٣٧/٣

(٢) - الجزع: منعطف الوادي، وقد أضيفت إلى عدة مواضع في المدينة، مثل:

جزع السيح، جزع بطحان.

(٣) - موضع له ذكر بالغزل بأماكن المدينة، ولم أتمكن من تحديده.

ورعى الله معهداً راجعتنا
 ودواعي الوصال وافرة الأسـ
 من لطاف الخصور فلج الثنايا
 غايات الجمال كاملة الأو
 جذاهن من مها وغصون
 بين بان النقا^(١) وما ضمن البا
 لا خلا سربها وحياه منا
 صيب الدمع دائم التسكاب^(٢)

ولعمر الداغستاني قصيدة أجاب بها على عابد السندي^(٣) تقع في
 سبعين بيتاً استهلها بوصف الطبيعة ثم انتقل بعدها إلى الغزل الذي
 استغرق جل القصيدة التي أنهاها بمدح السندي بعشرة أبيات فقط من
 هذه القصيدة الطويلة التي مطلعها :

جاد غيث السما لنا وتبسم
 عن سنا بارق له غير جهم^(٤)
 أما المقدمة الخمرية فمثالها قصيدة حائية لجعفر البيتي بعث بها لمحمد

(١) - النقا: مكان في المدينة يقع غرب وادي بطحان، يفصله الوادي عن

المصلى. وفاء الوفاء ٤/١٣٢٢.

(٢) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ١٥.

(٣) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٤) - حلية الشر ٢/١١٢٣، والجهام: السحاب الذي لاماء فيه. لسان العرب

(جهم).

المغربي^(١)، حيث استهلها بالدعوة إلى معاقرة الخمر ثم انتقل إلى الغزل ليختم القصيدة بمدح المغربي والدعوة له. يقول في المقدمة:

فحيّ على الصبوح وعم صباحا	حمامك في الحمى يا صاح صباحا
سئمت وحقك الماء القراحا	عهودي بالطلا طالت وإني
ومن أقداحنا أجل القداحا	تقدم للشمول ولم شملي
وأهمل عاذلي إن كان لاحا	تأمل في خيوط الفجر لاحت
إذا طلعت عليه الشمس ساحا	وعاجلنا فياقوت الحميا
فأنبت بالمسرة لي جناحا ^(٢)	وقد حصت أيادي الحزن ريشي
ورجّع لي صلاتك والفلاحا	متى ما يركع الإبريق فاسجد
وراوحني فإن الروح راحا	ارح روحي براحك يا نديمي
لأجل السكر بالقدح اقتداحا ^(٣)	وليل الصحو أظلم فاقتدح لي

وكذلك مقدمة عمر الداغستاني الخمرية لقصيدة غزلية حيث يطلب

أن يدار عليه بالخمر، ثم يسترسل بعد ذلك في وصفها، يقول:

أعيدوا الوصلَ والأنسَ المُداما	واحسوني المروِّقَ والمُداما
أديروا لي العقارَ فإن قلبي	على رشف العقار مُلي هياما

(١) - لم أقف على ترجمة له.

(٢) - الحصّ: حلق الشعر. لسان العرب (حصص)

(٣) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٣٥.

سلافة بنت كرم قد تغالت بقيمتها لذا تهوى الكراما
 تذب قذى الهموم بحسن دب وتترك ذا الصغار بها هماما
 هي الشمس المنيرة في سماء من البلور قد تجلو الظلاما
 بوجه نظارها يطفو حباب يريك لآلئاً فاقت نظاما
 يطيف كؤوسها رشاً أغن خفيف الروح تعطفها النعاما^(١)

وبعد هذه المقدمة الخمرية - التي لا تعدو كونها عمل فني صرف حيث أنه لا صلة بين هؤلاء العلماء والأدباء وبين الخمر - ينتقل الشاعر إلى الغزل.

ومن المقدمة تخلص الشعراء إلى الغرض الذي نظمت من أجله والذي غالباً ما يكون المدح، وكما كان التفاوت في مستوى المقدمات الغزلية، كذلك كان التفاوت في مستوى التخلص، حيث نجد التخلصات الجميلة التي استطاع بها أصحابها الخروج من المقدمة والولوج إلى الغرض الأصلي من القصيدة بطريقة تربط بين أجزاء القصيدة وتساعد على التحامها، بينما نجد هناك شعراء أخفقوا في هذا التخلص بعد أن حاولوه فأتى نشازاً لا يلتئم مع لحمة القصيدة.

من التخلص الجميل تخلص جعفر البيتي في قصيدة يمدح بها علي سيف، حيث انتقل من مخاطبة محبوبته التي أقسم أن قوامها المياد هو الذي دل الغصون على التمايل وذلك كفعل الممدوح الذي دلّ كيف

(١) - تحفة الدهر ٤٦

كانت الكرام تعطي وتنيل. يقول:

قسماً ما انثنى قوامك إلا ليدل الغصون كيف تميل

كعليّ لما أنال وأعطى دل كيف الكرام كانت تنيل^(١)

وكذلك تخلص الداغستاني في مدحه لزين العابدين بن محمد بن زين العابدين^(٢) حيث يقول بعد المقدمة الغزلية:

فظللت أحسو خندريس وصاله حتى أضاء الصبح حين تنفس

كضياء مولانا أخي الفخر الذي بمطارف المجد المؤثل مكتسي^(٣)

وقد تكلف زين العابدين ممدوح الداغستاني السابق في تخلصه لمدح الداغستاني مجيباً على قصيدته السابقة، حيث قال:

لله زائر طيفها من زائر وافى يدير لي السلاف فأحتسي

وأبوح من سكري لسر قد سري في سر سري للسري الأكيس

شمس المعارف بدر كل فضيلة رب النهى الفهامة المتفرس^(٤)

فالشاعر لم ييح بسره لهذا الصديق إلا بعد أن تمكنت منه المدام وفقد

صوابه.

(١) - ديوان البيتي حكمت ص ٢٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٣) - حلية البشر ٢: ٦٤٥

(٤) - حلية البشر ٢: ٦٤٥

أطال بعض الشعراء في المقدمة الغزلية، فقد قدم الداغستاني
لقصيدته الإخوانية في مدح يحيى صحرة بمقدمة غزلية بلغت ثلاثة
وعشرين بيتاً، وهي القصيدة الرائية التي مطلعها:

صنم من الكافور وشح عنبرا وحوى بصحن الخد مسكاً أذفراً^(١)
وكذلك قدم البيهقي لقصيدته الرائية في مدح إسماعيل أفندي^(٢) بمقدمة
غزلية تقع في ثمانية عشر بيتاً، وهي التي مطلعها:

حيي بكأسك لي مع نسمة السحر وسلسلي الراح من نحري إلى سحري^(٣)
وقد استغرقت المقدمة الغزلية نصف قصيدة لخير الدين الياس^(٤) في
مدح حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، حيث بلغت هذه المقدمة ثمانية
عشر بيتاً، وهي القصيدة التي مطلعها:

بدر أفق يفوق شمس ضحاء قد تبدى بليلة ضحياء^(٥)

ولعل حرص بعض الشعراء على إطالة هذه المقدمة نابع من رغبتهم
في إطالة القصيدة ككل، حيث يرون أن الشاعر عندما ينظم قصيدة

(١) - تحفة الدهر ٤٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٦

(٣) - ديوان البيهقي نسخة عارف حكمت ٢

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٠٨

(٥) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٨، وليلة ضحياء: مضيئة لاغيم فيها، وقيل: مقمرة،

لسان العرب (ضحاً).

طويلة يبرهن على طول باعه في قول الشعر، وامتلاكه للموهبة الشعرية التي يتفوق بها على غيره من الشعراء كما وكيفاً، ولعل من أسباب إطالة هذه المقدمة أنها تقع في أول القصيدة حيث يكون الشاعر في أوج حماسه ونشاطه الشعري ولم يستفرغ جهده بعد، إضافةً إلى أن موضوعها وهو الغزل والنسيب موضوع محبب إلى نفس الشاعر، وهو غرض مطروق يحوي قدرًا كبيراً من شعر الشعراء واهتمامهم.

وقد تفاوتت هذه المقدمات الغزلية من حيث جودتها، فبينما نجد بعضاً منها قد استفرغ الشاعر فيها كل جهده وأظهر شاعريته وأصالته، نجد قسماً منها غلب عليه التكلف، حيث أراد بها أصحابها ملء فراغ يرون في ملئه تقليداً يصعب تجاوزه.

ولعل من أجمل المقدمات الغزلية مقدمة قصيدة لجعفر البيتي يجيب فيها على شخص يتقاضاه في دين على والده، حيث يقول:

يا زمان الهوى وعهد التصابي إنما أنت من شجون الشباب
ووقوع المشيب في الرأس واش في خلال الحباب والأحباب
فسقى الجزع^(٢) والكثيب^(٣) وبان المند حنى والعقيق^(١) ساري السحب

(١) - العقيق : واد مشهور معروف بالمدينة. وفاء الوفاء ٣/١٠٣٧

(٢) - الجزع: منعطف الوادي، وقد أضيفت إلى عدة مواضع في المدينة، مثل:

جزع السيح، جزع بطحان.

(٣) - موضع له ذكر بالغزل بأماكن المدينة، ولم أتمكن من تحديده.

ورعى الله معهداً راجعتنا
 ودواعي الوصال وافرة الأسـ
 من لطاف الخصور فلج الثنايا
 غانيات الجمال كاملة الأو
 جذاهن من مها وغصون
 بين بان النقا^(١) وما ضمن البـ
 لا خلا سربها وحياه منا
 صيب الدمع دائم التسكاب^(٢)
 ولعمر الداغستاني قصيدة أجاب بها على عابد السندي^(٣) تقع في
 سبعين بيتاً استهلها بوصف الطبيعة ثم انتقل بعدها إلى الغزل الذي
 استغرق جل القصيدة التي أنهاها بمدح السندي بعشرة أبيات فقط من
 هذه القصيدة الطويلة التي مطلعها :

جاد غيث السما لنا وتبسم
 عن سنا بارق له غير جهم^(٤)
 أما المقدمة الخمرية فمثالها قصيدة حائية لجعفر البيتي بعث بها لمحمد

(١) - النقا: مكان في المدينة يقع غرب وادي بطحان، يفصله الوادي عن

المصلى. وفاء الوفاء ٤/١٣٢٢.

(٢) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ١٥.

(٣) - سبقت ترجمته ص ٢٩٤

(٤) - حلية الشر ٢/١١٢٣، والجهام: السحاب الذي لاماء فيه. لسان العرب

(جهم).

المغربي^(١)، حيث استهلها بالدعوة إلى معاقرة الخمر ثم انتقل إلى الغزل ليختتم القصيدة بمدح المغربي والدعوة له. يقول في المقدمة:

فحيّ على الصبوح وعم صباحا	حمامك في الحمى يا صاح صباحا
سئمت وحقك الماء القراحا	عهودي بالطلا طالت وإني
ومن أقداحنا أجل القداحا	تقدم للشمول ولم شملي
وأهمل عاذلي إن كان لاحا	تأمل في خيوط الفجر لاحت
إذا طلعت عليه الشمس ساحا	وعاجلنا فياقوت الحميا
فأنبت بالمسرة لي جناحا	وقد حصت ^(٢) أيادي الحزن ريشي
ورجّع لي صلاتك والفلاحا	متى ما يركع الإبريق فاسجد
وراوحني فإن الروح راحا	ارح روحي براحك يا نديمي
لأجل السكر بالقدح اقتداحا ^(٣)	وليل الصحو أظلم فاقتدح لي

وكذلك مقدمة عمر الداغستاني الخمرية لقصيدة غزلية حيث يطلب أن يدار عليه بالخمر، ثم يسترسل بعد ذلك في وصفها، يقول:

وأعيدوا الوصل والأنس المداما	واحسوني المروّق والمداما
أديروا لي العقار فإن قلبي	على رشف العقار ملي هياما

(١) - لم أقف على ترجمة له.

(٢) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٣٥.

(٣) - الحصّ: حلق الشعر. لسان العرب (حصص).

سلافة بنت كرم قد تغالت بقيمتها لذا تهوى الكراما
 تذب قذى الهموم بحسن دب وتترك ذا الصغار بها هماما
 هي الشمس المنيرة في سماء من البلور قد تجلو الظلاما
 بوجه نظارها يطفو حباب يريك لآلئاً فاقت نظاما
 يطيف كؤوسها رشاً أغن خفيف الروح تعطفها النعاما^(١)

وبعد هذه المقدمة الخمرية - التي لاتعدو كونها عمل فني صرف حيث أنه لاصلة بين هؤلاء العلماء والأدباء وبين الخمر - ينتقل الشاعر إلى الغزل.

ومن المقدمة تخلص الشعراء إلى الغرض الذي نظمت من أجله والذي غالباً ما يكون المدح، وكما كان التفاوت في مستوى المقدمات الغزلية، كذلك كان التفاوت في مستوى التخلص، حيث نجد التخلصات الجميلة التي استطاع بها أصحابها الخروج من المقدمة والولوج إلى الغرض الأصلي من القصيدة بطريقة تربط بين أجزاء القصيدة وتساعد على التحامها، بينما نجد هناك شعراء أخفقوا في هذا التخلص بعد أن حاولوه فأتى نشازاً لا يلتئم مع لحمة القصيدة.

من التخلص الجميل تخلص جعفر البيتي في قصيدة يمدح بها علي سيف، حيث انتقل من مخاطبة محبوبته التي أقسم أن قوامها المياد هو الذي دل الغصون على التمايل وذلك كفعل الممدوح الذي دل كيف

(١) - تحفة الدهر ٤٦

كانت الكرام تعطي وتنيل. يقول:

قسماً ما انثنى قوامك إلا ليدل الغصون كيف تميل
كعليّ لما أنال وأعطى دل كيف الكرام كانت تنيل^(١)

وكذلك تخلص الداغستاني في مدحه لزين العابدين بن محمد بن زين
العابدين^(٢) حيث يقول بعد المقدمة الغزلية:

فظللت أحسو خندريس وصاله حتى أضاء الصبح حين تنفس
كضياء مولانا أخي الفخر الذي بمطارف المجد المؤثل مكتسي^(٣)
وقد تكلف زين العابدين ممدوح الداغستاني السابق في تخلصه لمدح
الداغستاني مجيئاً على قصيدته السابقة، حيث قال:

لله زائر طيفها من زائر وافى يدير لي السلاف فأحتسى
وأبوح من سكرى لسر قد سرى في سر سرى للسري الأكيس
شمس المعارف بدر كل فضيلة رب النهى الفهامة المتفرس^(٤)
فالشاعر لم يبح بسرّه لهذا الصديق إلا بعد أن تمكنت منه المدام وفقد

صوابه.

(١) - ديوان البيهتي حكمت ص ٢٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٣) - حلية البشر ٢: ٦٤٥

(٤) - حلية البشر ٢: ٦٤٥

٢- الصورة :

إذا كان لكل فن واسطة فإن واسطة الشعر هي الصورة التي تشكل من علاقات داخلية مترتبة على نسق خاص أو أسلوب متميز، فالصورة وسيلة الشاعر في محاولته إخراج ما بقلبه وعقله وإصاله إلى غيره.^(١) ولفظة (صورة) من الألفاظ التي يجب على الدارس أن يستخدمها بحذر وفتنة خاصين، فهي لفظة غامضة وغير دقيقة معاً، غامضة لأنها يمكن أن تفهم بمعنى عام غائم وواسع جداً وبمعنى أسلوبى صرف، وغير دقيقة لأن استخدامها حتى في المجال المحدد للبلاغة مائج للغاية وتعريفه بالغ السوء.^(٢)

ولمصطلح الصورة مفاهيم مختلفة لدى أفرع المعرفة في عصرنا الحديث، فمفهومه في علم النفس غير مفهومه في الفلسفة، ومفهومه في الفلسفة غير مفهومه في النقد الأدبي أو الشعر، بل إن مفهومه في الشعر ليس واحداً دائماً وإنما هو في تحوير وتبديل مستمرين حتى أن كل مدرسة فنية تعطيه المفهوم الذي يتفق وفلسفتها العامة^(٣)، والمسألة التي تكاد تكون موضع إجماع في الدراسات النقدية الحديثة هي أن الصور

(١) - انظر الصورة الفنية في النقد الشعري للدكتور عبدالقادر الرباعي ص ٨٥

(٢) - انظر الصور الأدبية فرانسوا مورو ص ١٩

(٣) - انظر الصورة الفنية للدكتور عبدالقادر الرباعي ص ٨٥

بالمفهوم الفني لها تعني: أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة

أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن. (١)

فالصورة ليست بالضرورة استبدالاً لشيء بشيء آخر أو مقارنة بين شيئين، فقد تكون كلمة واقعية تثير استجابة الإحساس (٢)، ولا تعتمد على شكل من أشكال المجاز، وتحقق مع ذلك شرط الاستحضار الحسي البارز لثراء تفاصيلها ودقة تركيبها، فلا يكون ثمة تشبيه أو استعارة بل يعتمد الشاعر على تجربة واقعة ويصفها بدقة. (٣)

وعند التركيز على مشكلة الصورة الأدبية نجد أنه لا يمكن أن يكون ثمة حد يفصل بين المجاز (٤) والصورة، إذ أن الموضوع واحد في كلتا الحالتين، والاختلاف الوحيد بينهما يكمن في زاوية الرصد والمصطلح

(١) - انظر الصورة الشعرية لساسين عساف ص ٣٢.

(٢) - انظر الصورة الأدبية فرانسوا مورو ص ٢٠.

(٣) - انظر علم الأسلوب لصلاح فضل ص ٣٦٢.

(٤) - يقصد بالمجاز هنا المجاز المقابل للحقيقة والذي ذكر علماء البلاغة أنه أعم من التشبيه والاستعارة، وهو كما عرفه الجرجاني في أسرار البلاغة (كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعا، لملاحظة بين ما تُجوز إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها). انظر أسرار البلاغة ص ٢٩، ٣٥٢، وانظر الصورة الشعرية لساسين عساف ص ٣٢ وما بعدها.

فحسب، فعندما نتعرض لإشكالية الصورة لكي نميز بين دلالاتها المتعددة يصعب هذا التميز الدقيق في بعض الأحيان لكنه بالغ الأهمية والضرورة.

ومع أن كثيراً من النقاد يعترفون بأن النسبة العظمى من الصور مجازية إلا أنهم يحسبون أيضاً أن كثيراً من أشكال المجاز والاستعارة لاتعد صوراً لتأكلها وضعفها عن أن تثير الخيال وتجسد فيه شيئاً متعيناً، ومن هنا ينبغي إقامة معايير واضحة للتمييز بين الصور المتحققة والمجازات التي لاتقوى على تحقيق الصورة، فمثلاً لايمكن أن يعتبر التشبيه صورة إلا إذا عبر عن خواص محددة محسوسة تؤدي إلى تعديل رؤية الأشياء.^(١)

وقد أعطي المزيد من الأهمية دائماً للصفات الحسية للصور، والذي يجعل الصورة ذات فاعلية ليس وضوحها كصورة بقدر صفتها كحادث ذهني له ارتباط خاص بالإحساس.^(٢)

والصورة لا بد لها من الطزاجة والجدة، لأن القوة التعبيرية تضعف وتتلاشى في معظم الأحيان بالتكرار، مما يضطر الكاتب الأصيل لبث حياة جديدة فيها، ويجعلنا نجتهد في تتبع خواصها الأسلوبية لاكتشاف طبيعة الإجراء الذي استخدمه لذلك.^(٣)

(١) - انظر علم الأسلوب د.صلاح فضل ص ٣٦٠.

(٢) - انظر نظرية الأدب لويلك ووارن تعريب عادل سلامة ص ٢٥٥.

(٣) - انظر علم الأسلوب د.صلاح فضل ص ٣٦٣، وفي النقد الأدبي د.شوقي

وموضوع الصورة في شعر البحث لا يخلو من التركيز بموضوع السرقات الشعرية، وهي باب لانستطيع أن ندعي سلامة شعراء البحث منه، وهو محتاج إلى شيء من الموازنة لاعتماده على مقولات القدم والزيادة والغزارة والمتانة وسواها، ولأن معظم السرقات الشعرية كانت من كنوز الصور الفنية، والصورة تدخل أيضاً في باب المعاني، والمعاني مبدولة للكافة والشاعر (إن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمة قلائد وسموطاً).^(١)

والجاحظ يرى أن المعاني مطروحة في الطريق^(٢) وللشاعر أن ينتقي ما يناسبه، لأن الشعر صناعة، وربما تعكس هذه الرؤية شيئاً من التساهل في سرق المعاني لأن سراق الشعر يضعون وكدهم في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة.

وقد يغفر النقاد للسارق إذا أحسن التصرف بما سرق (وركب عليه معنى، ووُصل به لطيفة، ودُخل إليه من باب الكناية والتعريض، والرمز والتلويح، فقد صار بما غُيّر من طريقته، واستؤنف من صورته، واستجدّ له من المعرض، وكسي من دل التعرض، داخلاً في قبيل

ضيف ص ١٧٣

(١) - الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٢٨

(٢) - الحيوان ٣/١٣١

الخاص الذي يُتملك بالفكرة والتعمل^(١)

وإذا استعرضنا شعر هذا القرن باحثين عن الصورة سواء البلاغية أو الواقعية وجدنا أن جلّ هذه الصور مستهلكة، فهي مما يجتره الشاعر من التراث، والتي أصبحت لتكرارها لا تثير فينا ما تثيره تلك الصور البكر الصادقة الموحية التي تنبع من أصالة الشاعر، فيبدع في إخراجها بقدرته على التعبير الدقيق عن تجربته الصادقة.

من الصور الواقعية التي لم يعتمد الشاعر في إبرازها على المجاز، بل اعتمد على تصوير واقع محسوس، حيث يرسم الشاعر مشاهد وأشياء شاخصة، يجد في ذكرها واستحضارها تنفيساً لأحاسيسه وانفعالاته التي أثارها في نفسه غيابها المكاني عن هذه الرموز التي تخرج عن كونها مشاهد صامتة جامدة.

هنا الشاعر علي البرزنجي من قصيدة له في التشوق إلى المدينة يقول:

ما حيلتي أهل الهوى	مالي سوى دمعي مساعد
فعسى بقرة أعيني	أحظى وحضرتة أشاهد
وأقول من شبحي فؤا	د شاكر لله حامد
هذا النقا هذا الشظا	هذا المصلى والمساجد
ذي القبة الخضراء فان	ظر كيف منها النور صاعد

(١) - أسرار البلاغة ص ٣٤٠.

هذا البقيع وذو القبا ب وذو المآثر والمعاهد
هذي القبور على الربا كالزهر في روض الفدافد
هذي منازل من أحبُّ ومن بودهم أناشد^(١)

فالصورة في الأبيات واضحة ومثيرة تصف لنا الواقع ولم يتخللها إلا شيء بسيط من المجاز وهو تشبيه القبور على الربا بالزهور في الرياض. وكذلك نجد أحمد الجامي^(٢) في قصيدة له في التشوق إلى المدينة يتلهف على كل جزء فيها ليرسم بذلك صورة جميلة، وذلك في قوله :

لهفي على نسمة من جزع عالية وظل ذاك الظليل البارد الشبم
لهفي على علة أظفي بها لهبي من عين زرقائكم في الدورق الحرمي
مع ما حوته النخيل الباسقات وما من النعيم بذاك الجمع والنعيم
لهفي على الروضة الفيحا ومنبرها ووقفة بمصلى سيد الأمم
لهفي على تلکم الأشجار قاطبة وما حوته من الأوصاف والشيم
لهفي عليكم وناديكم وتربكم وحادي الظعن والألحان والنعيم^(٣)

(١) - تحفة الدهر ٧

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٣) - حلية البشر ١ : ٢٨٨

ويتحدث جعفر البيتي في قصيدته في وصف الحرم في فتنة ١١٥٥هـ^(١) عن الحالة وقد أصبح الحرم من كثرة آلات الحرب به كأنه مخزن للسلاح، ثم يصور بعد ذلك وفي بيت واحد ما آل إليه الحال حيث تعطلت الصلاة بالحرم وحل مكان الأذان والصلاة صوت البنادق التي ترمي هنا وهناك في نواحي المسجد، يقول:

وأصبح الحرم العالي وروضته كالجبخانة^(٢) بالبارود يحشيتها

لاجمعة لاصلاة لا أذان بها إلا البنادق ترمي في نواحيها^(٣)

فقد استطاع في بيت واحد أن يعطينا صورة واقعية لنتائج هذه المأساة.

أما التصوير الذي يقوم على الاستعمال المجازي والذي يشكل غالبية الصور الشعرية سواءً في هذا القرن أو في ما حوله فمثاله وصف عمر الداغستاني - في مطلع قصيدة له - لمظاهر الطبيعة حيث هطول المطر الذي يكون مع تلبد السماء بالغيوم واحتجاب الشمس وصوت الرعد ووميض البرق ثم ينتقل لوصف الروض والأشجار المزهرة التي اخضرت وأينعت كنتيجة طبيعية لهذا الغيث العميم، وهو بذلك يصور مشهداً رائعاً، فالترابط بين هذه المظاهر الطبيعية واستخدام الشاعر

(١) - انظر ص ٢٤

(٢) - كلمة تركية تطلق على مخزن آلات الحرب.

(٣) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ٧٢.

للمجاز انتج لنا صورة مؤثرة تفيض بالحركة والوضوح.

يقول الشاعر:

جاد غيم السماء لنا وتبسم عن سنا بارق له غير جهّم
وغدا في الهواء يسحب بردا بطراز البروق أصبح معلم
واختفت تحت ذيله الشمس حتى أصبحت لاترى كمثل المثلّم
فتراه يجري ولرعد سوق خلفه كالحادي إذا ما ترنم
فكان السماء غارت فغطت وجهها حينما الربا قد تبسم
فانظر الروض في حلاه تحلى لابسا سندساً عليه منمنم
وكأن الأغصان يا صاح أعطى ف عليها خدود الأزهار تلثم
ذاك قد لاح أحمرًا وترى ذا أصفرا فاقعاً وأخضر أدهم^(١)

وكذلك يتحدث جعفر البيتي عن الربيع فيصف شقائق النعمان التي
تزينت فتمايلت كأنها تعقل ما تفعل، ثم يصف سقوط زخات المطر
على الحدائق ويشبها بعقد اللؤلؤ المنفرط، ثم يضيف على هذا المنظر
المرئي عنصر الصوت حيث يصف هديل الحمام الذي قام وكأنه
الخطيب الذي تبايعه غصون البان، وبذلك تكتمل الصورة بجوانبها
البصرية والسمعية والذهنية.

(١) - حلية البشر ٢: ١١٢٣

يقول:

زار الربيع شقائق النعمان وتزينت بغرائب الألوان
 أهدي لها خلع الحيا فتمايلت بين الرياض على قضوب البان
 نثر الغمام على الحدائق لؤلؤاً فصل النظام عقودها بجمان
 خطب الحمام فبايعته نيابةً أيدي غصون البان عن رضوان^(١)

أما الصور الغزلية فأغلبها مكرر مستهلك لا يثير فينا تلك
 الاستجابة، لأن هذا التكرار قد أجبى ضوءها وأفقدنا بريقها، فالشاعر
 الذي يشتكي من السهر ومراعاة النجوم، أو الذي يصور صدور
 محبوبته أو يصور لقاءه معها أو يصف محاسنها، بأسلوب قد سبقه إليه
 الشعراء منذ العصر الجاهلي، يجب أن لا ينتظر هذا الشاعر أن تؤثر فينا
 هذه الصورة أو نستجيب لها.

فمثلاً عندنا نقراً قول زين العابدين بن محمد بن زين العابدين:

وسارت على أقدامها تزدري القنا وتنجل بدر التم في ليلة القدر
 لانجد فيه ما يثير استجابتنا حيث تكرر هذا الوصف على امتداد تاريخنا
 الأدبي إضافةً إلى خطأ الشاعر في المعنى في عجز البيت حيث أن ليلة
 القدر في الثلث الأخير من الشهر وعلى الأرجح في لية السابع
 والعشرين منه وعندها يكون القمر محاقاً أو في أواخر مراحلها، والتي

(١) - تحفة الدهر ٧

لايجوز لنا أن نسميه بدرأً.

ولكننا مع ذلك نجد بعض الصور التي تحمل طابع الجدة والطرزاجه
وذلك مثل وصف عمر الدغستاني للقائه بمحبوبته حيث أضى عليهما
الليل ظلامه وحرسهم بنجومه، يقول:

لله ليلة جمعنا في السفح إذ نلنا المرام وبغية المتلمس
مع ذلك النفار عن وصل وقد أضحي يطارحنا بلفظ مؤنس
والليل قد ألقى سجوف ظلامه ونجومه ترنو كأعين حرس
فظللت أحسو خندريس^(٢) وصاله حتى أضاء الصبح حين تنفس^(١)

ومن الصور ما يعبر به الشاعر عن معاناته العاطفية وذلك مثل
وصف حسن بن عبدالكريم البرزنجي^(٣) لحالته حيث الأرق والشوق
والحنين إلى المدينة، والمستقبل المجهول وذلك أثناء اختفائه بمصر بعد
هروبه من المدينة في فتنة ١١٣٤ هـ.^(٤)

يقول:

أسامر ليلي في المهاد تلملا وأقطع يومي والغرام مطارحي

(١) - تحفة الدهر ١١

(٢) - الخندريس: الخمر القديمة . لسان العرب (خندرس)

(٣) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٤) - انظر ص ٣٢

ويظهر برح الوجد مني في الدجى لأسرار شوق لاتيين لشارح
 فيرسمها جفني ودمعي مداده كما طرسه خدي فوجدي فاضحي
 ويقدح زند الشوق نار صبابتي عذيري من قدح بقلبي وقادح
 كأن عيون النجم تومي لمقلتي بمغمز سر موجب السهد واضح
 كأن ديباً في دقيق مفاصلي يفوق سموماً من صلول^(١) البطائح^(٢)

فالشاعر في هذه الأبيات يصور مدى إحباطه وحالته النفسية وانعكاسها على حالته الجسدية حتى أصبح يحس بالسقم يدب في جسمه حتى فاق سم الأفاعي الخطرة، وكأنه يريد أن يلمح أن تردّي حالته كان بسبب الوشاة الذين يحملهم سبب نقمة السلطة عليه حيث ضاقت عليه الأرض بما رحبت فأصبح طريداً شريداً.

وعلى كل حال فالحكم على صورة من الصور وخاصة الصور البلاغية منها بالجدّة يتوقف على الإمام بجميع الصور الشعرية في التراث الشعري، ولاشك أنه يستحيل أن يحيط أحد بجميع هذه الصور، وعليه فحكمنا مبني على حسب اطلاعنا، والذي أرجو أن يكون قد أتى على السداد أو قاربه بإذن الله.

(١) - صلول جمع صِلّ وهي الحية. لسان العرب (صلل).

(٢) - نفثة مصدر ٤٣.

٣- المحسنات البديعية :

بالرغم من أن الاهتمام بالمحسنات البديعية يعد سمة العصر، حيث بذل الشعراء جهدهم لحشد أكبر قدر منه في شعرهم، مما جعله من أكبر ما أخذ على شعر هذه الحقبة، لأن المغالاة في هذه المحسنات أدى إلى البعد عن الشعر الصادق الذي ابتعد عن وصف العواطف والمشاعر والانفعالات والتعبير عنها، فالشاعر أصبح يجهد نفسه في البحث عن لفظة أو عبارة تحقق له محسناً بديعياً أو زخرفاً لفظياً، وذلك على حساب النواحي الأخرى.

وهذه الظاهرة وإن خرجت في بعض الأحيان عن طبيعة الشعر الذي هو تصوير وتأثير بما في النفس فإن شعراء ذلك العصر يرون اهتمامهم به دلالة على الشاعرية والإجادة، ومع هذا فبعض هذا الشعر لاغبار عليه رغم حفاوته بهذه المحسنات.

ولقد كان نصيب شعراء المدينة في هذه الحقبة أقل من غيرهم من شعراء المناطق الأخرى من المحسنات البديعية، بالرغم أنه لم يسلم من هذه المسحة، ولعل ذلك يرجع إلى كثرة الشعراء من العلماء الذين لم يحفلوا كثيراً بزخرفة شعرهم وتنميته، أو يرجع إلى أن بعض الشعراء حاول أن يحاكي بعض الشعراء المتقدمين والذين استخدموا هذه المحسنات باعتدال في شعرهم، كما أن بعض شعراء المدينة - كما

أسلفنا- كان يعيب على الناس احتفالهم بالشعر المبهرج.^(١)
 وفيما يلي نستعرض أظهر أنواع المحسنات البديعية (المعنوية واللفظية)
 في الشعر في هذا القرن، والتي كانت تختلف من حيث الكثرة من نوع
 إلى نوع ومن شاعر إلى آخر.

أولاً : المحسنات المعنوية:

١- الطباق:

وهو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة.^(٢)
 من ذلك قول أحمد البساطي^(٣):

يا زائري المشتاق ما أحلاكم	بين الحسان وما أمر جفاكم
من بعد ما هنيتموني مدّة	وأذقتموني بعدكم وقلاكم ^(٤)
حيث جمع بين (أحلى وأمر).	
وكذلك قول عبدالقادر كدك ^(٥) :	
وجبينه كالصبح أسفر سافراً	والشعر من ليل المتيم أحلك ^(٦)

(١) - انظر ص ٣٨٩ من هذا البحث.

(٢) - بغية الإيضاح ٤/٤

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٤) - تحفة الدهر ٦٢

(٥) - سبقت ترجمته ص ١٨٧

(٦) - تحفة الدهر ٧٣

حيث جمع بين (الصبح والليل) وكذلك قوله:

جور الأحبة عدل وإن هم وصلوا لكن عدلهم جور وإذا رفضوا^(١)
حيث جمع بين (الجور والعدل) و (الوصل والرفض) وكذلك قول
عبدالكريم الخليلي^(٢) راثياً:

إن خطب الزمان أرخى ستوره وأرانا بعد السرور شروره^(٣)
حيث جمع بين (السرور والشرور)

٢- التورية:

وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما^(٤).
مثاله قول البيتي:

تأمل في خيوط الفجر لاحت وأهمل عاذلي إن كان لاحاً^(٥)
فكلمة (لاحاً) معناها القريب (لاح) أي ظهر والبعيد وهو المقصود من
(الملاحاة) بمعنى النزاع والخصومة.
وكذلك قوله:

بقيت في الدن يا صا ح عقيب الشرب فضله^(١)

(١) - المرجع السابق ٧٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٥٨

(٣) - الحقيقة والمجاز ص ٣٥٨

(٤) - بغية الإيضاح ٢٩/٤

(٥) - ديوان البيتي، نسخة آل هاشم ٥٣.

فكلمة (صاح) لها معنى قريب وهو المنادى المرخم من كلمة (صاحب)، ولها معنى بعيد وهو الصحو ضد السكر وهو المراد. وكذلك للبيتي في وصف بستان لشخص اسمه حمّاد، يقول:
حفظته أيدي الشكر من أيدي البلا مازال وهو لرّبّه حمّاد^(٢)
فالمعنى القريب لكلمة (حمّاد) من الحمد، ولكن المراد هو اسم الشخص.

٣- التوجيه:

وهو أن يؤلف المتكلم مفردات بعض كلامه أو جملة، ويوجهها إلى أسماء متلائمة مع أسماء الأعلام، أو قواعد العلوم أو غيرها، توجيهها مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقي، بخلاف التورية.^(٣)
ممن افتتن بهذا الفن من شعراء هذا القرن جعفر البيتي حيث نجده في أغلب شعره - وخاصة المدائح - يوجه بأسماء الأشخاص والكتب والمصطلحات النحوية، والعروضية، ولعل ذلك محاولة لإظهار ثقافته واطلاعه الواسع.

من ذلك توجيهه إلى مصطلحات عروضية في قصيدة يمدح بها محمد بن

(١) - المرجع السابق ٧١

(٢) - المرجع السابق ٢١٧

(٣) - أنوار الربيع ١٤٣/٣، نفحات الأسحار ص ٩١.

إبراهيم الكوراني^(١)، منها:

أنت يا كامل الخلال مديد الأيد
فتفقد مواتنا بولسي
إن كيسي من البحور خفيف
وزحافي عن بال سيدنا الشيد
لاتكفوا طويل رجواي فيكم
وفي قصيدة يمدح بها عبدالله أسعد^(٣) يوجه بأسماء كتب ومصطلحات
نحوية وبلاغية، منها:

حائز أشتات علم وتقى
فله التسهيل خلق بارع
مبتداه خبر عن عدله
إن صرفنا مفخرا عن نحوه
يالوفق من بديع رائق
ومراعاة نظير هي في
أي أسلوب حكيم قائل
معجزات جمعها في رجل
يقتضي أحياء علم عملي
في قضاياه لحال الأرملة
غلطا كان شبيه البديل
مثلاً وافق أقضاكم علي
خاطر الدهر له في الأزل
فيه بالموجب وفق الأمل^(٤)

(١) - سبقت ترجمته ص ٢١٣

(٢) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ١١.

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٢

(٤) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ١٢

ويوجه الملا علي الشرواني^(١) في مدحه لأحمد المغربي^(٢) بأسماء بعض الكتب المشهورة، فيقول:

مطالع أسرار البلاغة لفظه معانيه كنز بالدقائق ممتلي
دلائل إعجاز الفصاحة كلها تراءت على المنثور من دره الجلي
بدائع للتقرير مفتاح درسه وتحريره الكشاف عن كل مشكل^(٣)

٤ - الاكتفاء :

وهو أن يأتي المتكلم ببيت من الشعر أو فقرة من النثر، وآخر ذلك متعلق بمحذوف لم يحتج لذكره لدلالة باقي الكلام عليه.^(٤) وقد تحدث عنه عمر الداغستاني في كتابه (تحفة الدهر) وذكر أنه (نوع من أنواع البديع، وأحسنه أن تستغني بشئ من الكلمة مع حصول معنى التورية فيها)^(٥)

وقد أورد الداغستاني نماذج لهذا النوع من شعره ومن شعر غيره، منها

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢٤

(٢) - لم أعثر له على ترجمة

(٣) - تحفة الدهر ٥٠

(٤) - نفحات الأسحار ص ٨١، أنوار الربيع ٧١/٣.

(٥) - تحفة الدهر ٥٧، وللتوسع انظر كتاب (الشفاء في بديع الاكتفاء) لمحمد

قوله:

أيا ليلة قد كنت فيها مداعبا غزالاً لنا مازال بالوصل مسعدا
فأنعم بها من ليلة في ظلامها قطعنا حشا العذال بالأنس والمدى^(١)
فكلمة (المدى) في آخر البيت الثاني اكتفى بها الشاعر من كلمة
(المداعبة) التي تعطي المعنى الكامل، و(المدى) جمع (مدية) وتؤدي معنى
مختلفاً ولكنها تناسب القافية.

وكذلك نجد الاكتفاء في قول الداغستاني:

يا من شرى قلبي بنقد جماله ثم اثنى كالشادن السنفر
تشري محبك ثم تشرد معرضاً فافرق بعبدك في الهوى يا شاري
حيث اكتفى بكلمة (شاري) في آخر البيت بمعنى (مشتري) من كلمة
(شارد) بمعنى (هارب).

وقد كان الاكتفاء في المثالين السابقين في بيت واحد فقط أما الاكتفاء
في البيتين فمثاله قول الداغستاني أيضاً:

قهوة تكسب الفؤاد نشاطاً فادرها مهينماً يا شادٍ
لاتؤخر عن المحب احتساها واسقنيها يا عنبر بالزباد^(٢)
حيث اكتفى بكلمة (شادي) بمعنى : مغني من كلمة (شادن) الذي هو
اسم ولد الظبي، واكتفى بكلمة (الزباد) وهو نوع من الطيب من كلمة

(١) - تحفة الدهر ٥٧.

(٢) - المصدر السابق ٥٧.

(الزبادي) جمع (زبدية) بمعنى الإناء.

ومن الاكتفاء ما يكون بدون حصول معنى التورية وذلك مثل قول
زين العابدين بن محمد زين العابدين^(١) مادحاً الداغستاني:

أكرم به من فاضل متفنن جمع البراعة واليراعة والقسى
شهم يفوق على الغمام نواله ويروق للرئين منظره الوسى^(٢)
حيث اكتفى بكلمة (الوسى) من آخر البيت الثاني من كلمة (الوسيم)
لتناسب القافية.

وكذلك في قول يحيى هاشم:

إذا رمت منها الوصل مالت إلى التقى وليت مع التقوى بأن تفعل الأجر
تولت عذابي دون أتراب تربها على غير جرم اجترمت وما أدري^(٣)
حيث اكتفى بكلمة (أدري) من كلمة (أدراني) وذلك لمراعاة القافية.
وقد أورد الداغستاني في تحفته أبياتاً للشيخ صالح الفلاني أرسلها
للداغستاني معرضاً له بالاقبال على زاد الآخرة وفي كل بيت منها
اكتفاء ، منها:

ياويح مبتاع الضلالة بالهدى فلسوف يندم يوم يؤخذنا بالنواصي

(١) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٢) - تحفة الدهر ١٢

(٣) - مساجلات شعرية جمع جعفر هاشم ص ١٣

ماهمه إلا لقاء كواعب عرب تميز كأنها القضب النوا ضر
 للنقص في الدنيا يسوء وإنما حسناته عند الحساب هي النوا قص
 وقد أجابه الداغستاني بأبيات على شاكلة الأبيات السابقة منها:
 يا فاضلاً حاز العلوم وسيدا أبدى نظاما حسنه راق النوا ظر
 نظماً بليغ اللفظ فيه الاكتفا حقاً لمن يبغي الغرائب والنوا در
 كالروض في نسماته وبهائه منها تفوح لمن يقابلها النوا فح^(١)
 ٥- الاقتباس :

وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث النبوي^(٢).
 مثال ذلك قول بدر الدين الحسيني:

وشاعر أثقلني ياليتيه في الهاوية
 (كلاً لئن لم ينته لنسفعن بالناصية)^(٣)

وقول جعفر البيتي :

حسبي الله في الأمور جميعاً وهو (نعم المولى ونعم النصير)
 وقوله أيضاً:
 وإذا ما رأيت ثمّ من الحج سد مقاماً رأيت ملكاً كبيراً^(٤)

(١) - تحفة الدهر ٥٦

(٢) - بغية الإيضاح ١٣٠/٤

(٣) - تحفة الدهر ٣٥، والآية (سورة العلق ١٥)

(٤) - ديوان البيتي نسخة عارف حكمت ١٠، والآية (سورة الحج (٧٨))

وقول يحيى الجامي متشوقاً إلى المدينة:

وازداد شوقي حيث هبت وانقضى صبري وذبت جوى وضاق المذهب
خوف انقطاعي عنه قطع مهجتي وغدا فؤادي فارغاً يتلهب
كفؤاد أم من أنزلت فيه (فأصـ بح في المدينة خائفاً يترقب)

وكذلك قول أحمد الجامي لما ذهب أهل المدينة إلى الحج:

حجاج طيبة ساروا وخلفوني مقيماً
ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً^(١)

٦- التضمين :

وهو ادراج كلام الغير في أثناء الكلام لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب
النظم^(٢).

من ذلك ما نجده في تضمين للبيتي في قصيدة يمدح بها الشريف مسعود
بن سعيد^(٣)، حيث يضمنها من قصيدة للمتنبى، وهو قوله:

أشكو إليه لظى قلبي وييسم لي (واحر قلباه ممن قلبه شيم)
وقوله:

(١) - نوافح الزهور ٨١ ، والآية سورة النساء (٧٣).

(٢) - بغية الايضاح ١٣٤/٤ ، معترك الأقران ١/٣٩٨.

(٣) - سبقت ترجمته ص ٢٤

لي فيك معرفة القربى أمتّ بها (إن المعارف في أهل النهى ذمم)^(١)
وكذلك للبيتي قصيدة يصف فيها فتنة ١١٥٥هـ^(٢)، ويضمنها من
قصيدة لأبي نواس، وهو قوله:
واهاً لحالي لما قمت أنشدتها (الدار أطبق أخراس على فيها)
(يا دمنة سلبت منها بشاشتها وألبست من ثياب المحل باقيها)^(٣)

ويورد الداغستاني في تحفته بيتين من شعره، وهما:
وعيون ضعيفة في انكسار وفتور الحاظها بابلية
ولها قوة الطبا حين ترنو فاعجبوا من ضعيفة وقوية

فيذكر أنه ضمنهما من قول السرقسطي:
هاتها عسجدية كوثرية بنت كرم رحيقة عطرية
كلما شفها النحول تقوّت (فاعجبوا من ضعيفة وقوية)^(٤)

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٢٨، ديوان المتنبي، شرح العكبري ٣

١٢٢/

(٢) - سبق الحديث عن هذه الفتنة ص ٣٤

(٣) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٧١، ديوان أبي نواس ص ٥٩٨.

(٤) - تحفة الدهر ٣٢.

ثانياً: المحسنات اللفظية:

١- الجناس:

وهو تشابه اللفظين في اللفظ مع اختلاف المعنى، وله أنواع كثيرة.^(١) والجناس من أكثر ما نجده من المحسنات البديعية عند شعراء هذا القرن، حيث نجد جعفر البيتي وهو أشهرهم أشد الشعراء ولوعاً به، فقلما نجد له شعراً يخلوا منه، حتى إنه يحرص على إيرادها في أكثر أبيات بعض قصائده، من ذلك ما نجده في قصيدة له يمدح بها إسماعيل أفندي^(٢) يحرص فيها على الجناس إلى درجة تجعل القصيدة تكتظ به.

منها قوله:

حيي بكأسك لي مع نسمة السحر وسلسلي الراح من نحري إلى سحري
حيي براحك يا روعي على جسدي أفديك بالنفس يا سمعي ويا بصري
ومنها:

خداك والروض أزهار مضاعفة وذو الدراري وذو الكاسات كالدرر
ناهيك من جودة التجنيس بينهما ما أطيب الشرب بين الزهر والزهر
صفي قنانيك حول الكأس راحة وحيعللى وأقيمي الوتر بالوتر
دنياك معشوقة والخمر ريققتها يا ضيعة العمر بين السكر والسكر
عهدي على الجزع أن أجزع لفرقتة فحسن عهدي يريني قبح مصطبري

(١) - معترك الأقران للسيوطي ٣٩٩/١

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣٦

ومنها :

كل يميل إليه ما يناسبه وليس ذاك بموقوف على البشر
 ميلي لأسماء اسماعيل أوجبه منه الجناس وأمر غامض النظر
 فحب سلمى وأسماء زائل عرض والجوهر الفرد اسماعيل وهو حري^(١)
 حيث نجد الجناس بين (السحر وسحري، وراحك وروحي، والدراري
 والدرر، والزهر والزهر، والوتر والوتر، والسكر والسكر، والجزع
 وأجزع، وأسماء واسماعيل) والقصيدة طويلة ويظهر لنا في هذا القدر
 مدى احتفال الشاعر بالجناس، حتى أن الشاعر لا يقتصر على إيراد
 الجناس فقط، بل يصرح به في بيتين هما:

ناهيك من جودة التحنيس بينهما ما أطيب الشرب بين الزهر والزهر
 ميلي لأسماء اسماعيل أوجبه منه الجناس وأمر غامض النظر
 فهو بذلك جناس متكلف أجهد الشاعر نفسه في تصيده والحرص على
 حشده في كثير من أبيات قصيدته.

وكذلك نجد البيتي في قصيدة أخرى في مدح إسماعيل أفندي - أيضاً -
 يحرص على التحنيس ولكنه دون ما في القصيدة السابقة، وهي قصيدة
 طويلة منها:

تدار كوني بالرقى للرقاد تعبت كم أرعى السها بالسهاد

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ٦

من منصفى يا قوم من شادن حل السويدا وثوى في السواد^(١)
وكذلك في قصيدة لخير الدين الياس نجد بيتاً يكتظ بالجناس وهو قوله
يمدح سيدنا حمزة رضي الله عنه:
كيف كُفَّ في الدهر كَفُّ كريم واكف سحب كفه بالعطاء

كما نجد الجناس في قول عمر الداغستاني:
أعيدوا الوصل والأنس المداما واحسوني المروق والمداما
فالمدام الأولى من الدوام والاستمرار ، والمدام الثانية الخمر.
وفي أبيات للشاعر عبدالمحسن مقبيل العلوي^(٢) نجد ما يسمى بجناس
التركيب، ويظهر أن الشاعر نظمها من أجل هذا النوع من الجناس،
حيث يقول:

فينا في الفنا فينا	وتهنا في فيا فينا
فهاث الراح بالأقدا	ح واسكب في الفناجينا
وشنف يا أخوا الأفرا	ح إننا للفناجينا

(١) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ١٠٠.

(٢) - ممن ترجم لهم الداغستاني في تحفته، ولم أعثر له على ترجمة عند غيره، وقد
لقبه الداغستاني بشيخ السادة العلوية، وذكر أن له شعر، ولكنه لم يذكر منه
إلا أبيات قليلة . تحفة الدهر ٣٤

وبعد الشرب أسعفنا وأسعدنا وأبقينا^(١)

ومنه كذلك قول علي أبو العزم^(٢):

ظعنوا أحبائي وقلبي أودعوا حرقاً ألا فابكو لذلك أو دَعُوا^(٣)

٢- رد العجز على الصدر:

وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بها في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثاني^(٤).

من ذلك قول يحيى هاشم^(٥):

خطرت وجادت بالوصال على قدر واستدركت بوصالها حذر الخطر^(٦)
وقول حسين بن عبد الشكور^(٧):

فرضتم لقلبي في هواكم فرائضاً يلذ له في فرضه لكم فرض

(١) - تحفة الدهر ٣٤

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٨٨

(٣) - تحفة الدهر ٤١

(٤) - بغية الايضاح ٨٧/٤

(٥) - سبقت ترجمته ص ٤٩٠

(٦) - مساجلات شعرية ، جمع هاشم ص ١٥

(٧) - سبقت ترجمته ص ٤٢٥

عرضت جميعي أرتجي لي قائلاً
وقوله كذلك:
فما كان إلا أنتم حبذا العرض

قسما بجنبكم قسامه
وقول عبدالقادر كدك^(٢):
إن الهوى يأبى انقسامه^(١)

قضيت وما قضيت ممن أحبهم
مرادي ولا عد التواصل بالمقضي^(٣)

وكذلك قول أحمد بن محمد علي المدرس^(٤) يرثي الشيخ ابراهيم
الكوراني^(٥):

حرم المجد سوله من بقاء
طرفه منه سائل محروم^(٦)

٣- لزوم ما لا يلزم:

وهو أن يجئ قبل حرف الرويِّ ما ليس بلازم، وما وجدناه في شعر

(١) - تحفة الدهر ٥٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٨٧

(٣) - تحفة الدهر ٧٢

(٤) - سبقت ترجمته ص ٢١٦

(٥) - سبقت ترجمته ص ٢١٣

(٦) - الحقيقة والمجاز ص ٣٦١

هذا القرن الذي بين أيدينا في حكم النادر^(١).

من ذلك أبيات لاسماعيل سفر^(٢) يخاطب بها عمر الداغستاني ويلتزم فيها بالباء والكاف، فيقول:

يا بدر أفق المجد هل	ذنب أثار غضبك
أم حاسد لي قد وشى	لما عليّ أغضبك
أثار سحب زوره	يابدر حتى احجبك
واسترق السمع فلم	ترسل عليه شهبك ^(٣)

وكذلك قول أحمد المدرس^(٤) وقد التزم واوين في أول البيت وآخره:

وواد به قد كان بالصحب جمعنا	ولكنهم للقلب بالبعد قد كروا
ووقد ناري هجرهم وبعادهم	وللجسم مني يا خليلي قد شووا
وواحسرة العذال إنني أعدهم	كلاباً فمنهم لا أبالي إذ عووا ^(٥)

(١) - بغية الايضاح ١٠٣/٤.

(٢) - هو إسماعيل بن محمد سعيد سفر، ممن ذكرهم الداغستاني في تحفته، وقد

لقبه بالشيخ وأورد له بعض الشعر. تحفة الدهر ٧٠

(٣) - تحفة الدهر ٧٠

(٤) - سبقت ترجمته ص ٢١٦

(٥) - نفحة الريحانة ٣٩٠/٤

٤ - التطريز:

قصد به المتأخرون: أن يجعل الشاعر حروف أوائل الأبيات تشكل اسماً معيناً.^(١)

وقد اطلق بعضهم عليه اسم التشجير، وهو غير ذلك حيث أن التشجير (نوع من النظم يجعل تفرعه على أمثال الشجرة، وسمي مشجراً لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخلها، وذلك أن ينظم البيت الذي هو جذع القصيدة، ثم يفرع على كل كلمة منه تنمة له من نفس القافية التي نظم بها، وهكذا من جهتيه اليمنى واليسرى، حتى يخرج منه مثل الشجرة).^(٢)

ومن الذين أطلقوا على التطريز اسم التشجير الشاعر أحمد الجامي^(٣)، حيث نجده يقول في كتابه (نوافح الزهور): _وقلت مشجراً في اسم شخص يقال له أبو الحسن بطلب من بعض المحبين):

أبى الحُسْنُ إلا أن يكون لشادن ومرعاه قلبي والملاح رعاياه
بديع المعاني فاتر اللحظ فاتك بسيف رناه ليس تحصر قتلاه
وحق الهوى العذري إني لمغرم ببدر محيَّاه وشمس حميَّاه

(١) - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٢٤٤

(٢) - المرجع السابق ص ١٨١

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
لتثمر أغصان التمني ويصبحن
حرام على عيني تشاهد غيره
سألت الكريم الحق يعلي شؤونه
ويبدو لعيني لعلع وثناياه
كماء وراح امتزاجي وإياه
إذا شمت برقاً من خبايا زواياه
وينشقني ما عشت من طيب رياه
نعم هو روعي في الوجود وراحتي
وراحي أدام الله أنسي برؤياه^(١)

وقد تقل أبيات التطريز أو تكثر حسب عدد حروف الاسم المطرز،
فمثلاً تطريز اسم (عيد) يحتاج إلى ثلاثة أبيات، وهو ما يطرزه
أبو القاسم البرزنجي بقوله:

عزیز مصر الحسن رفقا علی
یا غصن بان ماغدا ينثني
ص ب رمي من جفنك الفاتر
إلا وقلبي عاد كالطائر
دائي من ذا اللحظ يا فاتني
حار الشحي من جفنك الكاسر^(٢)

أما اسم (السيد علي أبو العزم)^(٣) فيحتاج تطريزه إلى خمسة عشر
بيتاً، وهو ما نظمه الشاعر أحمد الجامي^(٤)، حيث يقول:

(١) - نوافح الزهور ٦٦

(٢) - تحفة الدهر ١٢

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٨٨

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

أبى العزمُ إلا أن يكون لعادل
له خُلُقٌ أحلى من الشهد مطعماً
سلالة مجد من كرام أطايب
يفوق فخار الكون بعض فخاره
دعوني احبابي فما أنا كالذي
عيتت وعيا الفكر عن بعض وصفه
لأشرف أبناء الرسول مفاخرأ
يحق له هذا الفخار وكيف لا
أيا دوحة المجد الذي طاب نشرها
بأنفاسكم قد أبرقت ثم أرعدت
وهاهو يزهو في غلايل حسنه
أمدّوه منّا بالقبول وبالرضى
لعل إلهي يحو عنا وعنكم
عظيم ملّمات بصحف تسجلت
زمام الورى صلى عليه إلهنا
مدى الدهر والأحقاب ينفح طيبها

عليّ جناب طاب أصلا وعنصرا
وخلقٌ يفوق البدر حسنا ومنظرا
له الجود طبع والسماحة والقرا
إذا عد فخر الفخار له يرى
تصوغ له الأفكار عقداً مجوهرا
وأنى لمثلي أن يعد ويحصرا
وأسناهم جدوى وأسماهم ذرا
يحق لمولى أصله قد تطهرا
وعمّ وهاد الكون طيباً وعطرا
سحابة أفكارى ودرّت مشجراً
وفي كل بيت منه حرف تحرّرا
إذا أمّكم وامحوا العوار إذا جرى
وعن كل من أصغى إليه وأبصرا
بمن قد علا أعلى العلا وتصدرا
وسلم ما سحّ السحاب وأمطرا
على الآل والأصحاب مسكاً وعبها^(١)

(١) - نوافح الزهور ٦٥

٤- اللغة:

كان في المدينة في هذه الفترة - كغيرها من الأزمان - مستويان من اللغة ، الأول هو اللغة الفصحى التي حرص العرب على سلامتها وخاصة بعد أن شرفها الله لتكون لغة القرآن فكان في حفظها حفظ له، أما الثاني فهو اللهجة العامية التي تسرب إليها اللحن ودخلها الكثير من الأساليب والألفاظ الأجنبية.

اللغة الفصحى هي لغة الخاصة من المثقفين والوجهاء، والتي تستخدم في التأليف ونظم الشعر الفصيح والمكاتبات الرسمية، اللهم إلا بعض المكاتبات باللغة التركية والتي غالباً ما تتصل بالوالي التركي أو رئيس الفرقة العسكرية (الحامية العثمانية) التي تقوم على أمن المدينة آنذاك.

أما اللهجة العامية فهي لغة العامة التي لا يحسنون غيرها، كما أنها أداة التخاطب التي يستخدمها الخاصة كذلك في حياتهم اليومية.

نظم الشعر بالمستويين كليهما الفصيح والعامي، ولكن الذي وصلنا وافرأ هو الشعر الفصيح، والذي كان موضع اهتمام الخاصة وأهل القلم فحفظ ودوّن، كما وصلنا قدر بسيط من الشعر العامي، والذي قد يكون الدافع إلى نظمه إرضاء شريحة من المتلقين يتذوقون هذا الشعر العامي ويتغنون به، أو لعل بعض الشعراء يجدون ميلاً إلى النظم بهذه اللغة اليومية حيث البساطة والبداهة، ولكن اهتمامنا ينصب في المقام الأول على الشعر الفصيح.

وقد حوى ديوان البيتي بعض هذا الشعر العامي^(١)، وكذلك ضمن الجامي كتابه (نوافح الزهور)^(٢) بعضاً منه له ولغيره من الشعراء، وكذلك أورده جعفر هاشم في المساجلات التي جمعها^(٣).

(١) - ديوان البيتي، نسخة آل الصافي ١٤٧

(٢) - نوافح الزهور ٦٥

(٣) - مساجلات شعرية ٧

نلاحظ على هذا الشعر العامي أن الذين نظموه من شعراء الفصحى المبرزين المتأثرين بمعجمها، فهو شعر رقيق عليه مسحة الحضارة، وألفاظه مفهومة وقريبة المأخذ، ولكن هناك شعراً موغلاً في العامية حيث نظمه شعراء لا علم لهم بالفصحى، وهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة، وهذا الشعر لم يدون لأن شعرائه ليس لهم صلة بالتدوين، ولكنه كان يتناقل على ألسنة الرواة، ومنه ما يروى مقترناً بقصة حدثت في هذا القرن تقريباً، وهي لشاعر يشتكي من قلة قومه وناصره مما أدى إلى هروبه من قوم يطالبونه بدم.

والشعر العامي تحدث عنه المؤرخون منذ قرون ولكنه لم يدون إلا قبل هذا العصر بقرن أو قرنين، وقد تحدث عنه ابن خلدون^(١) (المتوفي سنة ٨٠٨هـ) في مقدمته عند الحديث عن أشعار العرب وأهل الأمصار في عصره، فقال: (... وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي، ... ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه

(١) - هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الأشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من أشبيلية، ولد سنة ٧٣٢هـ ونشأ بتونس، اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)، ومقدمته تعد من أصول علم الاجتماع، توفي فجأة في القاهرة، سنة ٨٠٨هـ الأعلام ٣/٣٣٠.

ماعدًا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل عن المفعول، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب^(١) وهذا الكلام يفيد أن هذا الشعر العامي بهذه الصورة القريبة من الفصحح أسبق مما ذكره بعض دارسي الأدب الشعبي ومؤرخوه، حيث يرون أن بدايته كانت في القرن العاشر الهجري والحادي عشر^(٢).

ومع أن كل من المستويين للغة واضحان إلا أن الشعر الفصحح لم يسلم من تسرب الألفاظ العامية إليه، ولكنه تسرب قليل لا يعد ظاهرة عامة.

من ذلك كلمة (أختشي) في بيت لعبيد الله كدك^(٣) وهو قوله:

لا أختشي قول العذول الغبي كلا ولا أرجع عن مغرمي^(٤)
والصواب (أخشى).

وكذلك قول يحيى هاشم^(٥):

(١) - مقدمة ابن خلدون ٢/٢٨٩

(٢) - انظر الأدب الشعبي في جزيرة العرب لعبدالله بن خميس ص ٤٧.

(٣) - سبقت ترجمته ص ٢٩٧

(٤) - تحفة الدهر ٨٨

(٥) - سبقت ترجمته ص ٤٩٠

متى كنت ملحوظاً بعين التفاته فلا أختشي زيداً ولا أرتجي عمراً^(١)

وكلمتي (يلتمّ، ويندم) في قول جعفر البيتي:

عسى في خبايا الدهر نصر معجل يرم به شعث الأنام ويلتمّ
فلا تلتفت للعدر منهم فإنه بقايا خداع جرحه ليس يندم^(٢)
والصواب (يلتمّ، ويندمل).

وكذلك كلمة (منفقد) في قول حسين بن عبد الشكور^(٣):

الشوق يزداد والأحشاء تنقد والدمع يضرمها والصبر منفقد
والصواب (مفقود).

وكلمة (يحتصر) في قول يحيى هاشم^(٤):

كالبحر إن أملته في جوده لا يحتصر^(٥)
والصواب (يحصر).

(١) - مساجلات شعرية جمع جعفر هاشم ص ١٤.

(٢) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمت ص ٣٨.

(٣) - تحفة الدهر ٥٥

(٤) - سبقت ترجمته ص ٤٩٠

(٥) - مساجلات جمع جعفر هاشم ص ١١.

وكلمة (منوغر) في قوله:

يرضيك مقوله والصدر منوغرا
والصواب (واغر)
فيه الخدائع كالأمواج تلتطم^(١)

وكذلك الفعلين (مزقتوا ، وتكونوا) في قول أحمد البساطي:^(٢)

انحلتم جسمي ومزقتوا الحشا
ببعدادكم من ذا الجفاء كفاكم
ياليتكم عندي تكونوا دائماً
في منزلي أحظى بكم وأراكم^(٣)
حيث لم يلحق بالأول ميم الجمع وحذف النون من الثاني بغير موجب
وهو استخدام عامي.

وكما لم يسلم الشعر الفصيح من تسرب بعض الألفاظ العامية لم
يسلم كذلك من تسرب بعض الألفاظ الأعجمية والتي تسربت بسبب
وفود كثير من أبناء البلدان الإسلامية غير العربية إلى المدينة، إضافةً إلى
أن الدولة العثمانية الحاكمة لغتها الرسمية هي اللغة التركية، وبعض
متولي المناصب الكبرى في المدينة هم من الأتراك، ولكن هذا التسرب
الأعجمي في حكم النادر.

(١) - المصدر السابق ص ١٨.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٣) - تحفة الدهر ٦٣

نجد مثلاً عبارة (نمك حرام) وهي فارسية ، وتعني الخائن، وتستعمل في التركية عبارة (إمك حرام) ولعلها مأخوذة عن الفارسية وتعني نفس الدلالة، وقد وردت هذه العبارة في قصيدة لجعفر البيتي في وصف إحدى الفتن الواقعة في المدينة، حيث يقول:

هم المحامون دون الدار لافئة (نمك حرام) وتكفيها مخازيها
وكذلك قوله في نفس القصيدة:
واصبح الحرم العالي وروضته كالجبخانه بالبارود يحشيتها^(١)
والجبخانه تعني بالتركية مخزن الأسلحة وأدوات الحرب.

وإلى جانب هذا وذاك هناك أخطاء صرفية وأغلبها في صيغة الجمع، ومن ذلك جمع الشاعر أحمد البري^(٢) كلمة (مسرة) على (مسار) وذلك في قوله مهنتاً:
وحلية خصتك لکنها عمت محبيك بكل المسار^(٣)
والصواب (مسرات).

وكذلك جمع (عين) على (أعيان) في قول أحمد البساطي^(١):

(١) - ديوان البيتي، نسخة آل الصافي ٥٦

(٢) - سبقت ترجمته ص ٣٠٥

(٣) - تراجم أعيان المدينة ص ٣٥

تعس الفراق وفعله يا سادتي
وقول أحمد مانسترلي^(٣):

سلام عليكم يا أحبة مهجتي ويا نور أعياني ويا برد علتي^(٤)
والصواب (أعين وعيون) ، أما (أعيان) فهي جمع (عين) الدالة على
ذات الشيء ونفسه، أو الحاضر من كل شيء^(٥).

وجمع (الرسول) على (أرسال) في قول حسن البرزنجي^(٦):

ياسيد الأرسال غير مدافع وأجلهم سبقاً وإن هم أعنقوا^(٧)
والصواب (رسل).

ومن الأخطاء الصرفية ما وقع فيه الشعراء من أجل صحة الوزن،
وذلك في قول البيتي:

وجرحت يا لمياء كل جوارحي وعاصيت لوامي عليك وناصحي^(١)

(١) - سبقت ترجمته ص ٢٢٦

(٢) - تحفة الدهر ٦٣

(٣) - سبقت ترجمته ص ٣٦٢

(٤) - تحفة الدهر ٩٢

(٥) - لسان العرب (عين).

(٦) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٧) - نفثة مصلود ٣٠

حيث أن (عاصيت) صوابها (عصيت).

ومن أكثر الأخطاء الصرفية التي شاعت قصر الممدود وهو إن كان مما أجمع الصرفيون على جوازه للضرورة الشعرية إلا أننا نجد الشعراء قد أكثروا من هذا التجاوز حتى إننا نجده يتكرر في أكثر من بيت في القصيدة الواحدة.

أما الخطأ الآخر والذي يرفضه الذوق الشعري المرهف والذي لم يجمع الصرفيون على جوازه، حيث منعه البصريون وأجازوه الكوفيون، فهو مد المقصور.^(٢)

مثال قصر الممدود قول أحمد بن أبي الغيث^(٣) يمدح عبدالغني النابلسي:^(٤)

(١) - ديوان البيهقي، نسخة عارف حكمت ١٠٥.

(٢) - انظر كتاب (شذا العرف) للحملاوي ص ٩٢، ٩١، وكتاب (مايحتمل الشعر من الضرورة) للسيراقي ص ١٠٩، فقد أجمع الصرفيون على جواز قصر الممدود للضرورة الشعرية، أما مد المقصور فقد أجازوه الكوفيون ومنعه البصريون.

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٦

(٤) - سبقت ترجمته ص ١٥

الجهبذ اليقظ النبيه أخو الذكا
 وقوله من نفس القصيدة :
 قيد الأوابد في الورى والمرجع
 ولذاته الغرا يشير الاصبغ^(١)
 فله تحل حيا الكرام جلالة
 حيث قصر (الذكاء والغراء) .

أما مد المقصور فمثاله قول زين العابدين بن محمد بن زين العابدين^(٢) :
 فتكت بسيف الغنج مهجة صبها وبأسمري القد جسم محبها
 وتدرعت حقاً بثوب جمالها فاستأثرت أسد الشراء بعضبها
 حيث مد كلمة (الشرى).

وكذلك قول أحمد بن إبراهيم الخياري^(٣) في مدح حمزة بن عبدالمطلب
 رضي الله عنه:

نحن في سوح سيد الشهداء
 أيده المصطفى وأولاه نصراً
 وحماه أعظم به من حماء
 وافتداه بنفسه في الوغاء
 أيها الليث والهزبر المفدى
 ومنيل العفاة كل مناء^(٤)

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٤١٢

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٥٤

(٤) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٦ .

حيث مد الكلمات (حمى ، وغى ، منى).

ومن ذلك أيضاً قول خير الدين الياس في مدح حمزة رضي الله عنه
أيضاً :

بدر أفق يفوق شمس ضحاء قد تبدى بليلة ضحياء

ومنها:

فأجرني من جائرات الليالي وأنلني من رحب بحر القراء^(١)

حيث مد (ضحى، قرى).

وقد علق عبدالغني النابلسي في رحلته على قصيدة أحمد الخياري -
التي وردت فيها الأبيات السابقة- بقوله (وقد استعمل هذا الناظم مدّ
المقصور في شعره كثيراً، وهو وإن جاز لضرورة الشعر ولكنه نوع من
القصور)^(٢).

وفي مقابل الانجذاب إلى العامية وتسرب ألفاظها إلى الفصحى،
هناك انجذاب لعويص الفصحى والبحث عنه، ولعل ذلك -في رأيي-
لإثبات التضلع في اللغة والمعرفة بغريبها، وذلك مثل وصف زين

(١) - الحقيقة والمجاز ص ٣٩٨.

(٢) - المرجع السابق ص ٣٩٦.

العابدين بن محمد بن زين العابدين لممدوحه بالخبثنة الضرغام^(١) حيث يقول:

أنت الخبثنة الضرغام تعرفه شم العرائن^(٢) سهم الموت خنجره^(٣)

هذه بعض الهنات البسيطة، التي لحظتها في شعر هذه الفترة، والتي ليست من الكثرة بما يمكن معه أن تمثل ظاهرة عامة، أما ما عدا ذلك فعامة الشعر في هذا القرن لغته صحيحة، فالألفاظ تستعمل على سنن العربية، واختيارها حسن وملائم، ويرجع ذلك - في نظري - إلى نشاط الحركة العلمية حيث انتشار مراكز التعليم والثقافة التي ينهل منها طالب العلوم المختلفة، والتي من أولها علوم اللغة والأدب، إضافة إلى وفود العلماء من شتى الأقطار وبقائهم في المدينة لمدة تطول أو تقصر، وهؤلاء العلماء جلهم إن لم يكن كلهم من المتضلعين في اللغة إلى جانب العلوم الأخرى، وبالفصحى كانوا يؤلفون ويكتبون، وعليها في تدوين خلداتهم الشعرية كانوا يعولون ويعتمدون.

(١) - الخبثنة: القوي الشديد من الرجال، وقيل هو العظيم الشديد من الأسد. لسان العرب (خبثن).

(٢) - الشمم في الأنف: أن يطول الأنف ويدق، والعرائن: الأنوف، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس. لسان العرب (شمم)، (عرن).

(٣) - تحفة الدهر ٩

أما التراكيب وطرق التعبير، فنجد الشعراء يسرون فيها على طريقة من سبقوهم، فأساليبهم تتوافق مع الأساليب المعهودة في التراث وينطبق عليها ما سبق ذكره في الحديث عن اللفظة المفردة حيث الفصاحة وعدم الخروج عن سنن العربية، حيث نجد الانسجام والترتيب الصحيح، والتقديم والتأخير والحذف لا يخرج عما اشترطه علماء العربية.

هذا هو الغالب الأعم، إلا أننا مع ذلك نجد في حالات قليلة بعض الأساليب الركيكة، والتي وإن كانت ألفاظها فصيحة إلا أن تركيبها فيه خلل يرجع لتأثر الشاعر بأساليب العامية أو الأعجمية أو عدم تمكنه من النظم حيث المحافظة على سلامة الأسلوب إلى جانب المحافظة على الوزن الشعري، وعدم التمكن هذا يضطر البعض أحياناً لإيراد عبارة ركيكة في شعره، من ذلك قول عمر الداغستاني معتذراً:

فإني خجول منك أقوى خجالة وفي مهجتي من شدة الشوق ضارب^(١)

حيث عبارة (أقوى خجالة) نجد عليها مسحة من الاستخدام العامي.

(١) - تحفة الدهر ٨٦

وكذلك قول أحمد الجامي^(١):

إن العقار بريق ثغرك بخت من يحسوه من كأس الشفاه شفاها^(٢)
حيث عبارة (بخت من يحسوه) لها أصل في الاستخدام العامي في مثل
(يا بخت من عمل كذا).

ومن التأثر بالاستخدام العامي قول علي أبي العزم^(٣):

أبكي وامسح عن دموعي كاتما والعين إن ملئت تفيض وتدمع^(٤)
حيث (امسح عن دموعي)، استخدام عامي، وقد أخطأ كذلك في
آخر البيت حيث لا يشترك الفيضان مع الدمع.

وكذلك قول عبدالله بن محمد أسعد^(٥):

يامنية الأرواح يا زين الحلا يا شمعة الندماء وسط الحان
حيث (زين الحلا) استخدام عامي.

(١) - سبقت ترجمته ص ١٢٦

(٢) - تحفة الدهر ٦٧.

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٨٨

(٤) - تحفة الدهر ٤١

(٥) - تحفة الدهر ٣٤

أما الأساليب الركيكة بسبب ضعف التركيب فمثاله قول إسماعيل بن محمد سعيد^(١) من قصيدة يمدح فيها الصحابة، يقول:

ثم ابن عفان الحبي وحيدر من للوغى أضحي هناك يجرب
وكذاك حمزة عمه البطل الذي أضحي لكل الكافرين يؤدب^(٢)

حيث نرى الركاكة واضحة في الشطر الأخير لأن الجهاد ضد الكفار ليس مقاما للتأديب بل هو محاولة هزيمتهم لتكون كلمة الله هي العليا.

ونجد الركاكة كذلك في قول محمد البري^(٣) :

القلب من ألم الفراق مفطر والروح مني اليوم كادت تظهر^(٤)
حيث أن تركيب عجز البيت فيه شيء من الاضطراب أو القسر لمراعاة الوزن.

ومن ذلك قل أحمد بن محمد سعيد سفر^(٥) يمدح الشريف سرور:
العفو في آل بيت المصطفى عهدا والصفح منهم مع الغفران كم وجد^(١)

(١) - هو ممن ذكرهم الداغستاني في تحفته، ولقبه بالشيخ واورده بعض الشعر.

(٢) - تحفة الدهر ٧٠

(٣) - ذكره الداغستاني، ووصفه بالخطيب واورد له ابياتا في مدح السيد البدوي .

(٤) - تحفة الدهر ٦٣

(٥) - سبقت ترجمته ص ٢٢٢

ومنه كذلك قول الداغستاني :

وحبيب قلبي بالتدلل معرض
متنفر عني كمثل ظباء^(٢)
حيث يفترض أن يقول (مثل الظباء أو كالظباء) ولكنه حذف (أل)
التعريف لأجل الوزن.

وكذلك قول بدر الدين الحسيني^(٣) :

ماذبنا حتى كذا فارقتنا
من بعد ما أحببتنا بين الوري^(٤)
حيث نلمس في البيت التساؤل الساذج وضعف التركيب.

أما إدخال الأسلوب الأعجمي، فنجده في قصيدة تهكمية فكاهية
للبيتي^(٥) تحكي معاناة رجل مع زوجته التي اشتكته لقاضي الشرع
التركي، فيورد الشاعر بعض التعبيرات الأعجمية والتي هي عبارة عن
جمل كاملة على لسان قاضي الشرع التركي، إلا أن مثل هذا النظم
لا يمثل ظاهرة عامة حيث أنه حالة نادرة خاصة بالبيتي الذي دفعة إلى ذلك

(١) - تحفة الدهر ٥٤

(٢) - تحفة الدهر ٣٥

(٣) - ذكره الداغستاني في تحفته وأورد له أربعة أبيات فقط .

(٤) - تحفة الدهر ٣٥ .

(٥) - ديوان البيتي، نسخة عارف حكمة ٩٠

حبه للفكاهة والدعابة والتهكم، إلا أنه يوقفنا على مدى التمكن من اللغة
التركيبية لدى بعض الشعراء يصل إلى درجة نظم الشعر المقفى بهذه اللغة.

الفصل الرابع الخصائص الموسيقية

١- الوزن :

نظم الشعراء أغلب شعرهم في البحور الخليلية الطويلة والقصيرة^(١)، التامة والمجزوءة، ولم يختص عندهم بحر بغرض معين وإنما كثر استخدامهم للبحور الرصينة الطويلة، كالطويل والبسيط، والتامة غير المجزوءة في أغراض المدح والرثاء والوصف، واستخدموا البحور المجزوءة في الغزل والمفاكهة والظرف.

وكما نظم الشعراء القصائد ذات البحر الواحد والقافية الموحدة، نظموا الموشحات والمسمطات، والتي تكون في أغلب الأحيان في البحور الخليلية، ومثال الموشحات قول عمر الداغستاني^(٢):

(١) - البحور الطويلة يقصد بها ذات الأربع تفعيلات في الشطر الواحد مثل الطويل والبسيط والقصيرة ذات الثلاث تفعيلات في الشطر الواحد مثل الوافر والخفيف.

(٢) - سبقت ترجمته ص ١٣

قل لأحباب لنا رقدوا والشجي أودى به السهد
زاد منه الوجد والكمد صد عنه الشادن الشرد

سأعدوا المظننى فى هوى لبنى
وافهموا المعنى ولى أسعدوا^(١)

وكذلك قوله:

هملت سحب دموعي عندما طرز البرق ذيول الخندس
فأسالت من بكائها عندما مقطراً من صاعدات النفس

تعباني بلييلات اللقا حيث مرت مثل نسمات البكر
ياليلي سلفت لي بالنقا وهي شامات بوجنات السحر^(٢)
ومن الموشحات كذلك قول محمد سعيد الحمادي^(٣):

شعشت أرجاء ذي سلم حين حيت من حمى الحرم
غادة تسبي حجي الأمم مثلها في الخلق لم يشم
من رآها يقسمُ برّ فيها القسمُ

(١) - حلية البشر ١١١٩/٢

(٢) - حلية البشر ١١٢١/٢

(٣) - سبقت ترجمته ص ٤٣٣

أما المسمطات^(١) فمثالها قول عمر الداغستاني يخاطب عمر حيدر:

يوم عيد الوصل إذ أوفى لنا الحب الوعود
وتبدى بالحميا من محياه يجود
حل في منزل أنس مسعداً سعد السعود
وتثنت في رياض الصفو أغصان القدود
وغدت ضاحكة بالأنس أزهار الخدود

بالتلاقي والوفا قد أحسن الدهر المسي
يا خليلي فامل من دن التهاني أكوسي
لاتؤخر مطلبي عجل بها كي نحتسي

(١) - المسمط: هو أن يتدئ الشاعر بيت مصرع، ثم يأتي بأربعة أقسمة على قافيته، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما ابتداء به، وهكذا إلى آخر القصيدة، وربما جاءوا بأوله أبياتاً خمسة، ثم يأتون بعد ذلك بأربعة أقسمة ثم يأتي بقسم على قافية المطلع. العمدة ١٧٨/١، والقسم الأخير هو مثل ما نجده في النماذج التي أوردناها.

ما علينا من عدول هان أو واش حسود^(١)

فرد عليه عمر حيدر بقوله:

أمّ قلبي كعبة الريم المفدى في زرود
عرفات البعد طالت وهواه لي يقود
بمناه بتّ في نسك الهوى أو في الصدود
جمرات الهجر منه ألهبت قلبي الوقود
ليته يوفي ضمان القرب يولي بالسعود

راح يسعى نحوه قلب المعنى المستهام
وغدا فيه جسيمي لابساً ثوب السقام
وحطيم البعد أضحى يحطم القلب دوام
قد جرى زمزم دمعي وانتهى في الانسجام
علّ أوقات التقا من فاتني يوماً تعود^(٢)

ومما لحظته الدراسة من وجود بعض الهنات الموسيقية في عروض

(١) - حلية البشر ١١١٥/٢

(٢) - حلية البشر ١١١٧/٢

الشعر ما نجده فيما ذكره الداغستاني في كتابه (تحفة الدهر) من شعر
خضر بن يحيى خضر^(١) وقد نوّه الداغستاني على عدم تمكنه من الشعر
وذكر أنه يخطئ ولكنه قد يصيب، وقد أورد الداغستاني له أبياتاً أرّخ
بها بناء مجلس وهي:

شاد لنا مجلساً معلّى
ساد به السعد ابتهاجا
مفتي الورى من بالفضل أولى
فهو به دائماً محلى^(٢)

حيث الاضطراب واضح في الأبيات، فلو حاولنا وزنها سنجد:

مستعلن فاعلن فعولن
مستعلن فاعل فعولن
مستفعلن مستفعل فعولن
مستعل فاعلن فعولن

وكما نلاحظ فإن هذه الأبيات وزن ولكنه يخرج عن الأوزان
المعروفة والمألوفة لدى الشعراء، وهذا مما يدعم تعلق الشعراء في هذا
العصر بالبحور الخليلية، حيث جعلوها محور شعرهم، وما خرج عنها
عدوه مخالفاً.

(١) - آخر من ترجم لهم الداغستاني في تحفته فقال: (المرحوم خضر بن يحيى
خضر شاعر له في الأدب نصيب إلا إنه يخطئ في شعره ولكنه قد يصيب)،
ولم أقف على ترجمة له في المصادر الأخرى. تحفة الدهر ١٠٠.

(٢) - تحفة الدهر ١٠٠

هذا بالنسبة لأوزان الشعر الفصيح، وهو موضوع دراستنا، أما الشعر العامي فقد نظم فيه بعض الشعراء مثل جعفر البيتي وأحمد الجامي، وله أوزان خاصة يتفق بعضها مع الأوزان الخليلية، ويختلف بعضها عنه، لعل من أشهرها ما يطلق عليه بعض الشعراء (الحميني)^(١).

(١) - نجد الاختلاف في لفظة (الحميني) عند من تعرضوا للشعر العامي، فمحمد سعيد كمال في كتابه (الأزهار النادية من أشعار البادية) يجعل لفظة (الحميني) مرادفة للشعر العامي المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الفصيح، ويرى ذلك الدكتور الراددي، ويذكر أن الموسوي (صاحب نزهة الجليس) مدح الشريف باز بن شبير النموي بقصيدة من الحميني، وعند الاطلاع على قصيدة الموسوي نجد أن وزنها يختلف عن الوزن الذي أوردناه هنا، ونجد الموسوي يطلق على هذا الوزن (الحميني الهذلي) مما يدل على أنه نوع خاص من الشعر العامي، أما عند شعراء البحث في المدينة فهي كما ذكرنا أعلاه. وهذا الوزن الذي ذكرناه مازال ينظم به نوع من الشعر العامي في المدينة وضواحيها الغربية ويسمى عندهم (الكسرة). انظر: الأزهار النادية لمحمد سعيد كمال ٨/١، الشعر الحجازي للردادي ٨٧٦/٢، نزهة الجليس ٢٨٦/١، الأدب الشعبي في الحجاز للبلادي ص ٢٥.

٢- القافية :

التزم الشعراء في أغلب قصائدهم بالقافية الموحدة وتصريح المطلع، إلا أنهم في بعض الأحيان لم يلتزموا بالقافية الموحدة، وإنما يختلف حرف الروي من بيت لآخر مع الالتزام بنفس الحرف في قافية الشطرين في البيت الواحد، وهو ما عهدناه منذ القديم في نظم العلوم والسير، وقد نظم البيتي كثيراً من الوصفات الطبية، وذلك مثل قوله في عمل الأقراص:

وإن يكن أقراصَ أو حَبًّا أَضِفْ مسحوقها في الصَّمغِ محلولاً وُصِفْ
إلا إذا ما كان بالصَّبْرِ فـلا حاجة في الصَّمغِ فخذُه بدلا^(١)

ولم يقتصر البيتي في هذا النظم على الوصفات الطبية بل نجده يكتب

(١) - ديوان البيتي ، نسخة آل الصافي ٨٧

على لسان أحدهم إلى مفتي المدينة، فيقول:

يقبل الأرض خضوعاً ورجاً^(١) ويرفع الرأية حمداً ودعا
لسادة الأفضال والمكارم من برّدوا بالجود وجه حاتم
وهجنوا قول زهير في هرم بما أسألوا من ينابيع الكرم^(٢)

وكذلك نظم الشعراء المقصورات^(٣)، ومن ذلك قصيدة للبيتي يذكر
الداغستاني أن البيتي عارض بها مقصورة صريع الغواني^(٤) التي عارض

(١) - تقبيل الأرض لا أصل فيه في شريعة الإسلام - فيما أعلم - وهو من بدع
ملل الكفر، والتي قد نرى لها تقليداً لدى بعض المسلمين في أحيان قليلة، أما
الخضوع والرجا فهي كسائر أنواع العبادة التي يلتزم المسلم صرفها لله تعالى
وحده لا شريك له.

(٢) - ديوان البيتي، نسخة آل الصافي ٦١

(٣) - المقصورات: قصائد تبنى قافيتها على كلمات آخرها جاءت مقصورة إما
بالألف أو بالياء، انظر شرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي تحقيق
فخري الدين قباوة.

(٤) - هو مسلم بن الوليد، الأنصاري بالولاء، شاعر غزل، وهو أول من أكثر
من البديع وتبعه الشعراء فيه، توفي سنة ٢٠٨ هـ. الشعر والشعراء ٨٣/٢.

بها مقصورة ابن دريد^(١) يقول البيتي في مطلعها:

لاتذكري عتبي ففي العين قذى من ألم الصدر وفي الحلق شجى
من أخوة قد خرجوا جميعهم لقطعة السيح وفي سفح النقا^(٢)

وكذلك للبيتي مقصورة هزلية سبق أن أوردناها ، مطلعها:

يا قومنا عندي لكم فوائد تنفع من كان لها اليوم وعى
من لم يكن لله كل سعيه فإنما حياته ضاعت سدى^(٣)

وقد تأتق بعض الشعراء في اختيار قوافيهم فذهبوا إلى البحث عن بعض فنون البديع الخاصة بالقافية مثل الاكتفاء^(٤) والتزام مالايلزم^(٥) وحرف الروي النادر.

(١) - هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة و الأدب، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ ، من كتبه (الاشتقاق) في الأنساب، و(الجمهرة) في اللغة. توفي سنة ٣٢١هـ . وفيات الأعيان ١/٤٩٧.

(٢) - تحفة الدهر ١٩.

(٣) - انظر ص ٣٨٠ من هذا البحث.

(٤) - وهو أن يكتفي الشاعر بشيء من الكلمة مع حصول معنى التورية فيها. انظر ص ٥٠٨ من هذا البحث.

(٥) - وهو أن يلزم الشاعر نفسه بحرف أو أكثر من قبل حرف الروي. انظر ص من هذا البحث.

مثال الاكتفاء قول زين العابدين بن محمد^(١) وذلك في قصيدة يمدح بها
عمر الداغستاني:

أكرم به من فاضل متفنن جمع البراعة واليراعة والقسي
شهم يفوق على الغمام نواله ويروق للرائين منظره الوسي^(٢)

وكذلك قول يحيى هاشم^(٣) من قصيدة يمدح فيها الوزير مصطفى
باشا^(٤):

إذا رمت منها الوصل مالت إلى التقى وليت مع التقوى بأن تفعل الأجر
تولت عذابي دون أتراب تربها على غير جرم اجترمت وما أدري^(٥) ني

أما التزام مالايلزم فمثاله قول أحمد بن محمد المدرس^(٦) :

(١) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

(٢) - اكتفى الشاعر من كلمة (الوسيم) من الوسامة بجزء من الكلمة وهو
(الوسي) وتعني : الاستواء.

(٣) - سبقت ترجمته ص ٤٩٠

(٤) - سبقت ترجمته ص ٣٦

(٥) - مساجلات شعرية لحسين هاشم ص ١٣، وقد اكتفى الشاعر هنا عن ياء
المتكلم والنون.

(٦) - سبقت ترجمته ص ٢١٦

وواد به قد كان بالصحب جمعنا
وأوقد ناري هجرهم وبعادهم
ولكنهم للقلب بالبعد قد كوا
وللجسم مني ياخليلي قد شوا
ووا حسرة العذال أني أعدهم
كلاباً فمنهم لا أبالي إذا عوا^(١)

أما اختيار حرف الروي الصعب النادر، والذي تركه الشعراء لقلة
الكلمات المنتهية به، نجد من شعراء المدينة في هذا القرن من نظم على
هذه الحروف النادرة وذلك لإثبات الشاعرية والقدرة على النظم تحت
كل ظرف، مثال ذلك قول البيتي وقد بنى أبياته على حرف الثاء:

تفضل بالسلام إلى صديقي
وقل طوقتم المملوك طوقاً
وقبل راحه غيثاً غياثاً
من المعروف ضقت به انبعاثاً
صنائع في الجميل أتت فحولاً
لمن كانت صنائعهم إناثاً
تركت أحبتي إلاك عمداً
لأن البر أفسدني وعاثاً
وكان الجمعة انفردت بفضل
فراح بفضلها يوم الثلاثاء^(٢)

كذلك حرف الغين في قوله:
من عذيري من أخ لي ثقة
قال لي حمل تراني جملك
خفته كالماء عذباً سيغا
ثم لما أبصر الحمل رغي
قال من غير فعال ببغا^(١)
يفعل البازي وما قال وكم

(١) - نفحة الريحانة ٤ : ٣٩٠

(٢) - ديوان البيتي ، نسخة آل هاشم ١٨٥ .

والى جانب الموسيقى الخارجية التي حرص الشعراء على اظهارها
والمحافظة عليها هناك موسيقى داخلية حيث نجد التجنيس وذلك مثل
الجناس المرفوع عند جعفر البيتي في قوله:

نعم إن صرح الصبر جاف وجافل وهيئات إن الدمع كاف وكافل
قضى ما قضى من طبعه الدهر إنه على جمعه الضدين عاد وعادل^(٢)
وفي أبيات لزين العابدين بن محمد بن زين العابدين^(٣) نجد موسيقى
داخلية متنوعة مصدرها التجنيس والتقابل والطباق، وهي قوله:

بدت في رياض الحسن تبسم عن زهر ووافت غياض الأنس تنسم عن زهر
ونادت إلى صهبائها كل مغرم وأسقته من معسولها قرقف الشجر
وداوت سقيم الحجر منا بوصلها وأروت ظما الملهوف والمدنف العذري
وأورت زناد الحب في مهجة الفتى وسلت على العشاق صارمها السحري
وسارت على أقدامها تزدري القنا وتخلج بدر التم في ليلة القدر
أماطت ظلام الشعر عن فجر غرة فلاحت شمس الحسن في خدها العطري
بديعة حسن ليس في الكون مثلها رفيعة قد فرّ عن قدرها قدري
رقيقة خصر تسلب اللب رقة ثقيلة ردف زان مختصر الخصر

(١) - المرجع السابق ١٩١

(٢) - ديوان البيتي نسخة حكمت ص ٦٣.

(٣) - سبقت ترجمته ص ١٤٧

لطيفة أفخاذ كما الزبد ملمسا ريبية ألبان اللطافة والبشر^(١)

إلى آخر الأبيات التي يجيب بها على عمر الداغستاني، ونلاحظ على الأبيات إلى جانب ما ذكرناه من جناس وطباق ومقابلة تمتعها بجرس موسيقي اعتمد على تكرار الحروف في البيت الواحد، واعتمد كذلك على حشد كلمات لها نفس الوزن، فقد بدأت الأبيات الأولى بالكلمات (بدت، نادت، داوت، أوت، سارت، أماطت، كفت)، وكذلك الكلمات (بديعة، رقيقة، رطيبة) و(رياض الحسن، غياض الأنس).

ومن حرص على تكرار الحروف والكلمات في بعض أبياته الشاعر جعفر البيتي، وذلك في مثل قوله:

أدمعي بالسفح من عيني سفح كم بجزع السيح أجفاني تسح
كم ولوع كم غرام كم ضنى عمت البلوى وزاد الجرح جرح
في هوى أحوى رشيق قدّه في فؤادي يالقومي منه رمح^(٢)

وكذلك قوله:

حمامك في الحمى يا صاح صاح فحي على الصبوح وعم صباحا

(١) - تحفة الدهر ١٠

(٢) - ديوان البيتي نسخة حكمت ٤

عهدوي بالطلا طالت وإنني سئمت وحقك الماء القراحا
تقدم للشمول ولم شملي ومن أقداحنا أجل القداحا^(١)

وفي أبيات حسن البرزنجي^(٢) التالية نجد موسيقى داخلية اعتمدت إضافة
إلى تكرار الحروف والكلمات على المدّ، يقول:

خلياني من غيرها خلياني	وبصهباء ذكرها فانهلاني
طارحاني حديثها بشجون	فقدماً حديثها قد شجاني
سامراني بشجوها في الدياجي	وأصيلاً وبكرةً فاسعداني
وعداني بوصلها وامطلاني	وببشرى وعودها عللاني
ودعاني بحبها أتصابي	إن ذا الحب صاحبيّ دعاني
واتركاني طريح شجو هواها	وهلما قبل الفنا ودعاني ^(٣)

فالمردود في (خلياني وسامراني وعداني وامطلاني.. الخ) تعطي نسيجاً
موسيقياً له اتساق خاص وزنة محببة.

(١) - ديوان البيهقي نسخة حكمت ٣٥

(٢) - سبقت ترجمته ص ٨١

(٣) - نفثة مصدر ٧٧

وبهذا فالخصائص الموسيقية للشعر في هذا القرن وبالنسبة لما يخص
بحثنا وهو الشعر الفصيح مشابهة للخصائص الموسيقية لشعر القرون
السابقة، حيث لم يلحقها شيء من التغيير، وليس غريباً أن تخلص
الموسيقى إلى هذا التشابه المذكور، فالبناء الشعري هو مسار عليه شعر
العربي منذ جذوره الأولى حتى هذا العصر، لذا لا نرى تطلعاً إلى التغيير
في هذا العصر، بل إن بعض النقاد آخذ من حاول الخروج على أوزان
الخليل، أو لم يهتد بميزانها الشعري، أو لم يسر على سنتها.

الخاتمة

خلاصة البحث :

هدفت هذه الدراسة إلى البحث في فترة زمنية من فترات تاريخنا الأدبي ، والتي لم يخدمها الدارسون بالشكل الذي يجلي الشعر الذي أنتجه شعراء هذه المنطقة ذات المكانة والخصوصية الدينية والتاريخية. في التمهيد وقبل الحديث عن هذا الشعر في المدينة في هذه الفترة ، تحدثت عن الحياة العامة في القرن الثاني عشر ، وذلك للتعرف على الظروف السياسية والاجتماعية التي عايشها الشاعر المدني، كما تحدثت عن الناحية العلمية والدينية ، والتي لا بد أن تنعكس جليةً في إنتاج الشعراء.

رأينا اضطراب الحياة السياسية في المدينة، حيث تنازع أصحاب السلطات فيها للسيطرة على مقاليد الأمور، وتقوية كل منهم لنفوذه، وكان سبب ذلك الازدواجية السياسية وعدم وضوح المرجعية فيها، حيث شريف مكة التي لم يكن الحال بها بعيدة عن حالة المدينة، حيث تنازع أشرافها على الحكم، وعاصمة الخلافة العثمانية في الأستانة حيث بعد المسافة، وانشغال السلاطين بالحروب المتوالية التي تخوضها الدولة على جهات كثيرة.

وقد حدثت نتيجةً لهذا الاضطراب فتن وحوادث ومصادمات شبه مستمرة لم يقف الشاعر المدني حياها موقف المتفرج، بل كان له

مداخلته الشعرية ذات الطابع الخاص المتميز.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد رأينا تعدد الأجناس ووجود عادات خاصة بأهل المدينة، فرضتها خصوصيتها، مثل الرجبية، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، ويوم الكنيس، واستقبال الحاج، والمولد النبوي .
وقد كان لازدهار الحركة العلمية في المدينة أكبر الأثر في شعر شعرائها، حيث وفود العلماء من الأقطار للإقامة أو المجاورة، وكذلك كثرة المكتبات والكتب، والتعليم في الزوايا والكتاتيب وحلقات المساجد.

كما لاحظنا وجود تجاوزات شرعية في المجتمع ظهرت جليلة في إنتاج الشعراء، لعل من أهمها الاستغاثة بالرسول ﷺ، والتوسل البدعي.

وتحدثنا في آخر التمهيد بعد الحديث عن الحياة العامة عن ازدهار الشعر وأسبابه في المدينة في هذا القرن، حيث كان هذا الازدهار بسبب الحركة العلمية النشطة واختلاف العلماء والشعراء إلى المدينة من شتى الأقطار، ورحلة شعراء المدينة إلى الحواضر الإسلامية والعربية، والتقاءهم بكبار شعرائها، إلى جانب -ما ذكرناه- من وجود المكتبات التي ينهل منها طالب العلم الشاعر فيكون لها أبعاد الأثر في شعره وشاعريته.

أما الباب الأول فقد خصص لأغراض الشعر والموضوعات التي

قيل فيها، حيث أوردنا نماذج لكل غرض، وبيننا الخصوصية التي لاحظناها عند شعراء المدينة في هذا القرن في كل غرض من الأغراض. تحدثنا بدايةً عن الشعر الديني الذي شمل شعر الإلهيات والمدائح النبوية ومدائح أهل البيت والصحابة والشعر الذي قيل في الغربة عن المدينة والحنين إليها، وقد نبهنا على ما بهذا الشعر من غلو وتجاوزات عقدية .

وتحدثنا عن شعر المدح في المدينة وذكرنا بأنه اتجه إلى مدح خلفاء آل عثمان وأشرف مكة والوزراء والولاة وأمراء الحج ومتولي المناصب العليا ومدح أمير ينبع .

أما شعر الغزل فقد تحدثنا عما جاء منه على شكل قصائد مستقلة، وما جاء كمقدمات غزلية سيراً على سنن الأقدمين، كما تحدثنا عن الغزل بالمذكر والذي لا يعدو كونه تقليداً للأقدمين.

أما الرثاء فقد نظم الشعراء مرثيتهم في الحكام والأعيان من علماء وقضاة، كما رثى الشعراء أقاربهم وأصدقاءهم، وكان النصيب الأكبر من شعر الرثاء هو ما قيل في رثاء العلماء، حيث كان رثاءً صادقاً، دفع إليه ما يكره هؤلاء الشعراء من عواطف جياشة تجاه هؤلاء العلماء، الذين تألم الجميع بفقدهم لأن في ذلك أكبر الخسارة للأمة.

كما تحدثنا عن المطولات الشعرية التي قالها الشعراء متأثرين بالفتن والحوادث الواقعة في المدينة والتي أطلق عليها بعض الدارسين اسم

(الملاحم)، وهي من أكثر شعر هذا القرن تميزاً عمّا سواه من القرون السابقة واللاحقة، حيث الطول والشمول والتعبير الصادق والاستغناء عن الديباجة التقليدية.

أما شعر الإخوانيات فكان نصيبه كبيراً مما أوردناه من الشعر، حيث نقلت لنا المصادر كمّاً كبيراً من الشعر الإخواني، وهو ذلك الشعر الذي تبادلته الشعراء والأدباء فيما بينهم، وكان الدافع إليه المحبة والألفة، حيث تعداد الصفات الشخصية وامتداحها، وإطراء الشعر والشاعرية.

وقد احتتمنا هذا الفصل بالحديث عن أغراض شتى لم تكن من حيث مقدار الشعر وطرق الشعراء لها، ترقى لأن يكون كلٌّ منها غرضاً مستقلاً، وهو ما قيل في الوصف والحنين إلى المدينة الوطن، والفكاهة والهجاء والسخرية.

أما الباب الثاني فكان عبارة عن دراسة فنية للشعر في هذا القرن، فقد تحدثنا فيه عن نقد هذا الشعر، فأوردنا رأي الشعراء والنقاد في القرن الثاني عشر، ثم رأي نقاد ومؤرخي الأدب في كيفية التعامل مع هذا الشعر الذي قيل في عصرٍ غير عصرنا، ثم تحدثنا عن الرأي السائد والذي ينظر إلى هذا العصر وما حوله على أنها عصور انحدار وانحطاط وتدهور.

بعد ذلك تعرضنا إلى بعض الملامح والمميزات الفنية، فكان الحديث عن معارضات الشعراء لسابقيهم، والحديث عن التشطير والتخميس

الذي أولع به شعراء هذا القرن، حيث رأوا فيه مداخلة لشعر غيرهم من مشاهير الشعراء، فقد رأوا في المعارضة والتشطير والتخميس إثباتاً لتضلّعهم في قول الشعر، وكذلك تحدثنا عن ظاهرة أخرى وهي ظاهرة التاريخ الشعري الذي تبارى فيه الشعراء وأعملوا فيه فكرهم، وذكرنا أن ذلك لا يتجاوز كونه رياضة ذهنية لا طائل من ورائها وليست من الشاعرية في شيء .

بعد ذلك انتقلنا للحديث عن الخصائص الفنية في هذا القرن، فتحدثنا عن الخصائص المعنوية وذلك بالحديث عن ثقافة الشاعر وعن استلهامه للتراث ، ثم الحديث عن أصالته التي تميزه عن سبقة وتجعل له شخصية يتعد بها عن التقليد والاجترار من شعر غيره.

أما الخصائص الأسلوبية واللغوية فقد تحدثنا فيها عن بناء القصيدة ومدى خضوعها للتقاليد المتوارثة، والحديث عن الصورة ثم المحسنات البديعية، ثم تحدثنا عن اللغة ومستويات ونظم الشعراء باللغة الفصحى والعامية.

وأخيراً تحدثنا عن الخصائص الموسيقية فكان الحديث عن الأوزان التي نظم فيها الشعراء، حيث الأوزان الخليلية والمسمطات والموشحات، كما تعرضنا بإيجاز للشعر العامي وأوزانه، وتحدثنا بعد ذلك عن القوافي والموسيقى الداخلية.

النتائج :

- ١- يجب أن لانسلم بالحكم السائد الذي أطلق على هذا القرن وما حوله ، حيث التسمية بعصور التدهور والانحطاط، فهذا الحكم متسرع ومعمم ، حيث أنه لم يبنَ على دراسة وتمحيص دقيقين، وإنما أطلقه بعض المستشرقين، وتبعهم في ذلك كثير من مؤرخي الأدب.
- ٢- هناك عصور وبيئات مختلفة لم يدرس أدبها، الدراسة التي تجلي عنه وتضعه في مكانه الذي يستحقه من منظومة تراثنا العربي الكبير، ومن هذه البيئات بيئة المدينة وخاصةً في هذا القرن، وقد كانت من أهم أسباب إحجام الباحثين عن دراسة أدب هذه المنطقة وغيرها تسليمهم بالنظرة السائدة التي تحدثنا عنها سابقاً.
- ٣- لعل من أسباب هذا الإحجام، عدم توفر المادة المطبوعة المتيسرة، فكثير من نتاج شعراء هذه الفترة لا يزال مخطوطاً، مما قد لا ييسر للباحث الاطلاع عليه.
- ٤- إلى جانب حاجة الفترة إلى الدراسة هناك حاجة ماسة لتحقيق وإظهار المادة الشعرية لهذه الفترة لكي تكون في متناول أيدي عدد أكثر من الباحثين والدارسين، فهناك دوواين ومختارات لم تحقق ولم تطبع، وإن طبعت فهي طباعة كثيرة التحريف والتصحيف غير محققة، ومثال ذلك من المخطوطات ديوان جعفر البيتي وتحفة الدهر للداغستاني والأخبار الغريبة لجعفر هاشم ونوافح الزهور لأحمد الجامي، ومثال

الكتب المطبوعة التي لم تحقق تحقيقاً علمياً كتاب نزهة الجليس للعباس الموصلي وكتاب مواسم الأدب لجعفر البيتي .

٥- كانت دراستنا لهذا العصر من التوزع الزمني وتعدد الشعراء مما لايسمح لنا بالتوسع في بعض الجوانب، والتي يمكن افرادها ببحوث مستقلة وذلك مثل شعر الملاحم والإخوانيات وشعر الغربية عن المدينة والحنين إليها، إلى جانب بعض السمات الفنية الأخرى وظاهرة الشعر العامي.

٦- ينبغي عنددراسة الشعر في هذه الفترة عدم النظر إليه بموازين وقوانين النقد في عصرنا الحاضر، حيث أن هذا الشعر قيل في عصرٍ غير عصرنا ، يختلف فيه الذوق والطابع الأدبي العام عما هو عليه الآن، لذلك يجب دراسته في سياقه الزمني والمعرفي والاجتهاد لمعرفة العرف الأدبي السائد في ذلك الوقت.

المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

- أبو مدين ابن الصغير الدرعي
- ١ . الرحلة الحجازية، الخزانة العامة، الرباط رقم ف ٢٩٧.
- أحمد بن عبدالرحمن الجامي
- ٢ . نوافح الزهور فيما جرى به القلم من منظوم ومنتور ، مكتبة عارف حكمت، ٨١٠/٢٥٥.
- جعفر بن حسين هاشم
- ٣ . الأخبار الغربية فيما وقع بطيبة الحبيبية، مكتبة آل هاشم.
- جعفر بن محمد البيتي
- ٤ . ديوانه ، نسخة مكتبة عارف حكمت ٨١٠/٦٤
 - ٥ . ديوانه، نسخة مكتبة آل هاشم .
 - ٦ . ديوانه، نسخة مكتبة آل الصافي ١٠٤/١٢٣٩.
- جعفر حسين هاشم
- ٧ . مساجلات شعرية، مكتبة آل هاشم .
- حسن بن عبد الكريم البرزنجي
- ٨ . نفثة مصدور بين يدي صد الصدور، مكتبة عارف حكمت ٨١٠/٢٥٣
- حسن بوسنوي
- ٩ . خطب وقصائد، مكتبة عارف حكمت، ٨١٠/٣٥
 - ١٠ . رحلة عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزمي الغنامي

المكتبة الملكية، الرباط، ٥٦٥٦.

عبد الحميد بن علي الزبادي المنالي

١١. بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، الخزانة العامة، الرباط،

رقم ك ٣٩٨.

عبد الله بن عبد الشكور

١٢. تاريخ أشرف وأمرأة مكة المكرمة، مكتبة الحرم المكي ١/٤٣ تاريخ

عمر بن عبد السلام الداغستاني

١٣. تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر،

مكتبة كامبردج. (حصلت عليه من نسخة مصورة لدى د. محمد العيد

الخطراوي)

محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي

١٤. رحلة إلى الحرمين الشريفين، الخزانة العامة، الرباط، رقم د ٨٩٦.

محمد بن ناصر الدرعي الجعفي الزيني

١٥. رحلته إلى الحرمين الشريفين .

مصطفى العيدروسي

١٦. تراجم مشاهير القرن الثاني عشر الهجري، مكتبة الأسد،

دمشق، رقم ٨٤٥١.

يحيى هاشم

١٧. الفلك المشحون، مكتبة عارف حكمت، ٨١١/١٧٦

ثانياً: الكتب المطبوعة:

- إبراهيم بك حلیم
 ١٨. تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت،
 ط ١، ١٤٠٨هـ.
- إبراهيم رفعت باشا
 ١٩. مرآة الحرمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
- أبو الفرج الأصفهاني
 ٢٠. الأغاني، اعتناء علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية،
 بيروت، ط ٢، ١٤١٢هـ.
- أبو نواس، الحسن بن هاني
 ٢١. ديوانه، دار الشرق العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.
- أحمد العلاونة
 ٢٢. ذيل الأعلام، دار المنارة، جدة، ط ١، ١٤١٣هـ.
- أحمد بن عبد الحميد العباسي
 ٢٣. عمدة الأخبار في مدينة المختار، المكتبة العلمية، المدينة.
- أحمد بن محمد ابن الخياط
 ٢٤. ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، ط ٢، ١٤١٤هـ.
- أحمد بن محمد الخفاجي
 ٢٥. ریحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق عبدالفتاح الحلو، مكتبة
 ابن تيمية، ط ١، ١٣٨٦هـ.

أحمد بن محمد الشرواني

٢٦. حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح، مطبعة بولاق، القاهرة،

١٢٨٢هـ (مصور من مكتبة د.عائض الرادادي)

أحمد زيني دحلان

٢٧. خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام.

أحمد ياسين الخياري

٢٨. تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، أبناء المؤلف، ط ١٤١٤، ٤.

٢٩. تاريخ المدينة المنورة في الشعر العربي، قديماً وحديثاً، ورثة

المؤلف، ط ١، ١٤١٤هـ.

ابن المقفع

٣٠. الأدب الصغير والأدب الكبير، دار بيروت، ١٤٠٠هـ.

ابن تيمية، أحمد بن تيمية

٣١. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، دار الكتب العلمية، بيروت

، ط ١، ١٤١٨هـ.

ابن خلدون

٣٢. مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١٤١٤، ١هـ.

ابن رشيق القيرواني

٣٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت، ط ٥،

١٤٠١هـ

ابن زيلاق الموصلية

٣٤. ديوانه، دراسة وتحقيق محمود عبدالرزاق، وأدهم حمادي،

بغداد، ١٤١١هـ.

ابن سلام الجمحي

٣٥. طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية بيروت ط ١، ١٤٠٢هـ

ابن قتيبة

٣٦. الشعر والشعراء ، دار المعارف في مصر ، ١٩٦٦م.

ابن معصوم، علي بن أحمد

٣٧. ديوانه، تحقيق شاكر هادي شكر، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١،

١٤٠٨هـ .

٣٨. رحلته، تحقيق شاكر هادي شكر، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ،

٣٩. أنوار الربيع في أنواع البديع تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة

النعمان ، النجف ، ط ١، ١٣٨٨هـ.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم

٤٠. لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ .

إيمري نف

٤١. المؤرخون وروح الشعر ، ترجمة توفيق اسكندر، دار

الحدائث، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م.

بدوي طبانة

٤٢. نظرات في أصول الأدب والنقد، مكتبات عكاظ، جدة، ط ١، ١٤٠٣هـ

البغدادي ، عبدالقادر بن عمر

٤٣. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

بكري شيخ أمين

٤٤. مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، ط

٤، ١٩٨٦م.

بيلنسكي

٤٥. الممارسة النقدية، ترجمة فؤاد مرعي، ومالك عصفور، دار

الحدائثة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

الجاحظ، عمرو بن بحر

٤٦. الحيوان، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

جعفر البرزنجي

٤٧. نزهة الناظرين في مسجد سيد المرسلين، مكتبة الرفاعي، القاهرة.

جعفر بن محمد البيتي

٤٨. مواسم الأدب وآثار العجم والعرب، مكتبة المعارف، الطائف.

جودت الركابي

٤٩. الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، دار المعارف بمصر ١٤١٨.

جورج غريب

٥٠. الشعر الملحمي - تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٧م.

حسين بكار

٥١. اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري

حسين عطوان

٥٢. شعر الحسين بن مطير الأسدي، دار الجيل، بيروت.

حمد الجاسر

٥٣. مقتطفات من رحلة العياشي، دار الرفاعي، الرياض ١٣٩٢هـ.

٥٤. رسائل في تاريخ المدينة، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٢هـ.

٥٥. ملخص رحلتي بن عبدالسلام الدرعي، دار الرفاعي، الرياض،

ط٢، ١٤٠٣هـ.

٥٦. تحقيق كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة،

المنسوب لأبي إسحاق الحربي

الحملاوي

٥٧. شذى العرف في فن الصرف.

الخطيب التبريزي، يحيى بن علي

٥٨. شرح مقصورة ابن دريد، تحقيق فخري الدين قباوة، مكتبة

المعارف، بيروت، ١٤١٤هـ.

الخطيب القزويني

٥٩. التلخيص في علوم البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت ط٢،

١٣٥٠هـ.

٦٠. الايضاح في علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت.

خليل مردم بك

٦١. أعيان القرن الثالث عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٩٧٧، ٢م.

خيرالدين الزركلي

٦٢. الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٩٢م.

دار المشرق

٦٣. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط٢٨، ١٩٨٦.

رينيه وليك، أوستن وارن

٦٤. نظرية الأدب ، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ ، الرياض .
- زكي مبارك
٦٥. الموازنة بين الشعراء ، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٢، ١٩٣٦ م .
- ساسين عساف
٦٦. الصورة الشعرية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط ١، ١٤٠٢ هـ .
- سامي محمود
٦٧. تلخيص تذكرة داوود الأنطاكي، المركز العربي، القاهرة، ١٩٩٠ .
- سعد الدين الجيزاوي
٦٨. الملحمة في الشعر العربي .
- سليمان البستاني
٦٩. تعريب إلياذة هوميروس، دار المعرفة ، بيروت .
- السيرافي، الحسن بن عبدالله
٧٠. ما يحتمل الشعر من ضرورة ، تحقيق عوض القوزي، الرياض، ط ٢، ١٤١٢ هـ .
- السيوطي
٧١. معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي البجاوي، دار الفكر العربي .
- شكري فيصل
٧٢. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، ١٩٨٦ م .
٧٣. مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين ،

بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٦ هـ.

شوقي ضيف

٧٤. في النقد الأدبي ، دار المعارف، القاهرة، ط ٧.

٧٥. عصر الدول والامارات (الشام) ، دار المعارف، القاهرة، ط ٢.

٧٦. العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، القاهرة، ط ١٠.

صلاح فضل

٧٧. علم الأسلوب، النادي الأدبي بجدة، ١٤٠٨ هـ.

عائض الراددي

٧٨. الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري، الرياض، ط ٢ ،

١٤١٣ هـ.

عاتق بن غيث البلادي

٧٩. الأدب الشعبي في الحجاز، دار مكة، مكة، ط ٢، ١٤٠٢ هـ.

٨٠. نسب حرب ، دار البيان ، دمشق، ط ١، ١٣٩٧ هـ.

٨١. معجم معالم الحجاز ، دار مكة ، مكة ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .

عاصم حمدان

٨٢. المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، نادي المدينة الأدبي، ط ١،

١٤١٢ هـ.

العباس بن علي الموسوي

٨٣. نزهة الجليس، ومنية الأديب الأنيس، مكتبة المعارف، الطائف.

العباسي، عبدالرحيم بن أحمد

٨٤. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عالم الكتب، بيروت،

١٣٦٧ هـ.

عبد الرحمن الجبرتي

تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجليل، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م.

عبدالباسط بدر

٨٥. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المؤلف: ط ١، ١٤١٤هـ.

عبدالرحمن اسماعيل

٨٦. المعارضات الشعرية، النادي الأدبي في جدة، ط ١، ١٤١٥هـ.

عبدالرحمن بن عبدالكريم الأنصاري

٨٧. تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب،

المكتبة العتيقة، تونس ١٩٧٠م.

عبدالرحيم أبوبكر

٨٨. الشعر الحديث في الحجاز، دار المريخ، الرياض.

عبدالرزاق بن حسن البيطار

٨٩. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة

البيطار، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٠هـ.

عبدالعزيز عبداللطيف

٩٠. دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، دار

الوطن، الرياض، ط ١، ١٤١٢هـ.

عبدالغني النابلسي

٩١. الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

٩٢. نفحات الأزهار على نسמת الأسحار، عالم الكتب،

بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ.

٩٣. ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م.

٩٤. الرحلة الطرابلسية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٩٥. برج بابل وشدو البلابل دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ.

عبدالفتاح راوة

٩٦. أمراء مكة عبر عصور الإسلام، مكتبة المعارف، الطائف.

عبدالقادر الرباعي

٩٧. الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم، الرياض، ط ١،

١٤٠٥هـ.

عبدالقاهر الجرجاني

٩٨. أسرار البلاغة، دار المدني، جدة، ط ١، ١٤١٢هـ.

عبدالله التطاوي

٩٩. المعارضة الشعرية، القاهرة.

عبدالله الحامد

١٠٠. الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين من (١١٥٠-١٣٥٠هـ)

دار الكتاب السعودي، الرياض، ط ٣، ١٤١٤هـ.

عبدالله بن خميس

١٠١. الأدب الشعبي في جزيرة العرب، المؤلف، ط ٢، ١٤٠٢هـ.

عبدالله مرداد أبو الخير

١٠٢. المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من

القرن العاشر الى القرن الرابع عشر، اختصار وترتيب محمد سعيد

- العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدّة، ط ٢، ١٤٠٦هـ.
- عبدالمتعال الصعيدي
١٠٣. بغية الايضاح، لتلخيص المفتاح مكتبة الآداب، القاهرة.
- عبدالملك بن حسين العصامي
١٠٤. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
- علي بن أحمد السمهودي
١٠٥. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠١هـ.
- علي بن بجيت الزهراني
١٠٦. الانحرافات العقديّة والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، دار الرسالة، مكة.
- علي بن حسن ابن شذقم
١٠٧. زهرة المقول في نسب ثاني فرعي الرسول، المطبعة الحيدرية، النجف.
- علي حافظ
١٠٨. فصول في تاريخ المدينة، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدّة، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- علي حسون
١٠٩. تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١٥هـ.

عمر رضا كحالة

١١٠. أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٢هـ.

فايز بن موسى البدراني

١١١. فصول من تاريخ قبيلة حرب في الحجاز ونجد، دار البدراني،

الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

١١٢. مذكرات تاريخية عن بعض أعلام قبيلة حرب، دار البدراني،

الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

فتح الله ابن النحاس

١١٣. ديوانه، تحقيق محمد العيد الخطراوي، دار التراث، المدينة، ط١

١٤١٢هـ.

فرانسو مورو

١١٤. الصورة الأدبية، ترجمة علي نجيب، دار الينايع، دمشق،

١٩٩٥م.

الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب

١١٥. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ.

١١٦. المغامم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة،

الرياض، ط١، ١٣٨٩هـ.

لانسون، ماويه

١١٧. منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة محمد مندور، دار العلم

للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

مؤلف مجهول

- ١١٨ . تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر، تحقيق محمد التونجي، دار الشروق، جدة، ط ١، ١٤٠٤هـ
المتنبي، أحمد بن الحسين
- ١١٩ . ديوانه، شرح العكبري، دار المعرفة، بيروت.
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- ١٢٠ . المعجم الوسيط، ط ٢ .
محمد أمحزون
- ١٢١ . المدينة المنورة في رحلة العياشي، دار الأرقم، الكويت، ط ١،
١٤٠٨هـ.
محمد أمين الزللي
- ١٢٢ . ديوانه، تحقيق د. محمد العيد الخطراوي، دار التراث، المدينة، ط
١، ١٤٠٥هـ.
محمد أمين بن فضل الله المحجي
- ١٢٣ . نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، دار إحياء الكتب العربية،
ط ١، ١٣٨٧هـ.
- ١٢٤ . خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت.
محمد النواجي
- ١٢٥ . الشفاء في بديع الاكتفاء، تحقيق محمود ابوناجي، دار مكتبة
الحياة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ.
محمد بن عبدالوهاب
- ١٢٦ . كتاب التوحيد، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ .

محمد بن علي الشوكاني

١٢٧. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة،
بيروت.

محمد خليل المرادي

١٢٨. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار ابن حزم،
بيروت، ط ٣ ١٤٠٨ هـ.

محمد سعيد كمال

١٢٩. الأزهار النادية من أشعار البادية ، مكتبة المعارف ، الطائف.

محمد عبدالرحمن الشامخ

١٣٠. التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، دار العلوم، الرياض،
١٤٠٥ هـ.

محمد غنيمي هلال

١٣١. النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة.

١٣٢. الأدب المقارن، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٣، ١٩٦٢ م.

محمد فريد المحامي

١٣٣. تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل بيروت.

محمد كبريت بن عبدالله الحسيني

١٣٤. الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، تحقيق د. عائض الرادادي،
المحقق: الرياض ط ١، ١٤١٩ هـ.

محمد مرتضى الزبيدي

١٣٥. تاج العروس، من جواهر القاموس، تحقيق ابراهيم التزوي ، دار
احياء التراث العربي ، بيروت، ١٣٨٥ هـ.

محمد مصطفى هدارة

١٣٦. اتجاهات الشعر في القرن الثاني عشر الهجري،

مسعد بن عيد العطوي

١٣٧. الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، مكتبة التوبة

، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .

مصطفى ناصف

١٣٨. دراسة الأدب العربي، دار الأندلس، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م.

ناجي حسن عبدالقادر

١٣٩. التعليم في المدينة المنورة، المؤلف، المدينة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ.

وليد قصاب

١٤٠. قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم، دار العلوم،

الرياض، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ.

ياقوت بن عبدالله الحموي

١٤١. معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت .

١٤٢. معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٣ هـ.

يوسف آصاف

١٤٣. تاريخ سلاطين آل عثمان، دار البصائر، دمشق، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ.

ثالثاً : الرسائل العلمية :

١٤٤. السنجاري، علي بن تاج الدين منائح الكرم في أخبار مكة

والبيت وولاية الحرم ، تحقيق ملك محمد الخياط (لنيل درجة الدكتوراه)

، جامعة أم القرى.

١٤٥. الطبري، محمد بن علي بن فضل* تحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، تحقيق ناصر بن عبدالله البركاتي (لنيل درجة الدكتوراه) جامعة مانشستر.

رابعاً : الدوريات:

١. مجلة المنهل السنة الثانية ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ١٤. الجزء الخامس ص ١٠، الجزء السادس ص ١٢، الجزء السابع ص ١٨.
٢. مجلة المنهل السنة الخامسة والثلاثون، المجلد الثلاثون، الجزء الثاني ص ٢٢٥، الجزء الرابع ص ٥٢٧، الجزء الخامس ص ٨١٢.
٣. مجلة المنهل ، السنة السادسة والثلاثون، المجلد الواحد والثلاثون، الجزء العاشر، ص ١٣٤١.
٤. مجلة العرب ج ٧، ٨، ٢٠، محرم - صفر ١٤٠٦هـ ص ٤٣٣.
٥. بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين المنعقد في مكة المكرمة في الفترة ما بين ١-٥ من ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ، المجلد الثاني ص ٧٢٢.
٦. مجلة الدارة العدد الرابع ، السنة الحادية والعشرون، رجب - شعبان - رمضان ١٤١٦هـ، ص ٣٠.
٧. ملحق الأربعاء في جريدة المدينة ٢٠/١١/١٤١٨هـ.
٨. علامات في النقد الأدبي ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ذو القعدة ١٤١١هـ مايو ١٩٩١م.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
التمهيد	١٣
الحياة والأدب في القرن الثاني عشر	
أولاً : الحياة العامة في القرن الثاني عشر	
أ- الناحية السياسية	١٧
ب- الناحية الاجتماعية	٤٣
ج- الناحية العلمية	٥٤
د- الناحية الدينية	٦١
ثانياً : رواج الشعر وأسبابه في القرن الثاني عشر	٦٩
الباب الأول : موضوعات الشعر	
الفصل الأول / الشعر الديني	٧٨
الفصل الثاني / المدح	١٢٣
الفصل الثالث / الغزل	١٧٦
الفصل الرابع / الرثاء	٢١٢
الفصل الخامس / المطولات الشعرية	٢٤٩
الفصل السادس / الإخوانيات	٢٨٦
الفصل السابع / أغراض أخرى	٣٣٨

الباب الثاني : الدراسة الفنية

الفصل الأول / ملامح ومميزات فنية

- أ- حول نقد هذا الشعر ----- ٣٨٣
- ب- المعارضات ----- ٤٠٤
- ج- التشطير والتخميس ----- ٤٢٥
- د- التاريخ الشعري ----- ٤٤٤

الفصل الثاني / الخصائص المعنوية

- ١- ثقافة الشاعر ----- ٤٤٨
- ٢- الانجذاب للتراث ----- ٤٥٥
- ٣- الأصالة ----- ٤٦٢

الفصل الثالث / الخصائص الأسلوبية واللغوية :

- ١- بناء القصيدة ----- ٤٧٥
- ٢- الصورة ----- ٤٩٢
- ٣- المحسنات البديعية ----- ٥٠٣
- ٤- اللغة ----- ٥٢٣

الفصل الرابع / الخصائص الموسيقية

- الخاتمة والنتائج ----- ٥٥٥
- المصادر والمراجع ----- ٥٦٢
- الفهرس ----- ٥٧٩